

N.Y.U. LIBRARIES

السُّوْمَرِيَّاتُ

فِي سِيَاسَتِهِمْ ، وَحَضَارَتِهِمْ ، وَدِينِهِمْ ، وَثِقَافَتِهِمْ
وَصِلَاتِهِمْ بِالْعَرَبِ

لِلدَّكْتُورِ أَسَدِ رَسْتَمِ

الجزء الأول

دارالمكشوف

BOBST LIBRARY



3 1142 02839 8694

DATE DUE

RUSTUM, ASAD JIBRAIL

/AL- RŪM/

الرُّومُ

فِي سِيَاسَتِهِمْ ، وَحَضَارَتِهِمْ ، وَدِينِهِمْ ، وَثَقَافَتِهِمْ
وَصِلَاتِهِمْ بِالْعَرَبِ

للدكتور أسد رستم

الجزء الأول

دارالمكشوف

DF
552
.R8
V.1
C.1

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، كانون الاول ١٩٥٥

جميع الحقوق محفوظة

تمهيد

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون. والبيزنطيون عند انفسهم روم ، اي رومان . وعاصمتهم « رومة الجديدة » ، اي القسطنطينية . ولا يزال الروم الارثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني « رومة الجديدة » حتى يومنا هذا .

واللفظ روم في نقوش الصفا اسم بلاد وامم شعب . فقد جاء في احد نقوش الصفا ان « عثمن بن طمثن بن عضضة تفر من « روم » . وجاء في نقش آخر ان « محوّر بن عطفن بن اذنة صير بفنجة سنة حרב الجدي « آل روم » ببصره^١ . » وجاء في القرآن الكريم في سورة الروم : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفليون . »

وأفنع التواريخ تاريخ الفكر . وألمع فصل في تاريخ الفكر البشري تاريخ الفكر عند اليونان الاقدمين . وافضل فضائل هؤلاء عنايتهم بالانسان وسعيهم لاسعاده سعادة حقيقية . واكبر خدمة قدمها الرومان انهم تبنا ثقافة اليونان وقالوا بها . وفضل الروم على البشرية انهم حملوا هذه الثقافة وحملوها في عصر الظلمات فحفظوها لنا في نصوصها الاصلية و اضافوا اليها . ولا سبيل لفهم تاريخ العرب فهماً كاملاً الا بالاطلاع على تاريخ الروم .

Dussaud, R., Mission dans la Syrie Moyenne, 251, 547, 554.

فما جرى في سوريا والعراق ومصر في السياسة والحرب والحضارة والثقافة
تأثر كثيراً بما كان يجري في القسطنطينية وغيرها من امهات مدن الروم.
والمراجع الاولى لتاريخ الروم متنوعة منها التواريخ التي صنف في
الازمنة المعاصرة لوقوع الحوادث او بعدها بقليل ، ومنها الرسائل
الدبلوماسية التي تبودلت في تلك العصور بين الروم وغيرهم من الشعوب
والدول ، ومنها القوانين التي اشترعت والنقوش الكتابية التي نصبت
والنقود التي سكّت ، ومنها كذلك ما صنف خصوصاً للبحث في اخبار
الكنيسة .

وما تبقى من التواريخ محفوظة في مجموعة نيبور - اذا جاز هذا
التعبير - التي نشرت في تسعة واربعين مجلداً في بون ما بين السنة ١٨٢٨
والسنة ١٨٧٨^١. ونصوص هذه التواريخ نفسها محفوظة ايضاً في مجموعة مين
في مئة وواحد وستين مجلداً. وقد نشرت هذه المجموعة في باريز ما بين
السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦^٢. ولا يستغني الباحث عن الرجوع الى مجموعة
توبنر للوقوف على بعض هذه النصوص التاريخية نفسها لانها جاءت في هذه
المجموعة ادق واضبط^٣. وقد يضطر الباحث الى مراجعة مجموعتي دندورف^٤
ومولتر^٥ او الى نصوص بيوري^٦، وقد لا يستغني عن الاستعانة بسيو
القدسين فيعود عندئذ الى مجموعة الآباء البولنديين التي بدأت تظهر منذ
السنة ١٦٤٣^٧.

- | | |
|---|---|
| <i>Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.</i> | ١ |
| <i>Patrologia Graeca, Ed. Migne ; Indices, Cavallera, 2 Vols., Paris, 1912.</i> | ٢ |
| <i>Teubner, Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Latinarum.</i> | ٣ |
| <i>Dindorf, Historici Graeci Minores, 2 Vols., Leipzig, 1870-1871.</i> | ٤ |
| <i>Muller, Fragmenta Historicorum Graecarum, Vols, IV, V, Paris. 1868-1870.</i> | ٥ |
| <i>Bury, Byzantine Texts, Vols. 1-5, London, 1868</i> | ٦ |
| <i>Acta Sanctorum.</i> | ٧ |

وما تبقى من الرسائل الدبلوماسية التي تبودلت بين حكومة القسطنطينية والحكومات المعاصرة محفوظ في مجموعة ميكلوسيك ومولتر^١ ومجموعة تافل وتوماس^٢. وقد جاءت المجموعة الاولى في مجلدات ستة نشرت في فيينا بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٩٠. وجاءت المجموعة الثانية في ثلاثة مجلدات نشرت في فيينا ايضاً في السنة ١٨٥٦ - ١٨٥٧. وجمع جافي رسائل الباباوات فنشرها في برلين في مجلدين ما بين السنة ١٨٨٥ والسنة ١٨٨٨^٣. وتعاون اساتذة فيينا ومونيخ في ضبط هذه الرسائل واعادة نشرها. فظهر في السنوات ١٩٢٤ - ١٩٣٢ مصنف دولغر في ثلاثة مجلدات^٤. وظهر في السنة ١٩٣٢ الكراس الاول من مجموعة الاب غرومل لبيانات ورسائل البطيركية المسكونية^٥. وافضل ما يرجع اليه في التشريع والقوانين مجموعة مومسن وكروغر وشول في شرائع بوستنيانوس - وقد طبعت في برلين في مجلدات ثلاثة ما بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٩٥^٦، ومجموعة زخريا لنغنتال في شرائع الاباطرة المتأخرين. وقد ظهرت هذه المجموعة في سبعة مجلدات في ليبزيغ ما بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٨٤^٧.

ولا بد للباحث في تاريخ الكنيسة من الرجوع دائماً الى مجموعة منسي في الجامع. وقد نشرت هذه المجموعة لأول مرة في فلورنزة والبندقية في واحد وثلاثين مجلداً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٥٩ -

- | | |
|---|---|
| Miklosich, F., et Muller, J., <i>Acta et Diplomata Graeca Medii Aevi.</i> | ١ |
| Tafel, G. L. F., et Thomas, G. M., <i>Urkunden zur Alteren Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig.</i> | ٢ |
| Jaffe, P., <i>Regesta Pontificum Romanorum.</i> | ٣ |
| Dolger, Franz., <i>Regesten von Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches</i> | ٤ |
| von 565-1453. | |
| Grumel, V., <i>Regestes des Actes du Patriarcat de Constantinople.</i> | ٥ |
| Mommsen, Kruger, Scholl, <i>Corpus Juris Civilis.</i> | ٦ |
| Zachariae de Lingenthal, <i>Jus Graeco Romanum.</i> | ٧ |

(١٧٩٨) ، ثم أعيد طبعها ما بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩٢٧ فظهرت في ثلاثة وخمسين مجلداً^١ . هذا ولا يخفى ان مجموعة الآباء اليونان Patrologia Graeca المشار اليها آنفاً تتضمن نصوص اشهر مؤلفات الآباء .

وليس لدينا في نقوش الروم مجموعة كاملة . وافضل ما يرجع اليه مصنف ميله في نقوش جبل آتوس^٢ وكتاب ليففر في نقوش مصر المسيحية^٣ ومجموعة غريغوار في نقوش آسية الصغرى المسيحية^٤ .

واقدم المصنفات العصرية في النقود البيزنطية كتاب سباتيه الافرنسي^٥ الذي ظهر في باريس في مجلدين في السنة ١٨٦٢ . واحديثها عهداً واكملها كتاب روث^٦ في مجموعة النقود البيزنطية في المتحف البريطاني . وقد ظهر هذا ايضاً في مجلدين ولكن في السنة ١٩٠٨ . وليس لدينا في الاختتام البيزنطية سوى مؤلف شلومبرجه^٧ .

والمؤلفات الحديثة التي تبحث في تاريخ الروم كثيرة متنوعة تعد بالآلاف . والمقالات التي ديجت في نواحي معينة من تاريخ الروم وحضارتهم ونظمهم كثيرة ايضاً . وأولاهها بعناية الباحث مؤلف كارل كرومباخر الالماني في تاريخ آداب الروم . فإنه على الرغم من قدم عهد هذا المصنف لا يزال مفيداً جداً في كمية معلوماته ودقتها^٨ ولا يزال تاريخ سقوط

Mansi, Joannes Dominicus, *Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio*. ١

Millet, G., *Inscriptions Chretiennes de l'Athos*, Paris, 1904. ٢

Lefèvre, G., *Inscriptions Chrétiennes d'Egypte*, le Caire, 1907. ٣

Grégoire, H., *Inscriptions Chrétiennes d'Asie Mineure*, Paris, 1922. ٤

Sabatier, *Description Générale des Monnaies Byzantines*. ٥

Wroth, W., *Catalogue of Byzantine Coins in the British Museum*. ٦

Schlumberger, G., *Sigillographie de l'Empire Byzantin*, Paris, 1884. ٧

Krumbacher, K., *Geschichte der Byzantinischen Literatur von Justinian bis zum Ende des Ostromischen Reiches*, Munshen, 1891, 2 éd., 1897. ٨

الامبراطورية الرومانية لادوارد غيبون مفيداً موقظاً لانه تاريخ كبير
 لمؤرخ عظيم^١. ولنا في كتاب تاريخ الروم حتى نهاية القرن العاشر الذي
 صنفه المؤرخ الفرنسي غوستاف شلومبرج قصة مفصلة جذابة ظهرت في
 مجلدات ثلاثة في باريز ما بين السنة ١٨٩٦ والسنة ١٩٠٥^٢. وللاستاذ
 بيوري الانكليزي مصنفان لاثنان بالاهتمام اولهما في تاريخ الروم ما بين
 السنتين ٨٠٢ و٨٦٧ وهو افضل ما صنف في تاريخ هذه الحقبة، والثاني في
 تاريخ الروم ما بين السنة ٣٩٥ والسنة ٥٦٥. وقد ظهر في لندن في مجلدين
 في السنة ١٩٢٣. وهو مصنف عادي^٣. على أن افضل المصنفات في تاريخ
 الروم العام اربعة: اولها العالم الشرقي ثم اوروبة الشرقية للعلماء الافرنسيين
 شارل ديل وجورج مارسه ورينه غروسه وغيرهم وقد ظهرت في مجموعة
 غلوتز في السنتين ١٩٤٤ و ١٩٤٥^٤. وثانيها العالم البيزنطي للمؤرخ الافرنسي
 لويس براهيميه. وقد جاء هذا في مجلدات ثلاثة في مجموعة تطور الانسانية
 التي يشرف عليها المؤرخ هنري بر^٥. وثالثها كتاب البجاعة اوستروغورسكي
 الذي ظهر في مونيخ سنة ١٩٤٠^٦. ولا يخفى ما لهذا العالم من ابحاث
 في اقتصاديات الروم واجتماعياتهم. ورابعها واحدها جميعاً من حيث اعادة
 النظر والتنقيح كتاب العلامة الرومي الكمي فزبيليف الذي ظهر اولاً

Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Ed. J. B. Bury, ١
 7 Vols., London, 1897-1902.

Schlumberger, G., *l'Epopée Byzantine à la Fin du Dixième Siècle*. ٢

Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire from the Fall of* ٣
Irene to the Accession of Basil I, (802-867); Hist. of the Later Roman
Empire from Arcadius to Irene, (395-565.)

Diehl, Ch., et Marçais, G., *Le Monde Oriental*; Diehl, Ch., *Oeconomos*, ٤
 L., Guillard, R., Grousset, R., *l'Europe Orientale*.

Bréhier, L., *Le Monde Byzantin*. ٥

Ostrogorsky, G., *Geschichte des Byzantinischen Staates*. ٦

بالروسية ثم نقل الى الانكليزية والافرنسية . وقد اعيد طبعه بالانكليزية
باشراف مؤلفه الذي يجيد هذه اللغة في السنة ١٩٥٢ . وذلك في مدينتي
من اعمال ولاية وسكونسن الاميركية .

وهناك ابجاث عديدة هامة في مواضيع خصوصية متنوعة اشير اليها في
هامش هذا الكتاب فلتراجع في محلات وقوعها .

وفي الختام لا بد لي ، قضاء لحق الصيغة ، من اسداء عاطر الشكر
لحضرة الاديب المدقق الاستاذ رثيف خوري الذي بذل بسخاء من وقته
لمطالعة مخطوطة هذا الكتاب كلمة كلمة وحرفاً وحرفاً فأبدى ملاحظات
قيّمة في المعنى والمبنى . وكذلك لا بد لي من الاعتراف بفضل حضرة الاديب
الشيخ فؤاد حيش الذي شجعني على نشر هذا الكتاب .

ولن أنسى عطف مؤرخ بيروت الاكبر العلامة الاب رينه موتود
اليسوعي ، وتشجيع صديقي الاستاذ فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة
البنانية ، ومعونة زملائي فيها الاستاذ بطرس البستاني والامير موريس
شهاب والدكتور بطرس ديب . وقد لقيت في شخص رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الاميركية الدكتور نقولا زيادة وفي الاستاذين
الدكتورين جبوايل جبور وانيس فريجة اصدقاء مخلصين مضمين . وهل
أنسى ما عانت زواجتي وشريكة حياتي من مشقة في تأمين راحتي
وانقطاعي لهذا العمل زهاء سنتين كاملتين !

وكان الفراغ من تأليفه في رأس بيروت في الثالث والعشرين من
تشرين الاول سنة ١٩٥٥ .

اسر رسم

الباب الاول

المقدمة

•

الفصل الاول

تقهقر رومة الداخلي وازمة القرن الثالث

النظام الكولوني وتأخر الزراعة : كان من جراء التوسع العسكري الروماني ان تعاضم كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين فعادوا الى اوطانهم متمتعين بجميع ضروب التمتع والترف ، مشبعين بغيرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقبّود النظم الجمهورية . ولم يكن في نظر الرومانيين ليليق بشيوخهم وعظماهم ووجوههم ان يتعاطوا التجارة او الصناعة ، فتهافت الاغنياء والكبراء على اقتناء المزارع يضمون بعضها الى بعض ، فيكوّنون منها مزارع مترامية متسعة ، ويستاقون اليها من ملكات ايمانهم من الارقاء . ولم يقو المزارع الصغير على مزاحمة جواره الكبير فضم ارضه الصغيرة الى ارض جواره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الابد . ومع ان هذا النظام الكولوني لم يجعل منه رقيقاً لسيده فانه فقد حريته ان يذهب حيث يشاء . وتعددت هذه المزارع الضخمة في ايطالية وصقلية واسبانية ،

ولم يبقَ من المزارع الصغيرة القديمة الا نثر يسير .
 وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع شاقة تعسة . فانه كان يُحشَر
 ليلاً في الشكات حشراً ويُساق نهراً الى الحقل سوقاً . وكان يكوى
 بياضه ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار . فنفر الرقيق من صحبة
 سيده وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وامانة . واضطر سيده ان
 يكلفه من العمل انواعاً معينة ، تلك التي لا تتطلب الكثير من
 الامانة والاخلاص ، فحصله على تربية المواشي ورعايتها . فتضاءلت على
 الايام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار بعض الاراضي
 وترك لينبت فيه العشب فترعاه تلك المواشي . واعتمدت رومة على قمح
 مصر وجوبها لتغذية ابنائها وابناء المدن الايطالية الاخرى ، وحذرت تصدير
 هذه الحبوب الى اي مكان آخر . وسم المزارع الكولوني هذا النظام ،
 فهجر الارياف وازدحم في المدن ، ولاسيما رومة ، وثافس غيره من الفقراء فيها
 على نصيب يناله معهم من احسان الدولة . وكانت رومة قد اخذت ثقل
 حروبها منذ عهد اوغسطس قيصر فيتناقص معها عدد الاسرى . وقلت
 اليد العاملة . فبارت الارض لهذا السبب ايضاً . وضعف الانتاج الزراعي .
 عداء مزمن بين الاغنياء والفقراء : وثار العبيد الارقاء قبل
 اوغسطس اكثر من مرة ، ودامت ثورتهم الثالثة بقيادة اسبارتاكوس
 سنتين (٧٣ - ٧١ ق. م) ، وانتفضوا على ساداتهم في حقلية وقتلوه
 واعلنوا استقلالهم عن رومة . ونفر اصحاب الحقول الاحرار في ايطالية
 وغيرها واحرقوا المزارع الكبيرة التي انشأها كبار الملاكين . فكان هذا
 كله مظهراً للضعف في الصدور بين الاغنياء والفقراء . ولم ينتهِ صراع
 العبيد والفقراء بانتصار ليكيينيوس كراسوس على اسبارتاكوس ، بل

استمر متقطعاً ما دامت الامبراطورية الرومانية . ومن هنا قول
ماكروبوس الفيلسوف السياسي الذي عاش في القرن الخامس بعد الميلاد :
« عبيدنا اعداؤنا » . وكان كلما صرع سيد بيد مجهولة اتهم بقتله ارقاؤه
وقاسوا من جراء ذلك شتى الوان العذاب وربما فقدوا الحياة .

ولا يخفى ان رومة ميزت في شرائعها بين فصيلتين من الرقيق :
ارقاء الارباب ، وارقاء المدن . وكان هؤلاء يشلون في عدادهم الخدم
والخشم والاطباء والاساتذة ورجال الفن والقلم وحاشية الاباطرة وكبار
الرجال في السياسة والحرب . ولما كانت الجهاز الاداري مربوطاً بشخص
الامبراطور فانه اصبح منذ عهد كلوديوس يعج بهؤلاء الارقاء من رجال
الاباطرة . بيد ان الارقاء لم ينظروا صفوفهم ولم يكن لديهم في وقت
من الاوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه . وجل ما بلغوا اليه
انهم كرهوا اسياهم ، وثاروا في وجههم ، وتمنوا زوال نعمتهم وذلك
بحركات متفرقة في غالب الاحيان .

تأخر الصناعة والتجارة : وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق
والغرب الى توسع مماثل في افق ابناءها العاملين في حقل الصناعة والتجارة .
فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون اموالهم فيها . وقام من
ابناء هذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم
وانتاجهم . فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات ، واخذت آسية
الصغرى مثلاً تصدر ذروتها وخمرها وسمكها المجفف ومنسوجاتها الصوفية
وصباغها الازجواني . وعاد زجاج الساحل اللبناني الى سابق تفوقه ، ومثله
كتان هذا الساحل وحزيره وصوفه المصبوغ . وعادت الجاليات اللبنانية
السورية الى سابق عهدها في الغرب توزع بضاعة البلد الام في ايطالية

وحقلية وغالية ووادي الرين وبريطانية ، وظهرت نشيطة قوية في تراقية ووادي الدانوب الاسفل وجنوبي روسية . ومع الزمن فقدت ايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كانت قد كسبتها في حروب التوسع المنتتالية ، وانتاجها الصناعي الذي كانت تنتجه بالكميات الكبيرة قلّ وتدنّى فأصبح في مستهل القرن الثالث بعد الميلاد انتاجاً افرادياً قليلاً . وقلّ الدخل عموماً فقل دخل الدولة ، والتجّ الاباطرة الى غش العملة فأصبحت هذه في عهد مرقوس اوريليوس مغشوشة بمقدار ربع وزنها . وبعد جيلين فقط لم يبقَ في النقود الفضية اكثر من خمسة في المئة من زنتها فضة .

انحطاط الجيش : وكانت الخدمة العسكرية في اوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين اولئك الذين ملكوا ارض رومة وسنوا شرائعها . وكان على كل جندي ان يقسم بكل وقار واحترام بين الطاعة لقادته والولاء للامبراطور والامبراطورية . وجاء يوليوس قيصر فمنح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات واعيانها ممن لمس فيهم الولاء والاخلاص لرومة وامبراطوريتها . وقضت ظروف الفتح والتوسع بتكبير الجيش فجندت رومة ابناء الولايات في وحدات « مساعدة » . وفي ايام ادرينوس وخلفائه تساهلت رومة فمنحت كل من لمست فيه استعداداً لتفهيها والامتزاج بابنائها هذا الحق الكبير . ثم جاءت يولية دمنة الحصية وابنها كركلا فأباحا هذا الحق في السنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية . فأصبح الجيش والحالة هذه مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر المتوسط . وأدى التوسع العسكري الكبير الى تغيير آخر في الجيش . فالحدود الشاسعة الطويلة والاعمال الحربية المتتالية المنتتالية قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والتأخر الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية ان تقطع

جنود الحدود اراضي مجرثونها وان تجيز لهم ان يتأهلوا وان يقيموا في
اكواخهم قرب الحدود. فتضى الجنود حياتهم باكملها في خدمة
العلم واصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها ، لا جيشاً شعبياً يقوم بخدمة
الدولة .

وبما عجل كثير في انقطاع الجيش ان اوغسطس قيصر لم يعن
بايجاد طريقة قانونية لانتخاب الامبراطور تنتقل سلطة الامبراطور بموجبها
من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . فتشج عن هذا الخلل
انه أصبح في طاقة الجند ان يختاروا من يرضون عنه وان يعزلوه وان
يعينوا غيره مكانه كما امسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام .

الامبراطور : وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً
تحوّل سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة . وكانت هذه
السلطة او هذه القيادة تنتهي بانتهاء الحرب . وكان مجلس الشيوخ يقيم
في ظروف معينة اكثر من قائد واحد في وقت واحد . ثم جاءت
الامبراطورية بطولها وغرضها وتعددت مشاكلها فوكلت رومة القيادة الى
رجل واحد طوال عمره . وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا
الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته . وبقي هو يمثل الجمهورية^٢ الاوحد .
واستحق لقب اوغسطس اي قديس لانه كان في نظر الرومانيين رمز
الهة رومة الحي^٣ . ويرى بعض رجال الاختصاص ان سلطة الامبراطور
كانت في البدء سلطة عسكرية لانها لم تطبق قبل عهد سيبتيوس
سويروس الا في خارج رومة وفي خارج ايطاليا . ويرون ايضاً ان سائر

Imperium.

١

Respublica.

٢

Dea Roma.

٣

الانقلاب^١ التي حملها الاباطرة الاولون لم تزد لهم سلطة ابدأ .
وتتقدمت المجالس القومية^٢ في رومة واصابها الهرم . فالتحضر
السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ^٣ وكذلك ادارة الدولة وفرض
الضرائب فيها وجبايتها . ولو دام هذا الحصر لضح القول بان الدولة
الرومانية كانت ارسوقراطية يرأسها ديكتاتور عسكري . ولكن شيئاً
من هذا لم يكن . فالامبراطور كان منذ البدء قد شاطر مجلس الشيوخ
السلطة في الولايات . فترتب عليه منذ بداية الامبراطورية ان يكون
لديه حكام وان يفصل بين ماليته ومالية الدولة . ولما كانت القوة العسكرية
بيده كان من الطبيعي جداً ان يتناول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق
سلطته وان تتدرج الدولة الرومانية في سلم الملكية .

وحاول الامبراطور الروماني اللبنياني سيوروس الكسندروس
(٢٢٢ - ٢٣٥ ب . م) الذي نشأ وترعرع في عرقة عكار ان يعيد الى مجلس
الشيوخ حقوقه المسلوقة ، فشاور المجلس في جميع اعماله وطلب اليه انتقاء
كبار الموظفين في رومة وفي الولايات وتقديم الاكفاء لجميع الوظائف
الاخرى . ورفق حكام الولايات الى رتبة عضو في مجلس الشيوخ كي لا
ينظر في امرهم من كان دون هذه الرتبة . وبعبارة وجيزة حاول الا
يفعل شيئاً يعكس حق العلاقات بينه وبين مجلس الشيوخ .

وعني سيوروس الكسندروس بشؤون الجيش فراقب عن كثب حركات
الوحدات وأمن العدل بينهم وأقطعهم الارض عند الحدود وزودهم بالمواشي
والارقاء لحراثتها وزرعها شرط ان يدخلوا ابناءهم في الخدمة بعدهم .

Pontifex Maximus, Princeps Senatus.

١

Comitee.

٢

Senatus.

٣

ولكنهم لم يرضوا عن المفاوضات التي اجراها مع القبائل الالمانية عبر
الرين في السنة ٢٣٥ واخذوا عليه اتقياده لوالدته ففاوضوا مكسيميانوس
مدرب الجيش وكانوا قد احبوه لشجاعته وكرمه . وقتلوا الامبراطور
ووالدته ونادوا بمكسيميانوس امبراطوراً . فدخلت الامبراطورية الرومانية
في ازمة سياسية مخيفة كادت تمزقها تمزيقاً ونهوي بها الى الحضيض .
وانكشف ضعفها وتبين ان اوغسطس قيصر ذاك المصلح الكبير لم يوفق
الى طريقة قانونية لانتقاء الامبراطور تنتقل بموجبها سلطته من سلف الى
خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . وتبين ايضاً ان الجيش بعد ان
انفصل عن الشعب الروماني واصبح خليطاً من كل من هب ودب بقي
يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالاشتراك مع مجلس الشيوخ وان
هذه السلطة اصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش كما سبق ان اشرنا .

أزمة القرن الثالث : وهب* مكسيميانوس (٢٣٥ - ٢٣٨ ب. م.) وكان
عملاقاً في جسمه يتابع الحرب فيما وراء الرين . ولكن الجنود في افريقية
لم يرضوا عنه فاعلنوا غورديانوس الاول امبراطوراً في السنة ٢٣٧ وكان
هذا قد ناهز الثمانين من العمر فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم
معه . وقاومهما والي موريثانية (الجزائر) فقتل غورديانوس الثاني في
ميدان القتال وانتحر والده العجوز . وثار جنود مكسيميانوس في وجهه
فقتلوه في اثناء حصار اكويلية في ولاية البندقية . وتدخل مجلس الشيوخ
فانتخب بويانوس وبليينوس فغورديانوس الثالث حفيد الاول نزولاً عند
رغبة الشعب ، ولكن الحرس الامبراطوري قتل الاولين وابقى غورديانوس
الثالث حفيد غورديانوس الاول وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره
(٢٣٨ - ٢٤٤) ثم خرب صريعاً في السنة ٢٤٤ بيد قائد الحرس . وكان قد
اضطر غورديانوس الثالث ان يشرك فيلوبوس العربي معه في الحكم في السنة
٢٤٣ نزولاً عند رغبة جنود الشرق فعقد هذا صلحاً مع الساسانيين

وهزول الى رومة وتسلم ازمة الحكم فيها (٢٤٤ - ٢٤٩ ب. م.). وبما يروى عنه انه تقبل النصرانية سرّاً. وفي السنة ٢٤٩ انتفض الجند في مناطق الدانوب فأرسل قياويوس العربي القائد ديقوس ليخمد ثورتهم. وما ان وصل اليهم حتى نادوا به امبراطوراً (٢٤٩ - ٢٥١) فحارب فيلوبوس وقتله في موقعة فارونة. وقام ديقوس بحارب القوط في البلقان في السنة ٢٥١ فسقط في ميدان القتال في ما وراء الدانوب. فنادى الجند بغالوس امبراطوراً (٢٥١ - ٢٥٣) واشرك هذا هوستيليانوس بن ديقوس في الحكم معه ثم قتله. وعمد الطاعون في اثناء حكمه جميع انحاء الامبراطورية فزاد في الطين بلة. ثم عمد اميليانوس هذا وهو قاهر القوط الى خلع الامبراطور في السنة ٢٥٣ فحل محله ولكن الجنود قتلوه بعد اربعة اشهر من الحكم ونادوا بفاليريانوس امبراطوراً بعده (٢٥٣ - ٢٦٠ ب. م.) فأشرك هذا ابنه غالينوس في الحكم معه وقاما بحاربان قبائل الافرنج في غالية والالمان في شمالي ايطالية والقوط عند الدانوب والساسانيين عند الفرات. وفي اثناء حصار الرها في السنة ٢٦٠ وقع فاليريانوس اسيراً في يد سابور وتوفي اسيراً. وتابع غالينوس الحكم بعد ابيه (٢٦٠ - ٢٦٨) وجابه ما كان أشد هولاً: ضغط البرابرة ولاسيما القوط الذين انتقضوا من البحر الاسود براصكهم الحاطقة وظهور عدد كبير من المنافسين. فدخلت الامبراطورية في فترة الطغاة الثلاثين واشهرهم نيريوس في غالية واسبانية. ولا يجوز القول ان أذينة العربي كان منهم لانه حافظ طوال عهده على الولاء القانوني الشكلي لغالينوس. واعتبره هذا شريكاً له في الحكم. وسقط غالينوس محارباً ضد اوريلوس في السنة ٢٦٨. ولكن الجنود نادوا بكلوديو الثاني (٢٦٨ - ٢٧٠) امبراطوراً فقتل هذا اوريلوس وقهر الالمان والقوط ولكنه توفي بالطاعون فخلفه اوريليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥) اذ نادى به جنوده امبراطوراً. وصالح القوط وتنازل عن حقوق رومة

في ما وراء الدانواب واخضع زينب ، ثم قهر تزيقوس في غالبية
 واتخذ لنفسه لقب معيد الدولة العالمية . ولكنه قتل في حملة قام
 بها على الساسان فأنتخب مجلس الشيوخ نيسيتوس امبراطوراً بابعاز من
 الجند (٢٧٥) . وتوفي هذا بعد ثلاثة اشهر في اثناء الحملة التي شنها على
 قبيلة الالاني في آسيا الصغرى . ولم يفلح اخوه في تسلم الحكم بعده لانكساره
 امام بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢ ب . م) . ورد بروبوس هجرات الافرنج
 والبورغنديين والالاني والوندال وشغل الجنود بتجفيف المستنقعات وانشاء
 الترع وبناء الطرق فشاروا عليه وقتلوه . فتولى الامر بعده قائد الحرس
 كاروس (٢٨٢ - ٢٨٣) ولكن صاعقة اصابته بعد ان احتل طيسفون
 عاصمة ساسان . فخلفه ابنه نوربانيوس (٢٨٤) ولكنه قتل بمؤامرة والد
 زوجته كارينوس الذي طمع في ملك صهره فلم يفلح لان الجند كانوا قد
 نادوا بدورقليتيانوس الشهير (٢٨٤ - ٣٠٥)^٢ .

غزوات الشعوب الجرمانية : وكان يقطن المانية وسائر اوروبة
 الشمالية برابرة من الجنس الهندي الاوروبي شجر الشعور زرق العينين
 طوال القامة لم يرتقوا كثيراً منذ عهد انسان العصر الحجري . وكانت
 كل قبيلة منهم تقيم في منطقة محدودة لا يتجاوز قطرها ستين كيلو متراً ،
 ولا يزيد عدد نفوسها عن خمسة وعشرين ألفاً او ثلاثين . وكانوا يقيمون
 في قرى تضم كل واحدة منها مئة عائلة . وكانت المنازل التي يسكنونها
 اكواخاً حقيرة يسهل نقلها . وكان السكان على وجه الجملة لا يرغبون في

Restitutor Orbis.

*Maximianus Gordianus, Publius Maximus, Calius Balbinus, Philippus
 Arabs, Decius, Gallus, Aemilianus, Valerianus, Gallienus, Tetricus, Claudius,
 Aurelianus, Tacitus, Probus, Carus, Numerianus, Carinus, Diocletianus.*

الفلاحة والزراعة، بل كانوا يؤثرون رعاية المواشي وتربيتها. وكانوا يجلبون الكتابة تماماً ولا يتعاطون التجارة الا قليلاً. وكانوا اقوياء البنية ذوي بأس وجلد يميلون الى الحرب والغزو والنهب ويتنقلون من مكان الى آخر يتبعهم نساؤهم واولادهم في مركبات ضخمة. وكانوا يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها عناية فائقة.

وكانت رومة قد جعلت من الرين والدانوب وما بينهما حدوداً فاصلة بينها وبين هذه القبائل وحصنت هذه الحدود واقامت عليها فرقاً تحميها. ولكن هذا كله لم يمنع تسرب جماعات من الجرمان الى داخل حدود الامبراطورية واغسطس نفسه كان قد اذن لبعض هؤلاء بالبقاء داخل الحدود. وكان يوليوس قيصر من قبله قد ادخل الجرمان في خدمة الجيش ولاسيما فرق الحيلة. وكان قد ادى التقهر الاقتصادي وقلة اليد العاملة الى قبول بعض العناصر الجرمانية في المزارع الكبيرة كما ادى ضعف الحكم عموماً الى التساهل مع بعض القبائل الجرمانية تدخل برمتها البلاد واستخدام رجالها في الجيش جنوداً مرتزقة.

وفي اوائل القرن الثالث بعد الميلاد كانت قبيلة الافرنج لا تزال مرابطة عند ضفاف الرين الاسفل ووراءها الى الشرق قبيلة السكسون فالسوفي فالقندال وجميعها في شمالي المانية. وكانت قبائل الالمانى مرابطة بين الدانوب والرين الاعلى. وكانت قبائل القوط قد تزحّت عن البلدان الاسكندنافية منذ نهاية القرن الثاني بعد الميلاد وحلت ضيوفاً ثقيلة على الالاني والسرامطة في جنوب روسية. فأقام القوط الشرقيون بين نهري الدنيبر والدنيستر والقوط الغربيون في مانسميه اليوم رومانية والمجر. وادى ضعف الدولة الرومانية واضطراب احوالها الى تيقظ هذه القبائل واستعداد طمعها. فحاول بعضها قطع الحدود الرومانية فزادوا الامبراطورية بعملهم هذا انهاكاً ونعباً وتقهقراً.

وفي ربيع السنة ٢٦٧ بعد الميلاد احتشد عدد غفير من القوط وغيرهم من قبائل الدانوب وجنوبي روسيا عند مصب نهر الدنيستر . فأبحر بعضهم على متن بضعة آلاف مركب صغير واتجهوا جنوباً ولحق بهم الباكون برآ . ونزل بعض المبحرين منهم في بيشنية وتوغلوا في آسية الصغرى ، وتابع الباكون سفرهم البحري فدخلوا البوسفور وحاولوا اقتحام بيزنطة لكنهم لم يفلحوا فاستأنفوا رحلتهم الى بحر ايجيه فغزوا ثيسالونيكية وكسندرية وسائر سواحل اليونان ، وبلغ بعضهم الى كريت ورودوس وقبرص . فتصدى لهم يروبوس حاكم مصر عند بامفيلية بما جمع من سفن رومانية وردمهم على اعقابهم . وفعل مثل هذا أذينة العربي في آسية الصغرى . وجب الامبراطور كلوديوس الى محاربتهم في البلقان فسجل انتصاراً كبيراً بالقرب من نيش وقتل منهم خمسين ألفاً وطارد الباقيين عبر مقدونية فهلك بعضهم بالطاعون ودخل الباكون في خدمة الجيش الروماني . وقال كلوديوس بحق لقب « قاهر القوط » وتعددت هذه الهجمات البربرية وتعاقت طوال هذا القرن .

الافلاطونية الجديدة : وأدى تفهقر رومة الداخلي الى نزعات جديدة في الفكر . فدفعت الفوضى والحروب والابوثة وما تبعها بعض رجال الفكر الى الابتعاد عن هذا العالم الفاني والتأمل في عالم ازلي ملؤه الخير والجمال . فعكف عدد من رجال الفلسفة على فيثاغورس زاهدين ورعين مستوحين قائلين بالسحر والعرافة جاعلين من بعض حلقاتهم انتداعات سحرية . فظهرت فيثاغورية جديدة قال بها فلاسفة في الشرق والغرب معاً . ودعا آخرون الى أفلاطون ووجدوا في كتابه الطيماوس Timaeus قوتاً قامت به انفسهم فانتعشت . فأكدوا قوله بالواحد الاوحد . وقالوا

بالتنائية الافلاطونية ففرقوا بين النفس والجسد . وجعلوا من خيال افلاطون في الحياة بعد الموت عقيدة . وتقبلوا نظريته في الوسطاء بين الله والبشر Daimones . واكدوا ان رائد الانسان انما هو ان يصير مشابهاً لله . فظهرت افلاطونية جديدة كان لها شأن كبير في عالم الفكر حتى اواخر القرن الخامس .

وأول من اشتهر بالافلاطونية الجديدة نومايوس فيلسوف ابامية بين حماة والمعرة . ولا نعلم الشيء الكثير من اخباره . ويجوز القول انه علم في النصف الثاني من القرن الثاني . وان افلوطين اعتمد عليه فيما يظهر . وكتب نومايوس في «مذاهب افلاطون السرية» فشرح ما جاء عن النفس في فيدروس وفي الجمهورية . واطلع على حكمة اليهود وتعاليم المسيح فأولها . ورأى في افلاطون موسى فدعاه موسى اليوناني واعتبره نبياً . ورأى ان الوجود منقسم الى مملكتين بملكة العناية وبملكة المادة . وان المادة اصل الشرور والفساد . وانه ليس يليق ان نعزو صنع العالم الى الاله الاعلى وان الابن هو الصانع الذي نظم الكتلة المادية يتأمل النموذج تارة ويتحول عنه طوراً ليحرك الفلك فيصير حينئذ النفس الكلية ٢ .

واسهر المؤسسين في هذا الحقل افلوطين Plotinus . ولد في مصر في ليقيوبوليس في السنة ٢٠٤ بعد الميلاد . وبدأ دروسه الفلسفية في سن متقدمة في الثامنة والعشرين في مدينة الاسكندرية . ولكن ما لقيه في هذه الدروس خيب امه واعترف بذلك الى اخذ اصدقائه فقدمه هذا فوراً الى امونيوس سكاس . فعادت رغبته اليه . وبعد ان قضى احدى عشرة سنة

Nock, A.D., *Paganism in the Roman Empire*, Cam. Anc. Hist., ١
XII, 438 ff.

٢ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

Leemans, E.A., *Numenius (Collection of Fragments)* Brussels, 1937.

في معية هذا المعلم علم ان الامبراطور غوردانوس فتح ابواب هيكل
بانوس في رومة ليعلم الحرب على ساسان . فصمم الفيلسوف الطالب على
الالتحاق بهذه الحملة العسكرية ليسمع عن فلسفة الفرس والهنود . والتحق
بجيش غوردانوس ووصل معه الى الفرات . ثم تمرد الجنود واغتالوا
الامبراطور عند دورة ، فعاد افلوطين الى انطاكية (٢٤٤) وزار ابامية
ليطلع عن كتب على فلسفة نومايوس . ثم قام من انطاكية الى رومة
وبدأ يعلم فيها . وتميز بسمو اخلاقه ونفاذ بصيرته فصادف نجاحاً ، واقبل
على الاخذ عنه عدد من افراد الاسر الممتازة .

وكان قد قام في الاسكندرية في القرن الاول بعد الميلاد فيلون
اليهودي وجمع بين الحكمة اليونانية والديانة الاسرائيلية فاستند الى نظرية
افلاطون في الكلمة فجعلها متوسطة بين الاله والعالم ، وقال ان الاله
هو سبب الكلمة وان الكلمة هي علة الروح وان الروح تحرك العالم بأسره
وتشيع فيه حكمة الخالق . وكان افلاطون قد فرق بين الخير الاعلى
والعقل والنفس . وكان ارسطو قد جعل الاله عقلاً محضاً . وكان الروافقيون
قد قالوا ان الله هو روح العالم . فأخذ فيلون من هؤلاء جميعاً وقال
ان الواحد هو مبدأ كل شيء . وانه الاقنوم الاول وان العقل هو الاقنوم
الثاني ولكنه دون الواحد في الكمال وان الاقنوم الثالث هو النفس .
وقال ان الواحد هو الخير الذي يفيض عنه الوجود من غير ان ينقصه
هذا الفيض شيئاً والوجود يفيض عنه لوجوده كما تفيض الحرارة عن النار
والنور عن الشمس . وقال : كما ان كل شيء يصدر عن الواحد فكذلك
كل شيء يعود اليه . والنفس ايضاً تعود الى خالقها عن طريق الرياضة

Bidez, J., Lit. and Philosophy in the Eastern Half of the Empire, 1
Cam. Anc. Hist. XII, 621 ff.

والتأمل والاستغراق والغيبة عن الوجود^١.

وأظهر تلاميذ افلوطين بورفيروس السوري (٢٣٣ - ٣٠٥) . ولد في البشنة من أعمال حوران وتعلم في صور ثم درس الفلسفة على لونجينوس الحمصي في اثينة . فاعجب لونجينوس بشغفه بالعلم ومواهبه النادرة . وكان يدعي مالكاً فأطلق عليه لونجينوس اسم « الارجواني » بورفيروس . وفي السنة ٢٦٣ قام الى رومة فلزم افلوطين فيها واتبع طريقته . واعجب به افلوطين . وكان المعلم يمتدح البيان ويستثقل العناية بالمثل والالفاظ . وادرك الحاجة الى اعادة النظر فيما كتب فوكل ذلك الى تلميذه بورفيروس . فقبل التلميذ المهمة ولكنه لم ينفذ شيئاً منها الا بعد وفاة معلمه والحاج طلاب الفلسفة . فدوّن حياة استاذه وجمع محاضراته في مجلدات ستة عرفت بـ « الاقسام » Ennead التاسوعات وشرّحها^٢ . ووضع « المدخل الى المعقولات » أخذاً عن التاسوعات و« المدخل الى مقولات ارسطو » اي كتاب الاسباغوجي . واشتهر بكتسابه ضد النصرانية وجعله خمس عشرة رسالة فانتقد نسب السيد كما جاء في متى ، وادعى ان الانجيل الاربعة متناقضة وان بطرس وبولس غير متفقين في رسائلهما ، وهاله عبث المسيحيين بالتواتر النقابي الديني اليوناني^٣ .

وقام في النصف الثاني من القرن الثالث في خلقيس (مجدل عنجر لبنان) ميلخيوس العيطوري يدعو الى الافلاطونية الجديدة ويدافع عنها . وهو تلميذ بورفيروس اخذ عنه في رومة ودرس الرياضيات على اثنوليوس وعاد

١ من افلاطون الى ابن سينا للدكتور جميل صليبا ص ٣٤ - ٣٥ .

٢ Henri, P., Enseignement de Plotin, Bull. Acad. Belge. Lettres, 1937, 310 ff.

٣ Bidez, J., Vie de Porphyre, Ghent, 1918.

الى بلاده يعلم في ابامية وفي مجدل عنجر . فقال بصدور الموجودات بعضها
عن بعض . ورأى ان افلوطين حين سمى الواحد الاوحد خيراً بالذات فقد
حبه بصفة فوضع فوقه واحداً غير معين ووضع بعده العالم المعقول فأصبح
لديه حدود ثلاثة . وجعل العالم المعقول ثلاثة حدود ايضاً العقل والصانع
وبينهما القدرة الالهية . وجعل للعالم الاستدلالي ثلاثة حدود اخرى الاب
والقوة والفهم .

الفصل الثاني

ظهور النصرانية وانتشارها

(٣٠ - ٣٩٥ ب. م)

الرسول والتلاميذ والأخوة : توفي السيد في السنة ٣٠ بعد الميلاد . وتابع اتباعه الطقوس الاسرائيلية الشائعة آنئذ . فتعبدوا في هيكل سليمان . وتجمعوا في اروقته . وكانوا جميعهم يهوداً من الطبقات الوضيعة تجمعوا من اورشليم ومن الجليل ومن سائر انحاء فلسطين . وكان بعضهم من يهود البونط ومن قبدوقية ومصر وليبيسة والقيروان ، وكان بينهم بعض اليهود العرب ايضاً . وكانوا يعقدون من آن الى آخر اجتماعات خاصة تغمرهم فيها محبة قوية ويتناولون في اثناها طعاماً مشتركاً . وكانوا رسلاً وتلاميذ بالنسبة لمعلمهم ، وأخوة بالنسبة للمحبة المتبادلة بينهم . ولم يعتبروا انفسهم في هذه المرحلة الاولى مذهباً خاصاً من مذاهب اليهود ولا كنيسة من كنائسهم . والكنيسة في عرف اليهود آنئذ جماعة قليلة من اليهود يتعبدون مستقلين عن الجماعة الكبرى .

ولا نعلم عدد المسيحيين في هذه الفترة الاولى من تاريخهم بالضبط . فهم مئة وعشرون في الفصل الاول من سفر اعمال الرسل ، وخمس مئة في الفصل الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنتوس ، وثلاثة آلاف بعد عظة بطرس الاولى ، ثم خمسة آلاف في الفصل الرابع من سفر

الاعمال ، وذلك بين السنة ٣٥ والسنة ٣٧ بعد الميلاد . وليس لدينا من الأدلة التاريخية الواضحة الراضة ما يمكننا من وصف نظمهم وصفاً كاملاً . ولكن هنالك ما يدل على تقدم الرسل الاثني عشر بينهم ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء . وهنالك أيضاً ما يدل على نفوذ كلمة بطرس ويوحنا ابن زبدي ويعقوب اخي الرب . وكانت يعقوب بموجب رواية القديس بوسيبوس^١ نافذ الكلمة محترماً جداً نظراً لزهده وورعه الشديد ، اكتب الركبتيين من كثرة الركوع ، لا يأكل لحماً ولا يشرب خمرآ ، وليس لديه سوى رداء واحد .

ومارس المسيحيون في هذه الفترة نفسها طقوساً ثلاثة : المعمودية ووضع الايدي والشركة . فكان على مستجد يتقبل الدعوة ان يتعمد باسم يسوع المسيح وان يبارك بوضع الايدي وان يمارس الشركة وكسر الخبز^٢ . وجاء في الفصل الرابع من سفر اعمال الرسل ايضاً انه كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، وانه لم يكن احد يقول ان شيئاً من امواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . وانه لم يكن فيهم احد محتاجاً لان كل الذين كانوا اصحاب حقول او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويضعونها عند ارجل الرسل . فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج .

اليهود : وعلى الرغم من تنسك المسيحيين الاولين بالناموس والانبياء عملاً بقول السيد ان السماء والارض تزولان ولا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس ، فان كركزم بيسوع مسيحاً اخرجهم في

١ المؤرخ الاول للكنيسة واسقف قيصري (٢٦٥ - ٣٣٩ م) .

٢ قبلوا كلامه واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس وكانوا يواظبون على تعليم الرسل الشركة وكسر الخبز والصلوات . - اعمال الرسل ٢ : ٤١ - ٤٣ .

نظر اليهود على الله والناموس . واشتد نشاطهم وكثر عددهم فشكاهم
الصدّيقون الى المجمع وطلبوا الى رئيس الكهنة ان يوقف الرسل ففعل .
ثم طلبهم الى المجمع وقال لهم : ألم نوصم الا تعلموا بهذا الاسم ؟ فاجاب
الرسل : ينبغي ان يطاع الله اكثر من الناس . ان الله آباؤنا رفع يسوع
رئيساً ليعطي اسرائيل التوبة ومغفرة الخطايا ! فلما سمع اعضاء المجمع هذا
القول حنقوا وارادوا ان يقتلوه . فقام غملائييل الفريسي واوصى بالاعتدال .
فاكتفى المجمع بجلد الرسل ثم اطلقهم . فخرج الرسل فرحين وعادوا الى
التبشير . وحوالي السنة ٣٦ بعد الميلاد طلب المجمع اسطفانوس المشول
امامه بتهمة التجديف على موسى وعلى الله . فقال في الدفاع عن نفسه
قوله المأثور : يا قساة الرقاب انتم دائماً تقاومون الروح القدس . اي
الانبياء لم يضطهده آباؤكم ؟ اخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه^١ .
فصرخوا باسنانهم واخرجوه خارج المدينة ورجوه . فكان اول الشهداء .
وظهر في هذه الآونة شاوول الفريسي (بولس فيما بعد) . وكان يدخل
الى البيوت ويحرق النساء والرجال من المسيحيين ويدفع بهم الى السجن^٢ .
وحشي اتباع اسطفانوس سوء العاقبة . وكانوا من اليهود اليونانيين .
ففرّوا الى اوطانهم في شرقي البحر المتوسط . واستقاموا فيها كالذين
مبشرين . وقام فيليبس في هذه الاثناء يبشر في السامرة وفي ساحل فلسطين
في غزة ويافه وقيصريّة فلقي فيها نجاحاً . وكان الرسل ولاسيما بطرس
ويوحنا يقيمون عمل فيليبس فيقومون بزيارات رعائية خارج اورشليم
يتعرفون بها الى المسيحيين الجدد مشددين عزائمهم مشبّتين لهم في الايمان .
وسجّل فيليبس بكرزته في السامرة خروجاً على الحفلة المتبعة في التبشير

١ اعمال الرسل ٧ : ٥١ - ٥٣ .

٢ الاعمال ٨ : ٣ .

الاولي . فان الرسل كانوا قد حصروا عملهم في اوساط اليهود متبعين في ذلك قول السيد : « الى طريق امم لا تمضوا ، والى مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة . » ولكن العمل كان قد توطد فيما يظهر فبدأ التبشير بين الامم . ورأى بطرس وهو في يافه ان الله يأمره الا يقول عن انسان ما انه دنس او نجس ، فقبل دعوة كرنيليرس قائد المئة الايطالية وقال ان الله لا يقبل الوجوه بل في كل امة الذي يتقيه ويضع البر مقبول عنده ٢ . وانتقل الرسل بهذا من دور الى دور وبدأوا يعملون بالآية : « واذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » ٣ .

وفي السنة ٤١ بعد الميلاد تولى عرش اليهود في ظل رومة هيروودوس اغرييه حفيد هيروودوس الكبير . فاراد ان يستميل الشعب اليه ، فتظاهر بالتدين وشرع يضطهد المسيحيين اضطهاداً منظماً . فقتل يعقوب اخا يوحنا بالسيف . ولما رأى ان ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس وزججه في السجن . وكان ما كان من امر خروجه باعجوبة ٤ . وتوجه الى انطاكية .

انطاكية : وكانت انطاكية آنثى ثالث مدن الامبراطورية الرومانية ومركز الحكم والسلطة في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الجالية اليهودية فيها كبيرة يربو عددها على خمسين ألفاً . وكانوا يتكلمون اليونانية ، ويعيشون عيشة اليونان ، ويكسبون الرزق بالانجار . فلما نشئت المسيحيون من جراء الضيق الذي حصل بسبب اسطفانوس اجتاز بعضهم الى الساحل

١ متى ١٠ : ٥ .

٢ الاعمال ١٠ : ٣٤ - ٣٥ .

٣ مرقس ١٦ : ١٥ .

٤ الاعمال ١٢ : ١ - ٢٤ .

اللبناني وقبرس . وحل آخرون في انطاكية . وكان بين هؤلاء قوم
قبرصيون وقبرصانيون . فلما دخلوا انطاكية بشروا اليهود و « اليونانيين »
بالرب يسوع . « وكانت يد الرب معهم فأمن عدد كثير ورجعوا الى
الرب » . وجاءهم بطرس في السنة ٤٥ وأقام بينهم ثمانين سنوات . وبعد
ان اطمأن لعمله في انطاكية وما جاورها اقام افديوس رئيساً على
كنيستهم وذهب في السنة ٥٣ الى رومة . وعرف المسيحيون بهذا الاسم
لاول مرة في انطاكية .

بولس : وكان الشاب الفريسي شاوول بولس يتابع التفتيش عن
اعتنق النصرانية من اليهود ليضطهدهم باسم الناموس . فقام في السنة ٣٦
بعد الميلاد الى دمشق ليوقف انتشار النصرانية في اوساطها اليهودية .
وما ان اقترب منها حتى « ابرق حوله نور من السماء » فسقط على الارض
وسمع صوتاً يقول له : شاوول شاوول لماذا تضطهدني ؟ « فكان ما كان
من امر نصرته . وكان قد ولد شاوول في طرسوس بين الخامسة والعاشرة
بعد الميلاد . وكان والده فريسيّاً متعصباً فيجعل ابنه يدرس الشريعة
والناموس . وأبعده عن المدارس اليونانية . ويرجع رجال الاختصاص ان
ما ناله شاوول من الفلسفة اليونانية جاء عن طريق الاحنكك الشخعي
بابناثا لا عن درس وتعليم . ورحل شاوول وهو لا يزال حدثاً الى
اورشليم في طلب العلوم الدينية فأخذ عن غملائييل المشار اليه آنفاً . وكان
غملائييل من اكبر علماء الدين في ذلك العصر . ويستدل من كتاب « اعمال
بولس » الذي يرقى الى القرن الثاني بعد الميلاد ان بولس كان مربوع

١ الاعمال ١١ : ١٩ - ٢١ .

٢ الاعمال ٩ : ٤ .

القامة مائلاً نحو القصر ، معوج الساقين ، أصلع الرأس ، كثيف الحاجبين ، اقنى
الانف . وجاء في رسالته الثانية الى اهل كورنثوس انه « أعطي شوكة
في الجسد لئلا يرتفع »^١ . ويستدل من رسالته انه كان حاد الطبع ، شجاعاً
جريئاً ، شديد العاطفة ، ثاقب النظر ، واسع الخيال ، مقدماً .

وبدأ بولس عمله التبشيري بين يهود دمشق . فضجوا وطلبوا حبسه .
ولكن اخوانه في النصرانية غاونوه على الفرار . ففضى ثلاث سنوات او
اكثر في البادية يتأمل رسالته الجديدة ويبشر العرب . ثم عاد الى اورشليم
يستغفر الرسل ويبشر في الاوساط اليهودية اليونانية . ولكن هؤلاء حاولوا
قتله ، فأشار عليه الرسل بوجوب الابتعاد والاقامة في طرسوس مسقط
رأسه . وكانت الدعوة قد لقيت نجاحاً في انطاكية كما سبق ان اشرنا .
فذهب كبير المسيحيين فيها برنابا الى طرسوس وجاء ببولس الى انطاكية
فتعاونوا في الخدمة (٤٣ - ٤٥ ب . م) . وكان بين المسيحيين في انطاكية
جماعة من التجار . فصنعوا مقداراً من المال ووضعوه تحت تصرف بولس وبرنابا
لاجل التبشير . فقاما برحلة تبشيرية الى قبرص وآسيا الصغرى (٤٥ - ٤٧
ب . م) ولقيا بعض النجاح . ثم عادا الى انطاكية ، فعلما فيها ان الرسل
لم يرضوا عن اعمالهما التبشيرية لانهما كانا قد قبلتا في النصرانية وثنيين لم
يختتنوا . وكانا يريان ان لا بد من التماسل في مثل هذه الامور لئلا
تبقى النصرانية شيعة يهودية منشقة . فنزلا الى اورشليم (٥٠ ب . م) وبجنا
امر الاختتان فبايدهما بطرس وعارضهما يعقوب . ثم تم الاتفاق على ان
يتنعم المؤمن غير المختتن عما ذبح للاصنام وعن الدم والخموق والزنى . « فان
حفظ نفسه منها فنعماً يفعل ويكون معافى »^٢ . وعاد بولس وبرنابا

١ : ١٠ : ٩ و ١٢ : ٧ .

٢ : اعمال الرسل ١٥ : ٢٢ - ٣٠ .

الى انطاكية .

وقام بولس بعد هذا برحلتين تبشيريتين الثانية والثالثة . وشملت الثانية (٥٠ - ٥٢ ب.م) غلاطية وفيلبي وثيسالونيكية واثينة وكورنثوس وافسس وانطاكية . وشملت الثالثة (٥٣ - ٥٨ ب.م) افسس وكورنثوس وبعض جزر الارخبيل اليوناني وصور وعكة وقيصريّة فلسطين فالقدس . وكان بولس يبشر اليهود أولاً فالوثنيين فيلقى صعوبات واحدة لم تتغير إما مقاومة عنيفة من بعض الاوساط المتمسكة بيهودية كانت او وثنية ، وإما تحريضاً من تجار المواشي المعدة للذبح في الهياكل او من تجار الاصنام . ولكنه كان يتغلب عليها بشجاعته وصبره وإيمانه . وقدر له في هذه الآونة أن يكسب عدداً من الرجال والنساء الاطهار الذين عملوا معه بكل غيرة ونشاط ، فكانوا له شبه اركان حرب يقومون بأهم الخدمات . وبين هؤلاء نيموثاوس ومرقس ولوقا الطبيب وليدية وبرسلة .

واثيرت قضية الاختتان مرة ثانية فعاد بولس الى اورشليم في السنة ٥٨ بعد الميلاد . وما ان ظهر في الهيكل حتى ثار ثائر اليهود . فامسكوا به وجروه الى خارج الهيكل وحاولوا قتله . ولكن الجنود تدخلوا وساقوه الى الحبس . واتهمه اليهود بالتشويش والتفرقة بين الصفوف . فابقاه الحاكم الروماني في السجن سنتين متتاليتين . وألح بولس بان ترفع قضيته الى القيصر لانه يستمع بحقوق المواطن الروماني ، فكان له ذلك وارسل الى رومة في السنة ٦١ بعد الميلاد . فارتفق في بيت بحراسة الجند ويات ينتظر محاكمته امام نيرون . ويرجع انه قضى شهيداً في السنة ٦٤ مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون . ويعتقد البعض انه لم يلق حتفه قبل السنة ٦٦ . وجاء في التقليد انه اطلق سراحه بادية ذي بدء ، وانه بشر في اسبانية وآسية قبل ان يقتل في رومة في السنة ٦٦ ، ولكنه قول ضعيف .

يوحنا : وليس بين الرسل الآخرين من نعلم عنه شيئاً بقدر ما نعلم
عن يوحنا . فأننا نجد حوالى السنة ٦٧ في افسس محبوباً محترماً . ويبدأ
دوميتيانوس اضطراده فيقامي يوحنا عذاب الزيت الحامي ويخلص باعجوبة
لينقل الى جزيرة بانفوس محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة فيكتب فيها رؤيا
يوحنا . ثم يطلق سراحه في عهد ترفه فينتقل الى افسس مبشراً بالحنّة
مجدداً مؤسساً ، مدوناً انجيله في السنة ٩٠ بعد الميلاد .

مرقس وتوما وغيرهما : ومما حفظه لنا التقليد ودونته القديس يوسيبوس
في تاريخه ان مرقس الانجيلي اسس كنيسة الاسكندرية ولقي حتفه فيها وذلك
في السنة ٦٢ او ٦٨ بعد الميلاد . ومما يروى ايضاً ان القديس اندراوس
أسس كنيسة القسطنطينية . وان القديس توما بشر في فارس والهند وأسس
كنيسة الرها . وعلى الرغم من اجتهاد صديقنا المرحوم اغناطيوس وحماني
بطريرك السريان الكاثوليك فانه لا يمكننا القول معه ان كنيسة الرها
أسست في عهد السيد المسيح بناء على طلب ملكها العربي أمير الحامس
الذي اتصل بالسيد طالباً الشفاء من مرض ألمّ به . ومما جاء في التقليد
ايضاً ان القديس كوارتوس احد التلاميذ السبعين أسس كنيسة بيروت .
ولم ترق مباحث أفلاطون كثيراً في عين اليونان ولم تعجبهم حكمة أرسطو
بل صبت عقولهم على نوع من الفلسفة يكسبهم هناء المعيشة وراحة البال .
فنادى زينون الصوري بالفضيلة غاية للحياة يستوي لديها الألم واللذة . وعلم
ابيقوروس ان الخير الاعظم هو اللذة سواء اكانت عقلية ام جسدية شرط
الا تخرج عن دائرة الفضيلة . وشاعت قصة أهميروس ان آلهة اليونان كانت
في الاصل ملوكاً بشراً ألّهُوا بعد وفاتهم وصدق الناس هذه القصة . ففقدت
الآلهة القديمة ما كان لها من الاحترام في عيون المتعبدين . ولم يكن
محظوراً على احد ان يصرح بما كان يكتنه قلبه نحو الآلهة مهما كان اعتقاده
فيها . وكان السواء الاعظم من الشعب اليوناني غير متعلم . وكان لا بد لهم

عن آلهة ، فمالوا الى تكريم الآلهة الشرقية . فاجتازت الديانة المسيحية من بلاد الى بلاد في سهولة ويسر . ولم تتعرض الديانة الرومانية القديمة لمسلك الشخص او لسيرته الخاصة ، ولم تعد العباد بالسعادة المستقبلية . وانشق المجتمع الروماني كما سبق ان اشرنا الى طبقتين متباغضتين طبقة المتمولين اصحاب الاراضي الفسيحة وطبقة الارقاء المستعبدين والفقراء المساكين . وكثر عدد هؤلاء وساءت احوالهم وثاروا وتمردوا . فجامع بولس الحثام الطرسوسي منادياً بتعاليم سيده ، معلناً ابوة الله واخوة البشر ، مردداً تعاليم السيد : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين . » فكان لكلامه اثر بليغ وفعل عظيم في قلوب الرومانيين الثماني .

الدولة الرومانية والنصرانية : وكانت الدولة الرومانية قد بسطت سلطتها على جميع انحاء حوض البحر المتوسط وربطت اجزاء امپراطوريتها بشبكة واسعة من الطرق وفرضت شرائعها ولغتها ، فبلغ بذلك عالم البحر المتوسط درجة من التوحيد لم يبلغها من قبل . وبهذا التوحيد سهلت رومة انتشار الدين الجديد . ولكن كبار الرومانيين لمساوا في تعاليم هذا الدين نفسه خطراً يهدد سلامة الدولة . وفضيل هذا ان اليونانيين والرومانيين لم يفرقوا بين الوطنية والدين . فالمواطن عندهم كان مواطناً بقدر اشتراكه في التعبد لاله المدينة . وباتساع افق المدينة السياسي اتسع كذلك افق دينها . فلما تمّ لرومة بسط سلطانها في حوض البحر المتوسط اعتبر رجالها الالهة رومة الالهة الامپراطورية باسمها . وجر اوغسطس رعايا رومة في الشرق بقوته وتديروا وعظمتهم فرأوا في شخصه مخلصاً الهياً يمنع الحروب ويوطد السلم . وهو ما تنص به جملة نقوش في نواحي متعددة من آسية الصغرى ترقى الى القرن الاول قبل الميلاد . وفي السنة ٢٩ قبل الميلاد ذهب اليونان في آسية الصغرى الى ابيد من هذا فانشأوا هيكلًا خاصاً لعبادة رومة واوغسطس . ورأى اوغسطس في هذا الامر خيراً له

ولرومة . فشجع عليه رعاياه ونقله الى الغرب . فظهر في ليون مثلاً في السنة ١٢ قبل الميلاد مذبح لرومة ولاوغوسطوس معاً . وقام مثله في السنة ٥ بعد الميلاد في مدينة كولون . ونشأت في جميع انحاء الامبراطورية اخويات دينية سياسية دعيت الواحدة منها اوغوسطالية . وكانت تقيم الحفلات لاوغوسطوس وتترنم به وترقص . واتخذ هو لنفسه لقب الجيو الاعظم^١ . وما كادت تنتظم امور هذا الدين الامبراطوري الجامع حتى اخذ رسل المسيح وتلاميذه يبشرون باله لا اله الا هو ، تجسد وولد من مريم العذراء ، وحلب وتالم ومات من اجل البشر ، وقام وصعد الى السماء ليدين الجميع . ولو حصر الرسل والتلاميذ عملهم في الاوساط اليهودية لما تنبه الرومان وتيقظوا . ولكنهم بشروا « الخليفة كلها » وحملوا رسالة السيد الى امهات المدن ، لا بل الى رومة نفسها . فكان لا بد من الاضطهاد .

الاضطهاد : ويجدر بالقارىء ان يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد اربع حقائق : اولاً ان المؤرخين يشيرون عادة الى عشرة اضطهادات بين السنة ٦٤ بعد الميلاد والسنة ٣١٣ سنة البراءة . وثانياً ان الاضطهاد أجري بموجب تشريع خاص صدر عن الامبراطور نيرون في السنة ٦٤ وقضى بالآيكون احد مسيحيان^٢ . وثالثاً ان الاضطهاد لم يكن دائماً عاماً شاملاً . ورابعاً انه لا يمكن تحديد عدد الضحايا ويجوز القول انهم كانوا كثيراً .

وفي عهد نيرون (٥٤ - ٦٨ ب . م) انهم المسيحيون باحراق رومة سنة ٦٤ فكان ما كان من شتى الوان العذاب . واستشهد الرسولا ن بطرس

Pontifex Maximus.

« Non Licet esse christianum ».

وبولس . ويرى بعضهم انه بولس قضى حوالي السنة ٦٧ . وفي ايام
دوميتيانوس (٨١ - ٩٦ م .) على اثر ثورة اليهود حل بالمسيحيين دور
آخر من العذاب . فاستشهد في رومة عدد من الاشراف لأول مرة .
وذاق يوحنا الانجيلي آلام الحرق بالزيت الحامي ونفي الى جزيرة باقوس .
واستشهد تيموثاوس في آسيا الصغرى . والقي القبض على اقارب السيد في
فلسطين ثم اطلق سراحهم . وجاء دور تربيانوس (٩٨ - ١١٧) فلقي
استف اورشليم القديس سمعان حنفة مصلوباً (١٠٧) . وقضى استف انطاكية
اغناطيوس الشهير في رومة في السنة نفسها . وأعدم كثيرون في بيشنية
ومقدونية . وكتب طياريوس حاكم فلسطين الى الامبراطور يقول : ان
المسيحيين في انطاكية ازدهوا مستعينين في سبيل الرب . وفي عهد انطونيوس
(١٣٨ - ١٦١) في السنة ١٥٥ استشهد بوليكراريوس استف ازميز ومرقس
استف اورشليم . وقضى في رومة حوالي السنة ١٦٥ القديس بوسنيوس
الناقليسي الفيلسوف المعلم وذلك في عهد مرقس اوريليوس . واستشهد في
ايام هذا الامبراطور نفسه ايضاً بوليوس استف ائنة وحكم على كثيرين
بالعمل الشاق في المناجم . واهتم سبتيموس سويروس (١٩٣ - ٢١١)
لانتشار النصرانية في مصر فملا السجون بالنصارى ودفع بعضهم الى الجلادين
في الاسكندرية ، وبيع بعض الى الحيوانات المفترسة في مدرج قرطاجة . ولكن
خلفاءه اباطرة السلالة السورية اللبانية لم يقتفوا اثره في شيء من هذا ، بل
قام احدهم سويروس الكسندروس بمحاول انشاء هيكل لعبادة المسيح في
رومة . وجاء فيليبوس العربي (٢٤٤ - ٢٤٩) بلاطف وهدان . فحصل ذلك
خلفه داسيوس (٢٤٩ - ٢٥١) ان يحكره جميع السكك في المدن
والارياف ان يمثلوا امام رجال السلطة في وقت محدد ليتقدموا الذبيحة
لشخص الامبراطور . فارتد عن الدين الجديد عدد من الاغنياء والوجهاء
واستشهد في سبيله عدد كبير من المؤمنين . وبين هؤلاء اوريجانيوس

اللاهوتي الفيلسوف الذي سجن في قيصرية فلسطين وعذب فيها ومات من جراحه في صور (٢٥٤)، والكسندروس اسقف اورشليم، وبابيلاس اسقف انطاكية، ونسطوريوس اسقف مجدو. ولاحق الامبراطور فاليريانوس (٢٥٣ - ٢٦٠) الزعماء المسيحيين والكهنة فأمر هؤلاء في السنة ٢٥٧ ان يقدموا الذبيحة للآلهة الوثنية وحرّم على المسيحيين الاجتماع في المقابر ومحلات العبادة، وأكد انهم ان فعلوا اعدموا اعداماً. فدّهم القديس ترسيبيوس وجماعة من المؤمنين وهم يصلون في سرداب سبلارية، فأتوا خفياً. واستشهد سيكستوس اسقف رومة وكبريانوس اسقف قرطاجة. واستشهد في فلسطين الاخوة الثلاثة، وفي قبدوقية الطفل كيريانوس، وفي الاسكندرية عدد كبير من المؤمنين.

واعظم الاضطهادات وافظعها ما جاء منها على يد ديوقليتيانوس الامبراطور (٢٨٤ - ٣٠٥ م) ويصعب القول في حقيقة اسبابها. فلم يكن لهذا الامبراطور شيء من شذوذ نيرون او دوميتيانوس، ولا كان ظنوناً ولا قاسياً ولا متديناً او داعياً لدين جديد كأورليانوس. وقد انقضى على حكمه عشر سنوات قبل ان بدأ بالاضطهاد. وليس لدينا من النصوص ما نستطيع معه ان نتوسع في الاجتهاد مطمئين. ولكن هنالك امران لا بد من الاشارة اليهما: اولهما ان ديوقليتيانوس الامبراطور أراد ان يعيد الى الامبراطورية وحدتها ومناعتها، والثاني انه كان يعاني الصعاب في وقف البرابرة عند الحدود وفي كبت عدوه ملك ملوك الساسان. ولعلنا رأى في انتشار النصرانية عامل تفكك في الداخل وخطراً على سلامة الدولة وخصوصاً لان النصرانية كانت قد دخلت فارس وان المانوية كانت تمت إليها بصلة قوية.

ولم يكن بإمكان ديوقليتيانوس ان يبيد جميع المسيحيين ويتقطع دابرهم لانه لو فعل لجعل مناطق ومناطق في الشرق قفراً من السكان. فأثر فيما

يظهر تدمير الكنيسة واخفاء معالمها وتخفيف المؤمنين والهبوط بهم الى اسفل الطبقات . وهكذا نراه في الرابع والعشرين من شباط سنة ٣٠٣ بأمر بمنع الاجتماعات المسيحية وبتخريب الكنائس وحرق الكتب وبشكران الدين المسيحي ، موعداً الاشراف المسيحيين والوجوه والاعيان بالخلع والاذلال ، مهدداً الوضعاء بالعبودية المؤبدة . ثم عاد في السنة نفسها فأمر بسجن الكهنة وباعدادهم ان هم ابوا ان يشتركوا في الذبيحة الوثنية . وزاد فأمر بوجوب نكران الدين الجديد . فكانت مذابيح ومذابح لم تنجح منها الا الاقاليم الغربية التي كانت آتت في عهد قسطنس والد قسطنطين الكبير . ويقال ان الفضل في ذلك يعود الى زوجته الاولى هيلانة التي كانت قد تقبلت النصرانية قبل زواجها منه . ويقول القديس يوسف المعاصر ان الرؤوس بُوت في العربية (البادية المناخلة للشام) ، وان السيقان قطعت في قبدوقية ، وان المؤمنين علقوا على الاخشاب بين النهرين واشعلت تحتهم النيران . ومما يقوله ايضاً ان عمال ديوقليتيانوس قطعوا الانوف والآذان والالسن وغرزوا القصب تحت الاظافر ودقوا الحديد في البطون .

والثابت الواضح في عرف البشر أجمعين ان الاضطهاد يقوي النفوس ويشدد العزائم فيثير في المؤمن صاحب العقيدة شعور التحدي ويحمله على التفتن في اساليب الوفاة والدعاية ويزوده بثل عليها يفاخر بها ويسعى لتحقيقها . وليس ابلغ اثرآ في تقوية الحاسة الدينية وتحويل الغيرة على الدين الى تنازع على المراكز واحداث الشقاق من تكريس الدين سياسياً وجعله ديناً رسمياً .

النظام والتنظيم : وكان السيد كما سبق ان أشرنا قد انقضى الرسل الاتني عشر والحق التلاميذ الاتنين والسبعين . وفي السنوات الاولى بعد وفاته تذر اليونانيون اليهود المسيحيون من العبرانيين المسيحيين اليهود ان

أراملهم كن^١ يُغفل عنهم في الخدمة اليومية ». فدعا الرسل جمهور التلاميذ وقالوا: لا يُرضي ان نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد. فانتخبوا اثم سبعة منكم مشهوداً لهم فنتقيهم على هذه الحاجة. ففعلوا ففصل الرسل ووضعوا عليهم الايدي. وهؤلاء هم الشمامسة^٢. ثم اقرأ في الفصل الحادي عشر والخامس عشر من اعمال الرسل عن كهنة يشرفون على الاعمال الخيرية ويجلسون مع الرسل للتشاور وحل بعض المشاكل^٣. واذا تدبنا بولس في رحلاته التبشيرية نجده ينتقي لكل كنيسة يرأسها شمامسة لخدمتها ويجلس كهنة لادارتها وقتاً اعلى مثله فيها كسيموثاوس وطيطس ولوقا وغيرهم. ونجده يبق على صلة بهذه الكنائس جميعها بوجهها ويجل مشاكلها. وكان طيميماً جداً ان يخلف الرسول في رئاسة كل كنيسة يرأسها مثله الاعلى فيها وان يكون لهذا الخليفة سلطة مستمدة من الرسول المؤسس. والواقع الذي تؤيده النصوص انه منذ منتصف القرن الثاني كانت قد انتظمت كل كنيسة مهمة حول رئيس لها دعي اسقفاً، وحول قسوس وشمامسة وشمامسات. ثم تعددت الكنائس فنكتلت في كل ولاية حول كنيسة عاصمتها تكتل المدن في تلك الولاية حول العاصمة. وتنهأت لاسقف كل عاصمة من عواصم الولايات زعامة على غيره من اساقفة ولايته. وفي اغلب الاحيان نجد اساقفة الكنائس التي كانت مبعث الحركة في عهد الرسل يتقدمون على غيرهم من اساقفة الولاية او الولايات المحيطة بهم شأن اساقفة رومة في ايطالية واساقفة قرطاجة في افريقية الشمالية واساقفة الاسكندرية في مصر وليبية والحبشة واساقفة انطاكية في سوريا ولبنان وفلسطين وغيرها واساقفة كورونثوس في اليونان وما جاورها. اما في آسية الصغرى فبان كثرة

١ اعمال ١٦٦ - ٩.

٢ ١١١ و ١٥ و ٢٠.

الكنائس التي فاخرت بشرف الانتساب الى الرسل قد حالت دون تزعم كنيسة واحدة على جميع الكنائس .

وكان طبيعياً ايضاً ان يتقدم اسقف رومة على غيره من الاساقفة لانه كان اسقف عاصمة الامبراطورية وخليفة الرسولين بطرس وبولس . وهو ما يجمع عليه علماء الكنيسة اجمعاً . ولكن هؤلاء يختلفون في صلاحيات هذا الاسقف . فالكاثوليكيون منهم يرونه مطلق الصلاحية والسلطة خليفة السيد على الارض منذ اوائل تاريخ الكنيسة . ويستدلون على هذا بالآية : « انت الصخرة » ، وبقول الآباء الاقدمين كالقديس اقليمندوس الروماني والقديس اغناطيوس الانطاكي والقديس ايرينيوس اليوناني وغيرهم . والارثوذكسيون منهم يرون في الصخرة صخرة الايمان ويرون في اقوال القديسين ما يوجب تقدماً في الكرامة لا في السلطة ، ويخرجون بمرود كلمة Principatum في هذه الاقوال عند الاشارة الى صلاحيات اسقف رومة . وهذه الكلمة تعني في رأيهم تصدر في المجالس لا السلطات المطلقة^١ .

وقدس المسيحيون في عهدهم الاول السبت لا الاحد . ولم يصبح الاحد يوم الرب قبل القرن الثاني . وكانوا يشتركون جميعاً في عشاء واحد مرة في الاسبوع او اكثر ، فيستمعون لقراءة الاسفار وينتهون بعد العشاء بقيلة المحبة « الأعبة » . وكان على المؤمن ان يتنح عن التقيل اذا شمر بالذمة . وكان على المؤمنين ان يستقن شعورهم بغطاء او ان يقصن شعورهم اذا استنقطن الغطاء . وكانوا اذا اجتمعوا للصلاة استمعوا لقراءة الاسفار وللعظة الاسبوعية واشتركوا في ممارسة الاسرار وتنبأوا رجالاً ونساءً .

Adv. hear III : (propter potentiolem principatitem)

Epître 65,4 : (principatum)

وكان الكاهن أو احد المتقدمين فيفسر هذه النبوءات على ضوء الدين
والخلاص . وقيل انتهاء القرن الثاني اتخذت العبادة المسيحية شكلاً منظماً
مع ما في ذلك القراءات والصلوات والذبحة الالهية . وبقي هذا النظام معمولاً
به على سبيل العرف حتى صاغه القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩)
والقديس يوحنا الذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) ، فقبِلوا واخذوا شكله الحالي .
ونقطة خدمة خاصة بيومي الاربعاء والجمعة في اثناء الصوم يعود الفضل في
اعدادها الى القديس غريغوريوس الذيالوغوس (٣٤٠ - ٤٠٠) . ونجد المسيحيين
الاولين يقولون بالاسرار الثلاثة : المعمودية والتناول والكنهوت ، فالسبعة :
المعمودية والمسحة والتناول والتوبة والكنهوت والزيجة والزيت المقدس .
وعني المسيحيون الاولون بالموتى لانهم قالوا بقيامة الجسد فمارسوا طقوساً
معيّنة لهذه الغاية وتولى الاكليروس الدفن باشراف منهم .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان المسيحيين الاولين كانوا مثال التقوى
والصلاح ، وان الايمان بالمسيح وبقرب عودته ليدين الاحياء والاموات كان
اعمق اثرآ في نفوس اهل ذلك العصر من الايمان بالآلهة القديمة ، وان الرسل
بلغوا النجاح حيث اخفق كبار الفلاسفة . وما يجدر ذكره بهذه المناسبة
ان الآباء المؤسسين حرّموا الاجهاض وقتل الاطفال . وانهم لموا اللقطاء
وعمّدهم باسم الرب وربهم على نفقة الكيسة . وانهم حضوا المؤمنين على
العفة والبتولية واساغوا الزواج لمن خشي العنت فقط . وانهم لم يرضوا
عن زواج الارامل ولم يأذنوا بالطلاق الا بين الوثني والنصرانية . ومما
ثبت استقامة المسيحيين الاولين وصلاحهم شهادات الوثنيين انفسهم .
فبليتيوس الاضرر وجد نفسه مضطراً ان يقول للامبراطور تريانوس ان
المسيحيين عاشوا عيشة مثلية مسالمة . وقال غالينوس العالم انهم توصلوا الى
درجة من ضبط النفس وممرو الاخلاق اصبحتوا بعدها لا يقولون عن الفلاسفة
الحقيقيين في شيء . وادى الشعور بينهم بالخطيئة وبقرب انتهاء العالم ومجيء

الديان الى رغبة في الطهارة والى اجتناب كل لذة من لذات الجسد .
فكبحوا شهواتهم بالصوم ورياضة الجسم على العذاب ، وصدفوا عن الموسيقى
والأكل الشهية والحمامات الساخنة ، وارسلوا الشعور واللحى .

آثار المسيحيين الاولين : وحدث السيد ولم يدون . وآثروا المسيحيون
الاولون السماع على القراءة ، ولا عجب . بيد ان ظروف التبشير قضت
بالتدوين . فالمؤمنون تفرقوا منذ السنين الاولى وتباعدوا . واليونانيون
وغيرهم ممن دخل في الدين الجديد لم يكونوا يفهمون الآرامية . فكان لا بد
من التدوين . واقدم ما دون انجيل متى . والانجيل لفظ يوناني معناه البشرى .
ومنى عشائر يهودي تبع السيد واصبح احد الرسل الاثني عشر . ويستدل
من اقوال بعض الآباء كإيريناوس ولاسيا بايلاس (١٣٠) ان متى تولى
تبشير اليهود ، فكتب انجيله لهم بالآرامية ، وذلك بينما كان بطرس وبولس
يعملان في رومة (٥٠ - ٥٥) . وفي تضاعيف هذا الانجيل ما يدل على
انه كتب لليهود . فهناك سند طويل يصل نسب السيد بدوود الملك ،
وقد تفاصيل تجعل من سيرة السيد تكملة لنبوءات التوراة وما الى ذلك .
وقد ضاع الاصل الآرامي وبقيت ترجمته الى اليونانية .

وكان بطرس يجمل اليونانية ولا يعرف سوى الآرامية . فلما قضت
الظروف بذهابه الى رومة وبإقامته فيها استدعى اليه يوحنا الذي كان
يدعى مرقس ليتوكل له بين الرومانيين وسكان رومة . ومرقس هذا هو في
الارجح ابن مريم التي آوت المسيحيين في بيتها في القدس في السنة ٤٤
بعد الميلاد . وقد يكون هو الذي اشير اليه في الاصحاح الخامس عشر من
انجيل مرقس : « وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشاب .
فترك الازار وهرب منهم عربان » . وكان مرقس من يهود قبرص يتكلم
اليونانية . وقرأ ويكتب فالتحق ببرنامجا وبولس . وبعد وفاة الاول انتقل
الى رومة ليعمل مع هامة الرسل . ودون سيرة السيد بطلب من اهل

رومة بين السنة ٥٥ والسنة ٦٠ وذلك كما سمعنا من ثم بطرس بدو
زيادة ولا نقصان . ويقول القديس بايلاس ان مرقس كتب جميع ما ذكره ،
ولكن ليس بالترتيب الذي اتبعه السيد في اعماله واقواله . فبطرس الرسول
تكلم بحسب ما دعت اليه الحاجة ودوناً تقيد بتسلسل الاحداث .

وفي السنة ٦٤ بعد الميلاد ساد الاوساط المسيحية الموجبة شعور بالحاجة
الى سيرة مرتبة منظمة ، مكتوبة بلغة واضحة مضبوطة ، وباسلوب رائق
جذاب ، يستهوي العقول ، وينشط الهمم . وكان بينهم رجل عالم ولد
في انطاكية ، ونشأ فيها ، وتعلم الطب وعمل به ، فأشاروا عليه بالامر .
فاطلع على ما كتبه متى ومرقس ، وسمع ونحروا . ولعله اتصل بالسيدة
نفسها واخذ عنها . وكان قد رافق بولس في رحلاته وفهم منه أشياء
واشياء . فجاء انجيله تاريخياً رسمياً ، واثراً ادبياً . هو لوقا الطبيب الذي
اشار اليه بولس في رسائله مراراً . وكانت قد جاء رومة بصحبة معلمه
فراى هذا ان توجه الكلمة الى الاوساط العالية في رومة وان تحبب اليها .
فظهر هذا الانجيل بجلته القشبية بين السنة ٦٤ والسنة ٧٠ بعد الميلاد . ومن
هنا في الاربع قول القديس ايريناوس ان الانجيل لوقا هو انجيل بولس . ويرى
رجال الاختصاص علاقة وثيقة بين هذا الانجيل وبين سفر اعمال الرسل من
حيث جوهر الرسالة واللغة والاسلوب ، فينسبون سفر الاعمال ايضاً الى لوقا
الطبيب . ولما كانت اخباره تنتهي عند السنة ٦٣ الى ٦٤ فأنهم يرون انه
كتب في هذا الوقت نفسه .

ومن آثار هؤلاء المسيحيين الاولين رسائل بولس الرسول الى اعلى
رومية وكورنثوس وغلاطية وافسوس وفيلبي وكولوسي وثيموثيكية ثم
رسائله الى تيموثاوس وتيطس وفيليمون . وجميعها دون ما بين السنة ٥٣
والسنة ٦٦ بعد الميلاد . وفيها الشيء الكثير من شرح رسالة السيد وتفصيل
العقيدة . فاما الرسالة الى العبرانيين فقد تكون له وقد لا تكون . ومن

هذه الآثار التي تركها المسيحيون الاولون رسالة يعقوب اخي الرب
واسقف اورشليم وهي تصور شدة ايمانه وسمو اخلاقه . ورسالتا بطرس
الاولى والثانية ، ورسائل يوحنا الرسول الثلاث ، ورسالة يهوذا .

ويجمع علماء الكنيسة بفرعيها الرئيسيين الارثوذكسي والكاثوليكي على ان
الانجيل الرابع هو ليوحنا الحبيب ويرون في دقة المعلومات الجغرافية التي
وردت في هذا الانجيل عن القدس وفلسطين كما يرون في شدة العاطفة التي
تضمنها نحو شخص السيد ما يؤيد التقليد الموروث ان كاتب هذا الانجيل
وسفر الرؤيا هو يوحنا الحبيب نفسه . كتب سفر الرؤيا في اثناء اقامته
الجزيرة في جزيرة بافوس بين السنة ٩٣ والسنة ٩٦ وكتب الانجيل بعد انتقاله
الى افسس بين السنة ٩٦ والسنة ١٠٤ . وكان يوحنا قد اشرف على نهاية
عمر طويل وسمع انتقادات الفلاسفة ولمس بعض الشذوذ في العقيدة فجاءت
كتابته فلسفة مسيحية دون فيها ذكريات شخصية صدر فيها عن حب
خالص للسيد . وما زالت عباراته المملوءة حباً وعطفاً تهز القارئ حتى
يؤمن هذا . « وهو ايضاً الذي اتكأ على صدر السيد وقت العشاء وقال :
يا سيد من هو الذي يملكك ؟ » وهو ايضاً ذاك الذي قال عنه يسوع مخاطباً
بطرس : « ان كنت اشاء انه يبقى حتى اجيء فماذا بك ؟ »

هذا وليس لدينا من آثار هؤلاء المسيحيين الاولين اثر مادي سوى ما حفظته
جدران مدافن رومة من صور الصليبان والحمام وجذوع النخل وغصون الزيتون
والاسماك وجميعها يعود الى القرن الثاني . وليس بينها ما يستوجب الايضاح
سوى السمكة . وهذه كانت تذكر في الاوساط المسيحية الاولى بالآية :
« يسوع المسيح ابن الله المخلص . » وتفسير هذا مرده الى العبارة اليونانية :
Iesous Christos Theou Uios Soter فجميع الحروف الاولى من هذه الكلمات
اليونانية بشكل اللفظ اليوناني i - ch - th - u - s ومعناه السمكة .

الفصل الثالث

الدولة الساسانية

(٢٢٤ - ٣٠٢ م . ب . م)

تمهيد : ونظراً لتراخي اطراف المملكة السلوقية من الهند الى سواحل بحر ايجة صعب ضبط شؤونها . فنهضت ولاياتها النائية واعلنت استقلالها . فاستقلت الهند اولاً بزعامة تشندراغوبته في السنة ٣١٧ قبل الميلاد اي بعد الفتح الاسكندري بعشر سنوات فقط . ثم استقلت فارس وما يليها بزعامة الامير الفرقي السكيثي أرساس الاول في السنة ٢٥٥ قبل الميلاد . ولا نعلم الشيء الكثير عن هذه الدولة الفرثية اذ تكاد مراجعنا الاولى تنحصر في ما تبقى من نقود ملوكها . وحدث ما وصل اليه رجال الاختصاص هو ان هؤلاء الفرث كانوا ايرانيين كساثر العناصر الايرانية لا يختلفون عنها بشيء الا ببداوتهم وفروسياتهم وشجاعتهم المتناهية في الحرب . ومائتي ملوك الفرث غيرهم من ملوك عصرهم في تقبل المدنية الهلينية فتكثروا بالالقب اليونانية واستعملوا اللغة اليونانية في سك نقودهم . فوصف مترادانوس الاول وبعض خلفائه انفسهم بالالقب نفسها التي تلقب بها زملاؤهم ومعاصروهم في انطاكية والاسكندرية . وهنا يجب الملاحظة ان

Philhellene, epiphaue, evergete, dikaios.

الشعب والحكومة تكلموا باللهوية وكتبوا بها وبالآرامية . وامتدت سلطة
 ملوك الفرت من الفرات حتى الهند ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي .
 واشهر ملوك الفرت أرساس الاول (٢٥٥ - ٢٤٧ ق . م) وأرساس
 الثاني والثالث (٢٤٧ - ١٩٦ ق . م) ومثراداتوس الاول (١٧٤ -
 ١٣٦ ق . م) وخسرو او ارساس الخامس والعشرون (١٠٧ - ١٢١ ب . م)
 وآخرهم ارتبان الخامس او ارساس الثلاثون (٢١٥ - ٢٢٦ ب . م) .
 قيام الدولة الساسانية : وكان نظام الحكم في الدولة الفرتية اقطاعياً
 في اسمه يرتكز على زعامة بعض الاسر وعلى عبودية الشعب . وكان بين
 هذه الاسر بنو داريا ف او أرغشطر الذين حكموا مقاطعة فارس من
 اصطخر . وكانوا محافظين مستمسكين بتقاليد فارس القديمة مؤثرين لغتها
 واللغة الآرامية على اليونانية كما يستدل على ذلك من نقودهم . وفي السنة
 ٢١٢ بعد الميلاد قام باباغ احد اشراف هذه المقاطعة بثورة محلية اوصلته
 الى الحكم فيها . وقام ابنه اردشير في السنة ٢٢٤ بعد الميلاد بثورة كبرى
 وواقع ارتبان الخامس آخر ملوك الفرت في الثامن والعشرين من نيسان من
 تلك السنة نفسها في هورميرداغان فتغلب عليه ودخل طيسفون عاصمة
 ملكه منتصراً . ولم يمض وقت طويل حتى دانت له مقاطعات الفرت
 جميعها : ميديا وسيساتنة وخراسان ومرجيانة وأرية . واعترف بسيادته
 الكوشان في افغانستان والبونجاب . فأسس بذلك الدولة الساسانية نسبة
 الى ساسان احد الاجداد واتخذ لنفسه لقب شاهنشاه وتعريبه ملك الملوك .
 وكان يدعى بالآرامية ملكان ملكه . ولا تزال النقوش القائمة بالقرب من
 اصطخر كنقش وجب ونقش رسم تظهر لنا اردشير المؤسس يتسلم سلطته
 من اكبر الآلهة اهورا مزدة . ولا تزال تقرأ على نقوده الباقية هذه

العبارة : « خادم مزدة » .

وهكذا تميزت الدولة الساسانية الجديدة منذ بداية عهدها بتمسكها بالدين القومي وتعاونها مع رجاله . والدين القومي هذا هو دين مزدة او زورواستر (زرادشت) قال بتزاع دائم بين الخير والشر وبوجود فئة من الكائنات الصالحة تقاومها فئة اخرى من الكائنات الشريرة لنفسد عليها عملها . ومثل الخير في هذا الدين شخص الهي مزدة او اهرومزدة ومعناه رب الحكمة وكان يحيط به ملائكة اعظمهم النور مئراس . ومثل الشر فيه اهرمان الشيطان . وكان على كل انسان ان يختار احد امرين اما ان يلا نفسه من الصلاح والنور او ان يقيم في الشر والظلام . واي الامرين اختار فقد كان لابد له من دينونة في المستقبل . وزورواستر مؤسس هذا الدين عاش حوالي السنة الف قبل الميلاد وطاف يبشر الشعب الايراني بديانته اغواها عدة . وحافظ على احترام النار الآرية كرمز محسوس للصلاح والنور . وأوصى بالمحافظة على ايقادها بحيث لا تنطفئ .

وانتظمت امور كنيته مزدة في عهد الدولة الساسانية فكانت بينهم الكاهن العادي « الموغان » . وكان على عدد من هؤلاء في كل مقاطعة رئيس دعي « موباذ » . وكان على كل هؤلاء بدورهم رئيس اعلى اطلق عليه لقب « موباذان موباذ » . وكان بين احوال اردشير الاول مؤسس الدولة ان نفع كتاب الحكمة الالهية « الفبسته » (الزند) . وجمع ابنه وخلفه سابور الاول مجعاً دينياً نفع الشرائع الدينية واقراها واوجب العمل بها . وكان القول المأثور بين رجال الفرس آنئذ ان الدولة والكنيسة شقيقتان لا تنفصلان ، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة . وأصبح واجباً لازماً على الشاه ان يتسلم تاجه من يد زميله الكبير رئيس كنيسة الدولة الموباذان مباد .

وعظمت شوكة الشاه الساساني ففاقت سلطة زميله الاراساسي . وبقي

النظام الاقطاعي سائداً في البلاد وبقي النفوذ الاعلى في يد سبع عائلات اقطاعية من الاشراف كما كان الامر في عهد الارساسيين . ولكن هذا النفوذ وذلك الاقطاع أصبحا خاضعين خضوعاً تاماً لمشيئة الشاه . وضبطت ادارة الولايات وأصبح حكامها المرازبة خاضعين لتفتيش متصل من قبل الحكومة المركزية . وكان يجب على الشاه الساساني الايراني النزعة ان يحكم بلاده من اصطخر المدينة الايرانية ، ولكن علاقاته السياسية قضت عليه باتخاذ نقطة اقرب الى حدوده الغربية فعاد الى طيسفون العاصمة الارساسية وجعلها مقراً له وقاعدة لحكمه .

وادعى اردشير مؤسس الدولة انه متحدر من هكافيش صدر الاسرة المالكة الاولى وجد قورش الاول ، وزعم ان له حقاً في حكم جميع آسية الغربية ومصر لانها خضعت جميعها لقورش وخلفائه . ولا تزال نقرأ حتى ساعتنا هذه في السكارنامه البهلوية والشاهنامه الفردوسية ان الساسانيين اخفاد لداريوس ، فلا غرو اذا رأينا هؤلاء بحاربون رومة وريشة الاسكندر وخلفاءه ليستجمعوا ما اغتصب منهم اغتصاباً .

وعني الساسانيون بالخيال عناية فائقة جاءت في طبيعة الامور لان واسط آسية موطن الخيل وبلاد الدروع والنصال . وأصبح جيشهم جيش خيالة في قلبه وجناحيه . ولم يدرّبوا المشاة ولا نظموم ولا سلحوم باكثر من ترس من الجلد . وكان تكتيكهم في غالب الاحيان يقوم على حشد خيالة القلب خشداً متراصاً بقوة وعلى دفع هذا الحشد في هجوم متراص خاطف غاية غر مراكز العدو منذ اللحظة الاولى . وكانوا يحتاجون دائماً بحفظ قوة من القبلة في ساقه الجيش يدفعون بها الى نقاط معينة في الجبهة عند الحاجة . وكان الفارس الساساني يرتدي درعاً من الحديد او البرونز تغطي جسمه بكامله ، ويلبس حصانه مثل هذه الدرع (التجافيف) . اما تركيب هذه الدروع فمن قطع مستطيلة من الفولاذ او البرونز طول الواحدة منها عشرون

سنتيترآ وعرضها خمسة . ويعلو هذه الدروع عند العنق ذيق من الحديد
او البرونز يغطي العنق والرأس . ثم تعلو هذه كلها خوذة من الحديد
مزينة بأوشحة من الحرير الملون . وكان الفارس الساساني يستعين بقناة
طولها متران وسيف طويل وقوس ونشاب وفأس فولاذية يعلقها في طرف
خوذته الى وراء . وتدل بقايا بعض هؤلاء الفرسان في الصاحية عند الفرات
ان حائلهم كانت مرصعة باليشب الصيني . وكان القائد الساساني قبيل بدء
القتال يذهب الى اقرب ماء فيسكب فوقه قليلاً بما يحمل من الماء المقدس
ثم يرمي النبلة المباركة . وعلى الاثر يصفّ جيشه للقتال ويأمر بالنفخ في
الناي الفارسي والمناداة بالعبارة البهلوية « مرد و مرد » ومعناها « رجل
لرجل » . وكانت يتكرر هذا القتال الفردي قبل التحام الجيشين . وكان
الجيش يسمى جندياً ، كل جند يتألف من عدد من الدرفشات ، والدرفشة
من عدد من الفشتات . وكان على رأس كل جند ، جند سالار .

وقدّر لشابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢) ابن اردشير الاول ان ينتصر
على رومة اكثر من مرة . ففي السنة ٢٥٣ بعد الميلاد طرد ثيريدانس
الثاني ، ملك أرمينية وعيل رومة ، من بلاده ، وأقام محله اميراً خاضعاً
لسيادة فارس . ثم كسر فاليريانوس الامبراطور في السنة ٢٦٠ عند الرها
وأمره . ثم تابع الفتح فدخل انطاكية وطرسوس وقيصرية قيساريّة ،
ولكنه لم ينجح من ضربة مؤلة سددها اليه أمير تدمر العربي أذينة بن
حيران . أما فاليريانوس الذي أسره شابور عند الرها ، فقد لقي حتفه اسيراً
عند القوس . وقام من اسر معه من الجنود بأعمال عمرانية في فارس
اشهرها جسر جند شابور . وظهر ماني ودعوته ، وكثر اتباعه ، فشغل
شابور وبعض خلفائه عن محاربة رومة . وانهمكت رومة في متاعب اخرى
كما اوضحنا فيقي الفرات ردياً من الزمن وهو الحد الفاصل بين الدولتين .
ماني ودينه الجديد : هو ماني بن بابك ولد في « ماردين من اعمال

بابل « في السنة ٢١٥ بعد الميلاد . وتلقى روحياً لأول مرة في الثالثة عشرة من عمره ثم في الخامسة والعشرين أي السنة ٢٤٠ بعد الميلاد . وعلم وبشر في طيسفون أولاً وخص شابور بأحدى رسائله الأولى . وقال بسبيين أصليين : النور والظلام ، وبظروف ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . والنور والظلام عند ماني كائنان مستقلان منفصلان منذ الأزل . ولكن الظلام غزا النور في الماضي وأصبح بعض النور يمتزجاً بالظلام وهذه هي حالة عالمنا في الحاضر . ثم يخلص ماني إلى القول ان لا بد من تنقية النور من هذا الظلام كي يعود النور والظلام إلى الانفصال التام كما بدأ . والله هو سيد عالم النور والشیطان سيد عالم الظلام . وعندما غزا الظلام النور لم يستطع سيد النور ان يستعين بالفرانتيق الخمسة : الفهم والعقل والفكر والتفكير والإرادة لان هذا الغزو كان مفاجئاً لها فذهرت واضطربت .

فخلق سيد النور أم الحياة التي ولدت الانسان وسلّحه بالعناصر الخمسة : النور والريح والنار والماء والهواء ليستعين بها في محاربة الظلام . هذا بعض ما قاله ماني عن الماضي . فاما في الحاضر فإن قوى النور بحسب عقيدته قد ارسلت النبيين بوذا وزورواستر ثم يسوع . وهو أهم الجميع . والعالم عنده ينتهي في المستقبل بثوران هائل وسقوط عظيم . فيصعد الصالحون في الفضاء إلى أعلى ، والاشرا ريهطون إلى ظلام دائم . ويرى رجال الاختصاص الذين وقفوا إلى درس ما بقي من رسائل ماني في تركستان وفي كتاب الفهرست لابن النديم وفي أوراق البردي في مصر ان المانوية تفرعت عن المسيحية لا الوثنية وخصوصاً لانت ماني اعترف بصحة الاناجيل الاربعة ورسائل بولس الرسول ، وقال انه البارقليس المنتظر .

وانتظم المانويون في « كنيسة » واحدة مؤلفة من طليقتين المنقبتين المصطفين والمستمعين . وكان على رأسها بادي . ذي بدء رسل اثنا عشر ثم تلاميذ ستون ثم اساقفة وكنهنة وشمامسة ورهبان . وكانوا يجتمعون في كل احد

للصلاة والتبريل وقرآنة الاسفار . وقد انتشرت تعاليم ماني في بابل اولاً ثم في سورية وفلسطين والعربية ومصر وأفريقية الشمالية . وكان بين الذين آمنوا بها القديس اوغوستينوس الشهير فانه واظب على دوسها والعمل بها تسع سنوات متواليات . وانتشرت المانوية في فارس واواسط آسيا . وسكت عنها شاپور الاول لرحابة صدره واتساع افقه . ولكن كهنه مزدة قاوموا هذه التعاليم مقاومة شديدة فاضطر ماني ان يفادر فارس الى الكشهير فتركستان فالصين .

وتوفي شاپور الاول في السنة ٢٧٢ وتوفي ابنه وخلفه هورمزد الاول في السنة ٢٧٣ وتولى العرش بعدهما بهرام الاول فظن المانويون ان سيتاح لمعلمهم ان يعود الى وطنه ويعيش بامان وحرية . ولكنه اغتيل وحوكم وصلب وسلخ جلده وحشي قشاً في السنة ٢٧٥ بعد الميلاد .

بهرام الثاني : (٢٧٦ - ٢٩٣ ب . م) وأهم اخباره انه كان شجاعاً نشيطاً فحارب رومة في عهد كاروس الامبراطور ولكنه غلب على امره فتراجع امام الرومان حتى طيسفون . وتوفي كاروس فجأة فتهتم الرومان بدورهم ولكن بهرام لم يستطع استغلال الموقف لاندلاع ثورة في ولاياته الشرقية اشعلها اخوه هورمزد . فصالح الرومان في السنة ٢٨٣ على ان يستولوا على ارمينية ومسا بين النهرين وذهب الى خراسان بنازل اخاه فانضمه وعين ابنه ولي عهده بهرام والياً محله ومنحه لقب « ساغان شاه » . وكانت قد جرت العادة فيما يظهر ان يلقب ولي العهد ملكاً على آخر ما افتتح من الممالك او على أهم الولايات .

بهرام الثالث ونوسي الاول : (٢٩٣ - ٣٠٢ ب . م) وتولى العرش بعد بهرام الثاني ابنه بهرام الثالث ولم يطل ملكه فيما يظهر اكثر من اربعة اشهر . فأب نوسي عمه الاكبر وابن جده شاپور الاول اغتصب الملك اغتصاباً . ودخل نوسي في حرب ضد رومة فاحتل ارمينية وتوغل في

سورية الشمالية ولكن ديوقليتيانوس الامبراطور امد غلايوس القيصر بالسلاح
والرجال فانتصر على نرسى انتصاراً باهراً في ارمينية وأسر حرم الشاه
واولاده ثم تابع الزحف حتى استولى على طيسفون العاصمة في السنة ٢٩٦
بعد الميلاد . وارسل نرسى معتمداً من قبله ليهربان يفاوض الرومانيين في
انطاكية . وأرسل ديوقليتيانوس السكرتير الامبراطوري سيتوريوس
بروبوس يفاوض ويوقع . فتم الاتفاق على الاعتراف بسلطة الشاه في ما
بين النهرين وبحماية رومة على ارمينية . وجعلت نصيبين مركزاً للعلاقات
التجارية بين الامبراطوريتين .

الباب الثاني أصل الدولة ومنشأها

الفصل الرابع قسطنطين الكبير والقسطنطينية

قسطنطين الأول الكبير : هو قسطنطين بن قسطنديوس كلوريوس Constantius Chlorus من زوجته هيلانة . ولد في نيش من أعمال يوغوسلافية حوالي السنة ٢٨٠ بعد الميلاد . وقد اختلف في اصل والدته . فهي اما افاضولية بلقانية ، في بعض المصادر ، او سورية رهوية ، في البعض الآخر . نشأ قسطنطين في نيوميديا في حاشية الامبراطور ديوقليتيانوس والتحق بالجيش في الثامنة عشرة من عمره . وأظهر شجاعة وبأساً وحسكة ودراية فزقي الى رتبة قائد في الثامنة عشرة . وكان ان استقال ديوقليتيانوس وتولى غلاريوس مكانه ففصل قسطنطين عن الجيش وابقاه في معيته لتعلق الجند به واستبسالهم في سبيله ، ولتخوفه مما قد ينتج عن هذه السيطرة على الجند . ويروي ان غلاريوس حاول اهلاك قسطنطين ، فأمره بمصارعة اسد مرة ، وجبار من السراطة مرة اخرى ، ولكن قسطنطين نجا من المقتلين . ثم استدعاه والده قسطنديوس قيصر فالتحق به . وكان قد تولى الحكم في

غالية واسبانية وبريطانية .

وكان قسطنطين طويل القامة ضخيم الجثة ممثلي البدن حين الاطراف كبير العينين عابساً مقطعيّاً ثابت العقد صاخي العزيمة . ولكنه كان في الوقت نفسه سهل الانقياد كثير التخلي . وكان واسع الخلق رحب الصدر حلیم الطبع ولكنه يجمع الى ذلك سرعة البادرة وشدة الغضب . وجاء ايضاً انه كان متواضع النفس وشديد الكبرياء في آن معاً .

اخباره الاولى : وأراد ديوقليتيانوس الامبراطور ان يجعل جلوس الامبراطور امراً مديناً لا علاقة له بالجيش . فجعل للدولة الرومانية امبراطورين وجعل لكل منهما قيصراً يعاونه في الحكم ويحل محله عند الوفاة او اعتزال الوظيفة . وطبق هذا النظام الجديد . فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم . وحكم هو الشرق متخذاً نيوميدية قاعدة له ، وحكم مكسيميانوس الغرب وجعل قاعدته ميلان . ثم نصب غلاريوس قيصرّاً يحكم ايليرية واليونان ومقدونية واقام قسطنديوس كلوروس ابا قسطنطين قيصرّاً حاكماً على غالية واسبانية وبريطانية . فلما استقال الامبراطوران ديوقليتيانوس ومكسيميانوس في السنة ٣٠٥ تولى الحكم بعدهما بموجب النظام الجديد كل من غلاريوس في الشرق وقسطنديوس في الغرب . وعين الامبراطوران الجديدان قيصريين جديدين سوريوس على ايطالية وافريقية ، ومكسيميانوس على سورية ومصر .

ثم توفي قسطنديوس الامبراطور الغربي في السنة ٣٠٦ في يورك من اعمال بريطانيا . فعبث ابنه قسطنطين بالنظام الجديد وأعلن نفسه قيصرّاً على غالية واسبانية وبريطانية . ولم يرض الخرس في رومة عن غلاريوس فنادوا بمكسنتيوس بن مكسيميانوس امبراطوراً . وعادت شهرة الحكم الى قلب مكسيميانوس الوالد المستقل ، فأعلن نفسه امبراطوراً ايضاً . وأصبح للدولة الرومانية اباطرة ثلاثة وقياصرة ثلاثة . وثار جنود سوريوس عليه فقتلوه . فعين

غلاوريوس قيصرًا جديدًا محله يدعى ليكينيوس . وقُبض على مكسيميانوس في مرسيلية في السنة ٣١٠ فقتل بامر قسطنطين في السنة ٣١١ وتوفي غلاوريوس في هذه السنة نفسها من مرض الممّ به . ثم زحف قسطنطين على ايطالية وقهر مكسنطيوس في تورينو في السنة ٣١٣ فارتد هذا الى رومة . فلاحق به قسطنطين ودحره مرة ثانية في ساكسة روبرة عند الصخور الحمراء . وغرق مكسنطيوس في نهر التيبر . فلم يبق في الميدان سوى قسطنطين وليكينيوس . فحكم الاول الغرب وحكم الثاني الشرق . ثم شجر الخلاف بينهما في السنة ٣١٤ فاضطر ليكينيوس ان يتنازل عن ايليرية ومقدونية وآخية لقسطنطين . واستأنف الامبراطوران القتال في السنة ٣٢٣ فانكسر ليكينيوس في ادرينوبل وخلقيدونية واستسلم في نيقوميذية . فأمر قسطنطين بقتله، فقتل في السنة ٣٢٤ . وهكذا أصبح قسطنطين حاكم الامبراطورية الفردية . موقفه من النصوانية : والشائع الذي دونه المعاصرون^١ هو ان قسطنطين في شفق ليلة من ليالي حربه ضد مكسنطيوس في خريف السنة ٣١٢ شاهد فوق قرص الشمس الجائحة الى المغرب صليبا من نور مكتوبا عليه « بهذا تغلب »^٢ . وان السيد ظهر له في اثناء تلك الليلة حاملا هذه الشارة نفسها موضعيا اياه بانحاذها راية يهجم بها على العدو . وتنص هذه المصادر ايضا على ان قسطنطين استدعى اركانه عند فجر اليوم التالي وقص عليهم ما راي وأمر بانحاذ الصليب شعارا . ورواية قسطنطين هذه التي اصبحت فيما بعد راية دولة الروم كانت تتألف من صليب تتسدل من عارضته الافقية قطعة من الحرير المزركش بالذهب المرصع بالحجارة الكريمة

١ Saxa Rubra وهي Prima porta الحالية .

٢ Lactantius, De Mortibus Persecutorum; Eusebius, Constantini, I, 38-40.

٣ هكذا في الاصل اليوناني وفي المراجع اللاتينية : IN HOC SIGNO VINCES

Labarum.

تحمل صورة قسطنطين وولديه ويعاى الصورة اكليل من ذهب في وسطه
مونوغرام السيد المسيح .

وبما جاء في المصادر المتأخرة ان قسطنطين تقبل سرّ المعمودية بعد
انتصاره على مكسنطيوس في السنة ٣١٢ نفسها . ويرى العالم الافرنسي جول
موريس الاختصاصي في المسكوكات البيزنطية القديمة ان لا بد لقسطنطين
ان يكون قد تعمد آتئذٍ لظهور مونوغرام السيد المسيح على مسكوكاته
ولاهتمامه وعنايته بالنصارى بعد ذلك ولاسباب اخرى لا مجال لذكرها هنا
فلترجع في مظانها . ويرى غير هذا العالم من رجال الاختصاص ايضاً ان
دليله ضعيف وان المراجع الاولى قليلة غامضة وان قسطنطين بقي وثنيّاً
طوال حياته وانه لم يتقبل النصرانية الا على فراش الموت^٢ .

براءة ميلان : وسواء تقبل قسطنطين المعمودية فور انتصاره على
خصمه في رومة في السنة ٣١٢ ام على فراش موته فانه ما كاد يرتب امور
رومة حتى انتقل الى ميلان في مطلع السنة ٣١٣ ليجتمع بزميله ليكينيوس
وكان هذا قادمّاً الى ميلان ليتزوج من قسطنديـ Constantia اخت
قسطنطين . وبقي الامبراطوران شهرين كاملين يشتركان في ميلان في افراح
العرس ويتشاوران في امور الدولة .

وكان غلاريوس الامبراطور قد اصدر قبيل وفاته في السنة ٣١١ براءة
صفح فيها عما سلف للمسيحيين من مخالفات لاوامر الدولة واقرحتهم الشرعي
في ممارسة دينهم : « وللمسيحيين ان يستمروا في الوجود وان ينظموا
اجتماعهم شرط الا يخلتوا بالنظام . وعليهم بناءً على تسامحنا وتعطفنا ان
يصلوا الى المهم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم^٣ . » ورأى

Maunrice, Jules, Constantin le Grand, 30-36.

Vasiliev, A.A., *Ist. Emp.*, 48.

Lactantius, *De Mortibus Persecutorum*, 34 : 4-5.

Eusebius, *Historia Ecclesiastica*, viii, 9-10.

١

٢

٣

الامبراطوران المجتمعان ان يشددا في تنفيذ هذه البراءة . فكتب كل منها الى عماله بوجوب السهر على التنفيذ . ولدى عودة ليكيوريوس الى نيقوميذية كتب الى حاكمها في الثالث عشر من حزيران سنة ٣١٢ ان يبيح للمسيحيين ولغيرهم ايضاً العبادة كما يشاؤون وذلك ليصبح كل انسان حراً في امر عبادته^١ . ورد للمسيحيين الابنية والكنائس التي كانت قد صودرت من قبل . وفي خريف السنة ٣١٥ أحيا قسطنطين اوامر اسلافه الاباطرة فحرّم التبشير باليهودية والدعاية لها^٢ . ثم بعد سنة وجد نفسه في ميلان مرة اخرى لينظر هذه المرة في امر الوثنيين فيحكم عليهم . وفي اول اذار من السنة ٣١٧ تلقاه في سرميوم في إيليرية يعان ابنه كريستوس وقسطنطين الاصغر قيصرين وذلك في الوقت نفسه الذي اعلن فيه زميله ليكيوريوس ابنه ليكينيوس قيصرأ ايضاً . ونراه يتقبل بهذه المناسبة الحرفين اليونانيين « خي » و « ايوت » ، فيأمر بنقشهما على خوذته في النقود الصادرة عنه . وهذان الحرفان هما مونوغرام السيد المسيح باليونانية . وفي السنة ٣٢٦ بعد تغلبه على زميله ليكينيوس نراه يتخذ لنفسه علم اللبّاروم الشهير المشار اليه آنفاً فيظهر على رأس هذا العلم المونوغرام المسيحي المذكور .

مجمع نيقية : وعلى الرغم من هذا كله استمرت سياسة الدولة الرومانية الدينية هي نفسها التي اقوت في ميلان سنة ٣١٢ سياسة تسامح وتساوي بين جميع الاديان . واستمر الامبراطور قسطنطين حيو الدولة الاعظم يرعى جميع الاديان بالتساوي والتسامح . وهكذا نراه يعلن لجميع الرعايا بعد انتصاره على خصمه ليكينيوس انه وان يكن قد انتصر بجعونة اله المسيحيين فانه

Laetantius, op. cit. 48, 4-8 ; Eusebius, op. cit. X, 5, 6-9.

Cod. Theod., XVI, 18, 1.

لا يُكره أحدًا أن يذهب مذهبه وأن لكل من رعاياه أن يسع الرأي الذي يراه^١.

واختلف الأقباط المسيحيون في هذه الآونة واختصموا. واتصل خلافهم بالقساوسة والرهبان والأفراد. فاضطر قسطنطين الكبير أن يتدخل في الأمر لأنه كان جبر الدولة الأعظم ورأسها فمن واجبه أن يحافظ على الأمن وحرية العبادة ثم أنه كان يعطف على النصرانية ويعترف بفضلها النصراني كما أشرنا. وكان قد سبق له مثل هذا عند ظهور الدوناتية في أفريقية. ولكن الانشقاق الذي أدى إلى تدخله الشخصي هذه المرة كان أشد خطراً بما لا يقاس مما حدث في ولاية أفريقية. فانه حادث هدد السلم في الولايات الشرقية. وتفصيل الأمر أن آريوس Arius أحد قساوسة مصر وراعي كنيسة بوكاليس فيها قال بخلق الابن وخلق الروح القدس فانكر بذلك الروحية المسيح وأثار عاصفة هوجاء من الانتقاد والاحتجاج شملت العالم المسيحي بكامله. ولما تعلم الشيء الكثير عن آريوس هذا. نجعل محل ولادته وناريخها كما نجعل تفاصيل فلسفته الدينية. وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها إلا مقتطفات يسيرة جاءت في بعض الردود عليه ولاسيما ما كتبه القديس أناسيوس الكبير. ولولا تعلق المؤرخ يوسيبوس به لما حفظت رسائل قسطنطين عنه. وقد يكون لما أورده القديس امبروسيوس أهمية خاصة لأنه أطلع فيها يظهر على تقارير الاسقف هوسيوس الذي انتدب للتحقيق في قضية آريوس قبل انعقاد المجمع المسكوني الأول.

وهال قسطنطين أمر هذا الانشقاق. وكان يجلس أسقفًا إسبانيًا يدعى هوسبوس وهو الذي سبق ذكره. وكان هذا شيخاً جليلاً محترماً. فأستدعاه قسطنطين إليه وأنفذه إلى الاسكندرية ليتصل بمجرها الكسندروس

Eusebius, Vita Constantini, II, 48-60.

ويصلح الحال . وكتب الى كل من الكسندروس وآريوس فيها بوجوب
التألف ونبذ الخصام . وألح الى وجوب طاعة الرئيس كما اشار الى « ان
الاختلاف العقائدي امر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام » .
ولكن هوسبوس اخفق في الاسكندرية وعاد الى نيقيوميذية . وقصد اليها
كل من الكسندروس وآريوس . واقترح هوسبوس عقد مجمع مسكوني
يضم جميع اساقفة النصرانية للبت في قضية آريوس . فقبل الامبراطور
اقتراحه ووجه الدعوة الى جميع الاساقفة في الامبراطورية الرومانية جاعلاً
تحت تصرفهم وسائل النقل الرسمية . وعين نيقية مركز الاجتماع بدلاً من
نيقيوميذية عاصمة الدولة الموقنة لانحياز اسقف نيقيوميذية الى آريوس ولعطف
قسطنطية عليه .

ولبتى الدعوة عدد غير قليل من الاساقفة ، مثلاً وخمسون في رواية
يوسيبوس ، ومثان وسبعون في رواية افسيناثيوس ، وثلاث مئة في رواية
اثناسيوس القديس ، وثلاث مئة وثمانية عشر في رواية القديس هيلاريوس .
وكان معظم هؤلاء من الولايات الشرقية . ودامت جلسات المجمع سبعة
وتسعين يوماً بين العشرين من ايار سنة ٣٢٥ والخامس والعشرين من آب
من السنة نفسها . وجلس افسيناثيوس بطريرك انطاكية الى عين الامبراطور
وكان قد اشهر بعلمه ورسائله وتقواه ، فافتتح المجمع بكلمة شكر رفعها
الى الامبراطور وبين فيها فضله على النصارى . وقام قسطنطين فألقى كلمة
باللاتينية ترجمت الى اليونانية اشار فيها الى جمال الدين المسيحي مستشهداً
ببعض اخبار السيد مؤكداً تعلقه بمشيئة رب السموات . ثم طلب الى
المجتمعين ان يعودوا الى الكتب ليوحدوا الصفوف . وخرج من المجمع
تاركاً الاساقفة في خلوة للعمل . فتشاوروا برئاسة اقدمهم ، ولعله الاسقف
هوسبوس صديق الامبراطور . وظل قسطنطين يتابع اعمالهم عن كثب .
وفي الخامس والعشرين من تموز دعاهم الى حفلة في قصره في نيقيوميذية

لمناسبة انتضاء عشرين سنة على تلمه الحكم . فاستقبلهم فيها حرس
الامبراطور مقدمين السلاح .

واستمع الاعضاء الى شكوى الكسندروس الاسكندري ثم الى موقف
آريوس من الثالث كما ظهر هذا الموقف في رسائله . فأيد آريوس عشرون
اسقفاً وخالفه الباقيون . وأقر الاعضاء دستور ايمان 'معدل' في المجمع الثاني
فاصبح دستور ايمان المسيحيين اجمعين ولا يزال كذلك . وهو يسند الى
الكسندروس واثناسيوس الاسكندريين وهوسيوس الاسباني . ونظر المجمع
في مسائل اخرى كمسألة عيد الفصح والمعمودية . وسنّ عشرين قانوناً اهمها
ما تعلق بنظام الكنيسة . فنصّ القانون الرابع على ان الاسقف الواحد
يجب ان يشترك في اختياره جميع اساقفة الابرشية . فان كان هذا مستصعباً
لضرورة قاهرة او لبعد المسافة فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد استراخ
الغائبين في التصويت وموافقتهم كتابة . وحيث يعلون الشرطونية . اما
تثبيت الاجراءات في كل ابرشية فممنوط بالمتروبوليت .

وجاء في القانون الخامس : « لقد رأينا حسناً ان تعقد مجامع في كل
ابرشية مرتين في السنة لكي تبحث امثال هذه المسائل باجتماع عمومي
من جميع اساقفة الابرشية . » وقضى القانون السادس : « بان تكون السلطة
في مصر وليبية والمدن الخمس لاسقف الاسكندرية لان هذه العادة مرعية
للاسقف الذي في رومة ايضاً . وعلى غرار ذلك فليحفظ التقدم للكنائس
في انطاكية وفي الابرشيات الاخرى . » وجاء في القانون السابع : « انه
جرت العادة والنسليم ان يكون الاسقف الذي في الية (اي اوروشليم)
ذا كرامة . فلتكن له المتبوعة في الكرامة . »

وأيد قسطنطين هذه القرارات وأمر بوجوب تنفيذها والخضوع لها
ونفى من الاساقفة كل من امتنع عن الموافقة عليها . ونفى الاب آريوس
ايضاً . ومنح الاكليروس المسيحي والعذارى والارامل مبالغ محدودة

كانت تؤخذ من دخل المدف لا من موازنة الدولة . وذهب الكهنة الضمانات نفسها التي كان يتمتع بها الكهنة الوثنيون . واهتم قسطنطين في هذه الآونة نفسها ، ولاسيما السنتين ٣٢٥ و ٣٢٦ ، للضعفاء فمنع تفريق عائلات الارقاء عند اقتسام الاراضي وحرّم مطالبة الكولوني باكثر من طاقتهم كما حرّم مشاهد المصارعة المؤلمة . وأمر بهدم بعض المعابد الوثنية التي اشتهرت بفسقها ، ومنها هيكل عشتروت في افق لبنان . فقد جاء في ترجمة حياة قسطنطين ليوسيديوس المؤرخ ما تعريبه : « لما استوى قسطنطين على منصة الملك رهب من سمو عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحديق به غيرة . وكان المعبد قد اقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة يتوارد اليه البغايا واهل الفجور . فأضحى بذلك شبه باخور منه بمعبد ديني . ولم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل اليه ليتحقق صحة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من اخص واجباته ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فأمر عماله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامه ويتلفوا ما حمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى افق فئمة من الجند تفقدوا اوامر الملك ولم يبقوا ولم يذروا . وكان ذلك في السنة ٣٢٥ . اما سكان افق فأمرؤا بان يبارحوا مساكنهم فاستوطنوا بعلبك . »

القديسة هيلانة : وفي مطلع السنة ٣٢٦ قام قسطنطين الى رومة ليحتفل فيها كما احتفل في نيقوميذية بعيده العشرين . وأصدر في الثالث من شباط قانون الزنى واردفه في اول نيسان بقانون الحطف والاغتصاب وبقانون زواج اليتيم . ولعله حرّم السراري على المتزوجين في هذه الآونة

ايضاً . ورأت زوجته فاوسطة ان تستغل محافظة زوجها على الآداب والاخلاق فانهمت كريسيوس ابنه من ضربتها ، وكان قد بلغ العشرين من العمر ولمع في ميادين القتال ، بمحاولة الاعتداء على عفتها . فأمانته والده مسموماً . ثم أتهمت هي بدورها بالخيانة وكانت لا تزال وثنية تشابه في صورتها الجاتية والدها مكسيميانوس ، وكان قسطنطين يكرهه ، فأمر قسطنطين بامانتها هي ايضاً خنقاً بحمام ساخن .

وكانت والدته القديسة هيلانة قد استقرت في رومة وتمتعت بلبث اوغوسطة واثرت ثراء كبيراً . فعزمت في السنة ٣٢٦ على القيام برحلة الى فلسطين للتبرك بزيارة الاماكن المقدسة . وغادرت رومة في اواخر الصيف وانجبت شطر فلسطين بجزراً . وكان قسطنطين قد فاوض مكاريوس اسقف اوروشليم في اقامة كنيسة لاثثة بالسيد في جبلجثة في اوروشليم تكون افضل الكنائس . فاستحشت القديسة الاسقف على اتمام هذا العمل . فتم البناء في السنة ٣٣٥ . وكان قد سبق للنصارى ان اقاموا في القرن الثالث بناء مشتمل الاضلاع والزوايا فوق الكهف الذي ولد فيه السيد في بيت لحم ، فأضافت الى هذا المشمن بازيلقة فضمة . وفعلت مثل هذا عند كهف الصعود . وعند انتهاء هذا القرن الرابع بدأ النصارى يتناقلون خيراً مؤداه ان القديسة هيلانة ، بعد تفتيش دقيق وعناء شديد ، وجدت ثلاثة صلبان في جبلجثة ، وانما أحبت ان تتعرف الى صليب السيد منها فلمست بها جسد مريض شاب وانتقت منها ذاك الذي شفى المريض . ولدى عودتها اذابت بعض مامير الصليب في معدن خوخة قسطنطين الاول والآخر في لجام حصانه كما انها وزعت عود الصليب على كنائس عدة .

آريوس ثانياً : ولم يسكن الجميع المسكوني من استئصال بذور الشقاق فالآريوسيون كانوا كثيراً تؤيدهم قسطندينة اخت الامبراطور . ويقول المؤرخ جنوزومينوس ان قسطندينة اوصت اخاها وهي على فراش

الموت بكاهن آريوسي كان قد أصبح معلماً ذمته وان هذا الكاهن قدم يوسيبوس
 الآريوسي اسقف قيصرية الى قسطنطين الامبراطور فتمكن الاسقف من
 اقناع الامبراطور انه لا فرق بين ايمان آريوس وايمان الجمع وان
 الامبراطور اعاد آريوس من منفاه وارسله في السنة ٣٣٠ الى الاسكندرية^١.
 وعاد الآريوسيون الى العمل فاعتقدوا مجعاً في انطاكية في السنة ٣٣٠
 وقطعوا اقسيناثيوس بطريرك انطاكية وغيره ونفوههم بامر قسطنطين .
 وقام آريوس الى الاسكندرية فنعه بطريركها اثناسيوس الكبير من
 الدخول اليها . فأتهمه الآريوسيون بالتعاون مع مطالب بالحكم على مضر
 ويدفع الضرائب اليه . فأخطر اثناسيوس ان يقصد القسطنطينية للدفاع عن
 نفسه . فأصغى قسطنطين اليه وعفى عنه وسمح له بالعودة الى الاسكندرية .
 وفي السنة ٣٣٣ عقد الآريوسيون مجعاً في قيصرية فلسطين ودعوا اثناسيوس
 اليه فلم يحضر . ثم اعادوا الكرة في السنة ٣٣٥ فاعتقدوا مجعاً في صور
 فدعوا اثناسيوس فحضر فقطعوه . فاستأنف جبر الاسكندرية قرارهم ، فأمر
 قسطنطين بالاعتقاد بجمع في القسطنطينية في السنة ٣٣٦ . وفاز الآريوسيون
 بأغلبية المقاعد فتحكم هذا الجمع على اثناسيوس فنفي الى فرنسا^٢ . وأصر
 آريوس على العودة الى الاسكندرية ولكن الاسكندرانيين لم يقبلوا به
 فأمره الامبراطور ان يخدم الاسرار في القسطنطينية . فأعترض اسقفها
 الكينديروس فأكرهه على ذلك اكراهاً . ومات آريوس في السنة ٣٣٦
 وظلت قضيته قائمة حتى السنة ٣٩٥ كما سيذكر بنا
 القسطنطينية : وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقاءه

Sozomenus, Hist. Eccl. II, 46-47, III, 13.

Guethen, Studies on Arianism, 57, 96.

Theodoretus, Hist. Eccl. ;

Soerates Scholastienus, Hist. Eccl.

في الشرق اكثر من الغرب . فالقبائل البربرية التي كانت تهدد حدود الدولة في اوروبه كانت تتأثر كثيراً بحركات القبائل الضاربة في مراعي روسية الجنوبية ، والاسرة الساسانية التي كانت قد اعادت الى فارس نشاطها وطموحها كانت قد بدأت تطمع في ولايات رومة الشرقية . وكانت هذه الولايات الشرقية قد احتفظت بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي الى الخزينة مبالغ عظيمة من المال تفوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية . وكانت ولايات البلقان تقدم افضل الرجال للجيش . ولمس قسطنطين هذا كله فرأى ان لا بد من انشاء عاصمة جديدة في الشرق تسهل الدفاع عن الديانوب والفرات وتضمن الطمأنينة اللازمة لابناء الولايات الشرقية . فاراد في البدء ان يجعل مسقط رأسه نيش عاصمة للملكة . ثم انجبت انظاره نحو صوفية Sardica وثيسالونيكية . ورأى بعد ذلك ان طروادة احق بالشرف من هذه جميعها لانها كانت موطن الجبابرة ومسقط رأس الرومانيين الاولين الذين اسسوا رومة . وقام اليها بنفسه وخطط العاصمة الجديدة فيها وفي ضواحيها وانشأ الابواب الرئيسية ولكنه تراءى له في حلم ان إلهه يأمره بالتفتيش عن محل آخر فوقع اختياره على بيزنطة^١ .

وكانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها ابناء ميغارة Megara في السنة ٦٥٢ قبل الميلاد للانبحار بمحروب روسية الجنوبية ومعادن حوض البحر الاسود ومصايد البوسفور . وقامت بيزنطة هذه على رأس نائي في البحر عند اول فجوة داخلية في ساحل البوسفور الاوروبي . وكانت هذه الفجوة على شكل هلال مائي داخل في الارض عشرة كيلومترات ولذا اسمه المتأخر « القرن الذهبي » . واتخذت بيزنطة شكل الرأس الذي عليه

Sozomenis, Hist. Ecc. II, 3.

Piganiol, A., Emp. Chretien, 49.

فأصبحت مثلثاً تحمي المياه جانبيين من جوانبه الثلاثة ، ويحني جانبه الثالث سور قوي لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة .
وجاء في التقليد ان الامبراطور المؤسس عندما بدأ بتخطيط العاصمة الجديدة أمسك رمحاً بيده وطاف حول بيزنطة وأطال الطواف ، فقال له رجال الحاشية : متى تقف يا سيد ؟ فأجاب : عندما يقف هذا الذي يسير امامي .
وشاع بين القوم ان قوة سماوية كانت ترشده سواء السبيل .
والواقع ان قسطنطين لم يقف الا بعد ان ادخل في تخطيطه كل التلال السبع التي ضمها الرأس بين بحر مرمرة والقرن الذهبي . واختار قسطنطين الجزء الجنوبي الشرقي من بيزنطة فانشأ فيه قصره الامبراطوري . وجعل من الساحة المستطيلة التي وقعت الى الشمال الغربي من هذا القصر ساحة عمومية رئيسية دعاها الاوغوستايوم Augustaeum ، اي ساحة اوغوستوس فغطى ارضها بالمرمر واحاطها من جميع جوانبها بالمنشآت العامة . واقام الى غربي ساحة اوغوستوس الملعب الكبير Hippodromus الذي أصبح فيما بعد مسرحاً للسياسة ولجميع ظواهر الحياة العامة في العاصمة . فكان يشمل فيما شمل الكائيسمة Kathisma ، اي لوج الامبراطور . وكان العرش العظيم الذي اقيم في وسط هذا اللوج هو المكان الذي يطل منه الامبراطور على شعبه في غالب الاحيان . وازدان هذا الملعب بمئة فرعونية أحضرت من مصر وبالثعبان النحاسي ذي الرؤوس الثلاثة الذي صنعه يوسانياس ليشكل دلفي مناسبة الانتصار على الفرس في بلاتية (٤٧٩ ق. م) وبالعمود البرونزي المربع . وانشأ قسطنطين بالقرب من هذا الملعب وإلى شرقيه بناء صغيراً جعله نقطة الانطلاق لبعد المسافات في جميع انحاء العالم الشرقي ودعاه المليون Milion . وكان هذا المليون يشبه المياكل ويثوم سقفه على سبعة اعمدة وبداخله

قتال للامبراطور وقاتل آخر لوالدته هيلانة . وخص قسطنطين المسيحيين
بكنيسة كبيرة اسمها كنيسة الحكمة الالهية Hagia Sophia . ولم تكن
هذه كنيسة الحكمة الالهية الحالية بل كانت بازيلقة احتوت مرتين
فاندثرت . واقام قسطنطين في هذه المنطقة نفسها مجلساً للشيوخ وقصراً
للبطريرك .

ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة . وربما كانت
ذلك بين السنة ٣٢٨ والسنة ٣٢٩ ولكننا نعلم ان تدشينها جرى في
الحادي عشر من ايار سنة ٣٣٠ وان الاساقفة النصارى باركوا القصر
واقاموا صلاة خصوصية في كنيسة الحكمة .

ودعا قسطنطين عدداً من شيوخ رومة القديمة وعدداً كبيراً من كبار
الاغنياء في بلاد اليونان وآسية للاقامة في العاصمة الجديدة . واغرى آلافاً
من رجال الفن والصناعة والتجارة للفرض نفسه . ووزع القمح والزيت
مجاناً على السكان . وخصص القمح الذي كان «يجب» من مصر للعاصمة الجديدة .
وجعل قمح قرطاجة لمؤونة العاصمة القديمة . وأصدر أمراً منح بموجبه المدينة
الجديدة لقب «رومة الجديدة» ولكن الشعب اطلق عليها اسم القسطنطينية .
ولا يختلف اثنان في ان نقل العاصمة الى هذا المقر الجديد كان في حد
ذاته عملاً تاريخياً عظيماً لانه اعطى الدولة الرومانية حصناً منيعاً تصمد فيه
فتصد هجمات البرابرة وتحفظ تراثاً مدنياً كبيراً ولانه أمدد النصرانية
بعاصمة تنطلق منها الى جميع الجهات ، لاسيما وان رومة كانت لا تزال

Maurice, J., *Origines de Constantinople*, Paris, 1904 ;

Brehier, L., *Constantin et la Fondation de Const.*, *Rev. Hist.*, 1915, 238;

Emereau, G., *Notes sur les Origines de Const.*, *Rev. Arch.*, 1925, 1 - 25.

أومان: الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، الفصل الاول من ٣ - ١٣ .

حصن الديانة القديمة وانما بقيت وثنية الى وقت طويل^١.

الادارة: ونهج قسطنطين في اصلاح الادارة الطريق نفسه الذي سلكه ديوقليتيانوس. ففصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وقوى الحكومة المركزية وحصر سلطتها العليا في شخص الامبراطور. ولم يكن هذا الاتجاه في الاصلاح ابن ساعته. فسويتونيوس المؤرخ الروماني يقول ان كاليكيولا الامبراطور (٣٧ - ٤١ ب. م) كان على استعداد تام لتقبل التاج وان الامبراطور هيلبيوس جيلوس المحصي لبس التاج في ظروف خاصة وان اورليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥ ب. م) زين رأسه بالتاج في المواقف الرسمية واتخذ لنفسه لقب الاله في نقوشه الرسمية وعلى نقوده^٢. ويرى رجال الاختصاص ان الاباطرة نقلوا رأيهم هذا في الحكم عن البطالسة والسوقيين ثم عن الساسانيين في ايام ديوقليتيانوس وقسطنطين.

وليس لدينا من النصوص الاولى ما يتولنا التبسط في وصف الادارة كما انشأها ديوقليتيانوس وأقرها قسطنطين. والمرجع الاولي الاسامي في هذا الموضوع هو لائحة رسمية^٣ بوظائف البلاط والادارة والجيش وباسماء الولايات ظلها المؤرخون السابقون من خلفات القرن الرابع فاعتمدوها في ابحاثهم. ولكن النقد الحديث يجعلها من بقايا القرن الخامس لا الرابع. وعلى الرغم من هذا يجوز القول ان حكومة الدولة الرومانية في عهد قسطنطين الكبير كانت قد اصبحت حكومة مطلقة صلاحية تستمد سلطتها من قوة الجيش المرابط ومن محافظتها على الانظمة الموروثة ومن احترامها للقانون. وكان على رأس هذه الحكومة امبراطور متجلبب بعظمة شرقية

^١ Uspensky, *The Hist. of Byz.*, *Imp.* I, 60-62.

^٢ *Deus et Dominus Aurelianus Augustus*; Houto, *L. Règne de l'Empereur Aurélien*, 191-193.

^٣ *Natitia Dignitatum*.

يعاود رأسه التماجد ويردّي جسمه الارجران . وقد اعتزل قومه وعظم قدره وغشيت جلالته الابصار فضشت امامها العيون وتضاعفت عندها الهمم لا يقوم بين يديه الا كل متعيب ناكس مطرق . وجمع الامبراطور في شخصه شتى السلطة المدنية والعسكرية وأصبح مصدر التشريع كما اصبحت اوامره التفسيرات الوحيدة لما يصدر عنه من تشريع . ولما كانت جميع امور الدولة في عرف الرومان تخضع لسيطرة الحكام كانت الامبراطور بطبيعة الحال رئيس رجال الدين ايضاً وجبراً من اجابهم^١ . وجاء على رأس الادارة المدنية مجلس استشاري اعلى^٢ مؤلف من رؤساء دوائر الدولة من رئيس الخيصة اقرب المقربين الى الامبراطور^٣ ومن قومن الاحسان والانعام^٤ وقومن الاملاك الخاصة^٥ ومن قسطنطين القصر المقدس^٦ امين القوائين ومن رئيس ديوان الرسائل^٧ . وكان هذا يشرف على الكتبة والبريد والحرس ودور الصناعة والشرطة . وكان بين هؤلاء رجال الامن العام^٨ .

وكان الامبراطور ديوقليتيانوس قد اقصى الشيوخ عن ادارة الولايات وجعلها جميعها تابعة له وضاغف عددها ليقبل موارد حكامها واهميتهم فجعلها مئة وعشرين بدلاً من خمسين . وجعل على رأس كل منها رئيساً^٩ يشرف

<i>Pontifex Maximus.</i>	١
<i>Consistorium Principis.</i>	٢
<i>Praepositus Sacri Cabinet.</i>	٣
<i>Sacrae Largitiones.</i>	٤
<i>Res Privata.</i>	٥
<i>Quaestor Sacri Palatii.</i>	٦
<i>Magister Officiorum.</i>	٧
<i>Agentes in Rebus.</i>	٨
<i>Proeses.</i>	٩

على ادارتها وينظر في دعاويها القضائية . ثم جمع بينها فجعلها اثنتي عشرة
 ذيقوسية : بوطانية وغالية واسبانية وافريقية وايليرية في الغرب ، ودافية
 ومقدونية وتراقية وآسية واليونط والشرق ومصر في الشرق . وجعل على
 رأس كل ذيقوسية نائباً يشرف على اعمال رؤساء الولايات وينظر في
 ما يُستأنف اليه من الدعاوى . وجرّد قسطنطين المدير الروماني القديم
 البرافيكستوس^١ من صلاحياته العسكرية وجعل منه حاكماً مدنياً اعلى .
 فقسم الامبراطورية الى اربع برايفكتورات : غالية وايطالية وايليرية
 والشرق . فشملت برايفكتورة الشرق ذيقوسيات الشرق ومصر وآسية
 واليونط وتراقية . وشملت ذيقوسية الشرق ولايات فلسطين الاولى
 وفينيقية وسورية الاولى وقيليقية وقبرص وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة
 وفينيقية اللبنانية والقرات وسوريا الثانية والرها وما بين النهرين وفيليقية
 الثانية واسورية والعربية . ولا يزال اسماء هذه الولايات محفوظة في القاب
 احبار الكنيسة الارثوذكسية حتى يومنا هذا .

فمتروبوليت بيروت « مقام من الله على بيروت وتوابعها » متقدم في
 الكرامة ، متصدر في الرئاسة على كل فينيقية الساحلية . ومثله متروبوليت
 طرابلس ، ومتروبوليت صور وحيدا . اما متروبوليت حمص فانه متصدر
 في الرئاسة على كل فينيقية اللبنانية . ومثله متروبوليت بعلبك ومتروبوليت
 دمشق . ومتروبوليت حماه متصدر في الرئاسة على كل سورية الثانية ،
 ومتروبوليت حلب على سورية الاولى . ومتروبوليت حوران على كل بلاد
 العرب الصغيرة^٢ . »

Vicarius.

١

Praefectus.

٢

٣ خدمة القديس الالحى ليوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس الديالوغوس ،

ترجمة جراسيموس متروبوليت بيروت ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وراقب رجال الامن العام الموظفين ورفعوا تقاريرهم الى رئيس ديوان
الرسائل ولكن دون جدوى لان معظمهم كان بحاجة هو نفسه للمراقبة .
وقضت قوانين الدولة بان يقام في كل مدينة او قرية كبيرة من يفتقد
الفقراء في يؤسهم وينظر في امرهم^١ . وكان الاسقف المسيحي افضل من
هذا وذلك ، لاسيما وان الامبراطور منحه حق النظر في بعض الامور
برضاء الطرفين .

الجيش : واعلى ضباطه سيد الخيالة^٢ ، وسيد المشاة^٣ . وكانت هؤلاء
الاسياد اربعة في آخر ايام قسطنطين واصبحوا ثمانية فيما بعد . وكان عليهم
ان يقودوا الجيوش وينظموا الحرب . وجاء بعد هؤلاء خمسة وثلاثون
دوقاً يقودون قوات الحدود . وكان الجيش مؤلفاً من قوات ثلاث :
قوة مرابطة على الحدود لا تحيد عنها ، وقوتين متحركتين . وكانت القوة
المرابطة على الحدود بريرية الاصل تحرث ما أقطعت من ارض وتستغلها .
وكان الابن فيها ملزماً ان يأخذ مكان ابيه . اما القوتان المتحركتان
فانهما كانتا تحت تصرف الامبراطور ، الواحدة تدعى جماعة الرفقاء^٤ ،
والثانية جماعة البلاط^٥ . وكان هناك نوعان من الفرسان : نوع خفيف
ونوع ثقيل . وكانت الاول قديماً يعود الفضل في انشائه الى الامبراطور
غاليانوس الذي أُلحق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان جماعة من
الفرسان مجندة افرادها من حلفاء رومة ، ولذا الاسم فرسان الحلفاء^٦ .

Defensores.

١

Magister Militum Equitum.

٢

Magister Militum Peditum.

٣

Limitanei.

٤

Comitatenses.

٥

Palatini.

٦

Auxilia.

٧

وكان النوع الثاني أحدث عهداً من الاول واثقل سلاحاً وقد انشئ على طراز الفرسان الفرس ودعي المدرع^١. وكان معظم افراده من الولاية من وراء الحدود.

طبقات المجتمع : ومنح الامبراطور كركلا حقوق الرومان المدنية لجميع سكان المدن في جميع انحاء الامبراطورية فأصبح كلهم مواطنين رومانيين منذ السنة ٢١٢ بعد الميلاد. ولكن هذا لم يعن التساوي بين جميع المواطنين. فبقي هنالك شرفاء ووضعاء^٢ : شيوخ وقرسات وجنود لا تنالهم شدة القانون في العقوبات واكثرية ساحقة خاضعة لكل ما جاء في القانون من قساوة وشدة. وانتظم الشرفاء طبقات طبقات فجاء على رأسهم القناصل ثم البطارقة ثم المدبرون فأبناء الجنود والموظفين وقد عرف هؤلاء باللقب كلاريسي^٣ ثم الموظفون المستجدون في الوظيفة الذين استحقوا لقب « صاحب الافضلية »^٤ او لقب « صاحب الكمال او البراعة »^٥. وانتظم سائر افراد الشعب طبقات وانحصروا فيها وأورثوها ابناؤهم من بعدهم. وجاء في طليعة هذه الطبقات طبقة الكورياليس^٦ اصحاب الاملاك المقيمين في المدن وامهات القرى الذين تربعوا في دست الحكم فيها جيلاً بعد جيل. واتسق التجار واصحاب المهن والحرف نقابات مقفلة موروثه. ولا يستبعد ان يكون اصحاب الفاقة ممن تناول خبزه يومياً من مخازن الدولة^٧ قد أصبحوا في عهد قسطنطين طبقة موروثه ايضاً ومثل الكولوني

١ Cataphracti وهو لفظ يوناني معناه المدرع.

Honestiores, Humiliores.

Clarissimi.

Eminentissimus.

Perfectissimus.

Curiales.

Proletarii.

الذين سبقت الإشارة اليهم في فصل سابق .

الثقافة العامة : وكان قد طال عهد الامبراطورية ودام ثلاثة قرون متتالية وظل الناس في اطرافها يتكلمون لغاتهم الخاصة غير عابئين باللاتينية او اليونانية . فالتدريس ايريناوس الذي كان يجيد اللاتينية واليونانية اضطر ان يتعلم الغالية للتفاهم مع سكان المنطقة التي كان يعمل فيها . وتكلم سكان الجزر البريطانية اللغة الكلتية كما تكلم المور في افريقية لهجاتهم البربرية الخاصة . ولم يتكلم الفينيقية فيها سوى الطبقة العليا من السكان وسكان مالطة . وعلى الرغم من انتشار اللاتينية في ايليرية فان سكان هذه المنطقة احتفظوا بلهجتهم الخاصة التي تطورت فيما بعد فأصبحت اللغة الايبانية . وظل الاقباط والآراميون والعرب والارمن يحتفظون بلغاتهم الاصلية على الرغم من انتشار اليونانية واللاتينية في اوساطهم .

ومعظم الذين تكلموا اليونانية واللاتينية كانوا لا يزالون في عصر قسطنطين امين لا تهزم النصحي ، ولم يتعلم الفصحى من هاتين اللغتين الا عدد قليل من الناس . وعني هؤلاء غاية خاصة بقواعد اللغة وبعلم المعاني والبيان وبذلوا قصارى جهدهم في حقل الخطابة . وكانت جامعة اثينا لا تزال تعنى بالفلسفة ، وكانت الفلسفة الراجحة الافلاطونية الجديدة القائمة بوحدة الوجود ، اي : ان الله والكون واحد وان الكون المادي منبثق من الله ، واول من قال بهذا النوع من التوحيد ووفق بينه وبين فلسفة افلاطون نوماينوس الفيلسوف ، وهو فيلسوف سوري ابصر النور في ابامية في القرن الثاني بعد الميلاد وتلقى علومه الفلسفية في الاسكندرية ثم اقام في اثينا مدة وعاد الى ابامية يعلم ويرشد . ويرى رجال الاختصاص اليوم

ان افلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ ب . م) لما ادعى لنفسه بما كان لغيره^١ . واشهر من علم بهذه الفلسفة بعد نوميانيوس وافلوطين مالك البثني (٢٢٣ - ٣٠١) الذي درس العلم والفلسفة في صور ثم انتقل منها الى اثينة فأخذ عن فيلسوفها لوجينوس السوري وترجم اسمه مالك الى اليونانية فعرف بالفيلسوف بورفيروس اي المتوشح بالارجوان الملكي^٢ . واشهر بعد بورفيروس في حقل الافلاطونية الجديدة بميليفوس^٣ الميطوري . ولد في خلقيس (مجدل عنجر) في سهل البقاع في لبنان وعلم فيها ونوفي في السنة ٣٣٠ بعد الميلاد . واشهر بميليفوس بعدائه للنصرانية ودفاعه عن الوثنية ونطرقه في ذلك .

وآثر ابناء العائلات الرومانية الكبيرة درس القانون على غيره من العلوم . وأقبلوا عليه إما للحصول على وظيفة حكومية ، او للمحاماة امام المحاكم ، او لمجرد الاطلاع والتثقف . وادى اهتمامهم بالقانون الى الاعتناء بعلوم اللغة ولا سيما الخطابة والفصاحة ، والى الاطلاع على مبادئ الفلسفة . وعندما حل^٤ القرن الثالث بعد الميلاد كان عصر البحث والنقيب والاجتهاد في القانون قد أشرف على النهاية ، وحل^٤ محله عصر الجمع والتنسيق . وكانت بيروت قد أصبحت مستودعاً هاماً للقوانين الرومانية ومركزاً خطيراً لدرس هذه القوانين وتدريسها . وكان قد لمع بين اساتذتها اميلوس باثيانوس المحصي مستشار الامبراطور سبتيميوس سويروس ، ودوميتيوس اولبيانوس الصوري^٤ في القرن الثالث . فقام غريغوريوس البيروني بجمع

Guthrie, R., *Numenius of Apamea*, 96.

Porphyrios.

Jamblicus.

Aemilius Papirianus, Domitius Ulpianus.

١

٢

٣

٤

القوانين في السنة ١٢٩٥ . وجاء بعده هيرموغينوس بعمل العمل نفسه
فيكمل مجموعة سلفه في السنة ١٣٣٤ .

وكان هنالك طبقة من العلماء آثروا الأحاطة على التدقيق والتحقيق
فصنفوا في المواضيع الجامعة العامة . ولعل أبرزهم في عهد قسطنطين كان
يوسيبوس اسقف قيصرية فلسطين الذي توفي في السنة ٣٤٠ بعد الميلاد .
وقد ألف في الدفاع عن النصرانية ضد تهجمات اليهود الوثنيين . وكتب
في تاريخ الكلدانيين والاشوريين والعبرانيين والمصريين واليونان والرومان .
واشتهر بمؤلفه تاريخ الكنيسة^٣ (منذ ظهور السيد حتى استظهار قسطنطين
على ليكيانيوس) الذي أصبح فيما بعد من اهم المراجع لتاريخ النصرانية
في القرون الثلاثة الاولى . وقد يكون تاريخ قسطنطين الكبير له ، وقد
لا يكون .

تنصره ووفاته : وفي السنة ٣٣٧ بعد الميلاد أعد قسطنطين العدة
لمحاربة الفرس . ولكن هؤلاء فاوضوه في الصلح قبل عيد الفصح فاقف
استعداده للحرب . واحتفل قسطنطين بعيد الفصح في الثالث من نيسان .
ونالته الحمى ، فذهب الى مياه معدنية قريبة يستحم فيها . ثم انتقل الى
هيلانوبوليس فأنقذته بالقرب من نيقوميذية . وكان يلزمه في اثناء هذا
كله معلم ذمة اخته قسطنطية . وكان هو يود ان يعتمد في مياه الاردن
كما فعل السيد نفسه . ولكن الوقت عاجله فتقبل سر المعمودية عن يد
يوسيبوس اسقف نيقوميذية . وخلع الارچوان والقاه جانباً وتردى

Codex Gregorianus.

١

Codex Hieronymianus.

٢

Historia Ecclesiastica.

٣

Vita Constantini.

٤

بالياض . وتوفي يوم العنصرة في الثاني والعشرين من ايار من السنة نفسها .
ولم يكن احد من اولاده بالقرب منه . وحُفِّط جسده ووضع في تابوت
من ذهب ونقل الى القصر في القسطنطينية لينتقل احترام الوجهاء . وجاء
ابنه قسطنس قيصر من انطاكية ، فعرض جثته مكلاً بالتاج ملفوفاً
بالارجوان في ابي قاعات القصر واجملها . ثم أمر بنقله بمركب فضم الى
كنيسة الرسل حيث صلى الاكليروس عليه طوال الليل ودفن فيها في
ناووس من الرخام السماقي . وألته الشيوخ قسطنطين حسب العادة الرومانية
وعظّمه الشعب الوثني وعبدوا امام مثاله الذي نصب فوق عمود من الرخام
السماقي في الفوروم .

Eutropius, Breviarium Historiae Romanae, X, 8;

Grégoire, Conversion de Const. , Rev. Univ., Bruxelles, 1930-1991, 270;

Eusebius, De Laudibus Constantini, XVI, 3-5.

الفصل الخامس

قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد

(٣٣٧ - ٣٦٣)

قسطنديوس : (٣٣٧ - ٣٦١) وتوفي قسطنطين الكبير عن ذكرور ثلاثة جميعهم من زوجته فبواسطة بنت الامبراطور مكسيميانوس وم قسطنطين الثاني وقسطنديوس الثاني وقسطنس ، وحكم الثلاثة الامبراطورية معاً ، فتولى قسطنطين الثاني الغرب : ايطالية وغالية واسبانية وقسماً من افريقية . وتولى قسطنديوس الثاني الشرق بأكمله ، اما قسطنس فإنه حكم ايليرية وقسماً من افريقية . وطمع قسطنطين الثاني في ملك قسطنس فعاربه ولكنه خرب صريعاً في اكويلية سنة ٣٤٠ ، ثم غرر الجند على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠ فأصبح قسطنديوس الثاني المالك وحده . وكان رجلاً عاقراً لا وارث له ، فاستدعى ابن عمه غالوس من منفاه ورفعاه الى رتبة فيصر وأمره على برايفكتورة الشرق وجعل مقره انطاكية . ولكن غالوس هذا كان جاني الطبع فظّ القلب قليل الرحمة فطغى وتجبّر وأرهب الناس ارباباً . فاستدعاه ابن عمه الامبراطور اليه في ايطالية في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأمر بقطع رأسه . وعندئذ طلب ابن عمه الاصغر يوليانوس وجعله فيصرّاً على غالية .

شابور ذو الاكتاف^١ : ونوفي هرمز الثاني ابن نوسى في السنة ٣٠٩

بعد الميلاد وأوصى بالملك شابور ابنه وهو لا يزال جنيناً . فدام السلم بين فارس وبين رومة زمناً طويلاً . وشب شابور الثاني وتسلم ازمة الحكم فهاه انتشار النصرانية وعطف قسطنطين عليها خصوصاً لأنها كانت قد انتشرت بين رعاياه في بابل وطيسفون وجند شابور واشور وغيرها ولان تيريدانس الثالث ملك الارمن كان قد تقبلها في السنة ٣٠١ . فتطورت الخصومة بين شابور وزميله الروماني وأصبح النزاع بينهما نزاع عقائدي بعد ان كان نزاعاً مادياً إستراتيجياً كما سبق ان اشرنا . وهكذا فأننا نرى شابور يعقد مجمعا زرادشتياً يضم ائمة الدين الفارسي في السنة نفسها التي عقد فيها قسطنطين الكبير المجمع المسكوني الاول فيقر نصاً رسمياً تنائباً لكتاب الفستا ، ونراه ينزل بنصارى بلاده بين السنة ٣٤٠ والسنة ٣٧٩ اضطرادات قاسية واسعة النطاق لانهم كانوا يدين فيصر وشاطروه المحبة والعطف والولاء^٢ .

وكادت الحرب تقع قبيل وفاة قسطنطين الكبير في السنة ٣٣٧ كما سبق ان اشرنا . فقطع ذو الاكتاف الحدود في السنة ٣٣٨ وحاصر نصيبين . ثم عاد اليها في السنة ٣٤٦ . وفي السنة ٣٤٨ جرت موقعة ليلية في منطقة منجار . وفي السنة ٣٥٠ طلب ذو الاكتاف نيرانوس السابع ملك ارمينية للمفاوضة فأسره ومضى به الى بلاده ، ويقال انه سجل عذبه لانه كان نصرانياً مثل سلفه . وفي السنة نفسها مشى ذو الاكتاف الى نصيبين للمرة الثالثة وشاور اسوارها مستعيناً بالفيلة التي استقدمها من الهند . ولكنه

١ « وفسد اليامة واكثر في اهلها القتل وغور مياه العرب وسار الى قرب المدينة وفعل كذلك وكان ينزع اكناف رؤسائهم ويقتل ، فسماه شابور ذا الاكتاف . » - ابن الاثير ج ١ ، ص ٢٢٩ ، الطبعة المصرية .

Acta Martyrum et Sanctorum, II. 136, 143.

اخفق مرة اخرى وارتمد على اعتابه لدرء خطر الشينيين الذين تدفقوا على
 فارس من الشمال والشرق . وفي السنة ٣٥٥ جدد ملك أرمينية ارشاك
 الثالث (٣٥١ - ٣٦٧) التحالف الروماني الارمني وتزوج من اوليمياس
 خطيبة قطنس السابقة . فأقضى ذلك مضجع شاور الثاني ذي الاكتاف
 واستفزه للحرب وخصوصاً لان عامله في بابل كان قد جرأه بما بالغ له في
 تصوير المشاكل التي كان يعانيها قسطنديوس الامبراطور في الغرب . وعبر شاور
 دجلة في جيش عظيم في السنة ٣٥٨ فتجاوز نضيين هذه المرة ولم يحاصرها بل
 زحف على آمد (ديار بكر) فاختدها عنوة بعد حصار دام شهرين . وكان
 قسطنديوس لا يزال في سيرميوم في إيليرية يعالج بعض المشاكل الدينية
 المسيحية ولا سيما علاقة الآب بالابن فقام منها الى القسطنطينية وبقي فيها
 طوال شتاء السنة ٣٥٩ - ٣٦٠ . وفي ربيع السنة ٣٦٠ هُزم من القسطنطينية
 لمجابهة الخطر الفارسي . ولدى وصوله الى قبدوقية سمع بخيانة ابن عمه
 يوليانوس فلم يكتوث لها لانه كان يحفل مواهب هذا الزميل الجديد . وكان
 شاور ذو الاكتاف قد استأنف الحرب فاحتل سنجان ثم اتجه منها الى
 بيت زبدي (جزيرة ابن عمر) على الضفة دجلة الغربية وحاصرها . فحاول
 قسطنديوس ان يفك هذا الحصار فلم يفلح . وسقطت بيت زبدي في يد
 الفرس في خريف السنة ٣٦٠ . واقبل فصل الشتاء فتوقفت الاعمال الحربية
 ولبت قسطنديوس في انطاكية وفيها احتفل بزواجه الثاني بعد وفاة
 يوسيبية زوجته الاولى .

وكانت حاشية قسطنديوس لا تزال توغر صدره على ابن عمه يوليانوس
 بينما خطر الفرس في الشرق يتعاضم ، فطلب الامبراطور الى ابن عمه القيصر
 ان يوافيه باحسن ما عنده من الجند للصوص في وجه الفرس . ويقال ان
 يوليانوس مال الى تلبية الطلب ولكن جنوده ترددوا احتجاجاً ونادوا به
 امبراطوراً في ياريز في السنة ٣٦٠ . وكتب يوليانوس الى قسطنديوس

يوجب منه الاعتراف بما تم ولكن قسطنديوس اصرّ عليه ان يتنازل
ويثبت الطاعة. فاضطر يوليانوس ان يتخف بجنده على الشرق. وسار
قسطنديوس من انطاكية الى القسطنطينية فالغرب لمنازلة خصمه. ولكنه
مرض وهو لا يزال في طرسوس، واشتد الخطر على حياته فاعتمد بيد
اسقف انطاكية الآريوسي افزويوس وتوفي على مسيرة يوم من طرسوس
في الثالث من تشرين الثاني سنة ٣٦١. واجل ما يذكر عنه انه عندما
اشرف على التلف اوصى بان يكون يوليانوس نفسه خلفاً له.

الوثنية: وأراد قسطنديوس الثاني ان يقضي على الوثنية فأمر باديء
ذي بدء « بان يوضع حد للخرافات وبان يستأصل مرض تقديم الذبائح ». «
ثم أمر باقتال الهياكل وحظر تقديم الذبائح للالهة مهدداً من يخالفه بالموت
وبمصادرة الاملاك. وكان ان احتفل في السنة ٣٥٧ في رومة بمرو
عشرين عاماً على تبوئه العرش فطاف بآثارها ودخل الى مبنى مجلس الشيوخ
وفيه مذبح لاله النصر فأمر بهدمه، فأدرك الشيوخ وغيرهم من اعيان الوثنية
ان دين الاجداد قارب النهاية.

ولكن قسطنديوس كان آريوسياً منطرفاً فأعلنها حرباً على النيقاويين
الكاثوليكين الارثوذكسين فاضطهد اثناسيوس الكبير بطريرك الاسكندرية
ونقى هوسيوس الاسقف الاسباني صديق والده وهو في سن تزيد على المئة
كما نفى ليباريوس بابا رومة لانه كان قد امتنع عن قبول مقررات
مجمع ميلان (٣٥٥).

يوليانوس الجاحد: (٣٦١ - ٣٦٣) هو يوليانوس ابن يوليوس ابن
قسطنديوس الاول (كاوروس). وهو اخو غالوس لايه لا لاه كما
كان والده يوليوس اخا قسطنطين الكبير لايه لا لاه. فالدة قسطنطين

هيلانة ووالدة يوليوس تيودورة ووالدة غالوس غلة ووالدة يوليانوس
باسيلينة

تيودورة = قسطنديوس الاول = هيلانة

باسيلينة = يوليوس = غلة قسطنطين الكبير = فاوستة

٣٢٧ - ٣٠٦

٣٣٧ -

يوليانوس غالوس

٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٥٤

قسطنس

٣٣٧ - ٣٥٠

قسطنديوس الثاني

٣٣٧ - ٣٦١

قسطنطين الثاني

٣٣٧ - ٣٤٠

ولد يوليانوس في النصف الثاني من السنة ٣٣١ في ميسية على الدانوب.
وما ان مضت بضعة اشهر حتى توفيت والدته فنقل الى القسطنطينية ونشأ
في قصر جدته في بر الاناضول لا يبعد كثيراً عن العاصمة . وفي السادسة
من عمره اي في السنة ٣٣٧ شهد مقتل والده وجميع اقربائه ونجا هو
واخوه غالوس باعجوبة فشب مضطرب العصب غير متزن . وتولى امره
في هذه الفترة من حياته يوسيبوس الآريوسي اسقف نيقوميذية ونسب
والدته فوكل امر تهذيبه الى خصي نصراني (مردونيوس) كانت شديداً
الاعتجاب بهوميروس الشاعر اليوناني . وتوفي يوسيبوس في السنة ٣٤١ ، فنفي
قسطنديوس الاميرين الصغيرين الى قصر في قبدةوقية على مسافة قريبة من
قيصرية . اما غالوس فشب شرساً احمق . واما يوليانوس فانه قضى ست
سنوات يدوس ويطلع مؤلفات اعاره اباها كاهن نصراني . وفي السنة ٣٤٧

امر قسطنديوس بانتقال غالوس الى افسس ويوليانيوس الى القسطنطينية .
 واقام يوليانيوس في عاصمة الدولة سبع سنوات احثك فيها بعالمين شهيرين
 احدهما وثنى والآخر نصراني ، وتعلم مبادئ اللاتينية . ورحب الجمهور بالامير
 الصغير واكرمه فدخلت الرينة نفس عمه وأمر بنقله الى نيوميدية .
 وكان ليانيوس العالم الانطاكي (اللبناني ؟) قد ترك مدرسة نيوميدية فلم
 يتسن ليوليانيوس ان يأخذ شيئاً عنه . ولكنه تابع الدرس في نيوميدية
 وحلق رأسه كمن يريد ان يكون فيلسوفاً مسيحياً . وفي السنة ٣٥١ رضى
 قسطنديوس عن الاميرين فجعل غالوس قيصرآ واعاد الى يوليانيوس ارثه فاصبح
 غنياً . ورحل يوليانيوس في طلب العلم فأتم يرغامون في آسية الصغرى
 واتصل فيها باديسيوس Adesius الفيلسوف الافلاطوني الجديد وبتميذه
 خريسانطيوس Chrsantius الفيلسوف النيشاغوري . وتورد الى افسس فاتصل
 بفيلسوفها مكسيموس وكان هذا يمارس ضروب السحر ، فوقع يوليانيوس
 تحت تأثير شعذاته ، ودخل في زمرة اتباعه في كهف هيكاتية إلهة الشياطين
 عند الافلاطونيين الجدد . وجمع شقيقه غالوس بهذا كله فاضطرب وارسل
 اليه من انطاكية معلم ذمته ليرده عن الضلال . وكان ما كانت من امر
 غالوس واعدامه في السنة ٣٥٤ . ومثل يوليانيوس بين ايدي الامبراطور
 قسطنديوس في ميلانو ليدافع عن نفسه فيما اتهم به من انه اجتمع بغالوس
 في القسطنطينية . فشغعت له الامبراطورة يوسيبية وأذنت له بالاقامة في
 آثينة . فتوجه اليها بشغف شديد والنحو بمجامعتها ثلاثة اشهر ، وذلك في
 صيف السنة ٣٥٥ . وكان بين رفقاته فيها غريغوريوس النازياري وصديقه
 باسيليوس القديس . وما قاله فيه غريغوريوس فيما بعد : انه كانت تأثبه
 النظر في آثينة احق السباه تنابه رعشات عصبية عن آن الى آخر ، وان
 اسئلته لم تكن منظمة او مرتبة .

وكان قسطنديوس يخشى تطلع الغالين الى الاستقلال . ولم يكن بإمكانه

ان يشرف بنفسه على امورهم لكثرة اشغاله ولشدة خوفه من شاپور
ومطامعه . فاستدعى يوليانوس اليه واطلعه على ما كان يخالجه فؤاده ودفع
به الى شقيقته الامبراطورة . فقالت هذه ليوليانوس : انت مدين لنا بالشئ
الكثير وسيكون لك اكثر فاكثر بعون الله اذا كنت اميناً منصفاً .
وكان يوليانوس قد التحى لحية الفلاسفة فأمر بها عنه فخلقت وأرتدى
يوليانوس لباس الامراء . وفي السادس من تشرين الثاني من السنة ٣٥٥
استعرض قسطنديوس الجند واملك بيده يوليانوس وقال للجند : « انتم
الحكم ! لقد طغى البرابرة على غالية واني ارشح يوليانوس قيصرأ ، فهل
تقبلون ؟ » فصرخ الجند : « هذه هي مشيئة الله ! » وعندئذ وضع قسطنديوس
التاج على رأس يوليانوس ووشحه بالارجوان . وشفع الجند عمله بان دفعوا
ركبهم بالتروس . ثم تزوج يوليانوس من هيلانة ابنة قسطنديوس وقام الى
غالية . وبقي فيها ثلاث سنوات اظهر في اثباتها من الحزم والعدل والطف
ما فتن الناس به واذاع صيته في الغرب والشرق معاً . وكان ما كانت
من أمر شاپور ذي الاكتاف فقضت الظروف العسكرية بوجوب الاستعانة
بافضل من في الغرب من جنود . على ان جنود يوليانوس آثروا المساعدة
به امبراطوراً وسيارهم هو على الامر . وفي صيف السنة ٣٦١ مشى الى
الشرق على رأس خمسة وعشرين الفا ، واحتل سرميموم ونيش . ثم علم
ب وفاة قسطنديوس وبما اوصى به فأسرع الى القسطنطينية ودخلها في الحادي
عشر من كانون الاول سنة ٣٦١ .

سياسة يوليانوس الداخلية : وما كاد يوليانوس يجلس على اريكة
القسطنطينية حتى أمر بتشكيل مجلس خاص لتطهير الادارة من ادران
الحكم السابق . وتألف هذا المجلس من انحاء الامبراطور العسكريين
فحكموا بالاعداد على طائفة من رؤساء الدوائر المدنية وبالنفى على غيرهم .
وتناول مثل هذا التطهير القصر الامبراطوري . فطرد الامبراطور الجديد

عددًا كبيراً من الخدم والحشم ولاسيما الحُصيان . و اراد ان يظهر بظهور
جمهوري فعظم القناصل وجالس الشيوخ كأنه واحد منهم . وعلى الرغم
من قلة النقد في الحزينة فإنه أمر بتخفيف ضريبة الناج التي كانت تجبى في
مناسبة تبوء العرش .

موقفه من النصرانية والوثنية : وكان يوليانوس يرى في مصنفات
علماء اليونان وفلاسفتهم ينبوع الثقافة كلها ، ويرى في فلسفتهم فلسفة عالمية
تتعدى حدود اليونان الجغرافية فتشمل العالم بأسره . وكان يرى في مؤلفات
فيثاغورس وأفلاطون ومبليخوس مؤونة فكرية كافية يستغني بها كل عالم
عن كل قول فلسفي آخر . واستهواه مبليخوس اللباني وسيطر على تفكيره
فابتعد عن افلاطون ولم يتدر بهديه .

ويستدل من رسائله ولاسيما تلك التي جعل عنوانها « الملك الشمس »
انه قال باكون ثلاثة أو شمس ثلاث : الشمس الاولى شمس الحقائق الراهنة
والمبادئ السامية والعلّة الاولى وهي التي سمّاها شمس النفس . والشمس الثالثة
شمس المادة الملموسة وصورة انعكاس الشمس الاولى . وبين الاثنين ، بين
النفس والمادة ، شمس ثانية هي شمس العقل . ولما كانت الشمس الاولى
بعيدة المنال وكانت الشمس الثالثة مادية غير صالحة للعبادة فإن يوليانوس
عبد شمس العقل وسمّاها الملك الشمس . واعتقد انه هو سليل الملك الشمس
يهتدى بارشاده عن طريق رؤى معينة يتفضل بها عليه الملك الشمس بين
حين وآخر . وقال بتناسخ الارواح على طريقة فيثاغورس فاعتقد انه هو
الاسكندر في دور آخر .

وتبنى في رسالته « ما يؤخذ عن النصرانية » موقف بورفيروس الفيلسوف
الخوراني اللباني ، فقال ان الاله يهوه اله التوراة هو إله شعب خاص
لا إله الكون بأسره ، وانه هنالك تناقضاً بين التوحيد في التوراة والتثليث
في الانجيل وان الانجيل الاربعة متنافرة غير متآلفة . وكره النصارى لانهم

كفروا بالالهة كما كره كل وثني لعن آلهة اجداده وجدف عليها .
ولانعلم بالضبط متى أعلن يوليانيوس نفسه وثنياً . وقد يكون ذلك في
السنة ٣٦١ في نيش عندما علم بوفاة قسطنديوس وبوصيته . ففيها ذبح
يوليانيوس باسم الالهة ومنها كتب الى بعض اصدقائه . ولكن هذا لم يعن
اضطهاد النصرانية . فانه عندما دخل القسطنطينية استدعى اليه مكسيموس
الوثني كما استدعى القديس باسيليوس رفيقه في جامعة آثينا .

ومنح يوليانيوس الشعب حرية المعتقد وسمح بعودة من نفي مضطهداً .
فاغتنم الفرصة اثناسيوس الكبير وعاد الى الاسكندرية ولكن يوليانيوس
ما لبث ان اصدر في السابع عشر من حزيران من السنة ٣٦٢ قانوناً
جديداً للتعليم حصر بمرجبه تعيين الاساندة بيد السلطة المركزية ومنع
المسيحيين من مواصلة هذه المهنة لانهم حرّموا درس النصوص الفلسفية
القديمة . فانبرى كل من ابوليناريوس كاهن اللاذقية وابنه اسقفها لنظم
التاريخ المقدس في لغة يونانية قشيرة فصحة . فاخرجوا اربعاً وعشرين
قصيدة ضمنها اخبار التوراة منذ البدء حتى عهد شاوول . وحذا حذوها
غيرهما من الآباء . فتيسرت للنصارى نصوص يونانية فصحة استعاضوا بها في
تعليم اولادهم عن النصوص اليونانية الوثنية .

وافرغ يوليانيوس مجهوده في تذليل الاكايروس فنزع منهم امتيازاتهم
وابطل ما كان قد أمر به قسطنطين الكبير من معونة لهم . وكان يقول
مستهزئاً ان قصده من ذلك ان يقود المسيحيين الى الكمال بحملهم على
اتقان الفقر الذي امر به الانجيل . وعزى الكنائس ونقل تحفها الى هياكل
الوثان .

في انطاكية : ودبّ النشاط في صفوف قبائل القوط في قطاع

الدانوب . وحسب يوليانوس لذلك حسابه . ولكنه آثر العمل في الشرق في جبهة الفرات لأنه كان يعتقد أنه هو الاسكندر في دور ثاني . فقام الى انطاكية في صيف السنة ٣٦٢ فوصلها في التاسع عشر من تموز يوم انتصاب العذارى على متل اذوناي عشيق عثروت . وكانت ليبيانيوس الفيلسوف الاذيب قد عاد اليها ليعلم فيها اخوانه الانطاكيين ، فاستقبل الامبراطور الجاحد استقبالاً حاراً . ولكن انطاكية كانت قد اصبحت مسيحية . فقال يوليانوس اعراض اهلها عن الدين القديم وقلة اكترائهم بياكل دفنة المقدسة . فقال في احدى رسائله الى الانطاكيين : « عودا الشهر العاشر شهر لوس الذي تتهجون فيه بعيد ابولون الاله الشمس . وكان من واجبك ان تزوروا دفنة . وكنت انا اقصور موكبكم لهذه المناسبة شباناً بيضاً اطهاراً يحملون الخمر والزيت والبخور ويقدمون الذبائح . ولكني دخلت المقام فلم اجد شيئاً من هذا وظننت اني لا ازال خارج المقام ، فاذا بالكاهن ينبشني ان المدينة لم تقدم قرباناً هذه المرة الا وزّة واحدة جاء بها هو من بيته » ١

وأكرم يوليانوس ليبيانيوس الفيلسوف الوثني ورقى عدداً من الوجهاء الى رتبة المشيخة فجعلهم اعضاء سناتوس انطاكية . ووهب المدينة مساحات كبرى من اراضي الدولة . ولكن الانطاكيين المسيحيين قابله بالهزم ووجدوا في النقيضين : حليته الطويلة وقامته القصيرة ، مجالاً واسعاً لان يارسوا ما طاب لهم من ضروب العبث والسخر . وعيناً حاول ليبيانيوس ان يوفق بين الامبراطور وبين رعاياه الانطاكيين . ثم اشتد الخلاف وتفاقم

Julianus, Opera, II, 167; Wright, W. C., Works of Emp. Julian II, 487. ٨

489.

Negri, G., Julian II, 430-470.

الشر حين اخرج الامبراطور بقايا شهيد انطاكية القديس بايلاس من قبره في دفنة . فغضب المسيحيون لكراמתهم واحرقوا في الثاني والعشرين من تشرين الاول هيكل ابولون . فاقبل الامبراطور كنيسة انطاكية الكندراثة وأمر بنهبها وتدنيسها . فكثر المسيحيون قائلين الاله واني الجند المسيحيون ان يسيروا تحت لواء الامبراطور الجاحد لمحاربة الفرس . وعلم يوليانوس ان يسوع نبياً بان لا يبقى من الهيكل في اوروشليم حجر على حجر . فلما يكذب الكتب اهتم لاعادة بناء الهيكل فارسل الى اوروشليم احد امثائه إلييوس لشرف على العمل . وتقاطر اليهود واجتمع عدد كبير منهم في مكان الهيكل . فجرفوا المكان وحفروا في الارض كباراً وصغاراً رجالاً ونساء . ولما انتهوا من هدم الاساسات القديمة واوشكوا ان يضعوا الاساسات الجديدة حدثت زلزلة هدمت الابنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وملاأت الحفر تراباً .

الحرب الفارسية : ولم يسع شاوور ذو الاكتاف للحرب هذه المرة بل فاوض في سبيل السلم والوثام وبعث الرسل الى انطاكية . ولكن يوليانوس ابى ان يضيي اليهم واكتفى بالقول « قريباً ترونني » . واسترضى اليهود في مملكته طمعاً في ان يعاونه اخوانهم في فارس ، وحالف ملك ارمينية على الرغم من نصرانيته . ونهض في ربيع السنة ٣٦٣ الى القرات على رأس جيش مؤلف من خمسة وستين الفا . وكان يود ان ينصب على عرش فارس هورمزد اخا شاوور وكان هذا لا يزال داخل الحدود الرومانية منذ السنة ٣٢٤ . وقطع يوليانوس القرات على جسر من القوارب . ولدى وصوله الى الحابور افرز ستة عشر الفا بقيادة بروكوبيوس احد انسابه ليتجه بهم شرقاً عن طريق نصيبين ويتصل بالارمن الزاحفين شطر الجنوب .

واعطى بروكوبيوس في السر ثوباً أرجوانياً وعيّنهُ خلفاً له في حال
الوفاة . وزحف هو بجاذي الفرات في طريقه الى بابل . وكان ذو الاكتاف
قد اخطأ التقدير فحسب ان الجيش الروماني سينطلق من نصيبين ، فانجه
هو الى دجلة لمقابلة اعدائه . وقابع يوليانوس زحفه جنوباً ثم انجه شرقاً الى
دجلة واحتل سلوقية وواقع خصمه عندها فانتصر عليه انتصاراً باهراً . واستأنف
الزحف على طيسفون عاصمة شابور ، فبلغها وشابور لا يزال بعيداً عنها .
وكانت طيسفون صعبة المنال فرأى يوليانوس ان يتصل ببروكوبيوس
والاومن قبل ضرب الحصار عليها . وفيما هو فاعل ضايقه القرس في السادس
والعشرين من حزيران بهجوم متتابع . وكان هو قد نزع عنه درعه من
شدة الحر فاضطر فجأة ان يتقدم الى الصفوف الامامية لرد هجوم على
مؤخرة جيشه فأصابه سهم في ذراعه عقبه نزيف شديد . وعيناً حاول
اطباؤه وقف النزيف فتوفي في منتصف الليل وهو يحدث صديقه الفيلسوفين
مكسيموس وبريسكوس عن صفات النفس السامية العالية . وقيل ان
فارساً مسيحياً من فرسانه رماء بهذا السهم للقضاء عليه .

الفصل السادس

ثيودوسيوس الكبير

(٣٧٩ - ٣٩٥)

خلفاء يوليانيوس : وتشاور رؤساء الجند في من يكون خلفاً ليوليانيوس ، فأجمعوا على مدير بوايكتورة الشرق سلوتيوس سكندوس^١ ، ولكنه اعتذر عن القبول بداعي المرض والتقدم في السن . فنادى قسم من الجند بيوفيانوس^٢ امبراطوراً . وكان هذا رئيس الحدم في القصر مسيحياً نيقاويّاً من بانونية بين الشرق والغرب ، فأيدته الجنود المسيحيون ، ورضي عنه رؤسائهم الشرقيون والغربيون معاً . فوقع صلحاً مع الفرس تنازل فيه عن جميع ما وقع شرقي دجلة ، وعن نصيبين وسنجار ونصف ارمينية . وعاد الى انطاكية فوصل اليها في خريف السنة ٣٦٣ . وكان لا يزال في الثلاثين من عمره ، ضئيل الحظ من الثقافة ، يحب الخمر والنساء . وعلى الرغم من اتصال اثناسيوس الكبير به والحاجة عليه ، فانه لم يخرج في سياسته الدينية عن الحطة التي رسمها قسطنطين الكبير . ولذا نراه يقول لبطريك الاسكندرية اثناسيوس نفسه : « في اكره الشقاق واحب من

^١ Solinus & Secundus .

^٢ Jovianus وقد ورد « يوليانيوس » في القرطبي وغيره .

يعمل في سبيل الوثام^١ . « وأصدر براءة أوجب فيها عبادة « الكائن
الاعلى » ، وحرّم « الخرافات »^٢ . ثم ما لبث ان وجد ميتاً بجثته في
آية الصغرى ، بعد ان قضى ليلة بين الكوروس والاباريق . وذلك في
اوائل السنة ٣٦٤ .

وانتجع رؤساء الجند في نيقية وتداولوا في امر الخلافة وكانوا لا
يزالون هم الذين رفعوا يوفيانوس الى منحة الحكم . فطلبوا الى سلاتيوس
سكندوس ان يكون ابنه خلفاً ليوفيانوس فأبى نظراً لصغر سنه . فأجمعوا
على ولتنتيانوس^٣ احد قادة الحرس . وكان هذا ايضاً من بانوثية بين الشرق
والغرب . وما ان أطل على الجند ليخطب فيهم حتى قاطعه عدد منهم
بدق التروس طالين امبراطوراً آخر يشاركه في الحكم . فاستمهلهم وشاور
الرؤساء ، فقال احد هؤلاء : « ان كنت تحب اسرتك فان لك انجاً ، وان
كنت تحب الدولة فانتقر الاليق . » وفي الثامن والعشرين من اذار من
السنة ٣٦٤ قدّم اخاه والنس اوغوسطساً وشريكاً له في الحكم . وتشاطر
الاثنان الملك فحكم والنس الشرق (٣٦٤ - ٣٧٨) . وتولى ولتنتيانوس
الغرب (٣٦٤ - ٣٧٥) . وانفق الاثنان على امور معينة اهمها حرية
المعتق ، ومنع اغفاء احد من الضرائب ، واقامة جباة من الموظفين بلجعبا ،
واقسام الملك اقتساماً تاماً كاملاً ، بحيث تصبح الامبراطورية دولتين :
شرقية وغربية .

وعبر الهون الفولكة في السنة ٣٧٢ بعد الميلاد ووقبلها متدفقين

Socrates, Hist. Ecc., III, 25.

١

Sozomenus, Hist. Ecc., VI, 3.

٢

Valentinianus.

٣

٤ *Valens* وفي تاريخ ابن العميد : ولتانيان ووالنس .

كالسيل الجارف في سهول روسية الجنوبية . فاحتلوا مراعي قبائل الآلائي
ثم اراضي القوط الشرقيين حتى نهر الدنيستر . ولم يبق حائلاً بينهم وبين
مصب الدانوب سوى القوط الغربيين . وكان قسم كبير منهم قد قبل
النصرانية على يد اولفيلاس القبدوني (٣١٠ - ٣٨١) الذي نقل الانجيل
الى لغتهم فهب اثاريكوس^١ ملك هؤلاء القوط الغربيين يستعد للدفاع
فانشأ خطاً يصد وراه من منبع البروت حتى مصب الدانوب . وعبر
الهون الدنيستر وجازوه عند مصبه ففر جماعة من القوط الغربيين وخذلوا
قومهم وانجهوا غرباً وجازوا يفاوضون والنس في الانتقال الى داخل الحدود
الرومانية والاقامة في تراقية . وكان على رأس هؤلاء فريتيجرن^٢ وألافيف .
واما اثاريكوس فمضى بجماعته واحتل جبال البنات في الجرج . وقد رأى
والنس الامبراطور في من انحاز اليه من القوط عنصراً طيباً واداة فعالة
لتقوية الجيش ولأسيا فرقة الحيلة . فقبل مطلبهم ان يدخلوا الحدود فعبروا
الدانوب حسيماً الفاً . وما ان فعلوا والقوا سلاحهم حتى شعروا بالفاقة وقلة
المأكل . فاستعادوا سلاحهم بالرشوة وجالوا في البلقان ينالون قوتهم بالقوة .
ووقعت اصطدامات عنيفة هنا وهناك . فأخضر الرومان السوء ودعوا
الزعيمين القوطيين في مطلع السنة ٣٧٧ الى مأدبة فاخرة في ماركيانوبوليس
وحاولوا اغتيالهما . فنجح فريتيجرن بجدعة محكمة واندلعت نيران الحرب
بين الفريقين في كل مكان . ولم يقو الجيش الروماني المربط في البلقان
على ضبط الموقف فاستقدم والنس نجداً من الشرق القريب وأمره
غراتيانوس ابن اخيه ببعض الكتائب ثم قام هو بنفسه على رأس الجيش
الغربي لاعانة عمه . ولكن والنس تسرع فنازل فريتيجرن قبل وصول

Athauricus.

١

Fritigern, Alaviv.

٢

غراتيانوس ، وذلك في الثامن من آب سنة ٣٧٨ وعلى مقربة من
أديانوبوليس . فاكتمست الموقف خيالة القوط . وخرّ والنس في ساحة
القتال صريعاً . وقيل انه أحرق حرقاً . وغشي القوط الريف كله ولكنهم
لم يسكنوا من اخضاع المدن المحصنة لنقص في العتاد .

ثيودوسيوس الكبير : وعظم الامر على غراتيانوس وهاله . فاستدعى
اليه ثيودوسيوس اشهر القادة وامهرهم في الحرب . وفاوضه في أمر القوط
وطالب اليه ان يتناسى ما كان قد لحق به وبوالده قبله من شرّ وضم .
ورفعه الى منصة الحكم ونادى به امبراطوراً على الشرق . وكان
ثيودوسيوس حسن القد ، رشيقاً ، اشقر الشعر ، أزرق العينين ، اشرف
الانف ، يشبه ثريانوس ويدعي الانساب اليه . وكان ايضاً عالي النفس ،
رفيع الالهواء ، يكثر من مطالعة التاريخ الروماني ، ويحب الواجب
القومي ايما احساس . فتقبل التاج في مرميوم في التاسع عشر من كانون
الثاني سنة ٣٧٩ . وهب للقتال فوقع بالقوط ، فيما يظهر ، ضربات اولية
متتالية . ثم رأى ان لا بد من الاستيلاء على نيسالونيكية لتأمين الزاد
والعتاد الوازدين من مصر والشرق . فاشتق طريقه اليها ووصلها في اوائل
حزيران واستقر بها . وكان في اثناء هذا كله يشاطر جنوده المشقة كأنه
واحد منهم ، ويعنى بنشيطهم وتشجيعهم ، ويؤمن راحتهم . فأحبوه
واندفعوا في سبيله وازدادوا قوة ومناعة . ورأى الامبراطور ايضاً ان
يقوم بحملة عسكرية يصل بها الى الدانوب ، فيهول على اعدائه ويفاضهم
في الوقت نفسه ، اذا وافقت الظروف . فوصل الى اسكوب في السادس
من تموز ، والى فيقوس اوغوسطة في الثاني من آب . ولما عاد الى
نيسالونيكية لتضية فصل الشتاء . وفي شباط السنة ٣٨٠ ، انتابه مرض

عضال أشرف به على الموت . فطلب الاعتماد ليُغسل جميع ذنوبه قبل
 ملاقة ربه . وتعهد على يد أخوليوس اسقف ثيسالونيكية عمادة نيقاوية
 ارثوذكسية . ثم قاتل وتعافى . فعاد يعالج مشكلة الجيش . فأمر بتجنيد
 الفلاحين والعمال ، وبملاحقة أبناء الجنود المُنتمين في مكاتب الدولة ، وبإزالة
 أشد العقاب من يقطع ألبامه للتخلص من خدمة العلم . وأمر كذلك من كان
 قد دخل في الجيش من القوط أن يُنقل من البلقان الى الشرق ، وبإستبدال
 هؤلاء بجنود شرقيين يحلون محلهم في البلقان . وقامت فرقة من الجنود
 القوط الى الشرق ، فعبثت المضايق ووصلت الى ليدية ، ولكنها استبكت
 فيها مع فرقة شرقية كانت قد قامت من مصر لتحل محل الفرقة القوطية
 او غيرها في البلقان . وفيما كان ثيودوسيوس يعدّ العدة على هذا النحو
 تنافر القوط في البلقان وتنازعوا . واشتد الحُصام بين جماعة اثناريكوس
 وجماعة فرينغون . وتوفي فرينغون في صيف السنة ٣٨٠ ، فنفذ
 القتال في جنوبي البلقان . وجاء غراتيانوس امبراطور الغرب في الوقت
 نفسه الى سرميوم وفاوض القوط في الشمال وهادنهم على أن ينتظم أبناءهم
 في خدمة الجيش الروماني في مقابل تقديم الزاد اللازم لعشائر . فهدأت الحال
 وقام ثيودوسيوس من ثيسالونيكية الى القسطنطينية فدخلها دخول المنتصر
 في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٨٠ وجعلها مقره الرسمي . وفي
 الحادي عشر من كانون الثاني ٣٨١ أطل عليه في القسطنطينية اثناريكوس
 نفسه مقصوص الجناح اسلاً الساعد لما كان قد حل بجماعته من الشقاق
 والحُصام . فرحب به ثيودوسيوس وبجته وعظم قدره ولكنه توفي في
 الخامس والعشرين من الشهر نفسه ، فأمر الامبراطور بدفنه دفناً ملكياً .
 وفي هذه السنة نفسها وصلت طلائع الهون الى الدانوب فردها القوط ببسالة
 ورباطة جأش . وشعر الطرفان : القوط والرومان ، بخطر الهون فباثا اكثر
 استعداداً للوصول الى تقاسم دائم بينهما . فأرسل ثيودوسيوس في صيف

السنة ٣٨٢ القائد ساتورنينوس الى القوط في الشمال ليفاوضهم في أمر الصلح. وكانت ساتورنينوس من طراز ليبانيوس وغريغوريوس النازيانزي دمث الاخلاق وديعاً معتدلاً وزيناً، فأقره القوط على مطالبه ووقع الطرفان في الثالث من تشرين الاول معاهدة صلح دائمة. وأهم شروط هذه المعاهدة ان الامبراطور الروماني اذن باقامة دولة قوطية بين الدانوب وجبال البلقان شرط ان تبقى حصون هذه المنطقة رومانية. وتعهد بتقديم معونة مادية في مقابل انخراط القوط في الجيش الروماني. والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان ثيودوسيوس آخر، بعد هذا، العنصر القوطي الالماني على غيره من العناصر في تعبئة جيشه، ففدا الجيش المائياً مع مرور الزمن بعد ان كان رومانياً صرفاً في ايام الفتوحات.

المجمع المسكوني الثاني: وكان والنس قد اظهر تحيزاً شديداً لآريوس والاريوسيين فنفي جميع الاساقفة النيقيين وقهر رهبانهم على اللحاق بالجيش وقتل وأحرق. فلما سقط في ادرينوبوليس في السنة ٣٧٨ ورثي ثيودوسيوس ان يتسلم الحكم (٣٧٩) اشتد التنافر بين الاريوسيين وبين النيقيين وعم جميع الاوساط الشعبية رجالاً ونساء. ومن أطف ما جاء في المراجع في وصف تدخل «العوام في علم الكلام» قول غريغوريوس اسقف نيسة اليونانية: «والجميع في الشوارع والاسواق وفي الساحات وعند مفترق الطرق يتكلمون فيما لا يفقهون. فإذا سألت احداً من الباعة: ماذا ادفع؟ اجابك: هو مولود او هو غير مولود. وإذا انت حاولت ان تعرف من الخبز اجابوك ان الآب اعظم من الابن. وان سألت هل الحماة جاهز سمعت جواباً ان الابن جاء من العدم». »

ويرى رجال الاختصاص ان ثيودوسيوس عزم منذ ان تسلم أزمة

الحكم على ان يجعل العقيدة الكاثوليكية الارثوذكسية عقيدة الدولة^١.
 فانه منذ السابع عشر من حزيران سنة ٣٧٩ عندما أصدر براءته الاولى
 وحدد فيها واجبات كبير الكهنة الوثنيين في انطاكية امتنع عن ان يشير
 الى نفسه باللقب الوثني: الحبر الاعظم. ولعل السبب في هذا انه ولد من
 ابوين مسيحيين اسبانيين وات حبر رومة دماسوس الكبير استغل نفوذه
 الحاشية الاسبانية المسيحية لحل الامبراطور على مراعاة الكنيسة. وعاد
 ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من شهر شباط من السنة ٣٨٠ فأصدر
 براءة خاصة جعل بها العقيدة النيقاوية عقيدة الدولة. فقال ما معناه: « وعلى
 جميع شعوبنا ان تجتمع حول العقيدة التي نقلها بطرس الرسول الى الرومان،
 العقيدة التي يقول بها اسقف رومة دماسوس واستقف الاسكندرية بطرس،
 اي ان يعترفوا بالثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس. وللمن
 يقولون بهذه العقيدة وحدهم حق التلقب بالمسيحيين الكاثوليكين^٢. اما
 الآخرون فانهم هراطقة موصومون بالعار لا يحق لهم ان يدعوا الابنية
 التي يجتمعون فيها كنائس. وسينتقم الله منهم ونحن ايضاً بعده^٣. » وما
 كاد الامبراطور يدخل العاصمة القسطنطينية في الرابع والعشرين من تشرين
 الثاني سنة ٣٨٠ حتى اخرج منها استقفا الآريوسي وأدخل اليها (٢٦
 تشرين الثاني سنة ٣٨٠) « بلبل قبدوقية الازرق » غريغوريوس الثالولوغوس
 النازياتي بجميع مظاهر الابهة والاجلال. وغريغوريوس هذا العظيم ولد
 بالقرب من نازيانزة في قبدوقية في السنة ٣٣٠ ودرس في الاسكندرية
 وقصرية وآثينة كما مرّ بنا، وكان قد اشتهر بعلمه وفلسفته وفصاحته وسيم

Piganiol, A., Emp. Chrétien, 216.

Christum Catholici.

Cod. XVI, 2, 25.

اسقفاً على ساسنة فثازابانزة . و اراده ثيودوسيوس اسقفاً على العاصمة . وفي العاشر من كانون الثاني سنة ٣٨١ أَرَدَف ثيودوسيوس براءته هذه الاولى ببراءة ثانية فصل فيها العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كما كان قد أقرها المجمع المسكوني الاول في نيقية . وأبان ان الهرطقة في نظر دولته شملت اقوال فوثيانوس وآريوس وافنوميانوس . وفي الثاني من ايار من السنة نفسها حرم جميع المسيحيين المرتدين الى الوثنية من حق الوصية والوصاية . وفي الثامن منه ضرب المنكيين ضربة قاضية .

وكان ثيودوسيوس قد أعلن رغبته وهو لا يزال في ثباليونيكية في عقد مجمع مسكوني عام للنظر في امور الكنيسة جمعا ، فنفذ امينته هذه في ربيع السنة ٣٨١ . وأم القسطنطينية عدد من اعظم رجال الكنيسة بينهم ملاتيوس بطريرك انطاكية وغريغوريوس النازيانزي بطريرك القسطنطينية فبا بعد وتيسوثاوس بطريرك الاسكندرية وكيولس اسقف اوروشليم وامفيلوشوس اسقف ايقونية وبيلاجيوس اسقف اللاذقية وذيذوروس اسقف طرسوس واكاكيوس اسقف حلب وكثيرون غيرهم بلغ مجموعهم مئة وخمسين . وكان دماسوس بابا رومة قد ألح بوجوب انعقاد هذا المجمع المسكوني في رومة نفسها . ولكن ثيودوسيوس الامبراطور أُلِي وأصر على عقده في القسطنطينية . فلم تشترك رومة في اعمال هذا المجمع ولم يكن هنالك من يمثلها ، ولكنها وافقت على جميع قراراته فيما بعد واعتبرته مجمعا مسكونيا قانونيا . وكاث ملاتيوس البطريرك الانطاكي قد اشتهر بجهاده ضد الآريسية وبعلمه وفضله وتقواه فأجمع الاعضاء عليه رئيسا . فسام غريغوريوس النازيانزي اسقفاً على القسطنطينية ونوفي في اواخر ايار . فانتخب

١ وكانت قد جرت العادة منذ عهد قسطنطين الكبير ان يفرق بين الكتلثة النقية

ecclesia catholica وبين الهرطقة *Haeretici*.

الجمع غريغوريوس النازينزي رئيساً . ولكنه كان عصي المزاج مريض
الغضب فاستعفى ، وعندئذ انتخب الجمع بإشارة من الامبراطور نكتاريوس
القاضي رئيساً . وهو الذي أصبح فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية بعد
غريغوريوس .

ونظر الجمع في بدعة مقدونيوس اسقف القسطنطينية الذي كان يقول
بجنى الروح القدس من الله الآب بواسطة الابن . فنبذ الجمع هذا القول
وأقرّ مراسيم الجمع النيقاوي ، وازاد الى دستور الايمان النيقاوي بعض
ايضاحات وخصوصاً فيما كان يتعلق بامر تجسد ابن الله والوهية الروح
القدس . فجاء في اثني عشر باباً كما يلي ، وهو لا يزال دستور المسيحيين
حتى يومنا هذا :

- ١ - اؤمن بالله واحداً آب خابط الكل ، صانع السماء والارض ،
كل ما يرى ، وما لا يرى .
- ٢ - وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب
قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ،
مسار للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء .
- ٣ - الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من
السموات ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس .
- ٤ - وُصِّلب عنا على عهد ييلاطس البنطي ، وتآلم وقبر .
- ٥ - وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب .
- ٦ - وصعد الى السموات ، وجلس عن يمين الآب .
- ٧ - وايضاً يأتي بمجد ، ليدين الاحياء والاموات ، الذي لا قتاء للمكروه .

١ وكان النص النيقاوي : « نزل من السماء ، وتجسد ، وصار انساناً ، وتآلم وقام في اليوم
الثالث ، وصعد الى السموات ، وسيأتي ليدين الاحياء والاموات . »

- ٨ - وبالروح القدس ، الرب الخفي ، المنبثق من الآب ، الذي هو مع الآب والابن ، مسجود له وممجّد ، الناطق بالانبياء .
 ٩ - وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية .
 ١٠ - واعترف بمعبودية واحدة لغفرة الخطايا .
 ١١ - واترعى قيامة الموتى .
 ١٢ - والحياة في الدهر العتيد . آمين .

وكان المجمع المسكوني الاول قد شرع في تنظيم الكنيسة على غرار نظام الدولة الرومانية . فأعطى اسقف عاصمة الولاية حق التقدم على اساقفة مدنها الاخرى ، وجعله متروبوليتاً عليها كلها . وكانت الولايات الرومانية المئة والعشرون قد انتظمت ذيقوسيات اثنتي عشرة . فجاء المجمع المسكوني الثاني يعطي متروبوليت عاصمة الذيقوسية حق التقدم على جميع المطارنة فيها . وأصبح بموجب هذا الترتيب بطريرك انطاكية عاصمة ذيقوسية الشرق متقدماً على جميع مطارنة هذه الذيقوسية . ومثله بطريرك الاسكندرية في ذيقوسية مصر ، ومتروبوليت قيسرية قبدونية في ذيقوسية البونط ، ومتروبوليت افسس في ذيقوسية آسية ، ومتروبوليت هرقلية في ذيقوسية تراقية .

ويرجع بعض رجال الاختصاص ان اساقفة هذه الذيقوسيات كانوا يستعملون بلقب ماكسارخوس او الاسقف الاول ، وانه كان لبعضهم ألقاب خاصة احتفظوا بها . فكان اسقف رومة يدعى اسقف المدينة او حبراً او بابا او بطريركاً . وكان اسقف الاسكندرية يدعى بابا وبطريركاً ولا

Lagier, G., *Orient Chrétien*, II, 282;

خلاصة تاريخ الكنيسة ، ترجمة الحوري يوسف البستاني ، مطبعة الآباء اليسوعيين ،

الجزء الاول ، ص ٢٢٥ .

٢ وفي النص النيقاوي : « تؤمن بالروح القدس » .

يزال « بابا وبطربرك الاسكندرية » كما كان اسقف انطاكية يدعى بطربركاً ايضاً . واللفظ بابا يوناني في الأرجح مأخوذ من الكلمة باباس ومعناها الاب . واللفظ بطربرك يوناني ايضاً . وهو مركب من كلمة باتريا ومعناها العشرة ، وكلمة أرسيس ومعناها الرئيس .

ولما كان بروقنصل القسطنطينية وحاكمها لا يخضع لنائب الديقوسية التي فيها هذه المدينة ، ولما كانت القسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية الثانية « رومة الجديدة » فإن الجميع رأى ان يعطي اسقفها حق التقدم على جميع الاساقفة بعد اسقف رومة وان يصار الى تسميته في مجمع خياض يشترك فيه جميع اساقفة الديقوسيات الشرقية^١ .

ودعا دماسوس حبر رومة الاساقفة الى مجمع في رومة في السنة ٣٧٢ ولما كان ثيودوسيوس طلب اليهم متابعة العمل في القسطنطينية في الوقت نفسه وسمح بان يسافر وفد منهم الى رومة يراقب اعمال مجعها ولا يشترك فيها ، وتدخل غراتيانوس امبراطور الغرب وحض الآباء المجتعيين في القسطنطينية على الاشتراك في مجمع رومة ولما كان على غير جدوى . فاضطرب دماسوس ورأى في هذا اهانة له ونذير انشقاق بين الشرق والغرب^٢ .

العلاقات الرومانية الفارسية : وتوفي ذو الاكتاف شابور الثاني في السنة ٣٧٩ وتولى العرش الفارسي بعده اردشير الثاني (٣٧٩ - ٣٨٣) ثم شابور الثالث ابن ذي الاكتاف . فارسل هذا في السنة ٣٨٤ وفداً الى القسطنطينية يفاوض في توطيد السلم وتحيين العلاقات . وشفع ذلك بات

١ المجمع الثاني : القانون الثالث . اطلب ايضاً مقال لوران V. Laurent في المجلة Byzantion في سنتها السابعة ، ص ٥٩٢ .

Piganiol, A. , Emp. Chrét., 220.

ارسل الهدايا الحزيرة والحجارة الكريمة والفيلة. ولكن حدث بعد هذا بقليل ان زحفت جيوش شابور الثالث على ارمينية ففر ملكها ارساك الرابع الى تيودوسيوس مستنجراً. ولكن تيودوسيوس كان في امس الحاجة الى السلم نظراً لاضطراب الموقف في الغرب واغتيال غراتيانوس. ففاوض شابور في اقتسام ارمينية بينهما، فتم ذلك في السنة ٣٨٦ بموجب خط فاحصل امثد من ديار بكر (آمد) حتى ارضروم (تيودوسوبوليس). وهكذا ضم تيودوسيوس مساقارب من خمس ارمينية الى ملكه. وفي بعض المراجع انه جرى مثل هذا الاقسام في ما بين النهرين ولكنه قول ضعيف.

ضجة في انطاكية وبيروت: وتلطلخت ادارة تيودوسيوس بالرشوة. وكتب ليبانيوس الفيلسوف الانطاكي الى الامبراطور يقول: «حكامك الذين تبعثهم الى الولايات ليسوا سوى قتلة». وتفاقت ازمة مجالس الشيوخ في المدن. وفروا الشيوخ واختبأوا. واضطر الامبراطور ان يحدد من نفوذ بعض الشخصيات الاقلية. ثم جاءت السنة ٣٨٧ فترعت الحكومة المركزية تنهياً للاحتفال بمرور عشر سنوات على حكم الامبراطور^٤. فزادت الضرائب المفروضة. لكنها ما كادت تعلن عزمها على الجباية حتى لجأ الانطاكيون الى العنف، فاقتلوا تماثيل الاباطرة وجروها في شوارع المدينة، واحرقوا بعض الابنية. وعلى الرغم من اعادة النظام في اليوم نفسه فان عدداً كبيراً من الاغنياء فروا واستتروا. وخشي الناس سطوة تيودوسيوس وقسوته وظنوا انه سيخرب المدينة. وتحركت بيروت فأعلنت ولائها لمكسيوس في الغرب. وحدث حذوها الاسكندرية. وانبرى

Procopius, Aed. III, 1, 245-246; Chapot, Frontière de l'Euphr., 347-361.
decennalia.

يوحنا الذهبي الفم تلميذ ثيودوسيوس وكان لا يزال كاهناً في مسقط رأسه
انطاكية يستغل الذعر لمصلحة الايمان فألف ميامره العشرين وحفظ لنا
شيئاً من تفاصيل تلك الحوادث^١ ، وأمر ثيودوسيوس بتأليف مجلس عدلي
للنظر في هذه الحوادث . واتخذ هذا المجلس مركزه في انطاكية وحكم
وقسا على الرغم من احتجاج الرهبان والأتقياء . ونزع ثيودوسيوس لقب
متروبوليت عن انطاكية وانعم به على اللاذقية ثم أصدر عفواً عاماً
قبيل عيد الفصح من السنة نفسها .

توحيد الامبراطورية : وأحب غراتيانوس الامبراطور القبائل
الآلانية التي كانت قد فرّت من سواحل بحر ازوف والتجأت الى داخل
حدود الامبراطورية خوفاً من الهون البرابرة ، فألحق ابناء هذه القبائل
في الجيش وعطف عليهم عطفاً ماثراً . فأثار بذلك حسد العناصر
الآخري في الجيش . فتمردت الكتائب الرومانية في بريطانيا ونادت في
السنة ٣٨٣ مكسيموس احد النبلاء الاسبان امبراطوراً . وحذت حذوها
كتائب الجيش في المانيا . ونزل مكسيموس بجنوده عند مصب الرين .
فنهض غراتيانوس اليه وتلقى الجيشان في منطقة باريز . ولكن عساكر
الامبراطور خانت سيدها . ففر غراتيانوس في ثلاث مئة فارس . ولحق
به فرسان مكسيموس فأدركوه في ليون وقتلوه في الخامس عشر من
آب سنة ٣٨٣ . ثم أرسل مكسيموس يستدعي اليه والتنبئانوس الثاني
اخا غراتيانوس الاصغر ، معترفاً بحقه بالملك مدعياً الحكم بحق الوصاية
على الامير القاصر . فاما ثيودوسيوس فحين اتته هذه الانباء اسرع في
السنة ٣٨٤ الى ايطاليا لينظر في الامر . وظن الناس انه انما قام ليحارب

Goebel, R., *De Iohannis Chrysostomi et Libani Orationibus*, Göttingen, 1910.

مكسيموس وإبيد الحق الى نصابه . ولكنه أبرم مع المعتصب صلحاً أعرج ، فجعل مكسيموس أوغسطس ثالثاً مشروطاً عليه ابقاء ايطالية بيد الامبراطور القاصر ووالدته يوسفينة . ولكن مكسيموس نكث بالشروط وزحف على ايطالية في السنة ٣٨٧ ، ففرّ والتثنيانوس الثاني الى الشرق واستقرّ في نيسالونيكية . فزحف ثيودوسيوس في صيف السنة ٣٨٨ بجيشه الى حدود ايطالية وحارب مكسيموس وانتصر عليه . فاستسلم مكسيموس في اكويلية ولكن ثيودوسيوس أحاله الى الجند فقتلوه . وقام هو الى ميلان واقام فيها سنتين . وسُيّر والتثنيانوس الثاني الى غالية ليدبر امورها . فلما كانت السنة ٣٩٢ قام والتثنيانوس هذا الى فينة ليصد هجوماً بربرياً قوياً . فقتل فيها على قول احدى الروايات وانتحر على قول غيرها . فاختار قائد العساكر خطيباً غالياً اسمه اوجانيوس واعلنه امبراطوراً في ليون . وانتقل هذا الامبراطور في ربيع السنة ٣٩٣ الى ايطالية فاقام فيها . فألحت غلة زوجة ثيودوسيوس الثانية واخت والتثنيانوس بوجوب الاقتصاص من اوجانيوس لانها اتهمته بقتل اخيهما . فنهض ثيودوسيوس اليه في صيف السنة ٣٩٤ وانتصر عليه في مداخل ايطالية الشمالية وامر بقتله فقتل في جواقيلان . وهكذا أصبح ثيودوسيوس هو الحاكم الفردي في الامبراطورية.

الوثنية تشرف على التلف : وفي الوقت الذي كان فيه ثيودوسيوس يضطهد الهرطقة والخروج على العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كانت يضيق الخناق على الوثنية ليخمد انفسها . فابطل زيارة الهياكل وذبح الذبائح والعبادة باكباد الحيوانات واحشائها . وأدى هذا بطبيعة الحال الى اغلاق الكثير من الهياكل والى اقتحام الجماهير لبعضها لبعض وتدميرها . ثم عاد فمنع في السنة ٣٩١ الذبائح وزيارة الهياكل وتكريم التماثيل ، وفرض غرامات ثقيلة على الحكام والموظفين الذين يقتوفون مثل هذه الذنوب ، وأمر باخراج مذهب الهة النصر من بهو مجلس الشيوخ في رومة ، وكانت

بوليانوس قد اعاده الى هذا البهو بعد اخراجه منه في عهد قسطنطين . فاضطرب الشيوخ الوثنيون ، ورأوا في ذلك تمثيلاً وتنكيلاً بمجد رومة وعظمتها . ووافدوا سياخوس الخطيب الى ميلان ليلتمس اعادة النظر في هذا التدبير وارجاع المذبح الى مكانه . وعلم امبروسيوس اسقف ميلان بمهمة سياخوس فكتب الى البلاط يرجو المحافظة على حرية المعتقد المسيحي ويبين انه ليس من هذه الحرية في شيء اكراه الشيوخ المسيحيين على الاجتماع والتشاور في قرب من مذبح وثني . ووصل سياخوس الى ميلان ونكلم باسم الشيوخ الوثنيين فطالب باحترام جميع الاديان . وقال : يمكن الوصول الى الحقيقة الدينية بطرق متعددة . ثم اشار الى عين الولاة المفروضة على جميع الاعضاء وأبان انه اذا لم يكن ثمة مذبح في بهو المجلس فعلى اي شيء يشتم الاعضاء البين ؟ ولكن ثيودوسيوس كان شديد التنسك بالنصرانية فأحال عريضة الشيوخ الى المجلس الامبراطوري الاعلى مع اليعاز برفضها . وفي السنة ٣٩٢ أصدر الامبراطور امراً خاصاً الى نائبه في مصر بوجوب تطهير هذا البلد من ادران الوثنية . فأقبل السيرايوم في الاسكندرية . واتفق ان اراد ثيوفيلوس اسقف الاسكندرية ان يحول هيكلًا وثنيًا الى كنيسة مسيحية فثارت ثائرة الوثنيين في الاسكندرية والتجأوا الى السيرايوم واعتصموا فيه . وحضهم الفيلسوف اولينيوس الوثني على الاسفانة في سبيل دينهم . فأمر ثيودوسيوس بهدم الهيكل وتدميره . وألح ثيوفيلوس بوجوب تقطيع تمثال سيرابيس بالفؤوس . وكان الناس يعتقدون ان سيرابيس يقابل مثل هذا العمل بالزلزال . لكن ما ان سقط التمثال وهدمت قاعدته حتى خرج منها جيش من الجراذين ! ثم أضرمت النار في امثلة الهيكل الكبير فاحترق معها عدد غير قليل من نفائس المخطوطات اليونانية وضاعت بضائعها حفظة من تازيخ العلم والمدنية .

الوفاة : وكان ثيودوسيوس قد أدمن شرب الخمر وما يتبعها من
ملذات ، فأمر ف علي صحته ، وتوفي في ميلان في السابع عشر من كانون الثاني
سنة ٣٩٥ . وأبنته امبروسيوس في الخامس والعشرين من شهر شباط
مؤكداً هلاك مكسيموس واوجانيوس وخلص ثيودوسيوس .

الفصل السابع ظهور الرهبانية وانتشارها

أصلها : وعاش السيد نفسه عيشة فقر وقيم ومسكنة . وعاشهم باقتراب
النهاية . وأرسل تلاميذه ليكرزوا بملكوت الله . وأوصاهم ألا يحملوا
شيئاً للطريق « لا عصا ولا مزوداً ولا خبزاً ولا فضة » والا يكون الواحد
منهم ثوبان^١ . وقام يعقوب بعده لا يأكل لحماً ولا يشرب خمر^٢ ولا يقتني
سوى رداء واحد . وحض^٣ الرسل المؤمنين على العفة والبتولية واجازوا
الزواج لمن خشي العنت فقط^٤ .

وجاء الاضطهاد في القرون الثلاثة الاولى ففر عدد من المؤمنين الى
البراري والقفار وعاشوا فيها عيشة البؤس والطهارة والتقوى^٥ . واشتدت
وطأة الحكم وكثرت الضرائب وتناقلت ، فناه الفلاحون وتركوا القرى
والمزارع محتجين على نظام المجتمع طالين عيشة جديدة ، حتى اذا اطل
القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس المؤمنون تنفسه الراحة ، لم
يصمد بغير ذلك شيئاً من طريقتهم الاولى اذ أصبحوا يقولون بوجود

١ لوقا ٩ : ٣ .

٢ كورنثوس الاولى ، ٧ : ٨ - ٩ .

٣

Sozom. I, 12, 11.

الانكفاء والابتعاد عن العالم للتأمل والتفكير الجدي بالقيم الروحية والبشرية .

انطونيوس الكبير : (٢٥٠ - ٣٥٦) واشهر الرهبان الاولين انطونيوس الفلاح المصري الذي اعتكف على نفسه خمسة عشر عاماً ثم انزوى في حصن مهجور عشرين عاماً . وذاع صيته في مصر فالتف حوله عدد من الزهاد ، والخوا عليه بوجوب تنظيمهم . فأسس في السنة ٣٠٥ تعاونية رهبانية اجاز فيها ضرباً من التنسك والرواى متفاوتة من شدة الوحدة والانفراد . هذا وقد قام على حدود الصحراء في منطقة لسيوط عدد كبير من النساك الانطونيانيين جماعات وافراداً ، وفي وادي التطرون في صحراء ليبيا انزل آخرون جماعات وافراداً ايضاً بنسجون الكتان فيلبسونه وينتعدون عن كل ما يمت الى الملمات بصلة ، ويتعبدون متقدين في ايام الاسبوع مجتمعين في ايام السبت والاحاد . واختلفت الطريقة الانطونيانية عن غيرها في انها تركت للناسك الفرد الحرية التامة في انتقاء طريقته في التنسك .

باخوميوس القديس : (٢٩٠ - ٣٤٥) وتقبل النصرانية في هذا الوقت نفسه في طيبة مصر ناسك من نساك سيراينس . فتاده حبه للتنسك والنساك ان يؤسس ما بين السنة ٣١٥ والسنة ٣٢٠ اولى الرهبانيات المسيحية ، وذلك في ثبينة بالقرب من دندرة . واختلف اتباعه عن اتباع انطونيوس في انهم عاشوا مجتمعين تحت سقف واحد وحول مائدة وكنيسة واحدة . وكان عليهم ان يقرأوا الكتاب ويصلوا ويعملوا عملاً مفيداً . وازداد عددهم وكثرت مؤسساتهم وانتشروا في صعيد مصر ، وحذت مريم اخت باخوميوس حذو اخيها فأنشأت رهبانية للراهبات لم تختلف في نظمها عن رهبانية الرجال .

Wintok, H. E. , *The Monasteries of the Wadi'n Natrun, 1932; Lefort, L. Th. , La Règle de St. Pachome, (Muscon, XL, 1927) .*

باسيليوس الكبير : (٣٢٩ - ٣٧٩) وشاع امر الترهيب في فلسطين وسورية ولبنان ثم في آسية الصغرى . واشهر من قال به في هذه الاقطار واشدهم تأثيراً واكثرهم اتباعاً باسيليوس الكبير استقف قيصرية قبدوقية . وكان قد بدأ الترهيب في بلاده فشغف به وزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر في السنة ٣٥٧ . وتفقد شؤون الرهبان والنساك فيها فأعجبه نظام باخوميوس . فلما عاد الى آسية الصغرى وكانت السنة ٣٦٠ عزم على الترهيب فاختر البونط وانشأ فيه ديراً بالقرب من قيصرية الجديدة . فوضع نظام الرهبانية الباسيلية وأصر فيها على الطاعة زيادة على الفقر والعفة . واشتهر اتباعه بأعمالهم الزراعية وباهتمامهم بتربية النمل وتعليم الصبيان . وكان باسيليوس الكبير قد تلقى الفلسفة والكتابة والخطابة على يد ليثانيوس الفيلسوف الانطاكي وفي الاسكندرية وآثينة . وجمع الى ذلك ذكاء الفؤاد وقوة الحجة وفصاحة الكلام . وكان قد رافق غريغوريوس الثاولوغوس في سني الدراسة وأحبه ، فنشأت بينهما صداقة قوية تعاونوا فيها على خدمة الكنيسة . ووافق عصره ان كانت الارثوذكسية مضطهدة فانتصر لها قولاً وكتابة والف رسائل عدة لا يزال معظمها معروفاً . ولا يزال حتى يومنا هذا نورد كلماته وافكاره في خدمة القداس في آحاد الصوم الكبير ويومي الخميس والسبت العظيمين وفي بارامون الميلاد وبارامون الظهور الالهي وفي يوم عيده الخامس من كانون الثاني . وقد كان لهذا كله اثر كبير في نفوس المؤمنين فكثرو الاقبال على الترهيب وشاعت طريقة باسيليوس في جميع الاقطار الشرقية وفي اليونان والبلقان ورومية^١ .

مار مارون : (؟ - ٤١٠) وآثر المؤمنون في سورية ولبنان وفلسطين
 التهرب الفردي على الجماعي فتركوا المدن والقرى وانتثروا في السهول والوديان
 وعلى قمم التلال يتأملون ويبتهلون ويعملون . وكان من أشهر هؤلاء في
 القرن الرابع مار مارون . ولا نعرف بالضبط سنة ولادته ولا المكان
 الذي ولد فيه ولا محل نفسه . ولكننا نعلم علم اليقين انه عاش وعمل
 في سورية الشمالية في النصف الثاني من القرن الرابع . ويرى الاب
 لامنس اليسوعي ان مار مارون عاش ومات في القورسية . وقورس
 عاصمة منطقة القورسية كانت تقع على مسيرة يومين من انطاكية وعلى
 نحو سبعين كيلومتراً من حلب الى شمالها الغربي . ويميل المطران
 بطرس ديب الى القول بان مار مارون نفسه على جبل في منطقة ابامية
 (قلعة المضيق) من سورية الثانية .

واقدم ما نعود اليه في تاريخ مار مارون رسالة وجهها اليه يوحنا
 الذهبي الفم من منفاه في مدينة كوكيسوس في جبال طوروس في السنة
 ٤٠٤ او ٤٠٥ . وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل هذا القديس ،
 وفيها مودة ومحبة واستفسار عن الصحة والسلامة ورجاء الى مار مارون
 ان يصلي من اجل الذهبي الفم . فلا سائبة اذا تشوب عقيدة مار مارون
 وهو بالتالي ارثوذكسي كاثوليكي نيقاوي .

وأنتفع المراجع الاولى ما جاء عن مار مارون في تاريخ التنسك
 والنسك لثيودوريطس اسقف قورس (٤٢٣ - ٤٥٨) الذي ولد في انطاكية
 قبل وفاة مار مارون بسبع عشرة سنة (٣٩٣) وعرف يعقوب النسك
 أشهر تلاميذ مار مارون^٢ .

^١ Chrysostom, John, Epistolae (Patrologia Graeca, LII, (Paris, 1862);
 Jeannin, M.A., Oeuvres Complètes de St. Jean Chrysostome, (Paris, 1887).
^٢ Theodoret, Historia Ecclesiastica, (Paris, 1911).

ويستدل من كلام ثيودوريطس وغيره ان صار مارون قصد في
 النصف الثاني من القرن الرابع الى قمة احد المرتفعات في القورسية بوناد
 الخلوة والطمأنينة ، فكرس هيكلًا وثنيًا كان قد « حصص الابالة منذ
 القديم » واستعمله في عبادة الاله الواحد ، وانه كان يقضي ايامه ولياليه تحت
 قبة السحاب متعبداً ، وانه كان يلجأ الى خيمة صغيرة اصطفتها من جلود
 الماعز ليتقي فيها شر العواصف والبرد . ولم يكن مار مارون يكتفي في
 تقشفه « بالاصوام والصلوات المستطيلة والليالي الساهرة في ذكر الله وطاعة
 الركوع والسجود والتساملات في كجالات الله ومناجاته وحبس الجسد في
 منطقة محدودة وقهره باللباس الخشن والمسوح الشعرية ونحرهم الجلوس
 احياناً ومنع النوم ليالي بكاملها والانصراف الى وعظ الزوار وارشادهم » ،
 بل كان يزيد عليها ما ابتكره حكيمة فيوازن بين النعمة والاعمال .
 ويؤكد ثيودوريطس ان الله منح مارون موهبة الشفاء وان الناس قفاظرت
 اليه افواجاً وانه لم يكتف بشفاء امراض الجسد بل كان يشفي بعضاً من
 البخل وآخرين من الغضب ويعلمهم غيرهم العدل وينهي عن استباحة المحرمات
 ويوقظ من غفلة التواني .

وما يجدر ذكره لهذه المناسبة ان مار مارون اجتذب تلامذة عديدين
 رجالاً ونساءً ، وان هؤلاء التقوا حوله في صوامع قريبة يتدون بارشاداته
 في مجاهل حياتهم الدنيوية . فلما توفاه الله في السنة ٤١٠ نشأت اخوية
 مارونية تعمل بما علم به هذا الناسك المجاهد .

١ وافضل ما يرجع اليه من المؤلفات الحديثة في مار مارون بحث الاب لامنس في انتشار
 المارونية في لبنان في الجزء الثاني من كتاب ترميز الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار (بيروت ،
 ١٩٠٣) ، ولباب (البراهين للطهران يوسف دريان (القاهرة ١٩١٢) ، والكنيسة المارونية
 للطهران بطرس ديب (باريس ١٩٣٢) ، ومحاضرة الاستاذ فراد افرام البستاني عن مار مارون
 في مجلة الدعوة ، ج ٢ ، عدد ٥ و ٦ ، حزيران ١٩٤٨ .

الباب الثالث

المحنة الاولى : تدفق البرابرة وتفرق النصارى

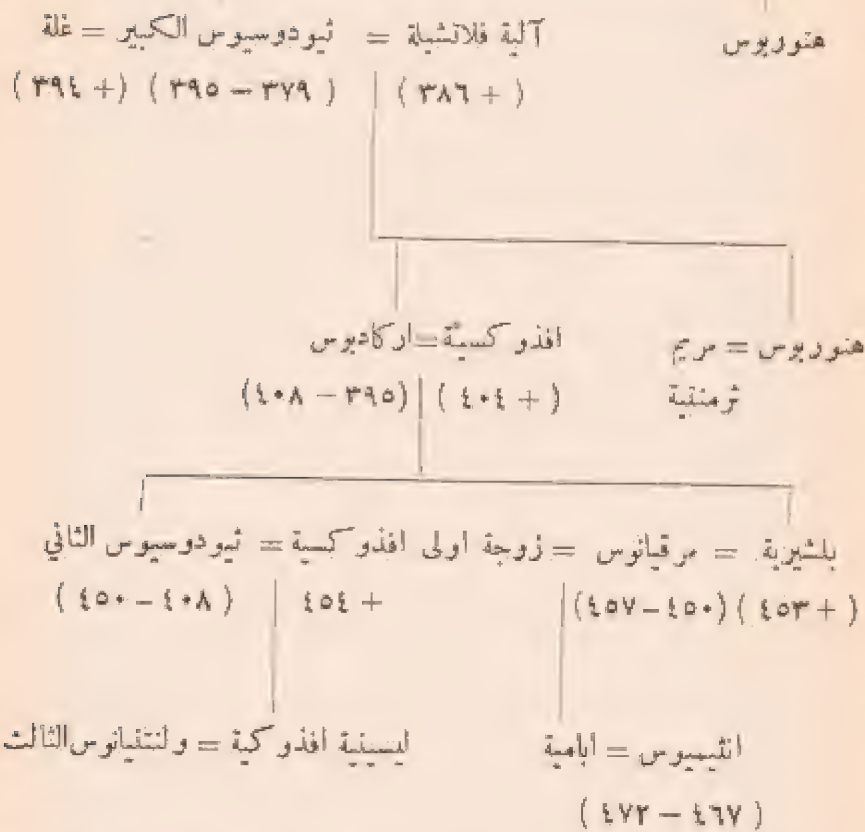
الفصل الثامن

اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني

(٣٩٥ - ٤٥٠)

اسرة ثيودوسيوس الكبير : وكان ثيودوسيوس الكبير قد تزوج من آلية فلاتشيلة الاسبانية قبل ان يتوآ عرش الاباطرة فولدت له اركاديوس وهنوريوس . ثم توفاهما الله في السنة ٣٨٦ فاقترن ثيودوسيوس الامبراطور بملكة بنت ولنتيانوس الاول ورزق منها بنتاً سماها غلة بلاسيدية . وتزوج اركاديوس من افيذكسية فولدت له ثيودوسيوس الثاني وبلشيرة . اما هنوريوس فانه تزوج من مريم بنت عمه هنوريوس ومن ثرمينية ، ولكنه ظل عاقراً بلا وارث .

ثيودوسيوس الجدة (٣٧٦ +)



أركاديوس : (٣٩٥ - ٤٠٨) وكان أركاديوس غلاماً باعاً عندما
تبع العرش، بطيء الحس ضعيف الإرادة . فأنقاد أولاً لمدير أموره روفينوس
ثم لندمائه وجلسائه . واشهر هؤلاء الحضي إفتروبيوس الذي نال الحظوة
بأن قدم لأركاديوس أفذوكسية الفتاة بنت ضابط من ضباط الجيش .
وكانت أفذوكسية هذه شديدة الإعجاب بجمالها وبفسها متعطسة منتفخة ،
فزادت الطين بلة . ولم يكن هنوريوس أوفر حظاً . فإنه تبع العرش

في الحادية عشرة وخضع لأرب مدبر آخر هو استيليكون الوثدالي . وعلى الرغم من مظاهر الاخاء والمحبة والتعاون بين الدولتين فإن كلاً من استيليكون في الغرب وروفينوس وغيره في الشرق عمل على الشقاق والتناحر والضرر . وكان استيليكون يطبع في ضم جميع إيليرية وتوابعها الى امبراطورية الغرب ويعمل من اجل ذلك بكل دهاء . فهب زملاؤه في الشرق يثيرون الشعب على حكومة سيده في افريقية . واشتد الاحتكاك بين الحكومتين حتى ادى الى تفاؤل التبادل التجاري بين الشرق والغرب بل الى انقطاعه حتى السنة ٤٠٨ . ويقول إفنابيوس المؤرخ المعاصر : « ان كلاً من الامبراطورين خضع لمن حوله من الرجال وان هؤلاء اشعلوها حرباً دائمة مكتومة مستترة ، وانهم لم يترفعوا عن اللجوء الى جميع انواع المداينة والمخادعة » .

ألاريكوس ملك القوط : ولدى وفاة ثيودوسيوس الكبير اعتبر القوط الغربيون انفسهم في حلة من روابط المعاهدة التي كانوا قد وقعوها معه في السنة ٣٨٢ . وظهر بينهم رجل نشيط طموح هو ألاريكوس بلطه قبايعوه ملكاً عليهم . وادعى ألاريكوس انه لم ينل من حكومة رومة الجديدة ما استحقه من رتبة وتقدير . فنهض بجموعه الى مقدونية وتراقية وهدد العاصمة نفسها . ثم اتجه شطر اليونان ، فعبّر مضيق ثرموبولي ودخل بلاد اليونان الوسطى ثم جزيرة المورة ، ونهب وأحرق وسبى . وكانت معظم جيش اركادبيوس لا يزال في ايطالية . فكتب اركادبيوس الى استيليكون مدبر امور اخيه ان يبعث اليه الجيش وان يساعد في تأديب القوط واعادتهم الى مناطقهم على ضفة الدانوب . وقام استيليكون على رأس قوة

Eunap., Fragm., 62. 63.

١

Alaric Bulla.

٢

الى الشرق ووصل الى نسياء وارسل جيش اركاديوس بقيادة غايناس
القوطي الى القسطنطينية . ولم يبادر الى طرد الاريكوس من بلاد اليونان
قبل التخلص من روفينوس مدبر اركاديوس وخصمه اللدود . ونفذت المؤامرة
بينه وبين غايناس وقتل روفينوس في تشرين الثاني من السنة ٣٩٦ . وجاء
استيليكون ثانية الى اليونان في ربيع السنة ٣٩٧ ، وكان بإمكانه ان
يطبق بقواته على الاريكوس ولكنه لم يفعل . فاقنطاز اركاديوس وتقبل
رأي وزيره إفتروميوس الحفي فصالح القوط ليتسكن من معاينة استيليكون
والانتقام منه . فرقع الاريكوس الى رتبة قائد في الجيش وأقطع القوط
الغربيين اراضي جديدة . واخضار لهم الجزء الشمالي من ايليرية ليتجهنوا
بغزواتهم شطر ايطالية بلاد استيليكون .

قوط القسطنطينية : وانجح القوط رجال الاريكوس شطر ايطالية
ولم يعودوا الى ازعاج أركاديوس . ولكن مشكلة قوطية اخرى بقيت
تنتظر الحل . فان ثيودوسيوس الكبير كان قد أدخل الى صفوف الجيش
عدداً كبيراً من هؤلاء القوط ولاسيما في سلاح الخيالة . وكان بعضهم قد
خدم الجيش باخلاص وأبلى البلاء الحسن في ميادين القتال ، فرقي من
رتبة الى رتبة . وكان بين هؤلاء في هذه الفترة التي نحن بصددھا غايناس
القوطي احد كبار القادة في جيش الامبراطور . وكان غايناس هذا هم
بشؤون القوط ابتداءً منه ويصغي الى شكاويهم . فالتف حوله عده
لا يستهان به من الجند والمدنيين ، فاذا هو في اوائل عهد اركاديوس
احد زعماء السباسة في العاصمة . ولم يكن عدد القوط المدنيين في العاصمة
قليلاً . فسيناوس المؤرخ المعاصر يقول انه لم يكن بيت من بيوت
العاصمة يخلو من خادم قوطي وان البتائين والسقائين والعنابين كانوا قد

اصبحوا جميعاً من القوط^١.

وكان يتلو غابرياس في القوة والنفوذ والاهمية الحضي^٢ إفتروبيوس فإنه جمع حواله كل مفامر ومداعن من اصحاب المصالح الكبرى الذين اتجروا بكل شيء وفتلقوا كل صاحب نفوذ اشباعاً لمطامعهم. واصبحت سياسة العاصمة في ايام اركاديوس الاولى نشاطاً مستمراً بين غابرياس القوطي وإفتروبيوس الحضي للحصول على النفوذ او الوصول الى السلطة او الاحتفاظ بها.

ويستدل من بعض المصادر ان كثيراً من الشيوخ والوزراء ورجال الاكايروس لم يرضوا عن هذا ولا عن ذاك. فتضامنوا في سبيل المحافظة على رومانيتة الدولة والحيلولة دون وصول الامسان البرابرة الى الحكم. ولم يروا في إفتروبيوس ذاك الوطني المخلص. فالتفوا حول المذبح اوريليانوس^٣. واجل ما بقي من آثار هذه اليقظة الوطنية الرومانية رسالة وضعها الاسقف سيناسيوس القيروني ووجهها الى الامبراطور وأسماها «قوة الامبراطور». وكان سيناسيوس قد زار القسطنطينية في السنة ٣٥٩ ولبت فيها ثلاث سنوات فجمعت رسالة خير معين على فهم اوريليانوس وموقفه نحو وجماعته من سياسة ذلك العصر. وتلخص هذه الرسالة بوجوب مراقبة الاثان البرابرة والاستعداد لمجابهتهم لانهم سيستغلون اتفه الاعذار لتقلد الاحكام. ولذا يجب على الامبراطور ان يزيح الاجانب عن المناصب الهامة وان يزرع عندهم عضوية مجلس الشيوخ. وعليه ايضاً ان يطهر المجلس وان يزيد عدد الوطنيين فيه ثم يفرض امره على هؤلاء البرابرة^٤.

Synesius, Patrologia Graeca, LXVI, col. 1092 - 1097

Bury, Later Rom. Emp. I, 127 - 129.

Fitzgerald, A., Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, (1930) I, 134.

139; notes, 206 - 209.

ثورة القوط في فريجية : وكان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير قد أسكن جماعات من القوط الشرقيين مقاطعات معينة في فريجية في آسيا الصغرى . فلما اشتد الاحتكاك بين غايناس وبين افثروبيوس اوعز القائد القوطي الى هؤلاء بالتعرض للسكان الآمنين واحداث الشغب . ففعلوا . فأنفذ الامبراطور غايناس نفسه لاختاد هذه الحركة . وما ان وصل غايناس الى مناطق الاضطراب حتى تفاهم مع قائد القوط الشرقيين ووجه بالتضامن معه خطاباً الى الامبراطور يطلب فيه اخراج افثروبيوس من وظيفته وتسليمه اليه . فاضطرب اركاديوس وخشي سوء العاقبة فأبعد افثروبيوس عن العاصمة (٣٩٩) . ولكن الزعيمين القوطيين لم يكتفيا بهذا بل اصرأ على اعادة افثروبيوس الى العاصمة ومحاكمته واعدامه . وبعد ان تمّ لهما هذا طلبا الى الامبراطور ان يكرّس احدى كنائس العاصمة للصلاة بحسب المذهب الآريوسي . فاحتج يوحنا الذهبي الفم اسقف العاصمة احتجاجاً قوياً ، فتراجع غايناس عن هذا الطلب لعله ان الجماهير في العاصمة وخارجها تؤيد الذهبي الفم .

سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط : وخشي الوطنيون الرومانيون مطامع غايناس وراعهم الامر فتأهبوا ونهبوا ، وعاهدوا قوطياً آخر اسمه فراقية وعقدوا معه عقداً لما لمسوا فيه من الاخلاص والحمية للامبراطور والولاء للامبراطورية . ولدى خروج غايناس من العاصمة في اوائل السنة ٤٠٠ هجم الوطنيون على من تبقى من عساكره في داخل المدينة وقتلوه . فتارت ثورة غايناس وجمع جموعه ونهب تراقية وهم بالعبور منها الى آسيا الصغرى . ولكن فراقية انتصر عليه وصدّه عن اجتياز المضائق . ففر غايناس عبر الدانوب . فوقع اسيراً بيد ملك من ملوك الهون أمر بقتله . فقتل في كانون الاول من السنة ٤٠٠ ، وكافأ اركاديوس فراقية فجعله قنصلاً . وانتهت مشاكل القوط بسقوط غايناس . واعتبر اركاديوس

انتصاره على غايئاس عملاً عظيماً فنقشه على العامود التذكاري الذي اقامه في فورم القسطنطينية . وتغنى الشعراء بهذا النصر واعتبروه عظيماً . وخلد سينايسيوس عمل اوريليانوس وجماعته برواية رمزية دارت حواذئها على صراع بين اوسيريس (اوريليانوس) وتيفون المخرّض على الشر .

يوحنا الذهبي الفم : (٣٤٥ - ٤٠٨) وأنجبت الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها يوحنا الذهبي الفم . ولد في انطاكية من ابوين شريفيين في السنة ٣٤٥ او ٣٤٧ . وتلقى علومه على ليانيوس الفيلسوف . وأبدى مواهب فريدة . فرأى فيه الفيلسوف المعلم خير خلف له . وعطف عليه ، وعني به عناية فائقة . ولكن والدته انتوزة سطت عليه « فسرته » ، على حد تعبير ليانيوس ، وعمدته ميجياً ، كما فعلت والدات غريغوريوس الثاولوغوس واوغوسطينوس وثيودوريطس . وتسلم النعمة على يد ملاتيوس البطريك الانطاكي رئيس المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٧٠ . فأثر الانفراد واسنانس بالوحشة وانتبد مكاناً قصباً في بركة انطاكية ليحسن التأمل في الخالق وخلقه . ويجيد التفكير في القيم الروحية والبشرية . وما فتى معتزلاً منزوياً حتى انتابه مرض اكرهه على العودة الى انطاكية . فعاد اليها في السنة ٣٨٠ . وفي السنة ٣٨١ سامه البطريك الانطاكي ملاتيوس شتاساً . ثم رقي الى رتبة كاهن في السنة ٣٨٦ . واشتهر الكاهن يوحنا بالتقوى ، والتضحية ، والخدمة ، وبالخطابة والنصاحة . فلمّا توفي نكتاريوس بطريك القسطنطينية ، وقع عليه اختيار حاجب القصر ، افثروبيوس الحضي . فطلبه اليه وأخرجه خلسة من انطاكية ، خوف ان يتدخل الجمهور الانطاكي ويعترض . وعلى الرغم من تدخل ثيوفيلوس البطريك

١ راجع ترجمة رسائله واشعاره الى الانكليزية ، وقد اشير اليها آنفاً . والاشارة هنا هي الى Ostris وال Typhon .

الاسكندري وسعيه بالفساد ، فان يوحنا الذهبي الفم سيم اسقفا على
العاصمة ، ورفي الكرسي البطريركي في السنة ٣٩٨ .
وبدا يوحنا الذهبي الفم عمله البطريركي باهتمام بالغ بشؤون الفقراء
والمساكين . فأنفق على المعوزين والجيايع والمرضى ما كان بعض اسلافه
يبدخون به بذخاً . فأحبه البؤساء وتعلقوا به ، وآثروا الاصفاء الى عظامه
البليغة على الذهاب الى دور التسلية ، وميادين الالعب ، لما كان عليه
من طلاقة اللسان ، وسرعة الحاطر ، وحضور الذهن . اذا تكلم تحدث
كالسيل ، وكلما افاض ملك أغنة القلوب . وهذه عظامه لا تزال محفوظة
حتى يومنا هذا ، وفيها من الرقة ، والطلاوة ، والتفنن في التشبيه ،
والاستعارة ، ما يسبح على عواضعها العادية سحراً وجاذبية لا حد لها .
وكان البطريرك الجديد مثالياً يأخذ نفسه وغيره بتطبيق هذه المثالية
اخذاً صارماً . فعزل الرهبان على العمل المستمر . وحقق في بعض التهم
التي وجهت الى بعض الاساقفة ، فعزل ثلاثة عشر منهم . وكان متحرراً
يستنكر البذخ واللهو ، فتدد برجالات البلاط ونسائهم . ولم تنج حتى
الامبراطورة افدوكسية من هذا التشديد . وكان ثيوفيلوس بطريرك
الاسكندرية قد بدأ يضطهد من قال برأي أوريجانيوس . ففر من وجهه
الأخوة الاربعة الطوال ولجأوا الى الذهبي الفم (٤٠١) . فقبلهم متلطفاً
ولكنه اعتبرهم محكوماً عليهم . واذا بيعض الرهبان ، وغايتهم اثارة الشعب
على الذهبي الفم ، يستشفعون الامبراطورة لدى زوجها ان يأمر ثيوفيلوس
بالحضور الى القسطنطينية . فقدمها ثيوفيلوس على رأس عدد من اساقفة
مصر . وهكذا تجمع في القسطنطينية رهط من حساد الذهبي الفم ومن
نقموا عليه لتشديده عليهم في المحاسبة . فعقد ثيوفيلوس مجمعاً ضد يوحنا
بالقرب من خلقدونية (٤٠٣) عرف بمجمع البلوطة . وانهم يوحنا الذهبي
الفم باقوال أوريجانيوس وبخيانة الملكة وطلب هذا المجمع يوحنا الذهبي

القم أربع مرات للعضور فلم يحضر فقلعه ، وحكم ثيودوسيوس عليه بالنفي .
ولكن الشعب لم يسلم بنفيه فتدخل الجيش . فهدأ يوحنا الشعب ونصح
لهم بالخضوع وخرج متقياً . وكان ان حدثت في اليوم التالي زلزلة عظيمة
فاضطرب ضمير افذوكية وداخلها الشك فطالبت زوجها بان يعاد القديس
حالا الى كرسية . فدخل القسطنطينية في موكب شعبي عظيم . فقبل
نيوفيلوس وعاد الى الاسكندرية . وما كاد البطريرك القسطنطيني يستقر
في كرسية حتى اثاره التيجيل الذي احيط به شخص الامبراطورة لمناسبة
اقامة تمثال لها في جوار كنيسة الحكمة فندته بها مرة اخرى تنديداً
شديداً . وقيل لها انه استهل عظته بالقول : « لقد عادت هيرودية الى حقها » الى
رقصها ، وما هي تطلب رأس يوحنا . فاغتالت افذوكية واستدعت
نيوفيلوس . ولفتح هذا ما لفق فقطع الجميع يوحنا مرة ثانية . فنفي الى
نيقية (٤٠٤) ثم الى كركيسوس في ثانيا جبال طوروس اعلاه يقع طعمة
في ايدي الاسوريين النثرين . ولكنه بلغها سالماً واقام فيها ثلاث سنوات
يكتب ويؤلف . وبقي فيها على اتصال برعيته فكان يعزيهم بقوله « ان
الذي لا يظلم نفسه لا يستطيع احد ان يضرك به » . وقاصره بابا رومة
ايوشنسيوس . ولكن البلاط قرر ابعاده الى صحراء بتيوس في حدود
البحر الأسود . فرحل اليها . ولدى وصوله الى قومانة في بلاد البونط
توفي فيها في السنة ٤٠٨ وتقل جثمانه الى القسطنطينية في السنة ٤٣٨ .

وأشهر ما كتبه يوحنا الذهبي القم ، في اثناء تنسكه ، في السنوات
العشر الاولى من حياته الفكرية ، رسالته في الكهنوت . وأجلى ما جاء
من آثاره براعه ، في عهد رئاسته ، ميامره القسطنطينية ، وتعليقه على

١ وافضل ما صنف في يوحنا الذهبي القم كتاب الاب غريغوريوس بوتر البنديكتي الذي
ظهر في مولتن في السنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ :

Baur, Chrysostomus, Der Heilige Johannes Chrysostomus und seine Zeit.
Jeanin, M., Oeuvres : راجع ايضاً ترجمته وترجمة مؤلفاته الى الالمانية في كتاب :
Complètes de Saint Jean Chrysostome.

رسائل بولس الرسول الى أهل كورنثوس ، والى الرومانيين . وكتب في منفاه رسائل عديدة اشرنا اليها سابقاً . ولا تزال نتفع بصلواته في خدمة القداس الالهى في معظم ايام السنة .

« لا ينوحن^١ احد عن فقر ، لان المملكة العمامة قد ظهرت . لا يندبن^٢ احد على آثام ، لان الصفح قد بدا من القبر . لا يخافن^٣ احد من الموت ، لان موت المخلص قد حرّثنا . ابن شوكتك يا موت ؟ ابن ظفرك يا جعجيم ؟ قام المسيح ، وانت غلبت . قام المسيح ، والملائكة يفرحون . قام المسيح ، واستقرت الحياة . قام المسيح ، وليس ميت في القبر ، لان المسيح بقيامته من الاموات قد حار مقدمة الراقدين^٤ . »

ثيودوسيوس الثاني : (٤٠٨ - ٤٥٠) وكان من حسن حظ الامبراطورية الشرقية ان توفيت افذوكسية الامبراطورة في السنة ٤٠٤ ، على اثر اجهاض شديد ، وان تولى النفوذ في الدولة المدبر انثيموس الحكيم . وزاد في حسن الحظ ان توفي استيليكون في الغرب في السنة ٤٠٨ ، وتبعه أركاديوس في السنة نفسها . فانتسح في المجال لاثيموس ان يعمل بحكمته وان يبقى مسيطراً على شؤون الدولة اربعة عشر عاماً .

وكان ثيودوسيوس عند وفاة ابيه لا يزال في السابعة من عمره . فتهذب بعلوم عصره ، ونشأ محباً للعلم ، ديناً ، تقياً . وكان يجيد الخط والصيد . ومن ثم كان له هذا اللقب الذي نقرأ احياناً : ثيودوسيوس الخطاط^٥ . وأجبت شقيقته بلشوية ان يكون لها امرأة أخ مطبعة ، سهلة الانقياد . فانتسحت له آثينة ابنة استاذ آثيني وثني ، كانت قد أمت

١ من عذلة له يوم عيد الفصح .

Brehier, L., *Les Empereurs Byzantins dans leur Vie Privée*, Rev. Hist. (1940), 203-204.

القسطنطينية المطالبة بحقها في إرث والدها . فقدمتها بلشيرية لاختيها
فأعجبته . فنشرت باسم افذوكية ، وتم عقد قرانها ، فأصبحت الامبراطورة
في السنة ٤٢١ .

صداقة فارس : وكان ثيودوسيوس الكبير قد رأى بثاقب نظره ان
مشكلة القوط وغيرها من مشاكل جبهته الشمالية الغربية تتطلب سلباً دائماً في
الشرق . فاعتدل في مطالبه في ارمينية ، وبين الفرات والدجلة ، وانبثقت صداقة
بين الدولتين دامت عهداً طويلاً . ومما « يروى » ، من هذا القبيل ، ان
أركاديوس لما حضرته الوفاة قلن على ولده الطفل ثيودوسيوس الثاني من دسائس
البلاط فأوصى بان تكون الوصاية على ابنه ليزدجرد الاول ملك الفرس .
ويروى ايضاً ان يزدجرد الاول أنفذ الى القسطنطينية ، بعد وفاة
أركاديوس ، احد اخصائه لحماية الملك الطفل^١ . والواقع ان يزدجرد الاول
(٣٩٩ - ٤٢٠) اخلص في صداقته وترفع عن مضايقة النصارى في بلاده
وسمح لهم في السنة ٤٠٩ ان يرموا كنائسهم وان يتعبدوا احراراً . وسمح
في السنة ٤١٠ بان يعقد ، في عاصمته طيسفون ، مجمع مسيحي انتخب
اسحق طيسفون (سلوقية) رئيساً على الكنييسة الفارسية ، ومنحه
لقب كاثولييكوس . وصلى المجتمعون من اجل سعادة يزدجرد ونصره
وتأييده^٢ . ولكن حكومة فارس عادت ، بضغط من كهنة زرادشت
وطبقة النبلاء ، الى اضطهاد المسيحيين في السنة ٤٢١ . فانقطعت العلاقات

١ Burg, Later Rom. Emp. II, 2. وفي لازيلاف ، ص ٩٦ (ترجمة انكليزية) :
ان بعض التلمذة يشكون في اصالة المرجع الاول الذي يروي هذا الخبر
(Vita Porphyrii) ، ولكنه هو يرى ان ليس في هذه الرواية ما لا يقبل العقل ،
وبالتالي لا يجوز رفضها . وهو قول ضعيف ، من حيث قواعد المصطلح ، اذ الاصل
في التأريخ الاتهام لا برامة الذمة .

Chabot, J. B. Notice Mss. Bibl. Nationale, 1902, 258.

السياسة بين الدولتين ، ولجأ الرومان الى العنف ، فذبح أردشوروس
جيوثس ملك الملوك . فسارع بهرام الخامس في السنة ٤٢٢ الى عقد صلح
« يدوم مئة سنة » . ونعهد بهرام برفع الاذى عن المسيحيين ، وبأن يطلق
لهم حرية المعتقد والعبادة . فقابلته ثيودوسيوس بشل هذا فيما يتعلق
بالزرادشتية في ارضه ، وتعاهد الطرفان ايضاً الا يحض احد منهما العرب
في ارضه على غزو العرب في ارض جاره . والاشارة هنا الى المائدة
والغسانة . « وكان المنذر ابن النعمان قد غزا الشام مراراً ، واكثر
المصائب في اهلها ، وسبى وغنم . وكان قد جعل معه ملك فارس كتيبتن
يقال لاسدهما دوس وهي تسوخ ، والاخرى الشهباء وهي انبارس .
فكان يغزو بها الشام ، ومن لم يطمعه من العرب » .

وكانت فارس قد دخلت في دور كثرت فيه مظالم النبلاء والكهنة ،
وفشحت واشتدت فيه عيجات الهون البيض على حدودها الشرقية الشمالية ،
وكانت بيزنطة قد اعتدت في مطالبتها ، كما سبق ان اشرنا . فدام السلم بين
الدولتين رشحاً طويلاً من الزمن .

تحوط واحتياط في الداخل : وكان من نتائج هذه اليقظة الوطنية
الرومانية ، التي سبقت الاشارة اليها ، ان انصرف انطيموس المدبر الوصي
الى العناية باستحكامات المدن وقلاعها . فرمم عدداً وافراً منها في شمالي
البلقان الغربي ، وعلى الضفة الدانوب . وكانت القسطنطينية قد اتسعت الى
خارج الاسوار التي انشأها قسطنطين الكبير . فأقام انطيموس سوراً
جديداً في السنة ٤١٣ يدفع عن الاحياء الجديدة شر البرابرة وغيرهم . ثم
نصنع هذا السور الجديد بزلزال قوي ، فرممه قسطنطين المدبر ، وأنشأ

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides*, 280-281.

٢ الكامل لابن الاثير ، الطبعة المنيرة ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

حواله سوراً ثالثاً عزّزه بخندق واسع عميق . وجاء عهد قورس المدرّس فأنشأ تحصينات جديدة من جهة البحر . وأصبحت القسطنطينية في عهد ثيودوسيوس الثاني تتم بثلاثة أسوار متينة ، ثبتت في وجه كل عدو حتى سقوط المدينة في السنة ١٤٥٣ . فصارت مدينة زاهرة في عصور اضطراب وفوضى^١ . وألغت الحكومة المركزية ، في هذا العهد نفسه ، ما كان قد تأخر من الأموال الاميرية . فانتعش الفلاح ، والصانع ، والتاجر الصغير ، وقويت معنوياته ، وزاد رضاء . وأعيد النظر في كيفية استيراد الحبوب من مصر الى العاصمة وقويتها التسون الكافي .

وفي السنة ٤٢٥ أصدر ثيودوسيوس الثاني براءة بتأسيس معهد علمي مسيحي عالٍ يضاهي بإساتذته وطلابه معهد آئينة الوثني الذي كان لا يزال يدرس الفلسفة الوثنية . وأنشأ الامبراطور في هذا المعهد الجديد واحداً وثلاثين كرسيّاً للتعليم : عشرة منها للغة اللاتينية ، وعشرة للغراما طبق اليوناني ، وخمسة للفصاحة والخطابة اليونانية ، وثلاثة للخطابة والفصاحة اللاتينية ، وكرسيّاً واحداً للفلسفة ، واثنين للحقوق . وتقاطر الطلاب الى هذا المعهد من كل صوب ، ولاسيما ارمينية . وخصص الامبراطور صرح الكاينبول لهذه الغاية . وأنفق على الاساندة من اموال الخزينة ، وحرّم عليهم اعطاء دروس خصوصية^٢ . ويلاحظ هذه المناسبة ان اليونانية نالت حظاً اوفر من اللاتينية .

وفي السنة ٤٣٩ التفت المدرّس انطيوخوس الى القانون والقضاء ، فرأى ان ما صدر من القوانين ، منذ عهد قسطنطين الصغير ، أصبح متفرقاً

Chronicon Paschale, I, 588; Meyer - Plath, B., und Schneider, A. M. v. Die *Landmanner von Konstantinopel*. Berlin, 1943.
Codex Theodosianus, XIV, 9, 3; Fuchs, P., *Die Hoheren Schulen von Konstantinopel im Mittelalter*, Berlin, 1926.

مبعثراً ، يصعب الوصول اليه والاطلاع عليه ، للفصل في الدعاوى . فاقترح تعيين لجنة من كبار القضاة والاساتذة والمحامين لجمع هذه القوانين وتبويبها . ووافق الامبراطور ثيودوسيوس الثاني فأمر بتعيين هذه اللجنة وتابعت اللجنة اعمالها ثمانى سنوات متتالية ، فأنتجت مجموعة ثيودوسيوس الشهيرة^١ . وظهرت هذه المجموعة في الشرق في السنة ٤٣٨ ، وفي الغرب في السنة التالية . وقسمت الى ستة عشر كتاباً ، بعضها في الادارة المدنية ، وبعضها في الشؤون العسكرية ، وبعضها في الدين ، وبعضها في الحقوق . وقسم كل كتاب الى عدد من الابواب (العناوين)^٢ . وما صدر من الابواب ، بعد ظهور هذه المجموعة ، اشير اليه بالعبارة : « القوانين المستجدة »^٣ . ومجموعة ثيودوسيوس تعتبر من اهم المراجع الاولى لتاريخ القرنين : الرابع والخامس^٤ .

الهون : وكان قد عظم شأن الهون واتسع سلطانهم ، فدوخوا جنوبي روسية ورومانيا والمجر وغالية . وكانوا منذ السنة ٣٩٥ قد بدأوا يتحرشون بالامبراطورية الشرقية . ففي هذه السنة عبروا القوقاس ، وتدفقوا الى سهول الجزيرة وسورية . فاسترضاهم ثيودوسيوس بان يذل لهم ، في السنة ٤٣٠ ، عطاءً سنوياً بلغ قدره ثلاث مئة وخمسين ديناراً ذهبياً . ثم توفي روى ملكهم في السنة ٤٣٤ ، فخلقه في الحكم ابنا اخيه بليدة وأتيلا . وكان أتيلا كثير المراغب ، واسع الاطلاع ، فطلب الى حكومة ثيودوسيوس مضاعفة المال السنوي ، ومنحه رتبة قائده ، وغير ذلك من

Codex Theodosianus.

tituli.

leges novellae.

Seeck, O., Die Quellen des Codex Theodosianus, Stuttgart, 1919.

magister militum.

١
٢
٣
٤
٥

المطالب . فما ان ترددت حكومة ثيودوسيوس في القبول ، حتى عبر أنيلا الدانوب بجموعه في السنة ٤٤١ واحتل قسماً كبيراً من شمالي البلقان . فاضطر ثيودوسيوس ان يجيب سؤال أنيلا ، وان يعقد معه صلحاً في السنة ٤٤٣ ، فيدفع أربعة آلاف دينار متأخر ، والفين ومئة دينار مالا سنوياً . وبقيت تحركات أنيلا مطامعه ، فقتل اخاه بليدة واستأثر بالسلطة . ثم لم يطل الوقت ، حتى غشيت جموعه البلقان ، ووصلت طلائعهم الى ثرموبولي ، وهددوا القسطنطينية . وعادت حكومة ثيودوسيوس الى المفاوضات . فأرسلت لهذه الغاية وفداً من كبار الرجال ، بينهم المؤرخ بريسكوس . ولجج الوفد فانسحب أنيلا عبر الدانوب في السنة ٤٤٩ . وقد تم الاتفاق بينه وبين حكومة القسطنطينية على مال يؤدي له كل سنة . واتجهت انظار أنيلا شطر الغرب^١ .

انشقاق في الكنيسة : ولما أصبحت النصرانية دين الدولة عظم شأن الاساقفة والبطاركة واشتد التزامهم على الكراسي في الكنيسة فكان يظفر بها في بعض الاحيان من لم تكتمل فيه جميع المؤهلات الروحية . واشتدت المناظرة بين البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة فأدت في بعض الاحيان الى التنافر والتخاصم . وظهرت الرهبانية وازداد عدد الرهبان وتدخلوا في هذه المناظرات والمشاتات فأدخلوا فيها حماسة عمياء وكيداً عظيماً . وتقلص ظل الوثنية وانتشر ظل النصرانية فاستوكت الغوغاء في هذه المحاضرات وتدخل فيها جمهور السيفلة يهيجهم وضجيجهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم .

بطريرك القسطنطينية وبطريرك الاسكندرية : وكاث تيوفيلوس

Diehl et Marçais, Monde Oriental, 14-18.

^١ وفيه مقتطفات طويلة من كلام المؤرخ المعاصر بريسكوس *Priscos*.

بطريرك الاسكندرية (٣٨٥ - ٤١٢) رجلاً مثقفاً وعالمياً رياضياً سخر
مقدرته في الرياضيات لوضع جداول مضبوطة تنبئ بالازمنة التي يقع فيها
عيد الفصح ، فاكسب بذلك شهرة واحتراماً في زمن اشد فيه الورع
والتقوى . وكان ثيوفيلوس اديباً كبيراً بلغ من شغفه بالادب ورهافة
ذوقه فيه مبلغاً كان يستطيع معه ان يستمرى حلاوة قطعة ادبية يكون
هو نفسه قد حرم مطالعتها . وكان ايضاً سياسياً محنكاً بالغ التدبر في
تسوية اعوص المشاكل واعتدتها . ولكنه كان طماعاً مفتوناً بالمال والمجد
يدب اليها بكل ما أوتي من دهاء وحكمة ومكر . وشعر ثيوفيلوس
بالطاقة الكامنة في رهبانيات مصر وكان قد ازداد عدد افرادها حتى بلغ
الآلاف ، فتقرب اليهم ونوى السيطرة عليهم بان يمد الى التظاهر بما ليس
فيه ، فقال قول اكثريتهم بالتشبيه اي ان الله شكلاً بشرياً ، وراح يقاوم
قول اوريجانيوس بشدة وحماسة . وكان هذا من المؤثره عظم بان الله
لا جسم له فهو لا يرى ولا يمكن ادراكه . وبلغ من امر ثيوفيلوس
ان جاء الى العنف فهاجم بالفترة الملحة ديراً كان رهبانه ما برحوا متمسكين
بتعاليم اوريجانيوس . ففر اربعة من زعماء هؤلاء ، عرفوا فيما بعد بالآخوة
الطوال ، الى القسطنطينية والتجأوا الى بطريركها يوحنا الذهبي الفم .

وكان ثيوفيلوس لا يقر المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) على تقديم
بطريرك القسطنطينية في الكرامة على سائر البطاركة بعد بطريرك رومية .
فأضمر السؤ ليوحنا الذهبي الفم ودعا الى مجمع في خلقيدونية كما سلف لنا
القول واستغل جرأة الذهبي الفم ومواقفه العنيفة من بعض رجال البلاط
ونسأهم لاسيما افدوكسيه الامبراطورة فتوصل بذلك الى ازالة بطريرك
القسطنطينية عن عرشه ودفعه الى المنفى .

المجمع المسكوني الثالث في إفسس : (٤٣١) ورتي كرمي
القسطنطينية في السنة ٤٢٨ البطريرك نسطوريوس . وكانت الكنيسة قد

علّمت منذ البدء ان المسيح اله كامل وانسان كامل . فلما انكر آريوس عليها الاعتقاد بان للكلمة المتأنس طبيعة لاهوتية ايضاً عقدت المجمع المسكوني الاول وأقرت كمال لاهوت المخلص وحكمت بضلال آريوس وبطلان تعاليمه . ثم ظهر أبوليناريوس استقل اللاذقية الذي اشتهر بدفاعه عن النصرية في أيام يوليانوس الجاحد وبتمسكه بتعاليم المجمع المسكوني الاول فعلم ان اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الانسان وبالتالي ان المسيح كان الكلمة في جسم انسان وانه لم يكن بإمكانه ان يختبر الضعف البشري ولا ان يكون معرضاً للتجربة . فقررت الكنيسة في مجمعها المسكوني الثاني كمال « ناسوت » المخلص . وكان من الطبيعي جداً ان يتم انطاكية الامر خصوصاً لان أبوليناريوس كان احد اساقفتها . فأصر رؤساؤها على كمال طبيعة المسيح البشرية . واشتهر بين هؤلاء ديودوروس الطرسوسي ونيودوروس الموبسوتي .

وكان نسطوريوس سوري الموطن انطاكي المذهب فأصر مع اساقفته على كمال طبيعة المسيح البشرية . فما ان تبوأ الكرسي البطريركي في القسطنطينية حتى بدأ يعلم ضد اتحاد الطبيعتين اتحاداً طبيعياً وجوهرياً ونهى عن تسمية العذراء بوالدة الاله « ثيوتوكوس » ويستبدلها بالتسمية « والدة المسيح » مدعياً انها لم تلد لها بل انساناً آله لللاهوت وانها « قابلة » الاله لا والدة الاله . وما ان ذهب هذا المذهب حتى هاج الشعب في القسطنطينية وتظاهر ضده في الشوارع وفي الكنائس . فقابل نسطوريوس هذا التظاهر بالشدة . وعقد مجمعاً محلياً في السنة ٤٢٩ وحرم كل من اعتقد غير تعاليمه .

وذاعت آراء نسطوريوس وبلغت الى الاسكندرية فحاربها جبرها
 البطريك كيرلس (٣٧٦ - ٤٤٤) في بيانه الفصحي الذي اذاعه سنة ٤٢٩
 وأيد فيه الاعتقاد بالطبعين . ثم كتب الى زميله القسطنطيني موضحاً له
 ان تسمية البنول بوالدة الاله لا يعني ان مبدأ اللاهوت هو منها بل ان
 المولود منها هو اله كامل وانسان كامل . وكان نسطوريوس معجباً بنفسه
 فقابل كيرلس بالانتفاخ والتخفیر . فكتب كيرلس بهذا الصدد الى جبر
 رومة وبطريك انطاكية والى عدد من رؤساء الكهنة في الشرق . ففقد
 جبر رومة مجماً محلياً في السنة ٤٣٠ واعتبر تعليم نسطوريوس غير قويم ،
 وكتب اليه وهدده بقطع العلاقات . وكتب يوحنا بطريك انطاكية الى
 نسطوريوس ان يبرأ مما اعتراه من وهم بشأن تسمية العذراء بوالدة الاله ،
 وذكره ان هذه التسمية وردت لكثيرين من مشاهير المعلمين والآباء .
 وكتب اكاكىوس رئيس اساقفة حلب وكان شيخاً اناث على المئة سنة
 الى كيرلس يرجو منه ان يجتهد في اطفاء نار الخصومة ضناً براحة
 الكنيسة .

وجاهر بعض رهبان القسطنطينية بمعارضة بطريركهم فطردهم البطريك
 واضطهدهم . فكتبوا الى ثيودوسيوس الثاني يطلبون عقد مجمع مسكوني .
 وطلب نسطوريوس نفسه عقد مجمع مسكوني . فقبل الامبراطور ودعا
 الى مجمع مسكوني في افسس في السنة ٤٣١ بعد العنصرة . وليس الدعوة مثلاً
 اسقف بينهم كيرلس بطريك الاسكندرية ونسطوريوس بطريك القسطنطينية
 ويوبيناليوس اسقف اوروشليم . وتختلف يوحنا بطريك انطاكية ومثاوبابا
 رومة . والتأم المجمع برئاسة كيرلس بطريك الاسكندرية . ولكن
 نسطوريوس اضرب عن الاشتراك فحكم المجمع عليه بالنطع . ثم نلت
 الرسائل التي كان قد وجهها الى نسطوريوس كل من كيرلس بطريك
 الاسكندرية وكليستينوس بابا رومة كما تلي قرار مجمع رومة فصدقها

المجمع . وبعد خمسة أيام وصل بطريرك انطاكية ومعه اثنان وثلاثون اسقفاً . فانبأه المجمع بقطع نسطوريوس . فنكدر واعتبر عمل المجمع تسرعاً ونسب الى كيرلس الاستبداد . ثم عقد مجعاً مؤلفاً من نحو اربعين اسقفاً وحكم فيه بالقطع على كيرلس وعلى سائر الاساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بلا فحص ولا روية . ثم حضر نواب بابا رومة الاسقفان اركاذيوس وبروباكثوس والقس فيلبس . فاجتمع جميع كيرلس مرة ثانية وتليت فيه رسائل البابا وأمضى فيها نوابه الاعمال السابقة . ودعى بطريرك انطاكية الى الاجتماع . فلم يحضر . فحكم المجمع بالقطع عليه وعلى ثلاثة وثلاثين اسقفاً معه . فتحرك الامبراطور لما رأى من هذه البلية فطلب وفداً عن كل فئة . فلما حضر الوفدان وجمع دعوى كل منهما أمر باعادة كل من كيرلس واسقف إفسس الى منصبه ، ونصب على كرسي القسطنطينية احد اعضاء وفد كيرلس واسمه مكسيبيانوس . وأمر بروجع الاساقفة الى اوطانهم .

وثبت المجمع الثالث دستور الايمان الذي كان تتيته قد سبق في الجمعين الاول والثاني ، وحرر اسقفية قبرص من الخضوع لبطريرك انطاكية ، فأصبحت كنيسة مستقلة منذ ذلك الحين . ثم دعا البطريرك مكسيبيانوس كلاً من بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكية الى نيوميدية وحدهما . فحضرا وتالما بعد مدة . ونفي نسطوريوس الى مصر فاغتاله احد رهبانها في السنة ٤٥١ .

المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية : (٤٥١) وكما تطرف نسطوريوس معارضاً تعاليم ابوليناريوس فقال بكمال طبيعة الناسوت اي بكمال طبيعة المسيح البشرية فان اوطيخه Eutyches احد الابهاء في القسطنطينية قال بكمال طبيعة اللاهوت معارضاً مذهب آريوس . فعلم ان المسيح المخلص طبيعة واحدة وان جسده بمحض كونه جسد الله ليس مساوياً لجسدنا في

الجوهر لان الطبيعة البشرية اندثرت باتحادها مع الطبيعة الالهية . فانبري
 ثيودوروس اسقف قورش يحمل على اوطيخة . وانبري ديوسقوروس
 بطريرك الاسكندرية يحمل على ثيودوروس ويهتج رهبان القسطنطينية ،
 وكتب الى ثيودوسيوس الثاني ان الكنيسة في الشرق قد اصبحت كلها
 نسطورية . فجمع فلايانوس بطريرك القسطنطينية مجمعا محليا ودعا اليه
 اوطيخة فلم يمتثل . وكان يحركه الحفي خريساقيوس الذي كان قد عقد على
 البطريرك فلايانوس لان خريساقيوس طلب منه مالا فارسل البطريرك اليه
 آية الكنيسة . وعقد الجميع جلسة سابعة ودعا اوطيخة ، فحضر هذه المرة
 ومعه خريساقيوس الحفي وبعض الرهبان وزمرة من الحرس الامبراطوري .
 قتل اوطيخة : هل تعترف بان المسيح مساو للآب في جوهر اللاهوت
 ومساو لاه في جوهر الناسوت ؟ فأجاب : ان المسيح من طبيعتين قبل
 الاتحاد وانه طبيعة واحدة بعد الاتحاد . فحكم الجميع المحلي عليه وقطعه
 من كل رتبة كهنوتية ومن الشركة ومن رئاسة ديره . وكتب اوطيخة
 البابا في رومة بتظلم . فكتب البابا لاوون الكبير الى بطريرك القسطنطينية
 يستوضحه عما جرى . فارسل فلايانوس بطريرك القسطنطينية نص اعمال
 الجميع الذي حكم على اوطيخة . فعقد البابا مجمعا في رومة وفحص الاوراق
 التي ارسلها اليه فلايانوس البطريرك فوافق عليها واعلن ذلك للامبراطور .
 ثم كتب خريساقيوس الحفي الى ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية يستنفضه
 لمساعدة اوطيخة . فعقد ديوسقوروس مجمعا محليا وحل " اوطيخة من القلع ،
 وطلب الى الامبراطور عقد مجمع مسكوني . ففعل الامبراطور والتأم مجمع
 مسكوني في افسس في السنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية .
 فقلت رسالة الامبراطور . ثم طلب وفد رومة ان تتلى رسالة البابا الى
 البطريرك فلايانوس . فرفض ديوسقوروس . واستند الجدل . فقرر بعض
 الاساقفة ومنهم غواب البابا . واستولى الزعب على الباقي فامضوا على يباس ،

ولذا سمي هذا المجمع فيما بعد المجمع اللصوحي .
 ووقع الخلاف بين ثيودوسيوس الثاني وزوجته افدوكية فعادت
 شقيقته بلشيرة الى القصر ، وطرد خريشافيوس الحضي من القصر ثم أعدم .
 وكان البطريرك فلايانوس قد نفي وتوفي في منفاه فحصل عنه الرضى
 ونقلت جثته الى القسطنطينية بكل اكرام . وسقط ثيودوسيوس عن
 جواده وتوفي في السنة ٤٥٠ وخلفه مرقيانوس . وكتب بابا رومة وبطريركها
 لاوون الكبير الى مرقيانوس بوجوب عقد مجمع مسكوني جديد . فوافق
 مرقيانوس وامر بذلك فاجتمع الاساقفة في مدينة نيقية في السنة ٤٥١ .
 ومرض بعضهم واضطر للعجالة . ولم ينقطع مرقيانوس نفسه ان يبارح
 العاصمة ، فأمر بنقل المجمع الى خلقيدونية في جوار من القسطنطينية .
 وعقد المجمع جلسته الاولى في الثامن من تشرين الاول سنة ٤٥١ في
 كنيسة القديسة إفسية في خلقيدونية . وقد استترك في اعماله ٦٣٠ اسقفاً
 بينهم نواب رومة اسقفات وقسان والبطريرك القسطنطيني اناطوليوس
 والبطريرك الاسكندري ديوسقوروس والبطريرك الانطاكي مكسيموس
 واسقف اروشلیم يوبيناليوس . ووضع الانجيل في منتصف حلقة المجمع .
 وتصدر وجهاء الدولة واعيانها . وفي هذه الجلسة الاولى اقر المجمع ان كل
 ما قد جرى في افسس انما كان جبراً وظلماً وان ديوسقوروس ومن ذهب
 مذهبه مستحق القطع . وفي الجلسة الثانية تليت رسالة كيرلس البطريرك
 الاسكندري الى نسطوريوس ورسالة البابا الى فلايانوس بطريرك
 القسطنطينية . وفي الجلسة الثالثة قرأ رئيس وفد رومة الاسقف باسكاسينوس
 Paschasius نص الحرم الذي كان قد أصدره البابا ضد ديوسقوروس .
 فوافق عليه المجمع . وفي الجلستين الرابعة والخامسة دار البحث حول
 العقيدة . وبعد جدال طويل وافق المجمع على النص التالي : « انا نعلم
 جيعننا تعليماً واحداً تابعين الاكباء القديسين . ونعترف بابن واحد هو هو

نفسه ربنا يسوع المسيح . وهو نفسه كامل بحسب الناسوت . اله حقيقي
وانسان حقيقي . وهو نفسه من نفس واحدة وجد مسافر للآب في
جوهر اللاهوت . وهو نفسه مسافر لنا في جوهر الناسوت ، بمثل لنا في
كل شيء ما عدا الخطيئة ، مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت .
وهو نفسه في آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب
الناسوت لاجلنا ولاجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً
ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال .
من غير ان ينفي فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل ان خاصة كل واحدة
من الطبيعتين ما زالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً واقنوماً
واحداً لا مقسوماً ولا مجزئاً الى شخصين بل هو ابن ووحيد واحد هو
نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الانبياء منذ البدء وكما علمنا
الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا شهور الآباء . »

وفي هذا الجمع نفسه رفع اسقف صور المتروبوليت فوتيوس شكوى
على اسقف بيروت المتروبوليت افسطاثيوس الذي كاث من انصار
ديوستوروس . مفاد هذه الشكوى انه بعد ما اقدم ثيودوسيوس على ترقية
افسطاثيوس من اسقف خاضع لمتروبوليت صور الى رتبة متروبوليت مستقل
قد وهب بطريرك القسطنطينية افاطوليوس لافسطاثيوس هذا اسقفيات
بيلاس (جبيل) وبوتريس (البترون) وطرابلس واورثوسياس وعكا
واندارادوس وجميعها اسقفيات خاضعة لمتروبوليت صور . فلام الجمع
البطريرك القسطنطيني على هذا التعدي . وحكم باعادة تلك الاسقفيات الى
متروبوليت صور .

وفي الجلسة السادسة حضر مرقيانوس وخطب محرضاً على السلام واستقامة
الرأي . ثم نفي التحديد فامضاه الآباء وصدقوه الامبراطور . وفي الجلسة
السابعة سلخت فلسطين الأولى والثانية والثالثة عن انطاكية وخصت الى

اوروشليم . وتصلح البطريكان الانطاكي والاوروشيمني واعيدت فينيقية
وبلاد العرب الى البطريكية الانطاكية . وعرف اسقف اوروشليم بطريركاً
لاول مرة . وفي الجلسة الخامسة عشرة سنّ المجمع ثلاثين قانوناً وقررت
رتب الأسقفيات الرئيسة ومن يقدم ويؤخر من البطارقة . واثبت في
قوانين المجمع ان تكون لاسقف القسطنطينية « رومة الجديدة » المنزلة نفسها
التي لاسقف رومة القديمة . ولكن نواب البابا اعترضوا على هذا القرار
واظهروا عدم الرضى .

الباب الرابع تطور النظم وتمشيق الفكر والفن والدولة

الفصل التاسع

اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس

(٤٥٠ - ٥١٨)

مرقيانوس : (٤٥٠ - ٤٥٧) وتوفي ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من ثور سنة ٤٥٠ ولم يترك ولداً ذكراً . فانهى بوفاته حكم الاسرة الثيودوسية . وأوصى قبل وفاته بان يخلفه مرقيانوس احد قادة جيشه . وتزوجت بلشيرة اخت ثيودوسيوس من مرقيانوس هذا ولكن زواجاً سنياً ، فقد استوطنت ان تبقى عزراء وان تقتصر زيجتها على المشاركة في ادارة الامبراطورية . وهكذا اصبح الامبراطور الجديد صهر الاسرة المالكة ، وكان رجلاً حازماً عادلاً يتمتع بتأييد الجيش ، فوفقت فيه رومة الجديدة الى حاكم مناسب .

وأعلن مرقيانوس انتهاء الظلم والفوضى باعدام ثريساقيوس الحضي . ثم منع بيع المناصب وتنازل عن الاموال المتأخرة للدولة وحوّل المبالغ التي

كانت تتفق على الألعاب السنوية الى ترميم الاقنية وجبر المياه . واسعه
الخط بان توفي زينون زعيم الآسوريين . وكان هؤلاء قد عاشوا في البلاد
فساداً منذ السنة ٤٤١ فسكنوا بجوت زعيمهم واستتب الامن في آسية
الصغرى . وضرب مرفيانوس مناذرة الحيرة اخلاف الساسانيين ضربة
قاضية ، فتمت سورية بالراحة والطمأنينة . وسار هذه السيرة في مصر
فوقفت هجمات اهل النوبة ودفع شرم . وفي فلسطين وسورية ولبنان
اعتنق عدد من الرهبان بدعة ديوسقوروس وهاجوا وصاحوا احتجاجاً على
مقررات مجمع خلقيدونية فعهد مرفيانوس الى اخضاعهم بالقوة المسلحة .
وكذلك وافقه الخط بان توفي اتيلا زعيم الهون فتمكن مرفيانوس من
استبقاء المال الذي كان يدفع سنوياً لهؤلاء .

لاوون الاول : (٤٥٧ - ٤٧٤) وتوفيت بليثوية في السنة ٤٥٣
وتبعها مرفيانوس في السنة ٤٥٧ ولم يكن لهما وارت . فانجبت الانظار
الى قائد الجيش الاعلى أسبار . على انه لم يكن باستطاعته ان يندبوا
العرش لانه كان آلامياً آريوسياً . فوقع الاختيار على وكيل خروجه
لاوون فتربع على عرش القسطنطينية . وكان لاوون ادارياً قديراً وسياسياً
محنكاً ، فاستطاع منافساً ينافس أسبار هو زينون الآسوري وذلك بان
انشأ حرساً امبراطورياً من الآسوريين الجليليين الاشداء . واتى بزعمهم
وازوجه من بنته ارياذة (٤٦٧) . وبطش زينون ورجاله بالسلا
بأسبار وحرسه (٤٧١) . فنجت بذلك رومة الجديدة من حكم
البرابرة .

ونشب خلاف بين لاوون وبين فيروز ملك الفرس حول مصر ودولة
مسيحية على شاطئ البحر الاسود بين الامبراطورية الرومانية وبين القوقاز
هي امارة « لازقة » خلقيس القديمة . ولكنه خلاف لم يؤد الى حرب او
قتال . وكان أهم منه تدفق القوط الشرقيين على ايليرية واحتلالهم ديواتزو .

فعاد لاوون يدفع الاعانة المالية السنوية الى القوط وهدأت الحال (٤٥٩) وجعل ملك القوط ابنه ثيودوريك رهينة في القسطنطينية . غير ان هؤلاء القوط الشرقيين ما عسوا ان استأنفوا الغزو في السنة ٤٦٧ متعاونين هذه المرة مع الهون . ثم امرع الشقاق الى صفوفهم فأعلنوها فيما بينهم حرباً شعواء ادت الى اضعاف الطرفين .

زينوث : (٤٧٤ - ٤٩١) ونوفي لاووث الاول في السنة ٤٧٤ قتل العرش بعده حفيده لاوون الثاني ابن بنته ارياذنة . وكان لا يزال في السادسة من عمره . فأشرك الولد والده زينون الاسوري في الحكم ، وتوفي بعد بضعة اشهر . فعظم امر الاسوريين في الدولة وتسنوا اعلى الوظائف واكبرها . وما برحوا كذلك حتى انتهاء عهد زينون .

وفي ايطاليا كانت السلطة كلها قد اصبحت محصورة بالقواد العسكريين البرابرة ، فكانوا ينصبون الاباطرة ويعزلونهم حسب اهوائهم . ومن غرائب الاتفاق ان آخر الاباطرة في الغرب دعي رومولوس اوغوستولوس . وهكذا وافق اسمه اسم المؤسس اشرافي لرومة نفسها . وقد خلعه العسكر البرابرة في السنة ٤٧٦ وتصبوا مكانه احدهم اودواكر . ثم ابلغ القادة البرابرة زينون في القسطنطينية انهم يعترفون بسيادته . فصدر امره الى اودواكر ان يتولى زمام الحكم وان يستع بلقب « نيل » .

ولكن اودواكر استقل بالحكم ولم يكثر لسيده الشرعي في القسطنطينية . ورأى زينون ان ليس بوسع ان يكرهه على الطاعة . وخاف مغبة امره . فالتفت زينون شطر القوط الشرقيين في شمالي البلقان الغربي . وكان هؤلاء يستوجبون اهتماماً كبيراً . فعمل زينون على توجيههم شطر ايطاليا ووفق الى ما اراد . فكان ان زحف ثيودوريكوس ملك القوط الشرقيين الى ايطاليا قبيل وفاة زينون واستولى على رابينة ثم بعد وفاة زينون (٤٩٣) خلع اودواكر وجلس مكانه ملصكاً على

مملكة قوطية شرقية ذات حول وطول . وامتدت سلطته على ايطاليا وصقلية وجزء من غالية واسبانية .

الايوثيكون : (١٨٢) ولم يخضع الجميع لمقررات المجمع المكوني الرابع فظل السواد الاعظم من النصارى في مصر وسورية وفلسطين يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يشر حزم مرقس ولا وون الاول . وشعر زعماء الكنيسة بخطورة الموقف . وأراد اكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧٢ - ٤٨٨) وبطرس بطريرك الاسكندرية (٤٧٧ - ٤٩٠) ان ينقذا الموقف وان يعيدا الى الكنيسة وحدتها المفقودة . فاقترحا على زينون ان يصار الى التواخي بانتهاج حيل وسط . فأصدر زينون في السنة ٤٨٢ الايوثيكون « كتاب الاتحاد » فشجب تعاليم نسطوريوس واوطيخنة معاً وقرئ رأي كيرلس الاسكندري واجتنب الكلام في الطبيعة الواحدة والطبيعتين . وهكذا رفض رفضاً لبقاً ما كان اقره المجمع الخلفيدوني الاخير . ولكن الايوثيكون بدلاً من ان يؤلف الثوب ويوحد الصفوف سقر نار الشقاق والنفرة لانه لم يرض الارثوذكسين ولا اصحاب الطبيعة الواحدة . وانشق في مصر عن البطريرك بطرس قسم من جماعته فألفوا طائفة سموها الآكيغلي اي العادة الرأس . وكتب الارثوذكسيون الى اكاكيوس بطريرك القسطنطينية يلومونه على بماساته بطرس الاسكندري . فلم يكتوث البطريرك بل أجبر الكثيرين منهم على القول بكتاب الاتحاد . فكتبوا الى بابا رومة فيليكس الثالث (٤٨٣) . ولكن هذا بدل ان يرسل اكاكيوس مستوضحاً حسب العادة القديمة عقد مجعاً محلياً وحرم بطرس واكاكيوس . فلما علم اكاكيوس بهذا محاً اسم البابا من ذبيحته الاساقفة . وهكذا شب شقاق استمر اكثر من خمس وثلاثين سنة (٤٨٤ - ٥١٩) . وتوفي اكاكيوس في السنة ٤٩١

فخلفه في كرسي القسطنطينية افراوطاس^١ (٤٨٨ - ٤٨٩) وكان مداهناً متلاعباً. ولكن سرعان ما انتقض مدته. فخلفه اوفيموس^٢ العاقل (٤٨٩ - ٤٩٥) فظهر استقامة رأيه في ما بعث به من رسائل التحفة الاخوية لمناسبة تبوئه السدة البطريركية. واوشك ان يعود الاتحاد بين الشرق والغرب لو لم يطلب البابا محو اسم اكاكيوس من المذبيحة. واما في انطاكية فان راهباً من رهبان القسطنطينية بطرس القصار^٣ ألف حزباً ضد البطريرك مرتيريوس (٤٥٩ - ٤٦٩) وحدث قلاقل. فاستقال مرتيريوس. وحلّ القصار محله بطريركاً وأيد اوطيخة وحدث زيادة في التسبيح وعلم هكذا: قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، «الذي صلب من اجلنا»، ارحنا. ومن السنة (٤٨١ - ٤٨٥) تولى كلنديون الكرسي البطريركي في انطاكية وجمع مجعاً محلياً رجوع فيه الى تأييد قرارات خلثيدونية.

وهكذا دخلت الكنيسة في دور من الفوضى كثرت فيه سيامة الاساقفة زوجاً زوجاً ارثوذكسين ومونوفيسيين في وقت واحد. ومدت الايدي الى الكراسي لخلق هذا وتنصيب ذلك. وكان من اهم اسباب هذه الفوضى سعي الاباطرة لاسترضاء المونوفيسيين في مصر وسورية لكثرة عددهم ولضعف هبة السلطة المركزية اذ اخرجتها مشاغل اخرى. وظلت الحال على هذا المنوال حتى ظهرت كنيسة مونوفيسية مستقلة في مصر، وكنيسة مثلها في سورية، واخرى في ارمينية.

انطاسيوس الاول: (٤٩١ - ٥١٨) وكان زينون قد سعى سعيّاً

Frontas.

Euphemios.

Pierre le Foulon.

حينئذ لا جلاس اخيه لوجينوس على العرش بعده . ولكن زوجته ارياذنة
الامبراطورة لم تر في لوجينوس الكفاءة اللازمة فالتقت انسطاسيوس الورع
ورفعتة الى منصة الحكم وكان انسطاسيوس في الحادية والستين من العمر ،
قد قضى شطراً وافراً من حياته في القصر معارفاً في التشريعات ، وله شهرة
في الورع والتقوى ودماثة الخلق . وعلى الرغم من ميله الى القول بالطبيعة
الواحدة فان الشعب قابل ارتقاء بالهتاف : « ليكن عهدك في الحكم كعهد
مرفيانوس وكسبرتك في حياتك الشخصية . » واسترط البطريرك اوفيموس
العاقل الا يجيد الامبراطور عن العقيدة الارثوذكسية وان يكتب قبل
التتويج تعهداً بذلك . ففعل وتقبل تاجه من يد البطريرك .

وتبين له فوراً ، بعد جلوسه على العرش ، ان الشعب لم يكن راضياً
عن سلوك الاسوريين رجال زينون في العاصمة ، وان هؤلاء كانوا ينسجون
مؤامرة عليه . فعزلهم عن مراكزهم العالية وحادر املاكهم ، واقصاهم في
خارج العاصمة . فصار ثائرم في بلادهم في غربي آسية الصغرى . واضطر
انسطاسيوس ان يلجأ الى القوة فحاربهم ست سنوات متواصلة الى ان
اخضعهم . ثم نقلهم الى ترافية (٤٩٨) .

وكانت قد ظهرت طلائع القبائل البلغارية تتبعها قبائل الصقالبة . وبعض
هؤلاء كانت قد دخل في خدمة الدولة ، فلم يكن بد من الاصطدام
واستعمال القوة . واندفع الصقالبة فلبغوا الى ثيالية في السنة ٥١٧ . فرأى
انسطاسيوس ان يوسع النطاق العسكري حول العاصمة . فأنشأ سوراً
جديداً امتد من بحر مرمره حتى البحر الاسود مسافة ثمانية وسبعين
كيلومتراً . فسمي السور الطويل كما سمي سور انسطاسيوس .

ولم يرض انسطاسيوس عن نيودوريكوس . ولم يعترف بحكمه على

إيطالية قبل السنة ٤٩٧ . وفي السنة ٥٠٥ تدخل ثيودوريكوس في شؤون
البلقان وعاون فريقاً من البرابرة على فريق . فارسل انسطاسيوس في
السنة ٥٠٨ اسطولاً الى مياه إيطاليا للمشغبة والتخريب . ورأى ان
كلوفيس ملك الافرنج هو عدو ثيودوريكوس فانعم عليه بلقب قنصل .
فوجد ثيودوريكوس ان ليس من الحكمة ان يمضي في تحدي الامبراطور
فأظهر ليناً ونم بينهما اتفاق ولكن على مضض وقلب عكر .

الحرب الفارسية : (٥٠٢ - ٥٠٦) وكان قد اعتلى عرش ساسان
قباذ الاول ابن فيروز . وأحب ان يوطد سلطته في بلاده . فراقه مذهب
المزائكة من اتباع ماني ، ولاسيا مطالبهم بالعدل الاجتماعي وبالمساواة بين
القوي والضعيف ، والغني والفقير . فرأى قباذ ان في ذلك وسيلة للتخلص
من تصلب الزعماء وتصلفهم . ولكن هؤلاء نكطوا للامر فتألبوا عليه
وعاونهم في ذلك رجال الدين القومي القويم دين زرادشت . ثم تغلبوا عليه
وابعدوه عن الحكم وجاؤوا باخيه ييلاش . واستطاع قباذ ان يفر من
السجن ويلوذ بالهون البيض في شمالي ايران والى شرقها ، وكانت بينه
وبينهم مودة . ووعدهم بزيادة الاتاوة التي كانت تدفعها اليهم حكومة
فارس اذا هم امدوه فلبوه ، فتمكن بعد سنتين (٤٩٩) من ان يستعيد
زمام الحكم .

وطلب قباذ الاول الى زميله انسطاسيوس الاول ان يمدد بقرض
مالي يدفع به ما ضمنه للهون . ولكن انسطاسيوس كان بطبيعته مقتصداً ،
ورأى الا يدفع شيئاً الى قباذ كي لا تتمكن اواصر التعاون بينه وبين
الهون . فغضب قباذ ولجأ الى الحرب مستعيناً بالهون ، وبالنعمان الثاني ملك
الخيرة وقومه العرب^١ . وخان قومس ارمينية الرومية سيده فاستولى قباذ على

^١ وهو في الارجح النعمان ابن الاسود . فضى مدة حكمه خارج الخيرة بحارب الروم
في سورية والجزيرة . وتوفي في السنة ٥٠٤ في اثناء حصار الرها .

ارضروم (ثيودوسيوبوليس) دون مقاومة (٥٠٢). ثم حاصر آمد (ديار بكر) فدافع أهلها عنها دفاعاً مجيداً. ولكن ذهول فئة من الرهبان، كانوا قد وُظفوا على حراسة قطاع معين من الاسوار فناموا نوم الكاري، مكثن قبازمن الاستيلاء على آمد والفتك بأهلها (٥٠٣).

ثم فوجيء قباز بموجة جديدة من الهون تدفقت عبر القوقاس وبانضمام زعيم ارمني وامير عربي الى قوات انسطاسيوس فاستطاعت قوات الروم ان تعبر حدود فارس (٥٠٤) وان تتوغل في اراضيها، فطلب قباز السلم في السنة ٥٠٦. وحصن انسطاسيوس دارا واقامها قلعة في وجه نصيبين الفارسية، كما زاد في تحصينات البيرة والصالحية على حدود الفرات^١.

المالية : واشتهر انسطاسيوس بشفقه ورأفته، فأدخل اصلاحاً مالياً لا يزال غامضاً، لان احداً من المؤرخين المدققين لم يعن به بعد. وأما يستدل من بعض النصوص الاولية ان انسطاسيوس ألغى في السنة ٤٩٨ ضريبة كانت تحجب ذهباً وفضة من جميع اصحاب الحرف والمهن ومن الخدمة والشحاذين والنساء العموميات، وهي ضريبة الجريساغريون^٢، كما انه ألغى في السنة نفسها مسؤولية الكوربالس (النقابات) عن مجموع الضرائب المفروضة على بلدتهم وانشأ نظاماً للجباية المباشرة. واستعاض عن النقود البرونزية الصغيرة بأربعة انواع اكبر منها سهلت التعامل التجاري واعانت على الانعاش الاقتصادي. وانشأ انسطاسيوس ضريبة على الاراضي^٣

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides*: 335, 347-353.

Chrysargyron.

Chrysateiron.

لدفع مرتبات الجند في أوقاتها.

الطبيعة الواحدة : وكانت انطاسيوس كلما زاد سناً ازداد تعلقاً بالطبيعة الواحدة . فأدى تشبهه بها الى اضطرابات متتالية في العاصمة وفي الاسكندرية وانطاكية . وحاول ان يسترجع التعهد الذي كان قد كتبه قبيل تنحيه وسلمه الى البطريك اوفيموس فلم يستطع . فجمع مجعاً محلياً سنة ٤٩٦ وقطع البطريك ونفاه . فتولى البطريكية بعده مقدونيوس الثاني . وكان هذا نقي السيرة مستقيم العقيدة محبوباً ، فعني عناية خاصة بمصالحة بعض رهبان القسطنطينية الذين تباعدوا عن الكنيسة منذ ظهور الاينوتيكون فلم يستطع . فعقد مجعاً محلياً ثبت فيه قرارات المجمع المسكوني الرابع . ونوى ان يكتب بذلك الى كنيسة رومة . فمنعه الامبراطور وحاول اقناعه بوجوب شجب قرارات المجمع المسكوني الرابع . فلم يجب البطريك طلبه . فلجأ انطاسيوس الى المشاغبة وشجع البعض على الدخول الى الكنيسة في اوقات الصلاة لاضافة العبارة « المصلوب من اجلنا » في التسبيح الثلاثي وذلك فيما المرنلون يرتلون . وفي السنة ٥١١ نفى البطريك مقدونيوس واوعز بتنصيب تيموثاوس الاول (٥١١ - ٥١٨) . وكان هذا رجلاً مثقلاً فصرم قرارات المجمع الرابع وعقد اتفاقاً مع يوحنا الشقاوي بطريك الاسكندرية وسويروس بطريك انطاكية وكافا من اصدقاء المجمع الرابع . واضطر متروبوليت ملانيك ان يوافق تيموثاوس خوفاً من الامبراطور فتظاهر الشعب ضد الامبراطور والبطريك معاً . وعقد اربعون اسقفاً من البلقان وبلاد اليونان مجعاً

١ وانقل ما يرجع اليه في هذا الموضوع عموماً ما يلي :

Wright, W., *The Chronicle of Joshua the Stylite*, Brooks, E. W., *The Eastern Provinces from Arcadius to Anastasius*, Stein, E., *Studien zur Geschichte des Byzantinischen Reiches*.

وقطعوا علاقاتهم مع تيموثاوس ودخلوا في شركة البابا بطريرك رومة .
ثورة فيتاليانوس : (٥١٢ - ٥١٨) وتتابع ضغط الامبراطور على
الارثوذكسين فنار فيتاليانوس قائد فرقة بلغارية في الجيش واحتل وارلة
على البحر الاسود ثم تقدم نحو العاصمة مطالباً بالغاء التسييح المونوفيسيئي
وباعادة البطارقة الارثوذكسين من منقاهم وهاجم العاصمة براً وبحراً .
فصدّ ولكنه لم يُغلب . فعاد برجاله الى بورغاس وبقي فيها ثلثاً غاضباً
حتى وفاة الامبراطور في التاسع من تموز سنة ٥١٨ .

الفصل العاشر

تمشيق الفكر والفن والدولة

الدولة تتطور فتتحول الى دولة شرقية : وانتهى أمر الامبراطورية الغربية بسقوط رومة في السنة ٤٧٦ . واستقر البرابرة في غالية واسبانية وافريقية وإيطالية وفي جزء من إلبيرية . فأصبح ما بقي من الدولة الرومانية شرقياً صرفاً . واشتمل على شبه جزيرة البلقان ما عدا اطرافها الشمالية وعلى آسية الصغرى حتى جبال ارمينية وعلى سورية حتى الفرات وعلى مصر والقيروان . وقبل اتمام الاباطرة بالغرب وشؤنه فنودي بمرقيانوس امبراطوراً في السنة ٤٥٠ دون استشارة الامبراطور الغربي في رابينة . وجرى مثل هذا في السنة ٤٥٧ عندما نبأ لاوون الاول عوش القسطنطينية . ولم تعبأ حكومة القسطنطينية بما حل برومة من كوارث . فلم يحاول مرقيانوس بذل اي مساعدة عندما دخل الوندال الى رومة في السنة ٤٥٥ . واخط لاوون الاول لنفسه سياسة سلم ومسالمة في علاقاته مع البرابرة في الغرب . وزاده تمسكاً بهذه السياسة فشله في حملته على افريقية في السنة ٤٦٨ . ولم تكن محاولة التوحيد بين الشرق والغرب ، تلك المحاولة التي قام بها زينوب في السنة ٤٨٨ ، سوى حلم طارئ لا قيمة له .

وتطور في هذه الآونة نفسها نظام الحكم في الداخل فأصبح شرقياً

أكثر من ذي قبل . فقلبت مرقيانوس في السنة ٤٥٠ ثلجه من يد
 بطريرك القسطنطينية لأول مرة في تاريخ الدولة . وحذا حذوه لاوون
 الأول في السنة ٤٥٧ . فانخذ التتويج حفة دينية . وأصبح الحق في الحكم
 إلهياً شرقياً . واستعاضت العامة عن اللقب امبراطور باللقب فيسلفس .
 وبدأت اللغة اليونانية تنتشر في الدوائر الرسمية . وظهر الفيلسوف
 وبلاطه وعمله بظاهر الابهة والجلال الشرقيين ، إلت في الملابس ،
 او في الاثاث ، او في العربات . يؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة
 بروفيريوس اسقف غزة . ذكر عن هذا الاسقف انه عندما دخل الى
 القصر واستوك في حفلة عماد الطفل ثيودوسيوس الثاني في السنة ٤٥١ خال
 انه في الجنة لا على الارض . واستوعى هذا التزييد الشرقي في البذخ
 والترف انظار يوحنا الذهبي الفم وسبناسيوس فحسلا عليه بشدة .
 وتشرقت الكنيسة ايضاً وأصبح الشرق هو الحيز الذي تدور فيه
 حوادثها الكبرى ، وتنطلق منه حركاتها الفكرية . فاعظم المشاكل التي
 اعترضت تاريخ الكنيسة قد حدثت في الشرق ، وكذلك مجامعها المسكونية
 كلها انعقدت في الشرق . وهذا ما حوّل بطريرك القسطنطينية ، وهو يناظر
 زميله بابا رومة ، بعد خضوع الغرب لمولك من الآريوسيين البرابرة ،
 ان يقول : « لم يبق سوى امبراطورية مسيحية واحدة هي امبراطورية
 الشرق . ولم يبق سوى كنيسة مسيحية واحدة هي كنيسة الشرق » .
 الفكر والفن والثقافة : وكانت حضارة الامبراطورية الرومانية قد
 تأثرت منذ زمان بعيد بنفوذ المدنية اليونانية الهلينية . ولكن هذه الحضارة
 في القرنين الرابع والخامس ألتت مقابليدها الى الشرق وانخذت اماماً نأتم

Vie de Porphyre de Gaza (éd. Grégoire), 47-48; Bury, Later Rom. Emp. 1, 142-147; Paeck, Saint Jean Chrysostome et les mœurs de son Temps, (Paris), 1891.
Duchesne, Hist. Anc. de L'Eglise, III, Ch. XIII.

به في الفكر والثقافة . ومع ان اللغة اللاتينية بقيت اللغة الرسمية في الشرق .
فان اللغة اليونانية أصبحت دون ريب هي اللغة السائدة .

وأصبح النتاج الفكري والفني في الشرق آسيوياً افريقياً اكثر منه
اوروبياً . ويذهب الاستاذ كرومباخر الاختصاصي الالماني الى ان مبلغ النتاج
الفكري الذي كانت تنتجه الولايات الاوروبية في الدولة الرومانية الشرقية لم
يكن يتجاوز العشرة في المئة من مجموع النتاج^١ . وكانت اهم مراكز هذا
النتاج الاسكندرية وانطاكية وببيروت وقيصريه فلسطين وقبدوقية والرها .

الاسكندرية : ولا يخفى ان اساتذة المتحف الاسكندري العظيم
كانوا قد حرموا التخصصات اللازمة لاصحاحهم منذ اوائل عهد كركلا (٢١١)
وان هذا الامبراطور الغاشم كان قد طرد من الاسكندرية العلماء الغرباء
عنها . ولا يخفى ايضاً ان جنود زينب الزباء عندما دخلوا الى الاسكندرية
ظافرين (٢٧٠) نهبوا واحرقوا المباني العمومية التي كانت تحيط بقبر
الاسكندر . واتسع هذا التخريب حتى لم ينج منه المتحف العظيم . ومع
ان هذه المؤسسة بقيت تعمل بعد القرن الثالث فان نتائجها باتت تزداد
ضعيفاً . فلم يشتهر من اساتذتها شهرة واسعة سوى إباتية الفيلسوفة
(٣٧٠ - ٤١٥) بنت ثيون الرياضي . وكانت جميلة الخلق والخلق توتدي
زي الفلاسفة وتلقي الدروس في الافلاطونية الجديدة في بعض مدارس
الاسكندرية ، وفي باحاتها العمومية . وعرف من تلامذتها سيناسيوس
القيروني واورستوس الحاكم وهو الذي كان سبباً في هلاكها . فقد
زجر اورستوس الجماهير المسيحية عندما صُغت على اليهود في السنة ٤١٥
وقبض على احد الرهبان المتهورين وشدد عليه في التعذيب فتوفي بين يديه .
فثار عليه سخط الجماهير . ولما كانت إباتية معابة وصديقة لاورستوس فقد

هاجمها الجمهور اذ صادفها خارجة من بيتها وانهار عليها حتى ماتت تحت الضرب^١.

وأدى الصراع بين الوثنية والنصرانية الى الاجتهاد في التاريخ والمنطق والفلسفة . وكان من الطبيعي جداً ان يحتدم الجدل في امهات المدن ولاسيما الاسكندرية ، وان تعنى الكنيسة فيها بهذه العلوم العالية في سبيل الدفاع عن الايمان . ولا تعلم بالضبط متى نشأت مدرستها اللاهوتية الفلسفية التي عرفت بالاسم اليوناني الذي اسقاليون . والذي اسقالية عند اليونان طريقة الشعراء في تدريب الممثلين . ويقول يوسيبوس المؤرخ : « اشتهرت كنيسة الاسكندرية منذ عهد قديم بمدرسة للعلوم المقدسة ، كان يتولى امرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى . وكان اطولهم بقاءً بنطينس النابغة في ادب الحكمة^٢ . » وخلف بنطينس هذا في رئاسة ذيذاسقاليون الاسكندرية في السنة ٢٠٠ تلميذة اقليس الاسكندري^٣ (١٤٥ - ٢٢٠) . ولد وثناً ايضاً في اثينة وتميز في الفلسفة وطاف بلاداً كثيرة حتى « ألقى عصاه في الاسكندرية » . وكان يجتمع حول منبره طبقات الناس من علماء واغنياء وغيرهم . وكان هو يجرّس الوثنيين على هجر خرافاتهم ، ماضراً من آلهتهم ، ويعلمهم المهتدين مبادئ الرسالة المسيحية . وفضل ما اشتهر به في تاريخ الفكر

١ وقد خلّد الروائي الانكليزي تشارلس كنزلي قصة ابائية بيراعه الساحر ونقل روايته الى العربية العالم اللبناني الدكتور خليل سعادة .

٢ عن الدور النقيية في تاريخ الكنيسة للعلامة بطريرك انطاكيوس غرام برسوم ، ج ١ ، ص ٢٢٧ . وبنطينس هو Pantaenus الشهير . كان وثناً من اتباع زينون الفيلسوف فتنصر واجتهد في تفسير الاسفار المقدسة . وبشر بالايان في اليمن ويقال في الهند ايضاً . وهو الذي يقال عنه انه وجد في اليمن أو في الهند نسخة من انجيل متى بالأرامية .

Titus Flavius Clemens.

قوله : « ان الفلسفة تفرد الى الكمال من يلي دعوة المسيح » ، وقوله : « ان الفلسفة في نظري ليست الروافية ، ولا الافلاطونية ، ولا الابيقورية ، ولا الارسطوطاليسية ، وانما هي كل ما تعلمه هذه المذاهب للوصول الى العدل والحقيقة^١ . » وكان هدفه الاساسي فيما يظهر ان يبرهن للملأ ان العقيدة المسيحية لم تكن لتقل شأنًا عن اي فلسفة زمنية . وهكذا يكون اقليس الاسكندري اول من حاول ان يعطي العقيدة المسيحية المرتبة اللائقة بها ، ويكون ايضاً في مقدمة الآباء الذين حاولوا التوفيق بين النصرانية والفلسفة . وأشهر مؤلفاته كتاب ارشاد اليونانيين ، وكتاب المعلم ، وكتاب الاسترومات او « الوشاء » كما اقترح غبطة البطريرك اغناطيوس افرام ، وهو مجموعة آداب وناملات وتفسير وقاويل لبعض ما جاء في التوراة^٢ . ولما اغلقت مدرسة الاسكندرية ، لما حلّ بالنصارى من الاضطهاد في السنة ٢٠٢ ، لجأ اقليس الى قبدوقية وأقام عند تلميذه الكسندروس اسقف قيصرية . ثم انتقل الى انطاكية في السنة ٢١١ . وكانت وفاته في السنة ٢١٥ او ٢٢٠ .

على ان اشهر من علّم في ذيداسقاليوت الاسكندرية اوريجانيوس العظيم . ولد في مصر في بيت مسيحي في السنة ١٨٥ او ١٨٦ ، وتلقى مبادئ علومه عن ابيه ليونيداس وأخذ عن اقليس ايضاً . وأستشهد والده في السنة ٢٠٢ وصودرت أمواله واوريجانيوس لا يزال في السابعة عشرة . فشملته سيدة مسيحية بعطفها . فتابع دروسه في الفلسفة والدين . وأنجز علومه الفلسفية وهو في الخامسة والعشرين في مدرسة امونيوس حقا^٣

^١ *Patrologia Graeca. VIII, 717 - 720.*

^٢ الدرر النقية في ترويح الكتبة ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

^٣ *Ammonius Saccas.*

الافلاطوني الجديد . ودرس العبرية ليستعين بها على فهم التوراة . ودرس في الذيداسقاليون وأدخل اليه العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية . وعلم الشبان والشابات معاً . ودفعاً للريية وزيادة في التعبد والتشف عمل ينطوق الآية الثانية عشرة من الفصل التاسع عشر من انجيل متى . ولم يؤثر عمله هذا في تعلق طلابه به واحترامهم له . وفي السنة ٢١٢ ذهب الى رومة لزيارة الكنيسة « العريقة في القدم » . وفي السنة ٢١٥ لجأ الى فلسطين من شدة الاضطهاد الذي أنزله كركلا بالمسيحيين في مصر . وأقام في قيصرية . فوكل اليه اسقفها واسقف اوروشليم شرح الاسفار المقدسة . ثم عاد الى الاسكندرية واستأنف التدريس حتى السنة ٢٣٠ . وفي اثناء هذه الحقبة عاد مرة بـ قيصرية فلسطين فاحتفى به اسقفها قيصرية واوروشليم وساماه قساً . فاغتاز اسقف الاسكندرية واسقطه من وظيفة التعليم وحرمه . ولكن ذلك لم ينل من سمعته . وبقيت الكنيسة تحترمه لسيrote النقية وعلومه الجمة . فخرج من الاسكندرية الى فلسطين وأقام في قيصرية وأسس فيها مدرستها اللاهوتية . وفي السنة ٢٤٠ زار آثينة . وزار في السنة ٢٤٤ بلاد العرب . وتوفي في السجن في صور ضحية اضطهاد الامبراطور داققوس .

ويقول ابيفانيوس القبرصي ان اوريجانيوس ألف ستة آلاف كتاب . وأثبت يوسيبوس المؤرخ الفين منها او ما يناهز هذا العدد . ومن مؤلفاته الهكسبلة^١ ، اي ذو الاعمدة الستة . وهو مؤلف كبير اشتمل على ست ترجمات للتوراة في ستة اعمدة . وخص المزامير بثاني ترجمات في اعمدة ثالثة ، فعرف مؤلفه هذا بالأوكتابلة^٢ . وشرح اسفار التوراة والانجيل

Hexapla.

Octapla.

١

٢

برسائل عديدة ، فعمد الى الاستعانة بالمعاني الرمزية والتأويل . ورد على قلسوس
الفيلسوف الوثني مدافعاً عن النصرانية^١ . وكتب في المبادئ^٢ في اللاهوت
وفي القيامة وفي الصلاة وفي التحريض على الاستشهاد وما الى ذلك .
ويرى الأستاذ بركت ان ما ذهب اليه اوريجانيوس من تأويل في
كتاب المبادئ لم يثر ضجة كبيرة عند ظهوره وان قطع اوريجانيوس فيما
بعد اثماً نشأ عن عوامل شخصية أهمها الحسد^٣ . ومما أحتج به عليه فيما
بعد قوله بخلق النفوس خلقاً سابقاً على الاجساد وقوله بان العذاب في
الآخرة منتهى الى نهاية وبان العفر سيئمل حتى الشياطين ، ثم قوله بالتناسخ
وتقمص النفوس وبالتهجير بالنار في الآخرة وبالتفاوت بين الاقاييم الثلاثة ،
عدا ارنيايد في حقيقة جسد المسيح ودمه^٤ . ومكانة اوريجانيوس في
تاريخ الفكر تستند الى انه سبق غيره من الآباء في تأسيس علم اللاهوت
علماً قائماً بذاته . وجل ما فعله غيره من الآباء الذين سبقوه ككاليبس
ويوسثيوس هو انهم حاولوا ان ينقلوا المبادئ المسيحية الى الاوساط
العلمية بشوب فلسفي يوناني . اما اوريجانيوس فانه سخر الفلسفة اليونانية
ولاسيما الافلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفي نصراني على دعائم من
الاسفار المقدسة^٥ .

وبما ان معظم كتب اوريجانيوس مفقودة فلبس من الميسور بحث

Contra Celsum.

١

De Principiis.

٢

Burkitt, C. F., Christian Church in the East (Cambridge Anc. Hist.,
Vol. XII, Ch. XIV), p. 484.

٣

٤ الدور النقيصة ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

٥ ويجدر بذكر راغب ان يقرأ الفصل السابع بكامله من كتاب دانيال روبس : « كنية الرسل
والشهداء » .

آرائه لمن شاء ذلك . ويزيد في الطين بلة ما تعرضت له مصنفاته من تحريف وما نسب اليه من اذليل لم يكن هو صاحبها . « وصفوة القول ان هذا العلامة أحب الحقيقة المسيحية حباً صادقاً ووقف عليها حياته وقريحته وقواه بأسرها . فصحة دينه ورسوخ تقواه تعدلان سمو علمه بالرغم مما هنا فيه من السقطات التعليبية^١ . »

وخلف اوريجانيوس في رئاسة مدرسة الاسكندرية هيرقليوس ثم ديونيسيوس البطريك (١٩٠ - ٢٦٥) . ولد ديونيسيوس في مصر من أسرة وثنية . وتنصر ، وقرأ على اوريجانيوس ، وعلت منزلته فسم بطريكاً على الاسكندرية وتوابعها في السنة ٢٤٨ . وله مؤلفات منها كتاب في الطبيعة نقض فيه نظرية آتوميستيك في خلق العالم ، وكتاب في الخن والاضطهادات ، وآخر في المواعيد الالهية نقض فيه الاعتقاد بالملك الف سنة وغير ذلك . وليس لنا ان نذكر هنا جميع من لمع من رجال هذه المدرسة في القرن الثالث ، ولكن لا بد من القول انها قد عظم شأنها منذ ايام اوريجانيوس وأصبح رئيسها هو الثاني بعد البطريك في كنيسة الاسكندرية . وقد رقي أغلب رؤساء هذه المدرسة السدة البطريكية .

فاما في القرن الرابع فكان اشهر رجالها القديس اثناسيوس البطريك الاسكندري . ولد وثنيّاً حوالي السنة ٢٩٥ في الاسكندرية . وقرأ ودرس في مدرستها . وسامه البطريك الاسكندري الكسندروس شماساً في السنة ٣١٨ واستصحبه الى مجمع نيقية المسكوني الاول سنة ٣٢٥ فأظهر من الذكاء والعلم والمعرفة ما جذب اليه القلوب . وخلف معلمه في بطريكية الاسكندرية في السنة ٣٢٨ ففاضل في سبيل « الماوي في الجواهر » نضالاً طويلاً ونقي خمس مرات . ولم يكن ذلك الكاتب الاديب

١ العلامة البطريك اغناطيوس قرام برصوم في : الدرر النقية ، ج ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

الكامل ولا ذلك الفيلسوف الدقيق العميق . ولكنه كان عاماً واضح التفكير قوي الحجة واسع الاطلاع . كتب في تجدد الكلمة وفي لاهوت الابن وفي الاربوسية . واشهر مؤلفاته واكثرها انتشاراً واقوالها اثرآ كتابه في سيرة الاب انطونيوس مؤسس الرهبانية في مصر . فقد ظل هذا الكتاب مدة طويلة افعال الكتب في تحبيب الترهيب في الشرق والغرب معاً . ونوفي البطريك آثناسيوس في السابع عشر نيسان سنة ٣٧٣ .
 وولّى اثناسيوس' ذينيس' الاعنى رئاسة المدرسة حوالي السنة ٣٥٠ وما زال ذينيس' رئيساً عليها حتى وفاته في السنة ٣٩٨ . وكان اوريجانياً معتدلاً . على ان تأليفه لم يبق منها سوى كتابيه في الروح القدس والثالث الاقدس .

ومن اشهر' تلاميذ مدرسة الاسكندرية في هذه الحقبة الاخيرة من القرن الرابع سيناسيوس القيروني . ولد وثنباً ودرس في الاسكندرية على ابائيه الفيلسوفة وغيرها فتقبل الافلاطونية الجديدة ومارس اسرارها المصرية . ثم استبدل افلاطون بالمسيح وتزوج من مسيحية . وفي اواخر حياته سم اسقفاً على بتوليايوس . وكان شديد الاهتمام بالسياسة كما تدل على ذلك رحلته الى القسطنطينية (٣٩٩ - ٤٠٢) وقد سبقت الاشارة اليها . ولم يكن سيناسيوس مؤرخاً . ولكن رسائله المثة والس والتمسين تشتمل على معلومات تاريخية هامة وتظهر درجة تقدمه في الفلسفة وعلوم اللسان . واصبحت هذه الرسائل فيما بعد نموذجاً مثالياً يقندي به كل اديب خطيب . اما توانيسه فأنها مزيج غريب من الفلسفة والنصرانية .
 وتضعفت مدرسة الاسكندرية بعد وفاة ذينيس' الاعنى . ونقلها

رودون الى سيدة في باعقلية . ثم انقضت حوالى السنة ٤١٠ . وجاء ذلك موافقاً لما حدث في مصر من عدول الاكثوية الى القول بالطبيعة الواحدة ، ما ادى الى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الام بعد المجمع الرابع (٤٥١) انفصلاً صرفها الى الاهتمام بالقبطية والابتعاد عن اليونانية لغة الفكر والبحث .

انطاكية : وأخطب خطباء هذا العصر وأفصحهم انطاكيان احدهما وثي ليبيانيوس والآخر مسيحي يوحنا الذهبي الفم . وقد يكون ليبيانيوس لبنانياً وقد لا يكون . ولد في انطاكية في السنة ٣١٤ بعد الميلاد وتوفي فيها في السنة ٣٩٣ . وتعلم في انطاكية ثم في آثينة . وعلم في نيقية ونيشوميديا والقسطنطينية . وعاد الى بلده في الاربعين من عمره . وما فتئ فيها يعلم ويخطب ويكتب حتى قضى نحبه بعد اربعين عاماً . ولا يزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظاً حتى يومنا هذا . وفيها صور رائعة لحياة ذلك العصر . وكان ليبيانيوس يعتز باليونانية ويزدري اللاتينية فلا يتنازل لتعلمها . واحتقر النصرانية واعتبرها عدوة الحضارة وحزن لموت يوليانيوس الجاحد فقال قوله المأثور : « اتي ذاهب الى الحقول لالتحدث الى الحجارة » . ولما شرع في هدم الهياكل الوثنية قال : « ان هدم الهيكل كقطع العين فالهياكل روح المناطق وأعرق المباني فيها » . واما يوحنا الذهبي الفم فقد سبق لنا عنه الحديث . ولعل افضل ما يعبر عن اثره في النفوس ومنزله في التاريخ ما قاله نيقوفوروس كاليبستوس في القرن الرابع عشر : « لقد قرأت اكثر من الف عظة له تسدق حلاوة . ولقد احببته منذ عدائي

Monnier, E., *Hist. de Libanius*, Paris, 1866; Sievers, *Das Leben des Libanius*, Berlin, 1868; Seeck, O., *Die Briefe des Libanius etc.*, Leipzig, 1906; Pack, R. A., *Studies in Libanius*, Michigan, 1935.

واصغيت الى صوته كأنه صوت الله . واني مدين له بجميع ما اعرفه
وبنفي ايضاً .^١

واشتهرت انطاكية ايضاً بأميانوس مرسلوس (٣٣٠ - ٤٠١) . ولد
في انطاكية من ابوين يونانيين عريقين في الشرف . والتحق بالجيش وتولى
القيادة العامة . ولعب في غالية وفي ما بين النهرين . ثم تقاعد فعني بالتأريخ
فكتب تكملة لتاريخ ثالسيوس وذلك بعبارة لاتينية متينة فصيحة^٢ .
ولم يكن يرى فضلاً في النصرانية ولكنه كان اقل تعصباً من ليبيانيوس .
واحب انطاكية وسورية ولبنان وفاخر بها : « انطاكية لا مثيل لها ،
وفيليقية عند قدم لبنان فتاة جميلة »^٣ .

وكان طبعياً جداً ان تهتم الاوساط النصرانية في انطاكية في القرون
الاولى اهتمام الاسكندرية للدفاع عن النصرانية وان تنشأ فيها مدرسة من
طراز ذيداسقاليون الاسكندرية . فنعن نقرأ انه في السنة ٢٦٩ اتخذ
جمع انطاكية المحلي قراراً بقطع بولس السيساطي اسقف انطاكية وصديق
زينب التدمرية . ونقرأ ان الذي تولى امر تنفيذ اضاليل هذا الاسقف كان الاب
ملكبيون^٤ رئيس مدرسة العلوم اليونانية في انطاكية . ثم نقرأ انه في
السنة ٢٩٠ اتفق القساوسة لوقيانوس وديودوتوس وجماعة من الاساقفة
والقسوس على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها .

وكان لوقيانوس (٢٣٥ - ٣١٢) سيساطي الاصل درس على الاسقف
بولس السيساطي الذي علمه ان الآب والابن والروح القدس لبوا سوى
اقنوم واحد وان المسيح لم يكن ابن الله على الحقيقة وانما كان انساناً

Patrologia Graeca, CXLVI, 933.

Res Gestae.

٣ الفصل الثامن من الكتاب الرابع عشر .

حلّ فيه اللاهوت . ونشر ب لوقيانوس شيئاً من تعاليم معلمه فأصابه حكم
 المجمع الذي قطع أسناده . وبقي مبعداً عن الكنيسة حتى نكل عن بعض
 ما قاله فردّه البطريرك كيرلس (٢٧٧ - ٢٩٩) الى درجته في الكهنوت .
 وعني لوقيانوس بتحرير نص النوراة السبعينية ونص الانجيل . فضبط
 لهُذين السفرين الترجمة التي عمّ استعمالها الكنائس الشرقية . وتوفي لوقيانوس
 وزميله دوروثاوس شهيدين في نيوميدية (ازميد) في السنة ٣١٢ .
 واشهر الآباء الانطاكيين في تاريخ الفكر الديني العقائدي ديودوروس
 الطرسوسي (٣٩٤ +) ويوحنا الذهبي الفم (٤٠٧ +) وثيودوروس المبسوسي
 (٤٢٩ +) وثيودوريطس القورشي (٤٥٧ +) . ولد ديودوروس في انطاكية
 في بيت عريق في الشرف والنفوذ . ودرس في آثينا ثم في انطاكية .
 وقام باعلاء الخدمة في انطاكية في اثناء المحنة التي ادت الى نفي سيده
 البطريرك ملانيوس الشهير (٣٦٠ - ٣٧٨) . وسم اسقفاً على طرسوس
 في السنة ٣٧٨ . ووضعه اسقفاً استترك في اعمال المجمع السكوني الثاني
 في القسطنطينية سنة ٣٨١ . وكتب في الفلسفة واللاهوت وفي تفسير
 الاسفار . واما ثيودوروس المبسوسي او الانطاكي ، فانه ابصر النور في
 انطاكية في السنة ٣٥٠ او ما يقاربها في بيت وفير ويسار ونفوذ واقتدار .
 ودرس على ليبيانوس . ثم اجتذبه يوحنا الذهبي الفم الى الدين المسيحي .
 فتقبل النعمة وتسلّك وجاور ديودوروس الطرسوسي وكان هذا لا يزال في
 انطاكية . ولم يقدر على متابعة الزهد فعاد الى انطاكية ليتزوج . فوجه
 اليه يوحنا الذهبي الفم رسالته Ad Theodorum Lapsum فعاد الى الرهبانية
 والزهد . وما فتى يدرس العلوم الدينية على ديودوروس حتى السنة ٣٧٨
 سنة سيامة استاذة اسقفاً على طرسوس . فأما ثيودوروس فإنه سيم كاهناً
 في السنة ٣٨٣ ورحل بعدها الى طرسوس والتحق بمعلمه . وما زال فيها
 حتى سيم اسقفاً على مبسوسي في جوار طرسوس . وتوفي في السنة ٤٢٨ .

وهو اكبر من صنف في اللاهوت من رجال انطاكية . ولم يبق من تأليفه الا نزر يسير نظراً لموقف المجمع المسكوني الخامس من تعاليمه . وهو استاذ نسطوريوس . ويروي ان نسطوريوس زاره في ميسوسني وهو في طريقه الى القسطنطينية ليتبوأ كرسيها البطريركي فرحب به ثيودوروس واوصاه بالاعتدال^١ . اما ثيودوريطس القورشي فإنه انطاكي ايضاً . ولد في انطاكية سنة ٣٩٣ . وبشتر بولادته مقدونيوس الناسك معلناً استعداد المولود الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح . فنشأ ثيودوريطس راهباً . واخذ كثيراً عن يوحنا الذهبي الفم وعن ثيودوروس المبسوتي . ورافق في عهد التلمذة نسطوريوس ويوحنا الانطاكي . وقد سمى اسقفاً على قورش في السنة ٤٢٣ وكانت وفاته في السنة ٤٥٧ . وكتب كثيراً . وانفع ما صنف تكملة تاريخ يوسيبوس^٢ .

وكانت مبادئ مدرسة انطاكية توجب في كل موضوع بساطة في المنهج وكلاً في الايضاح وادراكاً في تعليم الايمان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدسة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد ارسطو اكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية .

« ولهذا السبب كانت تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح الواحد . ومع انها كانت تعتقد بان المسيح واحد وليس اثنين فأنها كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزج بين الطبيعتين . وكانت تعتبر اتحادهما اضافياً بمعنى السكنى والارتباط حفظاً لكمال الطبيعة

Amann, B., Théodore de Mopsueste; (Dict. de Théologie Catholique);
Sweete, H. B., Theodor von Mopsuestia, (Dict. of Christian Biography).
Hist. Ecclesiastica; Bardy, G., Theodoret, Evêque de Cyr, (Dict. de
Theol. Cath.)

البشرية التي زعم ابوليناريوس انها كانت ناقصة وشهد بذلك يوحنا الانجيلي بقوله ان الكلمة «سكن فيها» ، ويقول بولس الرسول ان الكلمة «ظهر بها» . وكانت تنكر على الناسوت خواص اللاهوت كالحضور في كل مكان والقدرة على كل شيء ، وعلى اللاهوت اهواء الناسوت وآلامه كالولادة والتألم والموت . ولهذا السبب كان معلومها يتجنبون كل تعبير يؤدي الى مثل ذلك المعنى كتسمية العذراء بوالدة الاله . ومع اعتقادهم بكمال الطبيعة الالهية كانوا يعتقدون بوجوب كمال الطبيعة البشرية ايضاً ، لان لوقا الانجيلي يقول في الاصحاح الثاني ان يسوع «كان يتقدم بالحكمة والقناعة» وهذا لا يقال الا في طبيعة بشرية . وكانوا يعلمون «بوجوب السجود للناسوت بمعنى انه إناء للكلمة فيقولون اننا نسجد للارجوان من اجل المتردي به ، وللميكل من اجل الساكن فيه ، ولصورة العبد من اجل صورة الله ، وللحمل من اجل رئيس الكهنة ، وللمتخذ من اجل الذي اتخذ ، وللمكون في بطن البتول من اجل خالق الكل .» على انهم ما كانوا يعلمون باقنومين بل باقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين بلا انفراج ولا اختلاط ولا تشويش . ولهذا الاسباب كانوا يقدمون المخلص سجوداً واحداً من الجهة الواحدة ، ويرفضون من الجهة الاخرى الاعتراف بالانحداد الطبيعي او الجوهرى حذراً من حصر اللاهوت او من تأليه الناسوت .

« فينتج مما تقدم ان معلمي انطاكية والاسكندرية كانوا يعلمون التعليم المستقيم على مناهج مختلفة مع محاذرة استعمال عبارات مستقيمة او مع استعمال عبارات اشد من المستقيمة تحسناً للتعليم الثويم بحسب اقتضاء مراكمهم . فكان المصريون يشدون العبارات المتعلقة بايضاح كمال طبيعة اللاهوت حذراً من بدعة آريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال اللاهوت . وكان الانطاكيون يطلبون ايضاح كمال طبيعة الناسوت حذراً من بدعة ابوليناريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال طبيعة

الناسوت . ولكنه قام في المدرستين اناس تطرفوا في التعليم فستقوا في الضلال . فقام في مدرسة انطاكية من تطرف في التعليم بالطبيعتين الى التعليم بشخصين او اقنومين حتى انكر الاتحاد الحقيقي . وهذا هو نسطوريوس واتباعه . وقام في الاسكندرية من تطرف من التعليم باتحاد الطبيعتين الى التعليم باختلاطهما طبيعة واحدة ، ولم يعد يميز بين اللاهوت والناسوت . وهذا هو افثيسيس او اوطيخة وانصاره . ٥

قيصرية فلسطين : واشتاز اوريجانيوس ونفر من ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . فخرج منها في السنة ٢٣٢ وأتم قيصرية فلسطين المدينة التي رحبت به من قبل وأصغت اليه وسامته كاهناً مسيحياً . فأقام فيها وأسس مدرسة جديدة . وقرأ عليه فيها غريغوريوس العجائبي واخوه اثينادوروس وبوسيبوس المؤرخ وغيرهم . وفيها جمع مكتبته الشهيرة وحسب المكسبة في شرح الاسفار المقدسة . ومنها خرج لزيارة آثينة سنة ٢٤٠ وبلاد العرب سنة ٢٤٤ . وفيها اذاقه داققوس الامبراطور مر الاضطهاد (٢٥٠) فخرج منها رغم انه وسبق الى صور حيث سجن وتوفي في السنة ٢٥٤ او ٢٥٥ .

وبعد اوريجانيوس لم قيصرية بفيلسوس البيروتي . وكان هذا قد وزع امواله على الفقراء والمساكين ورحل الى الاسكندرية فدرس فيها على خلف اوريجانيوس ثم استوطن قيصرية فلسطين وانشأ فيها مدرسة لتدريس العلوم الدينية . وجمع ما كان قد تبعثر من كتب اوريجانيوس ونسخ ما لم يتسكن من ابناءه منها بخط يده . وكان يستنسخ للكتب الالهية مستنداً الى ما اورثه اياه اوريجانيوس فينثوها في البلاد ثراً . وكانت

١ الكلام لوليس اساقفة بيروت جراسيموس في كتابه : تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٠١
- ٢٠٣ ، بيروت ١٩٣١ .

يوسيبوس نلميذه يعاونه في عمله هذا على ما تشهد به بعض النسخ .
ومن اشتهرت بهم قيصرية فلسطين يوسيبوس المؤرخ . ولد يوسيبوس
في قيصرية او في مكان قريب منها في حدود السنة ٢٦٥ . وقرأ العلم
على بفسليوس البيروتي وعلى دوروثاوس الانطاكي . واتخذ بفسليوس خديناً
له وتسمى بامته وتقلد الكهنوت من يد سلفه الاسقف اغابيوس . وسيم
اسقفاً على قيصرية في حدود السنة ٣١٣ . ووعى علوم زمانه فبرع بحسب
مقياس ذلك العصر في تاريخ الاسفار المقدسة وفي تاريخ الوثنية وتاريخ
الشرق القديم وفي الجغرافية والفلسفة والفلك وحساب التقوم . فشرح
اشعياء والمزامير وغيرها . وحسب لعيد الفصح مع ما في ذلك من عقد
ومشاكل . وعرف جغرافية فلسطين وتاريخها معرفة جيدة فتمكن من
ارشاد الحجاج الذين بدأوا منذ عهده يزورون الأماكن المقدسة .
وكان خطيباً حسن اللفظ اتق اللهجة فصيحاً بليغاً . ومن مواقفه الخطابية
المأثورة خطبته في مجمع نيقية . وذاع صيته فخطب عند قسطنطين بمكة سنة
وأعد لهذا الامبراطور خمسين نسخة من الكتاب المقدس بناء على طلبه .
« وكان يوسيبوس من المنتصرين لاوريجانيوس . وقد وافق آريوس
في أسلوبه دون نظرياته . وما يستدعي الاسف انه بعد ما وقع اعمال
المجمع النيقاوي واطأ خصوم هذا المجمع على مقاومة اصوله فشارك
الآريوسيين في مجامعهم وعدة بعضهم من انصار الآريوسية مع انك لا
تجد في تاريخه البيعي وكتابه الظهور الالهي الا اجهاراً صريحاً للاهوت
السيد المسيح » .

وتعددت مصنفات يوسيبوس لانه ظل يكتب حتى الثمانين . ومصنفاته

١ واللفظ لفظة بطريرك اغناطيوس برصوم في كتابه : الدور النفسية ، ج ١ ، ص ٤٥٩

تشكل محاولة جبارة لاحلال النصرانية المنزلة اللائقة بها وللدور على من استخف بها واطعن فيها امثال بورفيرىوس الفيلسوف . فالنصرانية في نظر يوسيبوس قد ر لها منذ الازل ان توث الأرض وما نشأ عليها من حضارة . وما تم السلم الرومانى في عهد اوغسطس الا ليهتد السبل للرسل في مجملهم التبشيري . وبورفيرىوس لم يضع ضد النصرانية تصانيفه الـ Historia والـ Philosophos الا ليفسح في المجال ليوسيبىوس ان يعد مؤلفه الكبير Historia Ecclesiastica وكذلك خرونقيون بورفيرىوس افصح المجال ايضاً لخرونقيون اوسع واكبر لتجديد النصرانية .

وقد بدأ يوسيبىوس خرونقيونه بسيرة ابراهيم ولم يتجاوزها الى الخليفة كما فعل يوليوس افريقانوس . وخص القسم الاول منه باهم الحوادث في تاريخ الشعوب بالغاً في ذلك الى سنة ٣٢٥ . ثم جعل من القسم الثاني جداول متوازية تشتمل على أهم الحوادث مرتبة حسب سني وقوعها . وما قصده من وراء ذلك الا ان يورد حوادث معينة وقعت في اماكن مختلفة في وقت واحد ثم يستعملها لتأييد نظريته في ان هذه الحوادث انما تلازمت في الزمن واختلفت في المكان لتتم بها غاية الخالق . وأهم ما حدث من هذا القبيل في نظره وفروع احصاء كوبرينىوس في عين الوقت الذي ولد فيه المسيح . وما اثلج صدر يوسيبىوس ان موسى سبق هوميروس وان حوادث التوراة جاءت اساساً سابقاً لغيرها من حوادث العالم القديم . ولا يزال خرونقيون يوسيبىوس مرجعاً حتى يومنا هذا لتعيين تواريخ قسم كبير من حوادث الرومان واليونان .

ووضع يوسيبىوس الـ Praeparatio ليظهر اباطيل الوثنية واضرارها وليبين تفوق التوحيد العبري عليها . ثم صنف الـ Demonstratio Evangelica ليورد التهمة التي وجهها اليهود الى النصارى في قولهم ان هؤلاء انما يهودوا ليخرجوا على اليهودية . فهو يرى في الـ Demonstratio ان شرائع موسى

انما اتولت لتكون حلقة وصل بين عهد البطارقة الاولين وعهد المسيح . ولم يكن التثليث في نظره وما يتبعه من خلاص سوى قسمة طبيعية لعقيدة اليهود ونبوات الانبياء مع ايضاح كامل لبعض ما جاء غامضاً ناقصاً في الفلسفة الافلاطونية .

وبعد ان ظهر يوسيبوس عقول قرائه من ادران الوثنية واثان قدم عهد النصرانية ومكانتها في تاريخ العالم وسحر منزلتها في منهاج الخلق ، وضع تاريخاً خاصاً للكنيسة Historia Ecclesiastica منذ ظهور السيد ليبين امانتها لتعاليمه وانها واسطة خلاص الانفس من الخطيئة . وما عذاب اليهود في نظره وتشردهم بعد ظهور السيد سوى برهان ساطع على تخلي الخالق عنهم . ولم تحبط مساعي الاباطرة مضطهدي النصرانية في نظر هذا المؤرخ الا بقوة الايمان وعظمته وما انتصار قسطنطين على مكسنطيوس اولاً وعلى ليكينيوس ثانياً سوى اقام ساطع باهر لوعود الله عز وجل^١ .

وفي هذا القرن اشتهر عدد من المؤرخين غير يوسيبوس فكان سقراط القسطنطيني الذي اكمل عمل يوسيبوس بـ Historia Ecclesiastica اخرى اوصل فيها تاريخ الكنيسة الى السنة ٤٣٩ . وكان ايضاً صوزومانيوس الغزي فالف كتاباً مماثلاً وقف فيه عند السنة ٤٣٩ . وثيودوريطس القورشي الذي سبقته اليه الاشارة والى تاريخه . وهو يعني بالمدة بين السنة ٣٢٥ والسنة ٤٢٩ .

بيروت : وكانت بيروت قد اصبحت منذ اوائل القرن الثالث مركزاً لتعميم القوانين ونشرها . وكانت تجارتها واسعة ودخلها كبيراً فاستهوت دعاويها القاطنة امام محاكمها اكبر المحامين واشهر الاساتذة . وبالطبع

Patrologia Graeca, CXLVI ; Laquer, R. Eusebius als Historiker seine Zeit ; Hagnes, N. H., Eusebius and the Christian Empire ; (Ann. de l'Inst. de Phil. et d'Hist. Orient. 11, 1934.)

استمتع ذلك نشوء مدرسة الحقوق وازدهارها فيها ونموغ طائفة من
 اساتذة القانون اشتهر منهم على تعاقب العصور اوليانوس الصوري (١٧٠ -
 ٢٢٨) وبابنيانوس (٢١٢ +) ثم غايوس ومرقيانوس وتريقونيوس في
 القرن الثالث ودومينيونوس في القرن الرابع وهو الذي راسله ليبانيوس
 فأوصاه ببعض طلاب انطاكية . ولحق في القرن الخامس اذكيوس وابنه
 لاونطيوس (٥٣٠ +) الذي تولى برايفاكثورة الشرق في عهد انطاسيوس .
 وبيليخوس وكيرلس صاحب كتاب « التعريفات » وباتريشوس الاستاذ
 الكبير . واستحق هؤلاء لقب « اساتذة العالم » وشهروا بيروت حتى رفعها
 الامبراطوران ثيودوسيوس الثاني والنتيانوس الثالث الى شرف الحواضر
 « متروبوليس » فأصبح اسقفها متروبوليتاً ولا يزال . وتراث عليها الالقب
 فأصبحت « ام العلوم » و « موطن العلماء » و « ظئر الشرائع » . وكانت
 لاسانذة يعينون في اول الامر بواقعة مجلس شيوخ المدينة . ثم اشترط
 اوليانوس الجاحد (٣٦٢) ان يكون التعيين بموجب صك يوقعه القائد
 المحلي ويوافق عليه مجلس شيوخ المدينة . ثم فرض ثيودوسيوس ان يعرض عليه
 قرار القائد والشيوخ قبل التنفيذ . وكانت السلطة منذ السنة ٤٢٥ تقوم
 بجميع نفقات الاسانذة . وتقاطر الطلاب الى هذه المدرسة من كل صوب .
 فحفل معهدا ببناء غزوة وعسقلان وانطاكية والرها وسيمساط وغيرها من
 مدن الشام وفلسطين . وأما غيرهم من مصر واسبانية وايطالية والبلقان وبر
 الاناضول . وكان لا بد هؤلاء الطلاب من دروس تمهيدية في اليونانية
 واللاتينية وفي الخطابة والنصاحة يتهاون بها لدرس القانون . فكانوا
 يحصلونها إما في مدينتهم او في بيروت نفسها بطرق خاصة . وكانت نظام
 المدرسة يحدد من الطلاب ، فلا يجيزهم الا بين الخامسة عشرة والخامسة
 والعشرين . ولم يستثن من هذا الا الطلاب العرب الذين كانوا يصلون
 متأخرين في ثقافتهم . وكان الطلاب في اول عهد الكلية من الطبقة الوسطى

في المجتمع لانصراف ابناء العائلات الكبيرة الى درس اللغة والخطابة . ثم تحول هؤلاء ايضاً الى درس الحقوق . فأبدى ليبيانوس اسفه لان العدد الغفير من ابناء الاعيان في انطاكية أصبحوا يجرون الخطابة . وبقيت اللاتينية لغة التعليم حتى اواخر القرن الرابع ، ثم حلت محلها اللغة اليونانية . وكان الأستاذ يفتح درسه بتلاوة بعض النصوص ثم يفسرها معلقاً عليها ثم يفتح في المجال للسؤال والجواب . وكانت مدة التدريس اربع سنوات ثم اضيف اليها سنة خامسة للتخصص^١ .

واشتهر في اواخر القرن الخامس واولئ القرن السادس شماس بيروت رومانوس المرقل وهو اول ناظم للقنادق . وأشهر ما نظم ورتل القنداق : « اليوم تلد العذراء الفائق الجوهر . فتقدم الارض المغارة للذي لا يُبدى منه . والملائكة يجدونه مع الرعاة . والمجوس يسرون اليه مع النجم . فانه ولد من اجلنا صبي جديد . هو الاله الذي قبل الدهور . » وقد أجاد لفظاً ومعنى واستعارة وتشبيهاً فأصبح « بيندار » الروم على سحر المصور ، وموضع اعجاب رجال الاختصاص في عصرنا هذا .

قبدوقية : ولمع في سماء آسية الصغرى في قبدوقية في القرن الرابع اتمار ثلاثة اكسبوا قبدوقية شهرة واسعة وعظيمة ليس بعدها عظيمة . والاشارة هنا الى غريغوريوس الثاولوغوس وباسيليوس الكبير وابنيه غريغوريوس النيساوي .

ولد غريغوريوس الثاولوغوس (اللاهوتي) في قرية اريثزوس بالقرب من نزيثوس في السنة ٣٢٨ وكان ابوه قد تنصر بتأثير زوجته توتية ثم ساقب على نزيثوس او نازيانزة . وقد تعرض غريغوريوس على المبادئ

١ راجع عمارة الاسناد فؤاد البستاني ، عن التعليم في لبنان ، في مجلة الندوة ، السنة الرابعة ، ص ١٦٣ - ١٦٨ ، ثم كتاب الاسناد كولين في تاريخ مدرسة بيروت : Collinet, P., Hist. Ecole de Droit de Beyrouth, Paris, 1925 .

الصالحه . وتلقى مبادئ علومه في قيصريه قبدوقية ثم في قيصريه فلسطين
فالاكندرية فأثينة . وفي أثينة اتعقدت اواصر الصداقه بينه وبين
باسيليوس الكبير . وتلقى المعمودية حوالى السنة ٣٦٠ . ثم أعرض عن
الدنيا ومال الى الفكر ، فترهب مع باسيليوس الكبير في البونط . وعاد
الى بلده فشرطه والده كاهناً لكنيسة نازيانزة في السنة ٣٦٢ . فأقام في
خدمتها حتى السنة ٣٧١ او ٣٧٢ فسامه باسيليوس الكبير اسقفاً على
ساسية اوزاسية . ولكنه لازم خدمة والده حتى وفاته في السنة ٣٧٤ .
وفي اوائل السنة ٣٧٩ استقدمه ارثوذكس القسطنطينية لمساعدتهم ضد
الاريوسية . فسار اليهم وجمعهم في دار رجل من اصدقائه جعلها كنيسة
صغيرة واسماها انطاسية . « وفيها ألقى خطبة الرثاة في الثالث الاقدس
ومنها تدفقت سيل الفصاحة على اسماع المؤمنين^١ . » فلما عددهم على حساب
الاريوسيين . وفي السنة ٣٨٠ أقر الامبراطور ثيودوسيوس الاول رئاسته
على القسطنطينية ، وأيد ذلك المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٨١ فرعاها
حتى السنة ٣٨٢ . وكان حساساً جداً فلم يوافق جو القسطنطينية مزاجه
فقال قوله المأثور : « ردوني الى الانفراد ! ردوني الى الله ! » فكان
له ذلك ، وعاد راجعاً الى نازيانزة حيث قضى فيها باقي عمره ، ونوفي في
السنة ٣٩١ . وأشهر مصنفاته خطبه في العنائد والاعياد والقديسين ، وتآبينه
وأشعاره اللاهوتية ، وقصيدته الطويلة في تاريخ حياته . واهتدى في دقائق
اللاهوت الى عبارات لطيفة موفقة . ونجحت في خطبه ومواعظه مقدرة
فائقة في التعبير والافئاضاع ، فلقب بالثاولوغوس (اللاهوتي) ، واحياناً
بالثاولوغوس الثالوثي ، لانه تكلم كثيراً في الثالوث وفي وحدانية جوهره
وطبيعته^٢ .

١ الدور النفيسة ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

٢ . Fleury, E., Saint Grégoire de Naziance et Son Temps, (Paris, 1930) .

واما باسيليوس الكبير فقد سبق عنه الحديث . ويجدر بنا هنا ان نضيف ان جدته لايه القديسة مقرينة تلمذت لغيرغوريوس العجائبي ، وان جده لامه حاز شرف الشهادة ، وان اخته الكبرى مقرينة توهبت ، وان والدته اميلية قضت اعوامها الاخيرة في العبادة ، وان اخويه بطرس وغيرغوريوس كانا في مصاف الاساقفة . وأشهر الاثنين غيرغوريوس . ويعرف بالنيسي . وقد فاق اخاه باسيليوس الكبير وصديق اخيه غيرغوريوس الناولوغوس في الدقة والتعمق . ولد في قيصرية قبدوقية حوالي السنة ٣٣٥ . وتأدب فيها وعلم الخطابة مدة من الزمن . ثم أثر الناولوغوس في نفسه فتسك . ثم سامه اخوه باسيليوس اسقفاً على نيسة سنة ٣٧١ . وعزله الآريوسيون سنة ٣٧٦ ، ولكنه عاد اليها بعد سنتين . واستترك في اعمال المجمع المسكوني الثاني ، فأحرز احتراماً عظيماً لتفوقه في جودة التفكير ووضوح التعبير . وصنف كثيراً . وأشهر مؤلفاته رده على انوميوس وابوليناريوس . وكانت وفاته في السنة ٣٩٤ في الاربع .

وتضلع جميع هؤلاء الاخبار الثلاثة من العلوم الكلاسيكية . واجتهدوا اجتهداً حالاً في اللاهوت . وتوافقوا فشكوا ما عرف فيما بعد بالذهب الاسكندري الجديد . استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل في العقيدة ولكنهم لم ينطرفوا في التأويل نظرف اساطين الاسكندرية ولم يتطخوا عن تقاليد الكنيسة الموروثة . وضافوا الى تصانيفهم الكثيرة في العقيدة مجموعات من الخطب والرسائل تشكل في حد ذاتها مواد اولية هامة لتفهم الفكر والثقافة في هذه الفترة موضوع هذا الفصل . ولم يتم بعدهم في قبدوقية من حافظ على هذه المكانة العالية التي اوصلها اليها في تاريخ الفكر هؤلاء الافاضل الامائل .

واختلف الآباء فيما بعد في التفاضل بين باسيليوس الكبير وجرغوريوس
الناولوغوس ويوحنا الذهبي الفم . ثم اتفقوا نحو السنة ١١٠٠ فأقرروا عيداً
تذكاريّاً للثلاثة معاً عرف بعيد الأتمار الثلاثة . ورتب يوحنا اسقف
افخاطية خدمة كنائسية خاصة لهذا العيد .

« هلموا نلتئم جميعاً ونكرم الثلاثة الكواكب العظيمة لللاهوت
المثلث الشمس التي انارت المسكونة بأشعة العقائد الالهية وأنهار الحكمة
الجارية بالعمل التي روت الخليفة كلها بسواقي معرفة الله باسيليوس العظيم
وجرجوريوس اللاهوتي ويوحنا الشهير الذهبي اللسان ونشدهم بالاناشيد
يا عاشقي مواعظهم فأنهم يتشفعون الى الثالث فينا دائماً » (٣٠) كانوا
الثاني) .

الرها : وروى برحذيشابا العربي اسقف حلوان في النصف الثاني من
القرن السادس اخذاً عن التقليد الشائع ان أدي البشير انشأ مدرسة في
الرها لتدريس العلوم الدينية^١ . وهي رواية ضعيفة نظراً لطريقة نقلها ولبعد
برحذيشابا عن عصر الرسل . واول من ورد ذكره من طلاب الرها
لوقيانس ثم يوسيبوس الرهاوي اسقف حمص (٣٥٩ +) . ولما احتل
الفرس نصيبين سنة ٣٦٣ في عهد يوفيانوس الامبراطور جلا عنها افرام
الكبير واساندة مدرستها وبعض الاشراف وساروا الى آمد فالرها .
وارتاح افرام الى السكنى في الرها فأقام فيها وزملاءه وانضموا الى
مدرستها فأطلق عليها اسم مدرسة الفرس نسبة الى طلابها والاساتذة
النازحين اليها . والقدس افرام السرياني هو نفسه الذي قال عنه الذهبي
الفم : « افرام كنارة الروح القدس ومخزن الفضائل معزي الخرابى ومرشد
الشبان وهادي الضالين كان على المرافقة كسيف ذي حدين » . واشهر ما

صنف ميامره الشعرية في الاسرار والبتولية والتوبة والايمان والكهنوت
والرهبانية . وقد نقل جانب وافر من هذه الميامر الى اليونانية وناظمها
لا يزال في قيد الحياة . اما وفاته فكانت في السنة ٣٧٩ .

الفن البيزنطي : ومشرقت الدولة بفنها ايضاً . وعلماء القرن العشرين
ينقضون ما ذهب اليه زملاؤهم في القرن التاسع عشر من ان الفن
الروماني كان قد طغى على الفن الهليني في الشرق في القرنين الاولين بعد
المسيح . ويثبت اينالوف في كتابه الاصول الهلينية للفن البيزنطي^١ ،
واستراجيكوفسكي في كتابه « الشرق او رومة »^٢ ان الشرق لا الغرب
هو الذي لعب الدور الرئيسي في انشاء الفن البيزنطي وان هذا الشرق
شمل ، بالإضافة الى آسية الصغرى وسورية ومصر ، بلاد فارس وأواسط
آسية . وبذهب استراجيكوفسكي الى ابعد من هذا فيجعل منزلة ايران في
التأثير على الفن البيزنطي كمنزلة بلاد اليونان الام في التأثير على الفن
الكلاسيكي^٣ . ويرى بعض رجال الاختصاص نظراً ملموساً في نظريات
استراجيكوفسكي ولكنهم لا ينكرون عليه ان الشرق لا الغرب قد لعب
الدور الرئيسي في تكوين خصائص الفن البيزنطي^٤ . والواقع الذي لا
العقر منه هو ان روائع الفن البيزنطي جاءت ثرة لامتزاج وتفاعل
موفق بين عوامل ثلاثة : الدين المسيحي والحضارة الهلينية والوضاع الشرق .
واسهر الآيات الفنية التي تعود الى هذه الحقبة من تاريخ الروم كنائس
قدس وبيت لحم والناصره وجميعها اقيمت في عهد قسطنطين الكبير . ومن

١ المؤلف المنشور ، بطريرك اغناطيوس انطون برصوم ، ص ١٩٦ - ٢٠٢ .
٢ Ainalov, D. V. Hellenistic Origin of Byzantine Art, (Petrograd, 1917).
٣ Strzygowski, J., Orient or Rome.
٤ Strzygowski, J., Origin of Christian Church Art.
٥ Diehl, G., Manuel d'art Byzantin, I, 16 - 21 .

أشهر ما انشئ في آخر القرن الخامس دير مار سمعان العمودي - قلعة
 سمعان - بين حلب وانطاكية^١. ونعود آثار قصر المشتى في شرقي الأردن
 إلى هذه الحقبة نفسها أيضاً. وقد اثبت العالم الاثري كارلوفان الالماني ان
 آثار كنيسة القديس ميناس في مصر تعود الى عهد الامبراطور ارقاذيوس^٢.
 وفي القسطنطينية أقام قسطنطين الكبير كنيسة الرسل وكنيسة القديسة
 ايرينة، كما شيد كنيسة الحكمة التي أعاد بناءها يوستنيانوس كما سنرى.
 ولا تزال اسوار ثيودوسيوس ماثلة لليوم بما فيها البواب الذهبى الرائع
 Porta Aurea الذي كان يلج منه الابطرة في المواكب الرسمية.

١ راجع ديل في كتابه المشار اليه انفاً، ولاسيا المخططات والصور، المجلد الاول،
 ص ٣٦ - ٣٧ و ٤٥ - ٤٧.

٢ Kaufmann, G. M., Die Menasstadt, (Leipzig, 1910.)

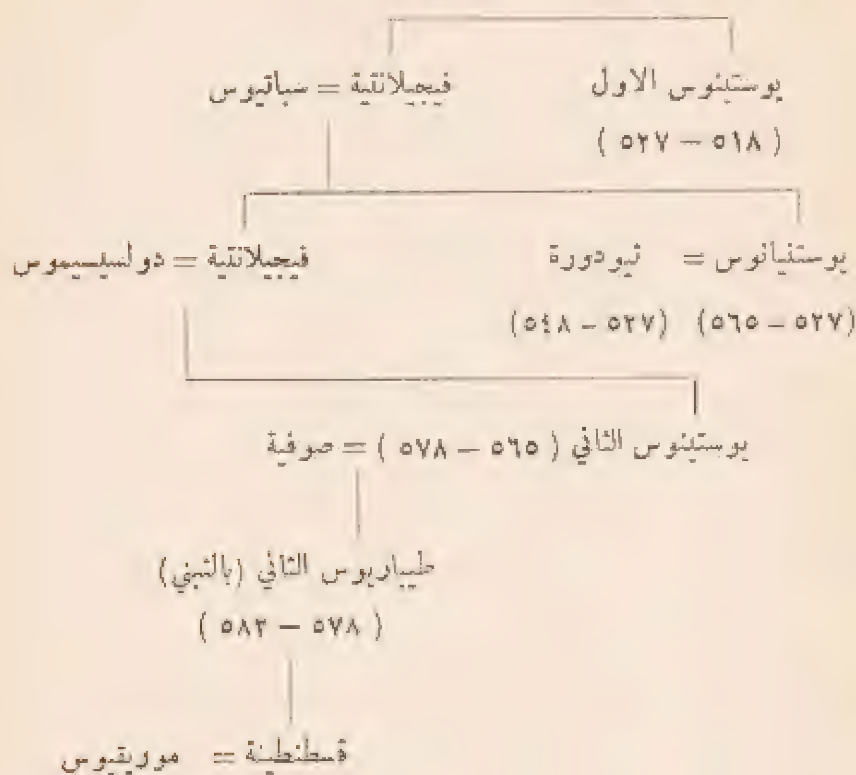
الباب الخامس كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادي عشر
يوستينوس ويوستينانوس
(٥١٨ - ٥٦٨)

اصل هذه الاسورة : وقد كان السائد حتى اواخر القرن الماضي ان هذه الاسرة تحدرت من أصل صقلي . والذي حمل على هذا الاعتقاد ما ورد من اسماء صقلية كدعي بها يوستينانوس والنسباؤه ، في ترجمة لهذا الامبراطور نسبت الى معلمه ثيوفيلوس . ولكن المؤرخ الانكليزي جيمس برايس اثبت في اواخر القرن الماضي ان هذه الترجمة هي من نتاج القرن السابع عشر وانها بالتالي لا تستحق عناية المؤرخ واعتماده . والذي يراه رجال الاختصاص اليوم ان يوستينوس ويوستينانوس تحدرتا من أصل ايليري او ألباني ، وان يوستينانوس ولد في احدى قرى مقدونية العليا في جوار

Bryce, J., *Life of Justinian by Theophylus*, Eng. Hist. Rev. 11, 1887, 657 - 684 .

اسكوب على حدود البانية . اما يريشيك فيرى انها من أصل روماني^١ .
وبما لا شك فيه انها تكلموا اللغة اللاتينية .



يوسطينوس الاول : (٥١٨ - ٥٢٧) وتوفي انسطاسيوس في التاسع
من تموز سنة ٥١٨ بدون عقيب . فتولى العرش بعده يوسطينوس أحد
قادة الحرس الامبراطوري^٢ بتدبير لا يزال غامضاً . وكانت يوسطينوس
هذا وضع الاحل ، مفسور الذكر ، جاء العاصمة مغامراً يمشي على القدمين
من مقدونية . الا انه كان جندياً بأسلاً فألحق بالحرس الامبراطوري .

Jireček, G., Geschichte der Serben, I, 36.

comes excubitorum.

١

٢

وظل يتقدم حتى أصبح قومن احدى فرق الحرس . على انه في الواقع لم يكن شيئاً غير جندي باسل . وقد رأى فيه المؤرخون المعاصرون له امياً لا يقرأ ولا يكتب ، منطفاً على السياسة واهلها ، جاهلاً علم اللاهوت . ويقولون انه لولا مساندة ابن اخته يوستينانوس له لئلا يجمه وضاع في مناهات الادارة والسياسة . وكان يوستينوس قد استقدم يوستينانوس اليه في حداته ، وعني بتثقيفه وتهذيبه ، فأصاب يوستينانوس شطراً وافرأ من العلم في مدارس العاصمة . فلما نبأ خاله عرش القسطنطينية كان يوستينانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلى بالنضج والأتزان .

وكان الاثنان كاثوليكين ارثوذكسين يقولان بقرارات المجامع المسكونية الاربعة فأنهما ما كان قد وقع من شقاق بين القسطنطينية ورومة من جراء اينوتيكون (٤٨٢) زينون ، وأقصيا اصحاب الطبيعة الواحدة عن المراكز الهامة ، وربما أنزلا بعضهم شيئاً من العذاب . وكانت هؤلاء كثيراً في ارمنية وسورية ولبان وفلسطين ومصر . فنقرت هذه الاقطار من سياسة الامرة الجديدة . وشعر يوستينانوس بهذا النفور ، وخشي سوء العاقبة في حقل السياستين الداخلية والخارجية في الشرق . فكتب رسالته الشهيرة الى البابا هورميرزاس في السنة ٥٢٠ مقترحاً استعمال اللطف مع اصحاب الطبيعة الواحدة . كي يتم الشفاء بدون تفتيح جروح جديدة .

يوستينوس وكالب : وكانت قد تسربت النصرانية الى بلاد اليمن بعد انتشار اليهودية فيها . وكان آخر ملوك حير ذو نواس يهودياً فيما يظهر . واشتدت المنافسة بين النصارى العرب واليهود العرب ، وانقلب عداء مريراً . وكان ذو نواس يري في النصرانية ما يذكره بالاحباش واحتلالهم . فأوقع بالنصارى في السنة ٥٢٣ مذبحه نجران

الشهيرة . ثم جمع من نجا منهم وخيرهم بين القتل واليهودية . فاختاروا القتل .
فخذ لهم اخذوه النار ذات الوقود . وجاء في الطبري^٢ ان دوس ذا
تعلبان أفلت ورجا الى امبراطور الروم يستنصره على ذي نواس ، وان
يوستينوس قال له : « نأت بلادك عنا فلا تقدر ان نتناولها بالجنود ولكني
ساكتب الى نجاشي الحبشة وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك . » وما يروى
ايضاً ان النجاشي انتصر على ذي نواس مرتين متواليتين في السنة ٥٢٣ وفي
السنة ٥٢٥ . وهنا رب معترض يقول : كيف اضهد يوستينوس اصحاب
الطبيعة الواحدة في بلاده ثم تعاون مع النجاشي كالب الذي كان يقول
هو ايضاً بالطبيعة الواحدة ؟ والجواب ان صاحب القسطنطينية كان يعتبر
نفسه حامياً دمار النصرانية في كل المسكونة .

وتحدث الاحباش طويلاً بهذا التعاون بين يوستينوس وكالب وتناقلوا
الحبر جيلاً بعد جيل ودونوه في القرن الرابع عشر في تاريخهم القومي
الكبير : « كبرى نجشت » ، ومعناه فخر الملوك . فقالوا ان امرتهم المالكة
تحدثت من سليمان وبلفيس وان دولتهم أشرف من دولة الروم وانه كان
ليوستينوس وكالب ان يلتقيا في اوروشليم ليقبلا الارض باجمعها^٣ .

يوستينانوس وثيودورة : وتحفظ لنا فسيفساء سان فيتالي في رابينة
فصحت وجه يوستينانوس كما رسمها رسام في السنة ٥٤٧ . ويقول معاصروه
انه كان غيل الى البساطة في العيش ، والتودد في معاملة الناس ، وانه
كان يواصل العمل ليل نهار حتى لقيه أحد رجال بلاطه بـ « الامبراطور
الساهر » اذ كان يحرس ان يعلم كل شيء ، وان يدقق في كل شيء ، وان

١ سورة البروج : الآية الرابعة .

٢ ج ١ ص ٩٢٧ - ٩٢٨ .

٣ Vasiliev, A. A., Justin I and Abyssinia, (Byzantinische Zeitschrift, XXXII, 3, 1933, 67-77.)

يقرّ كل شيء. والواقع ان يوستنيانوس كان شديد الإعجاب بمواجهه ومؤهلاته لا يسمح لاحد من رجاله ان يعارضه في أمر ، ولا يتق بلحد منهم ، حتى ولا بقائده الامين بليسيديوس العظيم . وعلى الرغم من نظائره بالعزم والحزم والثبات فانه كان في فراوة نفسه متردداً شديد التأثر بأراء الحاشية ولاسيا زوجته ثيودورة^١.

ويقول بروكوبيوس المؤرخ في كتابه عن اسرار هذه الحقبة ان ثيودورة هذه تطلعت منذ حداثها بفساد المحيط حولها . فلما نشأت ابنة لمروى الدينية في مسارج القسطنطينية وشبت على شيء من الاباحية . وما طال الامر حتى احتقرها سكان العاصمة ، فكانوا اذا التقوها في شوارع المدينة ابتعدوا عنها خوفاً من ملامستها والتلوث بها^٢. ويقول شارل ديل الافرنسي ان ثيودورة شغلت العاصمة فألقتها لا بل فتنها ثم جرت الحزى عليها^٣. ولكن يجب الا يغيب عن البال ان بروكوبيوس لما كتب ما كتب ليحطم به يوستنيانوس وزوجته . وهو والحالة هذه راى مغرض لا تقبل شهادته بدون تبصر وروية وجرح وتعديل . ويجب الا ننسى ان ثيودورة ترصت بعد طليشها وذهبت الى افرقية فبقيت فيها بضع سنوات عادت بعدها الى القسطنطينية منعقدة متزوجة مهتمة بالقضايا العامة ولاسيا الدينية منها ، منهسكة بغزل الصوف في ساعات الفراغ ، وان يوستنيانوس لم يعرفها قبل دخولها في هذا الدور من حياتها . وأعجب يوستنيانوس بجيئها فنقلها الى القصر وجعل منها بطريرقة^٤ ثم تزوج منها . وشعرت ثيودورة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها ، فتعاونت وزوجها في سبيل العرش والدولة ، وأخرجته في كثير من الاحيان من مأزق حرجة كما سير بنا .

Diehl, Ch., Justinian, Cambridge Med. Hist. II, 2.

Historia Arcana, 9, 25.

Byzantine Portraits, 54 ; Théodora.

سياسة يوستينيانوس الداخلية : وجوبه يوستينيانوس في اول هذه
 بثورة داخلية كادت تدك عرشه دكاً . وهي التي عرفت بثورة النصر
 « نيكاء » باليونانية . ولا بأس في تفصيل نبأ هذه الثورة من التوقف والرجوع
 قليلاً الى الوراء ، ذلك انه كان يقوم في قلب العاصمة ملعب فسيح
 لسباق الخيل يدعى Hippodrome . وارتاحت نفوس سكان العاصمة الى
 سباق الخيل في الميودروم ونشيطوا لمراقبة هذه السباقات وتحمسوا لها .
 وكان على سائقي عربات السباق ان يتزبوا بواحد من اربعة الوان إما
 الاخضر او الازرق او الابيض او الاحمر . فانقسم النظارة من سكان
 العاصمة الى احزاب رياضية اربعة : الحضر والزرقي والبيضا والحمر .
 وانتظمت هذه الاحزاب ، وتكتل افرادها وتكاتفوا ، فانشأوا لكل
 منها صندوقاً خاصاً لتشجيع السائقين وشراء الجياد السبابة والعناية بها .
 ولا نعلم بالضبط كيف وقع الاختيار على هذه الالوان التي قسمت بها
 هذه الاحزاب ، ولكننا نعلم انها قديمة جداً وان رومة الجديدة ورثتها
 عن رومة القديمة . ويرى بعض رجال الاختصاص انها ربما اشارت في
 الاصل الى العناصر الاربعة : الارض والماء والهواء والنار ، الارض
 الخضراء ، والماء الازرق ، والهواء الابيض ، والنار الحمراء . ثم نتج عن هذا
 التضامن في حقل الرياضة تضامن في السياسة والاجتماع . وانضم البيضا
 الى الحضر والحمر الى الزرق فأصبح في العاصمة حزبان سياسيان اجتماعيان ،
 حزب الحضر وحزب الزرق . وأيد الزرق الارثوذكسية فأيد الحضر
 القول بالطبيعة الواحدة . وكان قد سبق في عهد النسطاسيوس ان حل
 بالزرق اضطهاد شديد لان هذا الامبراطور كانت ميل الى القول بالطبيعة

الواحدة فخرج الزرق الى الهيودروم ونادوا بستوط انسطاسيوس . وكان
 يتم ذلك لولا اثرات الامبراطور واستعطافه الرأي العام . فلما رقي
 يوستينوس ويوستينيانوس العرش دب الى عروق الزرق النشاط ولكن
 ثيودورة عطلت على الحضر ، فانقسم البلاط نفسه الى ازرق واخضر^١ .
 ويجوز القول ايضاً ان الزرق كانوا في الغالب من طبقات الشعب العليا ،
 وان الحضر جاؤوا من الطبقات السفلى بحيث أصبح الصراع بينهما في بعض
 الاحيان صراعاً طبقياً^٢ .

وقد تعددت اسباب ثورة النصر التي نشبت في السنة ٥٣٢ ، فبعضها
 كان دينياً عقائدياً نشأ عن اضطهاد من قال بالطبيعة الواحدة . وبعضها
 كان مرده الى تنافس الاسر على العرش وحرمان اقارب انسطاسيوس
 من الملك . وبعض هذه الاسباب كان عمومياً وهو الاقوى . وتفصيل الامر
 ان يوستينيانوس اعتمد في اول عهده على تريبونيانوس في القضاء وعلى
 يوحنا القبطوني في الادارة . وطمع الاثنان وتجاوزا الحد في ابتزاز المال
 وفي القسوة . فهب الزرق والحضر معاً وهرعوا جميعاً الى الهيودروم ثم
 انطلقوا منه بحربون وبحرقون . وسادت كلمة النصر على افواههم « نيكاه »
 فسيتتجسسا حركتهم هذه ، وفاوضهم يوستينيانوس فلم يرضوا
 ونادوا باحد انبياء انسطاسيوس امبراطوراً . فخشي يوستينيانوس العاقبة
 وجمع اخصاءه وناوهم في الفرار من العاصمة . وكادوا يجمعون على ذلك
 ولكن ثيودورة انتصبت بينهم وقالت كلمتها التاريخية : « يستحيل على
 امرئ يحمي هذا العالم ألا يموت ولكن من يمارس السلطة لا يطبق
 النفي . وان تشأ ايها الامبراطور ان تنقذ نفسك فلن نجد صعوبة والبحر

^١ Uspensky, *Th., Hist. of Byz. Emp.*, I, 506.

^٢ Manojlović, M., *le Peuple de Constantinople, (Byzantion, 1936)*, 617-716.

قريب ، والمراكب مجهزة ، والمال موفور . ولكن تربث قليلاً وسل نفسك : ألن تقدم بعد قرارك ووصولك الى ملجأ امين فتود لو كنت آثرت الموت على الامان ؟ أما انا فأرى ان الأرجوان لا بأس به كفنّاً^١ . فانتعش يوستينانوس وأمر بليساربيوس أن يخضع الثايرين بالقوة بعد ان مضت على تورثهم سنة ايام . فأحاط بهم بليساربيوس بجنوده ولزمهم حتى أكرهمهم على اللجوء الى الهيودروم . ثم قتلهم قتلًا فقتل ثلاثين او اربعين الفاً بينهم انساب انسطاسيوس وثبتت هبة السلطة^٢ .

وكان قد ظهر في آسية الصغرى ومصر وغيرها من اجزاء الامبراطورية عدد من أصحاب العقارات الكبيرة الذين استغلوا الظروف السياسية والادارية ففرضوا ملكيتهم فرضاً ، واغتصبوا املاك الدولة ، وعبثوا بالسلطة المركزية فاحاطوا انفسهم بالحراس ، وجروا وراءهم الجماهير ، وسدوا اقواف الولاة بالذهب^٣ . وأشهر من اشتهر من هؤلاء في مصر اسرة الايبون . فكان الواحد منهم يملك القرية بعد القرية ، ويغرض ضرائبه الخاصة ويحبسها على يد جبايته ويعيش عبثة الملوك^٤ . واتسعت كذلك املاك الاديرة والكنائس ونفع اصحابها بسلطة واسعة .

ورأت الحكومة في هذا كله تحدياً لا مبرر له فقاومتها مقاومة طويلة الامد ، تذرعت في اثناها بشئ الوسائل ، كانت تتدخل في حق الارث احياناً ، او ان تكره احياناً اخرى بعض الكبار على وقف املاكهم على الامبراطور ، او ان تصدر بعض الاملاك بداعي عدم الدليل على الملكية ، او ان تتهم ديراً من الاديار بالزندقة فتحوّل ارضاه الى الدولة . ولكن برغم

De bello persico, I, 24, 35-37 ; éd. Haury, I, 130 ; éd. Dewing, I, 230-233 ١

Yastiev, A. A., Byz. Emp., 156-157 ٢

Novelle, 30, (44), 5, éd. Zacharia von Lingenthal, I, 268. ٣

Bell, H., Byz. Servile State in Eg., Journal of Eg. Arch. IV, 101-102. ٤

هذا كله لم يتمكن يوستينانوس من القضاء على هذه الطبقة .
ولم يوسـتـينانوس عيوب الادارة ومواطن الخلل فيها كبيع الوظائف
وتبديد الاموال والسرقة والبلص . وعلم حق العلم ان هذه النقائص
تؤدي حتماً الى الفقر والحروب والى اثرة الفتن والمشاكل . ورغب كل
الرغبة في ازالة الضرر واصلاح الحال . وشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه .
وكان يقول بالحكم المطلق . فرأى ان افضل الوسائل لمداواة الحال هي
السعي لتقوية الحكومة المركزية وانتداب رجال اكفاء للقيام بمهام الحكم .
وعني بادهى ذي بدء بالبيئة الدولة فذكر بنقعات الحرب وطلب الى
الرعايا ان يؤدوا ما وجب دفعه بانخلاص وعلى الوجه الاكمل . وأمر
الموظفين ان يعاملوا الرعايا بعطف ابوي وان يرفعوا عنهم الظلم ويمتنعوا
من الرشوة ويعملوا^١ . ثم عاد فذكر الموظفين بوجوب السعي لتغذية
الخزينة^٢ . واجتهد يوستينانوس اجتهداً حثيثاً في سبيل الاصلاح على اساس
هاتين القاعدتين : امانة الموظف واخلاص المكلف . ولكنه رأى بعد وقت
ان ذلك لم يكف لتغذية الخزينة قليلاً الى انقاص النفقات بانقاص الجيش
وابتناع رضى الخصم على الحدود . ولم يفلح الى ان مثل هذه الحطة
يؤدي الى الاضطراب في الداخل وضعف الهيبة في الخارج فضلاً عن نقص
الموارد وازدياد النفقات .

وبما زاد في الطين بلة انتشار الاوبئة في عهده وحصول الزلازل .
واسهر الاوبئة طاعون السنة ٥٤٢ . فانه ظهر في مصر وانتقل الى سورية
ولبنان فالقسطنطينية فبر الاناضول فما بين النهرين وفارس ثم عبر البحر
الى صقلية وإيطاليا . ودام انتشاره في العاصمة أربعة اشهر . وتزايد فتكه

Novella, 8, (16), 8, 10 ; *éd. von Lingenthal*, I, 102, 104.

١

Novella, 28, (31), 5 ; *von Lingenthal*, I, 197.

٢

فهجرت السكان المدن والقرى ووقف الحرت والزروع وعمّ الجوع فاضطربت الدولة بأسرها^١.

وتعددت الزلازل. وأشهرها زلزال السنة ٥٥١ وفيها اهتز الساحل اللبناني من أرواد حتى صور وعمّ الخراب. وأصاب بيروت السهم الأوفر، وقيل إن البحر فيها ارتد ميلاً ثم عاد بطفيان هائل فأغرق سفناً عديدة والوف الناس. ويقول أغاثيوس المؤرخ « إن بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة ونقلت ظل جمالها ودكت أبنيتها الشاحنة البديعة فتقوضت ولم يبق منها إلا ردم وخراب. وهلك تحت انقاضها جم غفير من الأهلين والأجانب. واختطف الموت نخبة الشبان الأشراف الذين كانوا قد قدموا بيروت لدرس الحقوق الرومانية في مدرستها الشهيرة التي كانت فخراً لها ونجاة على مفرقها تباهي بها أخواتها من المدن العظمى^٢. »

واتخذ يوستنيانوس الفيلسوف ما بين السنة ٥٢٥ والسنة ٥٣٦ طائفة من الإجراءات لتعزيز السلطة المحلية مع تثبيت نفوذ السلطة المركزية. وكان قسطنطين الكبير كما سبق أن أشرنا، قد جزأ الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر وفصل السلطة الإدارية في الولايات عن السلطة العسكرية ليأمن شر التمرد والعصيان. ولكن يوستنيانوس أراد أن يسيطر الأمور ليسهل عمل الإدارة فقلل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد في رواتبهم

^١ Zinsser, H., Rats, Lice, and History, 144-149.

^٢ Patrologia Graeca, ed. Migne, 88: 1359.

وعلى أثر هذه الزلزلة انتقل الأساقفة إلى صيدا ريثما يتجدد بناء بيروت ثم عادوا إليها بعد سنين قليلة. ولكن نأراً شبت بها في السنة ٥٦٠ فالتهمت مآهدها وعدداً كبيراً من دور السكن فيها.

ووضع السلطين العسكرية والادارية في يد واحدة^١ . وأنعم باللقب « يوستيناني » على الحكام فزادهم فخراً ووقاراً .

وعني يوستينانوس عناية خاصة بإدارة العاصمة فعين عدداً من الحكام « برايتوريوس الشعب » في السنة ٥٣٥ للنظر في السرقات والاعتصالات وحوادث الزنى . وفي السنة ٥٣٩ أنشأ وظيفة الكوايسيتور *Kuaesitor* لمراقبة الذين كانوا يقدون على العاصمة من أبناء الولايات بلا موجب فيعقدون أحياناً مشاكلاً بتصرفهم . ونزولاً عند رغبة ثيودورة أعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المقامرين والمجذفين وعلى أولئك السفلة الذين لم ينتظروا جدول الليل ليستروا بها معاصيهم . واهتمت ثيودورة لأمر الزانيات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتألمات منهن اسمته دير التوبة . ومنع يوستينانوس سباق الخيل في الهييودروم وأمر بمراقبة الأحزاب الرياضية السياسية مراقبة شديدة^٢ .

وحضّ يوستينانوس الحكام والزعماء ان يحافظوا على الطرقات والجسور واقنية المياه والاسوار وامتدّهم بالمال . فنشطوا لتحقيق هذا الواجب وأنشأوا طرقات جديدة وشيدوا لها الجسور وحفروا الآبار والاحواض على جوانبها ليؤمنوا المياه للقوافل وأبناء السبيل . وجروا المياه الى المدن وبنوا الحمامات . وعملاً برغبة يوستينانوس قامت مدن جديدة في بعض الأنحاء تحمل لقب يوستنيانة اعترافاً بفضل الامبراطور . وبذل يوستينانوس بذلاً سخياً لاغاثة انطاكية بعد الكارثة التي حلت بها

١ ألقى خليفة النواب *Vicarii* ورفع حكام بعض الولايات ومنها سورية وارمينية الى رتبة برايتوريوس *praetorius*

٢ *Diehl. Ch., Justinian's Govt. in the East, Cambridge Med. Hist., II, 39.*

في السنة ٥٤٠ . فجدد الأبنية والمجاري وأنشأ الحمامات ودور اللهو والساحات العامة . ولم يقصر في البذل عندما حلت الكارثة في السنة ٥٥١ ببيروت وغيرها من مدن لبنان وسورية . وفي السنة ٥٣٢ بدأ بتشييد كنيسة الحكمة الإلهية في التسطنطية بأشراف أسيدور الملطي وأنثيسوس التولي . واستمر العمل فيها خمس سنوات حتى تم بناؤها في السنة ٥٣٧ . فجاءت آية من بدائع الآيات أنحف بها يوستنيانوس عالم الفن . وهي ما زالت قائمة راسخة موطدة بارزة جريئة واضحة تينة . وأنشأ في السنة ٥٣٨ القصر المقدس بمدخله الفخم وقاعة عرشه العظيمة Consistorium التي بهرت العيون بالوان معادنها الثمينة ودقائق فنها الخالص . وعينت ثيودورة بكنيسة الرسل وبعدها كبير من المستشفيات للمرضى والآنزال للمسافرين . ولا تزال احواض بوه بتان سراي « القصر العائر » وبيك بريدرك « الف عمود وعمود » تنطق بالعمل الجبار والجهود المتواصلة التي بذلها يوستنيانوس لتوفير المياه على العاصمة .

يوستنيانوس والاقتصاد : وأراد يوستنيانوس ان يحرر تجار الامبراطورية ورجال الصناعة فيها من تحكم الفرس في مقدراتهم . فانه لم يكن بإمكان الروم في القرن السادس ان يتناعوا مباشرة من الصين والهند بعض المواد اللازمة للبخ والتعظيم والتعظيم ، كالحرير والحجارة الكريمة والاطياب والافاويه . ذلك ان هذه المواد كان محتوما لها ان تمر عبر فارس اذ كان الفرس يتناعونها في اسواق بخارى وعند تخوم الصين وفي جزيرة سيلان ثم ينقلونها الى حدود الروم عند القرات ولا يرضون بيعها الا باغلى الاسعار او لا يسمحون بتصديرها الا بكميات محددة . فسعى يوستنيانوس للوصول الى بخارى عن طريق البحر الاسود فزيقه فبحر قزوين متحاشياً الدخول في حدود فارس . وكذلك سعى لتشجيع الروس الجنوبيين على الاتصال بتخوم الصين للغاية نفسها . ثم دفع تجار بيروت

وصيدا والاسكندرية الى استيراد هذه البضائع عن طريق البحر الاحمر
 ومرافئ حير الجنوبية . وجعل من مرفأ آيلة بالقرب من العقبة ومرفأ قلزم
 بالقرب من السويس قاعدتين تجاريتين ، كما انشأ على جزيرة نيران في
 خليج العقبة جمركا امبراطوريا لهذه الغاية نفسها . وكانت مراكب
 الاحباش وعرب الجنوب تجوب بحر العرب والمحيط الهندي حتى سيلان .
 فاتصل يوستينيانوس في السنة ٥٣٠ او ٥٣١ بالنجاشي «ملك ملوك» الاحباش
 وحسن له نقل سلع الهند والصين من سيلان الى مرافئ البحر الاحمر .
 فافتتح النجاشي بالامر وحض عليه تجاره . ولكن الفرس كانوا في مرافئ
 الهند اوسع نفوذاً من الاحباش فقاوموا تجار الاحباش مقاومة شديدة .
 وفي السنة ٥٣٢ جاء السلم بين الفرس والروم فعادت الامور الى مجاريها
 الطبيعية وعاد الروم الى الاستيراد عن طريق فارس . غير ان العلاقات
 عادت فتأزمت في السنة ٥٤٠ كما سنرى فلجأ يوستينيانوس الى تحديد سعر
 الحرير واكره التجار على قبول تعرفه حكومية . فشل بذلك نشاط
 التاجر الفرد ولحق بالتجار اللبنانيين خسارة فادحة كادت تنفي على صناعاتهم .
 ثم افلت سرّ تربية دود الحرير من الصين ، نقله قيسان مسيحيات بين
 السنة ٥٥٢ والسنة ٥٥٤ الى الروم . فتلقاه اللبنانيون بالتهليل وأقبلوا على
 تربية دود الحرير في لبنان . وفعل مثلهم يونان المورة وبعض الجزر .
 فأصبح لدى الروم انتاج محلي من الحرير استعاضوا به مما كانت قد لحق
 بهم من خسارة وباتوا بآمن من تحكم الفرس في مقدراتهم . واستطاعوا
 هم بدورهم ان يحافظوا على سرّ تربية دود الحرير زمناً طويلاً . واتسع
 نطاق عمل اللبنانيين بنوع خاص فراجت بضائعهم الحريرية في جميع اسواق
 البحر المتوسط وفي فرنسا والمانيّة وبريطانية . ونشطوا في تصديرها الى

الشرق الاقصى فكثرو طلابها في الصين نفسها . وعظمت تجارة القسطنطينية فتقاطرت اليها المراكب من كل حذب وصوب من مرافئ المتوسط والبحر الاسود لتحمل اليها المواد الخام على انواعها وتنقل منها انتاجها الصناعي . واصبحت بفضل هذه التجارة واهتمامها بالفضة المركز الاعظم للتداول المالية وللصرافة ايضاً . والاسكندرية بفضل موقعها وعظم مرفأها ظلت تنعم بدخل موفور . وكان اهم ما تتجر به حبوب مصر ومعادن افريقية وفنائس الشرق الاقصى . وقامت فيها بجالية لبنانية هامة تستغل سوقها العظيمة .

وسرّ يوستنيانوس بازدهار التجارة وغنا نفسه انه استطاع بسعيه وحسن تدييره ان يقدم «زهرة اخرى» الى الدولة التي احب والتي وكل الله اليه امرها . وليس في كلامه هذا ما لا يتفق والحقيقة فأعمال الحفر والتنقيب في السبعين السنة الاخيرة قد دلت على هذا الازدهار دلالة واضحة .

يوستنيانوس والقضاء : واحب يوستنيانوس النظام . ورغب رغبة اكيدة صادقة في تأمين «العباد الذين وكل الله امورهم اليه» وفي نشر لواء العدل بينهم . وثأقت نفسه الى المجد الروماني السابق . واراد ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية سابق وحدتها . وعلم العلم اليقين ان هذا يتطلب اموالاً لا حصر لها . فرأى بنظره الاداري الثاقب ان افضل الوسائل لجمع المال من الرعايا هو حمايتهم من ظلم الحكام وتصفهم . وهكذا عني منذ بداية عهده بجمع القوانين المتراكمة وتنسيقها وتعديلها وفوض امرها الى مدبره الكبير تريبونيانوس . فدعا تريبونيانوس هذا لجنة من كبار

رجال القانون في الامبراطورية وذلك في ١٣ شباط سنة ٥٢٨ ووكّل اليهم العمل . وكان اهم هؤلاء بطبيعة الحال اساتذة مدرسة بيروت الشهيرة : اناطوليوس ابن لاونطيوس وتلا لاوس واسطفانوس ويوليانوس ودوروثاوس واذوكسيوس . وتمّ الجمع والتنسيق والحذف وما الى ذلك على يد هذه اللجنة . فظهرت مجموعة القوانين الـ Code في السابع من نيسان سنة ٥٢٩ . وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ٥٣٠ عيّنت لجنة ثانية باستخلاص قوانين الاحوال الشخصية Pandectae وكان ألمع اعضاء هذه اللجنة واكثرهم نشاطاً الاستاذ البيروني اذوكسيوس . فتمّ العمل في ١٥ كانون الاول سنة ٥٣٣ وظهر الديجستـ Digesta الى حيز الوجود . ووضعت هذه اللجنة كتاب الانظمة Institutes لتسهيل درس الحقوق فظهر في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها ٥٣٣ . وفي السنة ٥٣٤ ظهرت مجموعة القوانين بحلة جديدة وهي المجموعة التي لا يزال يتداولها رجال القانون حتى يومنا هذا . فأما مجموعة السنة ٥٢٩ فلم يبقَ منها اي اثر^١ .

يوستنيانوس والكنيسة : وكان يوستنيانوس يرى ان واجبه يقضي بالمحافظة على حرمة الكنيسة والدفاع عنها ضد المعتدين . وكان يقول ان انتظام الكنيسة هو دعامة الملك . وكان يرى في نفسه رئيساً للدولة وللكنيسة في آن واحد فيتدخل في المناظرات والمباحثات اللاهوتية ويبدى رأيه فيها ويقطع الاسافة ويعين غيرهم في مناصبهم ويدعو الى الجامع ويدير اعمالها ويوافق على قراراتها او يعدلها او يلغها . ومن هنا هذه الفصول

^١ وام اخبار هذه المؤلفات ورد في مقدماتها فلنراجع في محلاتها . راجع ايضاً : Roby, H. J., *Roman Law, Cam. Med. Hist.*, II, 53-108; Vasiliev, A. A., *Byz. Empire*, 142-147; *Justinian's Digest, Studi Bizantinii e Neoellenici*, 1939, 711-724.

في مجموعة قوانينه الكبرى وفي قوانينه المستجدة في نظام الاكليروس وفي ادارة الاديرة والاقواف وغير ذلك بما كان يلحق بشؤون الكنيسة .

وكان يوستينانوس في مقابل هذا ابدأ مستعداً للدفاع عن الكنيسة ورفع الضيم والاذى عنها تأييداً لها بالمال والنفوذ كما تقضي على الهرطقة في صفوفها . وكان ايضاً يبذل بسخاء لتشييد الكنائس والاديرة والمقامات في طول الامبراطورية وعرضها .

وكان يوستينانوس ارثوذكسي العقيدة كما سبق ان اشرنا فأصدر في السنة ٥٢٧ وفي السنة ٥٢٨ قوانين صارمة ضد الهرطقة . فأبعد الهرطقة عن الوظائف والمهن الحرة ومنع اجتماعاتهم واغلق كنائسهم . ثم حرمهم حقوقهم المدنية قائلاً : يكفي هؤلاء ان يؤذن لهم بالعيش . واضطهد الوثنيين وحملهم على التنصر جماعات جماعات . ورأى ضرورياً ان يقتضي على عقائدهم وفلسفاتهم فأمر في السنة ٥٢٩ باقفال جامعة آثينة . ودثر هياكل ايسيس وعمون في مصر . ولم يكن اقل شدة في موقفه عن اليهود . فنشبت ثورة السامرة في السنة ٥٢٩ وجرت عليهم ضيقاً وخوفاً فوق ما كانوا يكابدون . ولم ينبج من الاضطهاد سوى اصحاب الطبيعة الواحدة لانهم كانوا اقوى الهرطقة واكثرهم عدداً . فرباهتهم في مصر كانوا يؤلفون جيشاً متواصلاً مستعداً لتنفيذ اوامر بطريركهم واعيانهم . وكانوا في سورية وفلسطين ولبنان والرها وارمينية لا يزالون يتربعون في اعلى المراكز ويتنعون بعطف وتأيد في قلب العاصمة نفسها .

وكان يوستينانوس شديد الايمان بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . فما ان تبوأ خاله عرش الامبراطورية حتى عمد الى ازالة الانشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومة . على انه لبث يواجه مشكلة اخرى . ذلك ان ولاياته الشرقية كانت تشمل على عدد كبير من القائلين بالطبيعة الواحدة . فوجد نفسه بين شرين : شر الابتعاد عن رومة وعن الكنيسة

الارثوذكسية ، وشرّ انفصال الولايات الشرقية عنه او شرّ الفلاقل فيها واستعداد اهله لمناوئته في كل فرصة تنتهز . فأحب بجلء الاخلاص ان يضع حلاً وسطاً يرضي به اصحاب الطبيعة الواحدة ولا يجيد به عن ارثوذكسيته . وهكذا نراه في السنة ٥٢٩ يلغي قرار النفي عن بعض الرهبان من اصحاب الطبيعة الواحدة . ونراه يستقدم الى القسطنطينية سويروس بطريرك انطاكية المقطوع عن وظيفته ليتداول معه في طريقة الوصول الى حل وسط . ونراه كذلك يطلق لاصحاب الطبيعة الواحدة حرية الوعظ والارشاد . ولما توفي ايسفانيوس بطريرك القسطنطينية في السنة ٥٣٥ اقنعت ثيودورة زوجها الامبراطور باقامة انثيموس متروبوليت طرابزون وصديق سويروس بطريركاً في العاصمة . وكان انثيموس يقول بالطبيعة الواحدة سرّاً . ولكن ما لبث ان قدم العاصمة البابا اغابيتوس في السنة ٥٣٦ فلم يما في الزوايا من خبايا . فدعا اساقفة القسطنطينية ومقدمي الكهنة فيها الى مجمع محلي برئاسة قطع فيه انثيموس ومن شاركه رأيه . ثم انتخب الاكايروس والامبراطور والشعب ميناس بطريركاً على القسطنطينية . وفي هذه الآونة وصل الى العاصمة رهبان من فلسطين وسورية ولبنان يشكوا سويروس وغيره من اصحاب الطبيعة الواحدة . ورفعوا بذلك لوائح الى يوستينانوس والبابا . على ان البابا اغابيتوس سرعان ما توفي في القسطنطينية . ومع ذلك فقد انعقد مجمع برئاسة البطريرك ميناس وعضوية اساقفة القسطنطينية والاساقفة الذين كانوا صحبة البابا اغابيتوس ووكلاء البطارقة الشرقيين المقيمين في العاصمة وشجبوا الهرطقة شجباً .

وبعد وفاة البابا اغابيتوس انبرى في رومة ايوديا كون اسمه سيلباريوس ، وطمع في منصب الباباوية فرشا الملك ثاوداتوس . فأكره ثاوداتوس المجمع على قبول سيلباريوس مهدداً كل معارض بالقتل . وكتبت ثيودورة الى هذا

البابا ان يساعد انثيموس على ميناس فرفض . فانفقت ثيودورة مع فيجيليوس Vigilius وكيل البابا في القسطنطينية ووعده بالكرسي البابوي وزودته بتجارير الى بليساوريوس القائد شرط ان يظمن فيجيليوس بالجمع الرابع ويساعد سويروس وانثيموس على ميناس . فقبل ذلك وسافر الى رومة . فخلع بليساوريوس المنية والامموفوريون عن البابا سيلباوريوس وألبس ثوب الرهبنة ونفاه . واقام فيجيليوس محله بابا على رومة . فثبت فيجيليوس المعتقد بالطبيعة الواحدة وفند قرارات مجمع خلقيدونية ورسالة لاوون الكبير وحرم كل من يقول ان في المسيح المخلص طبيعتين وكل من يقول انه صلب من حيث هو انسان ولا يعترف ان ابن الله هو نفسه الذي صلب . ثم ندم فيجيليوس على ما قال وفعل . فأخذت ثيودورة ترتقب فرصة تستدرجه فيها الى القسطنطينية لتستقم منه . فتم لها ذلك في السنة ٥٤٧ بناسبة البحث في الفصول الثلاثة .

الفصول الثلاثة : وكان لا يزال اوريجانيوس الاسكندري ومؤلفاته موضوع جدل وتزاع بين علماء الكنيسة واساقفتها ، فريق منهم يحترمه لعلمه واجتهاده وطهارته وفريق آخر يكرمه لان بعض آرائه كانت قد اصبحت حجة لمن قال بالطبيعة الواحدة . ورغم ان احد المجامع كان قد اصدر حكماً على اوريجانيوس ومؤلفاته ، فان عدداً كبيراً كان لا يزال يحترمه فيدعي ان المراطقة عبثوا بؤلفاته ليستدوا عليها . ولكن في السنة ٥٣٩ أصدر افرام بطريرك انطاكية حكماً جديداً بتحريم اوريجانيوس ومؤلفاته . فطلب بعض رهبان فلسطين الى بطرس بطريرك اوروشليم قطع البطريرك افرام . فلم يعرفهم سجعاً . الا انه ارسل وفداً الى القسطنطينية يبين واقع

Diehl, Ch., Justinian's Govt. in The East, Cam. Med. Hist., II, 45-46. ١

جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٣ .

الحال ويرجو اتخاذ موقف واضح من اوريجانيوس ومؤلفاته . فكان من بطريرك القسطنطينية ميناس ان عقد مجمعاً محلياً بموافقة الامبراطور حكم فيه على اوريجانيوس وتعاليمه . واتفق ان كانت في البلاط ثيودوروس اسكيباس اسقف قيصرية . وكان هذا يحترم اوريجانيوس وتعاليمه ويقول بالطبيعة الواحدة ويتقرب الى ثيودورة . ومثله كان دوميتيانوس كاتم اسرار الامبراطور . فتقدم الثلاثة ثيودورة وثيودوروس ودوميتيانوس من يوستينانوس واقنعوه بان انضمام اصحاب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة يسهل جداً متى حرمت الفصول الثلاثة . وهذه الفصول هي مؤلفات ثيودوروس الموبوسني ورسائل ثيودوريطس ضد كيرلس والرسالة المنسوبة الى الاسقف ايبا . ورأى هؤلاء في ذلك كلمة وسيلة لتجريح قرارات المجمع المسكوني الرابع ولارضاء اتباع اوريجانيوس بالحكم على من كتب ضده ولاغضاب الارثوذكسيين . فوافق يوستينانوس وأصدر في السنة ٤٤٤ م تحريماً للفصول الثلاثة وطلب الى الاساقفة ان يوافقوه عليه ، وهذه المعارضين بالعزل . فلم يخضع اساقفة الغرب لامر الامبراطور وجاراهم في ذلك البابا فيجيليوس . وكتب اسقف قرطاجة الى الامبراطور انه لا يجوز ايقاع الحرم بشخص بعد موته . فاستدعى يوستينانوس البابا فيجيليوس الى القسطنطينية . فحضر اليها وانتهى بالتزول عند ارادة الامبراطور فأنشأ رسالته المعروفة بالجوديكاتوم Judicatum وفيها شجب الفصول الثلاثة . ولكن اساقفته انتقضوا عليه وعينوا له وقتاً للندامة . فلبث فيجيليوس في القسطنطينية ورجع عن قوله في الجوديكاتوم . ثم أصدر يوستينانوس امراً ثانياً بشجب الفصول الثلاثة وطلب الموافقة عليه مرة اخرى . فأبى البابا فيجيليوس ودخل كنيسة واحتمى بها وربط نفسه بعمود المائدة . فسيجبه

الجنود بالقوة فانسحب العمود معه وسقطت المائدة^١. وبما يجدر ذكره ان
الاصل في تسمية الفصول الثلاثة بهذا الاسم هو ان الامر الذي أصدره
الامبراطور بالشجب حوى فقرات ثلاثاً تتعلق بمؤلفات ثيودوروس
وثيودوريطس وإيبا. ثم تنوسي ذلك فأصبحت الفصول الثلاثة تدل على
اشخاص ثيودوروس وثيودوريطس وإيبا انفسهم.

الجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية : ولكي يضع الفيلسوف
حداً لهذا النزاع الجديد دعا الى جمع مسكوني ينعقد في السنة ٥٥٣ في
القسطنطينية. وقد اشترك في اعمال هذا الجمع مئة وخمسة وستون اسقفاً
بينهم اقيشئوس بطريرك القسطنطينية وابوليناريوس بطريرك الاسكندرية
وذيمنوس بطريرك انطاكية وثالبان عن بطريرك اوروشليم. وكان البابا
فيجيليوس لا يزال في القسطنطينية مع عدد من اساقفة الغرب. فدعي
للاشتراك في الجمع وترؤس الجلوس ولكنه امتنع. فترأس الجمع بطريرك
القسطنطينية وأقر جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة ثم دقق في
الفصول الثلاثة فحكم برفضها ورفض كل من يدافع عنها *ad defensionem eorum*.^٢
وفي جلسته الثامنة والاخيرة وجه الجمع لوماً شديداً لبابا رومة لانه
امتنع عن الاشتراك في جلساته. واعتبر يوستينانوس قرارات هذا الجمع
ملازمة واكره الاساقفة على قبولها ونفى من عارضها. وفي طليعة هؤلاء
البابا فيجيليوس فقد أكره على الإقامة في احدى جزر مرمر. ثم وافق
فيجيليوس على قرار الجمع فأذن له بالعودة الى رومة. ولكنه توفي في
سرقوسة قبل ان يصل. وأصر اساقفة الغرب على موقفهم المؤيد للفصول

١ في موقف الاساقفة الغربيين راجع :

Fulgentii Ferrandi Epistola, VI, 7: Patrologia Latina I, XVII, 926.

Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, IX, 376.

الثلاثة وامتنعوا عن الخضوع لقرار المجمع الخامس . وظلوا متنسكين بذلك حتى عهد البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) . فانه اعلن في احدى رسائله ان ليس في قرارات المجمع الخامس مما يتعلق بالفصول الثلاثة اي تغيير في الدين أو خروج عنه^١ .

ولكن رغم هذا كله اصر أصحاب الطبيعة الواحدة على متابعة الانفصال . غير ان يوستينيانوس لم يكن يتغير عليهم حتى يعود الى التقرب منهم والعطف عليهم الى ان ادركته المنية في السنة ٥٦٨ . واذا كان يوستينيانوس قد اخفق آخر الامر في تحقيق وحدة الكنيسة فمن الواجب ان يُعترف له باهتمامه البالغ لنشر النصرانية وراء حدود الامبراطورية . فقد نصر قبائل الهروجلي على الدانوب وقبائل القوقاز وافريقية الشمالية والنيل الاوسط^٢ . سياسة يوستينيانوس الخارجية : وأحب يوستينيانوس منذ بدء عهده ان يعيد الى الدولة الرومانية مجدها الغابر وان يحقق فعلاً ما كان له من سيادة اسمية على ايطالية وافريقية واسبانية وفرنسة ولو أدى به ذلك الى الحرب والفتح . ولكن لم يتسن له شيء من ذلك قبل منتصف السنة ٥٣٣ لاستغاله بجارته الكبيرة فارس الساسانية .

الحرب الفارسية الاولى : (٥٢٧ - ٥٣٢) وهاهنا قباذ الثاني وأحب ان يضم الملك من بعده لابنه الاصغر كسرى انوشروان ، ففاوض يوستينوس في ذلك وطلب اليه ان يتبني كسرى وان يدافع عن حقه في الملك . ونظر يوستينوس في الامر وشاور فيه رجاله ثم أجاب قباذ انه مستعد للقيام بتلك المهمة شرط ان يكون التبني على الطريقة العشائرية

Epistolae Gregorii Magni, II, 36.

Maspero, Patriarches d'Alexandrie, 135.

وفي هذا المؤلف بحث جليل في مشكلة الطبيعة الواحدة في عهد يوستينيانوس .

الامانية . ولا نعلم بالضبط شروط هذا النوع من التبني . ولكن يلوح لنا انه كان أيسر مما اراده قباد . وكان الوفد الفارسي في الوقت نفسه يفاوض للوصول الى تفاهم بين الدولتين حول قضية لازيقة « لازستان » . فلما عاد الوفد الى عاصمة فارس وأطلع قباد على اقتراح زميله يوستينوس حقد قباد وأخبر السوء . وكان يفتش عن طرف يستعين به للظهور بمظهر المدافع عن الدين الفارسي القديم ، فأمر جرجان ملك إبيرية في القوقاس ان يتبع هو وشعبه المسيحي عن دفن الموتى وان يتبعوا في ذلك الطريقة الفارسية القديمة فيعرضوا الجثث لطيور السماء . ولكن جرجان ابى واستصر يوستينوس فنصره . وهكذا دخلت الدولتان دولة الروم ودولة الفرس في حالة حرب منذ السنة ٥٢٧ .

وحمد بليساريوس قائد الروم في وجه الفرس عند دارا في السنة ٥٣٠ . وفي السنة ٥٣١ اقبل المنذر اللخمي من الحيرة وأغار على خلقيس (قنسرين) ثم سار الى انطاكية وعاث في ضواحيها وغنم مالا وافراً واسر كثيرين وعاد الى الفرات . ثم عاود الكرة والفرس من ورائه واغار على اليهود . فهب بليساريوس لصدّه وانتصر عليه وعلى اسياده عند الفرات في كلينيكوم Callinicum فردهم بذلك عن غزو سورية الشمالية . وتوفي قباد في السنة ٥٣٢ . فعرض خلفه كسرى أنو شروان صلحاً دائماً قبله يوستينيانوس دونما تردد بالنظر لما كان يفكر فيه من انصراف الى العمل في الغرب لاعادة وحدة الامبراطورية . وقبل ان يتجه نحو الغرب انشأ حلفين شرقيين : حلفاً مع امراء القوقاس في الشمال والآخر مع نجاشي الجبشة في الجنوب ليأمن بها شر حرب ثانية مع الفرس^٢ .

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides* 355, 356-357.

Diehl, Ch., *Justinien et la Civ. Byz.*, 381-385, 394-398.

وعني يوستينيانوس في هذه الآونة نفسها بتوطيد علاقاته مع القبائل العربية الضاربة في بادية الشام ليوازن بنفوذها نفوذ شقيقاتها في بادية العراق ومنهم عمال كسرى . وكان بنو غسان قد وفدوا الى سهول حوران من اليمن او ما يليها في فترة من الفترات التي تضدع فيها سد مأرب ، وحلوا بين عشائر قضاة وسليح . ثم سيطروا عليها وجمعوها في كيان سياسي . فاستعان بهم الروم في القرن الخامس لمراقبة غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجوب اطراف الجزيرة المتاخمة لبادية الشام واستعملوهم لصد هذه القبائل اذا هي حاولت الانصباب على اراضي الامبراطورية . ووجد الروم في القساسة ايضاً خير معون لهم على عرب الحيرة انصار فارس . وبلغ القساسة الاوج في اوائل القرن السادس فانضوى تحت لوائهم جميع شيوخ العشائر العربية من لبنان شمالاً حتى الحجاز جنوباً . ورأى يوستينيانوس ان يزيدهم هبة فرفع اميرهم الحارث بن جبلة الى رتبة فيلارخوس وبطريق ، وبذلك جعله يوازن في القلب امراء الحيرة عمال فارس^١ .

الحرب في افريقية وإيطالية : (٥٢٣ - ٥٤٠) وثار غلمار على هيلديرخوس الوندالي في شمالي افريقية . وكانت غلمار آريوسياً . فاستغل يوستينيانوس المناسبة وتدخل باسم الدين القويم ، كما كان قد استغل اقدام ثيوداتيوس على خنق ابنة عمه وريثة ثيودوريجخوس في إيطاليا . وفي حزيران من السنة ٥٢٣ اقلع بليسايريوس القائد على رأس قوة مؤلفة من خمسة عشر الف رجل ومن اثنين وتسعين ذرومونة الى جوار قرطاجنة فوصلها في ايلول من السنة نفسها وتغلب في غير مشقة على غلمار

^١ Diehl, *Ch.*, op. cit., 387-396 ; Bury, *J. H.*, *Later Rom. Emp.*, II, 91-92.

راجع ايضاً كتاب الامويين والبرنظيين للدكتور ابراهيم احمد المدوي ، ص ٨-١٢ .

ودخل قرطاجة منتصراً فصادف فيها استقبالاً حاراً . وعين يوستينيانوس
أحد القادة ، سليمان ، حاكماً على أفريقية الشمالية وأشار على بليساوريوس
بالانتقال حالاً إلى صقلية . فإيطاليا . ولكن سليمان لاقى مقاومة شديدة
من البربر الذين لم يسبق لهم أن خضعوا للوندال . فاضطر بليساوريوس أن
يعود إلى قرطاجة لينتصر على هؤلاء . ولم تبدأ الأحوال في أفريقية الشمالية
قبل السنة ٥٣٩ . وجعل يوستينيانوس من أفريقية برايفتورة جديدة وإنشأ
في وجه البربر ليوساً جديداً .

وتم الاستيلاء على إيطاليا بالسياسة والحرب معاً . فبعد أن استمال
يوستينيانوس بعض العشائر القوطية انقذ إلى إيطاليا حملتين أحدهما عن
طريق ايليرية بقيادة مندوس والآخرى إلى صقلية بإيطاليا بقيادة بليساوريوس
نفسه . وأجلى بليساوريوس القوط عن صقلية في يسر وسهولة ، ثم اجتاز مضيق
ميسينة في ربيع السنة ٥٣٦ فحاصر نابولي عشرين يوماً وأخذها عنوة . وفر
منها ثيودانيوس والتجأ إلى رومة فأغتناله أحد رجاله . ثم انتخب القوط ملكاً
عليهم جديداً نكرة لم يقو على صد بليساوريوس عن رومة . ودخل الروم رومة
في العاشر من كانون الأول سنة ٥٣٦ فأحاط بهم القوط وحسروهم فيها سنة
كاملة ثم ارتدوا عنها . فخرج بليساوريوس إلى شمالي إيطاليا وتابع فيها الحرب .
ولكن مناظرة نرسه الحضي له عوقت سير الحرب شهراً . ولم يدخل
بليساوريوس رابينة قبل أيار السنة ٥٤٠ . وأعاد الامبراطور برايفتورة
إيطاليا واتخذ لنفسه لقب قاهر القوط Gothicus .

الحرب الفارسية الثانية : (٥٤٠ . ٥٦٢) وأفضت هذه الانتصارات
مضعج كسرى انوشروان وجاءه رسل القوط يحثونه على القتال . فجهز
جيشاً كثيفاً وأغار فجأة على سورية واحتل ثغورها على الفرات وأباح

لعساكره النهب والسبي ففعلوا . ثم تقدم نحو منبج Hierapolis فاشتري
اهلها الامان بالفي دينار فضة . ونمض كسرى الى انطاكية . وكانت
جرمانوس احد انساب بوسثيانوس قد رابط فيها بثلاث مئة جندي واقام
ينتظر وصول بقية الجيش الامبراطوري . وكان منذ ان دخلها قد باشر
تحصينها وترميم اسوارها وقلاعها . وكان موقع انطاكية عند المعاصي ،
بما يحيط بها من صفوف وحواجز طبيعية اخرى فضلاً عن الحصون الصناعية ،
معتلاً منيعاً . ولم يكن في جهاز الدفاع عنها الا ثغرة واحدة
عرفها جرمانوس واراد تلافئها ، غير ان الضباط الذين كانوا حوله اشتد
بهم الخوف لدى وصول كسرى فهربوا الى فيليقية . وهب الاعلون لجمع
المال يشترى به الامان من العدو ، ولكن وفداً امبراطورياً وصل الى
المدينة وقال : لا يليق بالحاخورة الثانية في الامبراطورية ان تشتري اماناً
من غزاتها . فعزمت المدينة على المقاومة ، فحارب كسرى عليها الحصار ، ولم
يلبث ان اهتدى الى الثغرة في السور فدخل منها . فدافع الانطاكيون ما
وسعهم الامر ثم فروا الى دفنة يحتمون بها . فسيطر كسرى على انطاكية
واباحها للنهب والحريق . ثم انحدر الى سلوقية وذبح عند شاطئها ضحية
للشمس . ومنها سار الى ابامية فدخلها وسلب كنيسها ونهب الدور
والمباني . وكان الوفد الامبراطوري قد فاوضه بالكف عن القتال لقاء
قدر من المال يدفع اليه في كل سنة . فقبل كسرى واراد عبر الفرات
بالوف الاسرى الى عاصمته طيسفون . وبني لاولئك الاسرى مدينة خاصة
سماها انطاكية كسرى .

وفي السنة ٥٤١ هجم كسرى على لازيقة (لازستان) وابييرية في
القوقاس . وفي السنة ٥٤٢ دخل قوموجيلية وأخرب وأحرق ومضى .

وظهر في السنة التالية على حدود ارمينية البيزنطية ، ثم عائد في السنة ٥٤٤ الى حدود القرات وحاصر اورفة حصاراً شديداً . وكانت قادة الروم مشغولين عنه بمشاكل داخلية شخصية . فغضبت تيودورة على بليساوريوس ومخلته . الا ان يوستينانوس انفذ في السنة ٥٤٣ ثلاثين ألفاً الى ارمينية الفارسية . غير ان حملته ردت ومنيت بالفشل . وما لبث الطرفان المتحاربان ان شعرا بصعوبة القتال في القوقاس نظراً لطبيعة البلاد الجبلية ووعورة مسالكها وكثرة احرابها . فتهادتا في السنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين ثم جعلاهما معاهدة دائمة في السنة ٥٦١ . وقضت شروط هذه المعاهدة ان يفصل السلم بين الطرفين خمسين سنة على ان تجلو قوات الفرس عن الازستان ويدفع يوستينانوس الى كسرى ثلاثين ألف اوري في السنة ويمتنع عن التبشير بالنصرانية في الاراضي الفارسية ، وفي مقابل ذلك يحترم كسرى حقوق النصارى من رعاياه فيرفع عنهم الاضطهاد^١ .

توتيلة : وعاد القوط الى المقاومة في ايطالية وابعوا توتيلة احد زعمائهم . ووافق ذلك ان دب الشقاق الى صفوف زعماء الروم في ايطالية . فانطلق توتيلة برجاله من الشمال بالغاً الى اقصى الجنوب . واحتل في السنة ٥٤٣ نابولي . فهرع بليساوريوس لقتاله ولكنه لم يتمكن من صدده لقله العدد والعدة . وهكذا دخل توتيلة رومة في السابع عشر من كانون الاول سنة ٥٤٦ . ثم انشأ اسطولاً وغزا صقلية فاستولى عليها في السنة ٥٤٩ - ٥٥٠ . فثارت ثورة يوستينانوس فجهز قوة كبيرة وأمر عليها نرسيس ودفع بها الى ايطالية عن طريق الشمال . فتمكن نرسيس في السنة ٥٥٢ من القضاء على توتيلة في موقعة بوستة^٢ في اومبرية^٣ .

^١ Guterbock, *Byzanz und Persien*, 57.

^٢ Burg, J. B., *Later Rom. Emp.*, II, 261-269.

الدانوب : والمشاكل التي عاناها يوستينيانوس في الغرب والشرق معاً
 قضت عليه بسحب جنوده من الضفة الدانوب واستعمالهم في جهات اخرى
 واضطرته الى الاستعاضة عنهم بسلسلة كبيرة من الحصون والقلاع . فأنشأ
 ورمم وحصن اكثر من اربع مئة مدينة في البلقان . ثم تذرع سياسة
 « فرق تد » فحالف اللومباردين ضد الغبيد Gepides في الجمر وحادق
 الهون الاوتيغور Outigours في شرقي ازوف ضد الهون الكوتريغور
 Koutrigours بين الدون والدنيستر واستعان بالافار Avars ضد
 عشائر الدانوب . ولكن هذا كله لم يمنع البرابرة من التهرب خلال حصون
 البلقان نظراً لصغر الحاميات . فكان في السنة ٥٣٩ - ٥٤٠ ان انتشر
 مئات من الصقالبة والبلغار والهون في قرى عديدة من الادرياتيكا
 حتى القسطنطينية ينهبون ويخربون ويحرقون ويدبحون . وفي السنة ٥٥٨
 تحرك سبعة آلاف كوتريغور من الدانوب فاتجهوا جنوباً وعبروا سور
 انطاسيوس والقوا الرعب في اوساط القسطنطينية نفسها . وظل ذلك دأبهم
 حتى جمع بليسايبوس يضع مئات من الابطال المجريين من سكات
 العاصمة وانتفض بهم على العدو فولوا الادبار .

الفوات وسائر الحدود الشرقية : ولم يحصر يوستينيانوس اعماله
 التحصينية في منطقة البلقان . فانه انشأ في افريقية كما سبق أن اشرفنا
 ليسوساً جديداً . وانفق اموالاً طائلة للغاية نفسها في آسية الصغرى وسورية
 وشرق الاردن .

وكانت حدود الامبراطورية في الشرق تنبسط من البحر الاسود حتى
 البحر الاحمر فتؤلف خطاً طوله الفا كيلومتر . ولم يسبق لرومة في الشرق
 ان شيدت في عصر من عصورها ليسوساً متصلاً على نحو ما فعلت
 في الشمال بين الرين والدانوب او في الجنوب في افريقيا الشمالية . ذلك
 بأن جبال آسية الصغرى الشرقية وبادية الشام شكلت حاجزاً طبعياً

موافقاً يمكن الانتفاع به في الحرب والدفاع . ومن هنا اكتفت رومة في هذه المناطق بإنشاء قلاع موزعة في مواقع معينة تحمي بها الطرق الرئيسية والجسور والمرات الطبيعية وما الى ذلك ، فأصبح حدها الشرقي « منطقة مراقبة » على حد تعبير ليون هومر اكثر منه ليومياً او اطاراً مانعاً . وكانت هذه المنطقة ذات الحصون تبدأ عند طرايزون فتتجه جنوباً حتى مجرى الفرات الاعلى لمصب الحابور فحدود البادية حتى العقبة . وكان خط الدفاع الممتد نحواً من ثمانية كيلومتر بين قرقيسية *Circesium* عند مصب الحابور وبين العقبة يتألف من طريق معبدة موازية للحدود بحية الجانبين ولا سيما عند مفارق الطرق بعدد كبير من الابراج . وكانت تدمر ودمشق والبتراء تدخل بقلاعها وحصونها والطرق الموصلة اليها في هذا الخط من الدفاع . وتدل اعمال التنقيب التي أجريت في شرق الاردن بعد الحرب العالمية الاولى ان الطريق العسكري الروماني الذي كان يمر بشرق الاردن كان يصل بصرى بعلبكا والبتراء فالعقبة ، وان رومة قد اقامت على جانبي هذا الطريق ابراجاً محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثين كيلومتراً ، وانها انشأت قلاعاً لحماية موارد المياه الى شرقي هذا الطريق في القسطل واللجون وغيرهما .

وجاء يوستنيانوس يؤمن « سلباً وطمانينة » لشعبه و « يزيل كل ما كان يشجع البؤبرة على الغزو والنهب » فاهتم بحصون ارضروم وكيثاريزون ومرتيروبوليس وآمد وقسطنطينة ودارا . وكانت دارا هذه تقع بين نصيبين وماردين وتدعى « حصن الامبراطورية الرومانية » . واطهر يوستنيانوس اهتماماً مماثلاً بخطط من الحصون جاء وراء هذه الحصون الامامية :

Home, L., *Emp. Romain*, 203 .

Abel, F. M. , *Hist. de la Palestine*, II, 55-57 .

ستالة وكولونية ونيكوبوليس وسبسطية وملاطية Miletene ثم اورفة وحران
 وكليتيكوم ثم سورية على الفرات وهيرابوليس (منبج) وزقمة فانطاكية^١.
 يوستينانوس في دوره الأخير : وليس يختلف اثنان فيما نعلم ان
 مشاريع يوستينانوس العظيمة لم تتناسب وطاقته المالية . فالمعظمة والبذخ
 واسترضاء زعماء البرابرة وحروب الفتح والانشاء والتعمير في طول البلاد
 وعرضها كلها تتطلب انفاقاً كبيراً لم يكن آتخذ بوسع الدولة . وكان
 انستاسيوس قد خلف وفراً قدره ٥٠٠ و ٣٣٠ ليرة ذهباً او ما تعادل
 قيمته اربعة عشر مليوناً من الليرات الاسترلينية . فأنفقه يوستينانوس في
 بضع سنوات وبات يشكو قلة النقد . وقلة نقده أطالت حروبه وزعزعت
 معنويات جيشه ووقوف اصلاحه الاداري او عرقلته ثم أدت الى زيادة
 الضرائب واثقال كاهل الاهلين بها .

وفي السنة ٥٤٨ توفيت ثيوذورة بداء السرطان ففقد يوستينانوس بوفاتها
 مشاركة نشيطة امينة . فأنكشفت نقائصه واهمها التردد والهوس باللاهوت
 فأهمل واجباته الادارية وكرس معظم ليلاليه للجدل الديني . فصح فيه
 قول كوريبوس « انه بات لا يبالي شيئاً وان روجه كانت كالثي انتقلت
 الى السماء . »

وتضاءل جيشه فتناقص من ٦٤٥ و ٥٠٠ مقاتل الى ١٥٠ و ٥٠٠ وخلت
 حصونه من الرجال حتى قال اغاثيوس : انها أصبحت خالية خاوية لا
 يسع فيها نباح كلب واحد . وباتت العاصمة نفسها مهددة بالخطر لان
 سور انستاسيوس كان قد تنلم في الف موضع وموضع ولأن الحرس
 الامبراطوري كان قد قلّ وضعف ولان الثسيفلس كان بجاً الى البلص
 والمصادرة للحصول على المال المطلوب . وعاد الحضر والزرق الى المناظرة

والمشاحنة والمحاصنة ونزلوا بذلك كله الى شوارع العاصمة فهاجوا وماجوا
مراراً ما بين السنة ٥٥٣ و ٥٦٤ . وادى تردد يوستينيانوس في تعيين ولي
عهده الى التخاصم والتآمر ولاسيما بين السبائه .

ولكن ليس من العدل في شيء ان نحكم على عهد يوستينيانوس كله
حكماً مبنياً على ما آلت اليه الامور في آخر سنواته . فالواقع الذي
لا مندوحة عن الاعتراف به ان اهداف الرجل كانت نبيلة ، واث سعيه
لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من الاتساع والمجد كان عظيماً في
حد ذاته لا ثقاً بالامبراطور ، وان محاولته لتوحيد الكلمة في الكنيسة كانت
في مصلحة الدولة والكنيسة معاً ، وان انشأاته العسكرية على حدود الدولة
كانت في مصلحة الشعب ، وان اهتمامه بالادارة والقضاء والتشريع انما نجم
عن رغبة اكيدة في ضمان الامن ونشر لواء العدل . ولئن كان ثمن هذا
كله باهظاً فالعمل في حد ذاته كان كبيراً . وهل اكبر من مجموعة
القوانين وكنيسة الحكمة الالهية !

الفصل الثاني عشر

خلفاء يوستينيانوس

(٥٦٥ - ٦٠٢)

يوستينوس الثاني : (٥٦٥ - ٥٧٨) ولم يختلف يوستينيانوس عقياً ، ولم يشرك أحداً معه في الارجوان . ولكنه كان يثق بابن اخته يوستينوس ويستشير في امور الدولة . ولمس اعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستينوس فعولوا على انتخابه فور وفاة الامبراطور الشيخ . وقد أدرك يوستينيانوس الثالثة والثمانين ومرض مرضه الاخير ولم يفه بكلمة واحدة تنبئ عن يريده خلفاً له في الحكم . وكاد يلفظ انفاسه في ليلة من ليالي الحريف ، فجلس يوستينوس وزوجته صوفية في احدى نوافذ قصرهما التي تطل على البوسفور وباتا ينتظران . وعند الفجر أبلغهما الرسول وفاة الامبراطور ورجاء مجلس الشيوخ ان يتوليا العرش . وقضت التقاليد بان يرفض يوستينوس الرجاء ففعل . ثم قبل وذهب تواً الى النصر (١٤ تشرين الثاني سنة ٥٦٥) وخرج منه متردياً الارجوان الملكي ، متريناً بالجواهر التي اقتنصها بليساويوس من التوط ، فرفعه الجند حسب التقليد على الترس معلنين بذلك موافقتهم على ارتقائه العرش . ثم أيدته الكنيسة الاوذكسية فباركه البطريرك ووضع التاج على رأسه . وكان لا يزال جثثان يوستينيانوس مسجى في قصره مخطأً ، فنقل الى كنيسة الرسل بيجازة

مهيبة مشى فيها المصلون من رجال الاكليروس والعداري والغبين الشموع .
وهناك دفن الجثمان في قبر مذهب . وما ان تم الدفن حتى اُزيح ستار
الحزن وارتفعت الاصوات مهللة بارتقاء الفيلسوف الجديد .

وكان يوستينوس الثاني نشيطاً مجتهداً شجاعاً جريئاً . فانه منذ ان
تبوأ العرش أظهر من العزم والأنفة في علاقاته مع البرابرة ما يليق بمقامه
الجليل . فامتنع عن ان يؤدي لهم المنح السنوية ، وكانت قد بلغت في اواخر
عهد خاله يوستينيانوس ثلاث مئة الف ليرة ذهباً ، وأعاد العناية بالجيش
واهتم بالمالية وحاول محاولة صادقة في ازالة الهم والعناء عن جميع الرعايا .
وأعلن انه « سيجي الليل بطوله المحافظة على مصالح الدولة ولاصلاح كل
ما ينبغي اصلاحه » كما أعلن ان همه الوحيد هو ان يقدم للولايات افضل
الشرائع كي يضمن لاهلها الامن والعدل . « ولكن الحوادث قتلت قوياً
عنيفة فجاءت بما لم يشتر وكعبته كعباً . وكان يوستينوس ، على مزايده ،
شاعراً متعطساً نعوزه الحيلة فلم يتسن له الوصول الى رغائبه . وفي
اواخر السنة ٥٧٣ أصيب في عقله اصابة ظاهرة ، فتصدت زوجته صوفية
للقيام باعباء الحكم مستعينة بقومس الحرس طيباريوس الامين . ثم ان
يوستينوس تبنى طيباريوس . وفي السابع من كانون الاول سنة ٥٧٤
اعلنه قيصرآ . فصرّف طيباريوس الامور باسم سيده اربع سنوات متتاليات
الى ان قضى يوستينوس فانفرده بالحكم .

طيباريوس الثاني : (٥٧٨ - ٥٨٢) ورغب طيباريوس رغبة اكيدة
في تخفيف الضرائب فتعلق الشعب به واحبه كثيراً . وكان يوم وفاته
يوم حزن وحداد في جميع انحاء الامبراطورية ، فوثة كثيرون ، وقال

فيه يوحنا النيقاوي : « ان البشرية ، فيما يظهر ، لا تستحق اميراً طيباً كهذا الامير . » ولكن طيباريوس لم يبلغ الى هذه المرتبة من تقدير الشعب له وتعلقه به الا على حساب مالية الدولة . ففي وقت قصير جداً بدد ما كان قد جمعه سلفه بحكمته وتقديره . وحسبنا شاهداً ما قد جاء في احد المراجع انه لما تروا العرش وأراد توزيع الدوناتيوم التقليدية أعطى كل شخص خمس صلدات ، فبلغ مجموع ما أنفق لهذه الغاية واحداً وعشرين ألف ليرة ذهبية^١.

موريقيوس : (٥٨٢ - ٦٠٢) وأشهر خلفاء يوستنيانوس وأذكاهم وأقدرهم موريقيوس اليوناني^٢. ولد في ارايبوسوس في آسية الصغرى في السنة ٥٣٩ وفيها تلقى علومه ثم تركها سائياً وأمّ القسطنطينية فالتحق بالادارة المدنية وأصبح في وقت ما كاتب عدل . ثم دخل في خدمة الجيش وترقى حتى أصبح في السنة ٥٧٣ قائد الحرس الامبراطوري وقائد المتطوعة من البرابرة^٣. واشتهر بشجاعته ورزاقته وتبصره ، فاحترمه الشعب وأكرمه . وكان حازماً عادلاً ، لا يتبدل في محالطة ضباطه وجنوده ، فوقعت في قلوبهم هيئته فأكبروه وأجلّوه^٤. وأحب طيباريوس ووثق به وأغار سمعه ، فزوجه من ابنته قسطنطينية في السنة ٥٨٢ ورفعته الى رتبة قيصر . ثم بعد ايام توفي طيباريوس فعلا موريقيوس اريكة الملك .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان موريقيوس كان خبيراً في شؤون الدولة واسع الباع في تناولها ومعالجتها قوي الاهتمام بها ، ولا سيما العسكرية والادارية

Stein, op. cit., 57-58; Jean de Nikiou, éd. Zoltenberg, 522.

٢ ويرى بعض انه كان ارمينياً ولكنه قول ضعيف . اطلب :

Goubert, P., Byzance avant l'Islam, (Paris, 1951), 36-41.

Goubert, P., op. cit., 42-48.

Stein, op. cit., 70-71.

والمالية منها . فحارب التبذير وأوجب الاقتصاد وتلقى بصدور رغب سهام الانتقاد المرة التي وجهت إليه من جراء هذا الإصلاح .

سياسة خلفاء يوستينيانوس : وما يسترعي النظر في هذا الموضوع ان اثنين من خلفاء يوستينيانوس الثلاثة كانوا عسكريين ، واث الخلفاء الثلاثة جميعاً كانوا اقل طموحاً من يوستينيانوس واكثر وضوحاً في سياستهم وتحديداً لعلاقاتهم الخارجية .

فلا بدع ، في مثل هذه الحالة ، ان يرفض يوستينوس دفع شيء لقبائل الهون او للعرب ، بما كان يدفعه سلفه استرضاءً . ويقول يوحنا الايبيفاني ان يوستينوس صمم منذ اللحظة الاولى ان لا يتوكل الدولة خاضعة للقرس وانه تربص ريثما تسمح له الفرس حتى يقضي على سلم السنة ٥٦١ . وكان طيباريوس يقول ان السلم الذي يشرى لا يدوم ، وانه لا بد من ان تقدم الحرب ضد الفرس على سائر مصالح الدولة . وكان موريقوس ايضاً يقول بهذا كله وقد زاد عناية فائقة بالجيش . ولعل ابرز ما فعله من هذا القبيل هو اثاره العناصر الوطنية على العناصر البربرية في التعبئة . ومن الدلائل الواضحة على هذا الاهتمام بالجيش واعادة النظر في تنظيمه رسالته في فنون الحرب Strategikon تعود الى اواخر القرن السادس . وبعض الباحثين يرى انها من وضع موريقوس نفسه^٢ .

ولم يهمل خلفاء يوستينيانوس العرب وواجبهم تلقاءه . ففي عهدهم كانت حملة بادواربيوس على ايطالية في السنة ٥٧٤ - ٥٧٥ ، وانتصارات جناديوس في افريقية في السنة ٥٧٨ . وفي عهدهم (عهد طيباريوس خاصة) جرى

^١ Corippus, *Just.*, III, 151; *Fragmenta Historicorum Graecorum*, IV, 274.

^٢ Aussaresses, *L'Armée byzantine à la fin de VIe Siècle*, (1909); Stein, *op. cit.*, 123-127.

بذر اموال كثيرة في الاوساط اللومباردية العالية في السنتين ٥٧٧ و ٥٧٩ .
وتم ايضاً استدراج الافرنج الى غزو ايطالية لمصلحة الامبراطورية . وان
نفس فلا نفس ظهور نظام الاكسرخوسية في ايطالية وافريقية لتقوية
الدفاع عن هاتين الولايتين .

الحرب الفارسية : (٥٧٢ - ٥٩١) وكانت قد قضت معاهدة السنة
٥٦١ على الروم بدفع مال جزية للفرس عن سبع سنوات تيسقاً . وقد
دفع هذا المال في حينه . فلم يكن من موجب ، اذاً ، لبدء الحرب قبل
السنة ٥٦٩ . على ان هذا لم يمسك يوستينوس الثاني عن الاستعداد للحرب
في حقلي السياسة والتنظيم . وهكذا نراه في السنة ٥٦٨ يستقبل وفداً
مفاوضاً من اواسط آسية بما وراء فارس ، فيكرمه ويضفي اليه ، ويثبت
بواسطته علاقات ودية مع اعداء فارس في الشرق . وكان هذا الوفد
المفاوض ، من قبل الخاقان استامي خاقان الاتراك الذين سبق لهم ان قضوا
على الهون البيض في ما وراء فارس ، قد آم القسطنطينية في السنة ٥٦٨
ليحالف الروم ضد الفرس ، وليعرض استعداد الاتراك للقيام بنقل الحير
الصيني من حدود الصين الى مياه البحر الاسود مباشرة ، دون المرور
بفارس .

وفي السنة ٥٧٠ نرى يوستينوس يتدخل في امور ارمينية الفارسية وفي
مشاكل ايبوية فيرد عليه كسرى في السنة ٥٧١ بتدخل بمائل في حمير في
جنوبي الجزيرة العربية محرّضاً ابناء هذه المنطقة على التحرر من نير
النجاشي صديق يوستينوس وحليفه . وفي السنة ٥٧٢ ثار الارمن على
الفرس وقتلوا المرزبان . والتجأ زعماء الثورة الى القسطنطينية فقبولوا فيها
بمخافة وحرارة . وجاء وفد فارسي بطلب بالجزية المالية وكانت قد
استحقت مجدداً ، فرفض يوستينوس دفعها وأكد لاعضاء الوفد انه لن
يرضى ابداً عن اضهاد الارمن ابناء ملته المسيحيين . فوجه اليه كسرى انذاراً

بوجوب الدفع فقابلته يوستينوس باعلان الحرب .

وحالف النصر الفرس في بادئ الامر . ذلك ان الروم هجموا بمعظم قواتهم على ارمينية الفارسية تاركين حدودهم في ضربة وليس عليها الا قوة صغيرة من الجيش يدعمها حلفاؤهم الغساسنة ومن شد ازرهم من القبائل العربية المتاخمة . على ان هذه القبائل خانت والتوت فعبر الفرس الفرات واكتسحوا الموقف وحاصروا دارا « حصن الامبراطورية الحصين » فسقطت في ايديهم . وادى خبر سقوطها الى انهيار عقل الامبراطور . ففاوضت زوجته صوفية لهدنة في مطلع السنة ٥٧٤ تدوم عاماً ودفعت في هذا السبيل غرامة حربية كبيرة . وعند انتهاء الهدنة في السنة ٥٧٥ قام كسرى بجيش عظيم وعدد كبير من الفيلة الى ارمينية فحاصر ثيودوسيوبوليس (ارضروم) وهاجم اماسية ثم دخل قبدوقية وأحرق سبسطية (سيواس) . غير انه ما لبث ان فوجى بقوة كبيرة من الروم بقيادة يوستينيانوس ابن جرمانيوس اكرهته على التراجع بعد موقعة كبيرة دارت رحاها في ضواحي ملاطية وهلك فيها كثيرون من الفرس . ففاوض كسرى في الصلح ثم عاد فعدل عن المفاوضة بعد انتصارين صغيرين . فعاد الروم الى الحرب بقيادة موريقوس في السنة ٥٧٨ وقاموا بهجوم خاطف باتجاه ارزنين بين بتلس وبين الدجلة وبلغوا الى الدجلة . وتوفي كسرى في السنة ٥٧٩ فعاد الطرفان الى المفاوضة . ولكن هرمن الرابع ابن كسرى اساء استقبال الوفد الرومي فاستؤنف القتال . وزحف موريقوس في السنة ٥٨٠ يحاول قطع الفرات عند قرقسية فاحداً طيفون عاصمة الفرس . الا أنه ارتد على اعتابه بسبب مناورة ناجحة قام بها الفرس في ما بين النهرين وبسبب معاكسات لقيها من المندرجات في كاسيجي في حينه . على ان موريقوس عاد في السنة ٥٨٢ فانتصر انتصاراً كبيراً عند قسطنطينة تبعته انتصارات . وفي السنة ٥٨٦ استطاع قائد الروم فيليبوس ان يضرب الفرس ضربة

قامية في سولاخان في ارمينية^١.

ورغب الاتراك في استغلال هذا الظرف واوجبوا زيادة باهظة في
الاقارة السنوية التي كانت يدفعها الفرس لهم . فغضب هرمز واخذته الالم
ورفض ان يدفع الزيادة المفروضة . فقام خاقان الاتراك من دلتخ عاصمته
بعشائره وجوعه وقصد فارس غازياً . فأخذ هرمز بهرام بوشين^٢ بجيش
كبير لصددهم سنة ٥٨٨ . فكسروهم وقتل الخاقان في المعركة . ثم اسرا ابن
الخاقان في معركة ثانية ودخل دلتخ عاصمة الاتراك واستولى على ما وجده
فيها من الذهب وكان كثيراً . ولم تأت السنة ٥٨٩ حتى كان بهرام قد
عاد الى فارس ظاهراً غافاً . فأكرمه الشاهنشاه وأمره على كل جيوشه
ومنحه لقب بيلوان وعلا قدره بين الفرس وتعلقوا به . فأخذ هرمز الى
منطقة سوانية الخاضعة للروم في القوقاس . فدخلها فذهب وسبى . وارسل
الغنائم الى هرمز في طيسفون . وتحرك الروم للدفاع في شتاء السنة ٥٨٩
فتوجه رومانوس بجيش بحرب الى سوانية فكسر بهرام وشئت مثل رجاله .
ولم يكتفِ هرمز بما أرسله اليه بهرام من غنائم فسخط عليه . فأدى ذلك
الى ثورة داخلية اسقطت هرمز عن عرشه وأحلت بهرام محله وذلك في
السنة ٥٩٠^٣.

Goubert, P., *op. cit.*, 68-117 ; Stein, *op. cit.*, 40-97 ; Bury, *Hist. of Later Rom. Emp.*, II, 95-113.

٢ « بهرام خشن ويعرف بجويين . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

٣ « ثم خاف بهرام ومن معه هرمز فخلعوه وساروا نحو المدائن واطهروا ان ابنه
ابرويز اصاح للملك منه . وساعدهم على ذلك بعض من كان بحفرة هرمز . وكان يمدح
قرض بهرام ان يستوحش هرمز من ابنه ابرويز ويستوحش ابنه منه . وكان يمدح
نفسه بالاستقلال بالملك . فلما علم ابرويز ذلك خاف اياه فهرب الى اذربيجان . فاجتمع
عليه عدة من المرازية والاصبيذين . ووثب العطاء بالمدائن ، وفيهم بندويه وبسطام
خالاً ابرويز ، فخلعوا هرمز وسجلوا عليه . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وفرّأ ابرويز بعياله وثلاثين من اخصائه الى قوقسية عند مصب الخابور في الفرات . فكتب محافظها بذلك الى الامبراطور وكتب اليه ابرويز ايضاً لاجئاً مستغيثاً . ووعده بان يعيد دارا ومرتيروبوليس (ميافارقين) وقسماً من ارمينية اليه وان يبقى في سلم دائم معه والا يطالبه بال البتة . فدعا موريقيوس اليه اعضاء مجلس الشيوخ وشاورهم في الامر . فلجابوا بعدم القبول وابانوا ان الفرس لا دين لهم ولا قانون ، يعدون في الضيق وينكثون عند الفرج ، وانهم الحقوا ضرراً كبيراً بالروم فليقتلوا وليسحق بعضهم بعضاً وليدعوا الروم هادئين مطمئنين . ولكن موريقيوس رأى مع ذلك ان الشرف والشهامة والمصلحة تقضي بتقديم المساعدة المطلوبة الى ابرويز فوعده بها وتابع الحرب ضد بهرام . وقام ابرويز الى اذربيجان فوافاه اليها بندوقيه وغيره من المتقدمين والاساورة في جيش كبير من اصيهاث وفارس وخراسان . ونقض الروم بقيادة نرسيس لمعونة ابرويز . والتقى الجيشتان بعدوهما في سهل تبريز^٢ في خريف السنة ٥٩١ . فدارت الدائرة على بهرام وفرّ لاجئاً الى بلاد الاتراك .

وبرّأ ابرويز بوعده فأعاد دارا ومرتيروبوليس الى الروم وتنازل عن قسم هام من ارمينية الفارسية ولم يطالب بعد ذلك بالاثاثة السنوية . فوصلت حدود الروم الى بحيرة وان ومداخل تقيس . ووقع ابرويز وصديقه موريقيوس سلباً دائماً .

خلفاء يوستينيانوس والعوب : وأراد يوستينيانوس ان يستعين بالعرب الضاربين في جوار حدوده على العرب عند حدود خصه الفارسي فجعل من الحارث ابن جبلة الغساني في السنة ٥٣١ فيلرخوساً وأمدّه

Sebeos, Hist. d'Heraclius, éd. Macler, 15.

١

٢ Diehl, Ch., Monde Oriental, 130 ; Ganzaca راجع

بالمال له ولشيوخ العرب في بادية الشام . ثم رقباه في مراتب الدولة فجعله بطريقاً من البطارقة هو واحفاده من بعده . وقال الحارث ورثته بالنصرانية وبالطبيعة الواحدة فقال من عطف ثبودورة الشيء الكثير وأصبح حامياً لزمارة اصحاب الطبيعة الواحدة في جميع الاقطار الشامية . وبين هؤلاء كان يعقوب البرادعي الشهير مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية . ودامت سيادة هذا البطريق مدة طويلة حتى وفاته في السنة ٥٦٩ . وقد احتل فيها بعد مركزاً سامياً في نخيلة العرب . فهو الحارث الذي بشيد بذكره الشاعر عمرو ابن كلثوم وهو ايضاً الحارث الذي قهر المنذر ملك الحيرة . وجاء بعد الحارث النسطائي ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨٢) . قهر الحيرة عرب الحيرة وقد كانوا اغاروا على سورية بعد وفاة والده الحارث . فقاتلهم وانتصر عليهم عند عين اباغ . فأكثر شعراء العرب من ذكر هذا النصر وتغنوا بجرأة الحارث لإبعاده في الغزو الى عين اباغ . واعتم المنذر ابن الحارث لمشاكل النصرانية آنئذ فعقد مجمعاً محلياً تحت رعايته للنظر في بعض البدع المحلية . ولم يرض يوستينوس عن المنذر فقطع عنه المال السنوي واوعز بقتله . فشق المنذر عصا الطاعة ثلاث سنوات متتالية . فانتهر عرب الحيرة هذا الظرف واغاروا على سورية الشمالية « وعاثوا فيها ما شاؤوا » . ثم اجتمع المنذر بالبطريق يوستينانوس في الرصافة وتفاعما فعادت المياه الى مجاريها^١ .

وتوفي يوستينوس في السادس من تشرين الاول سنة ٥٧٨ . فتولى العرش بعده طيباريوس . وأحب هذا ان يسعى لتوحيد الكنيسة ، فرأى

١ ابن قتيبة ، ٣ : ٤ ، الحاشية ، ٤٠٢ .

٢ تولدكه : امراء غسان ، ص ٢٥ .

٣ يوحنا الافسي ، ٦ : ٤ ، ص ٣٥١ .

ان يوجد كلمة اصحاب الطبيعة الواحدة أولاً ليسهل عليه التوفيق بينهم وبين الكنيسة الارثوذكسية الام . فاستدعى المنذر الغساني الى القسطنطينية . فآتمها هذا البطريق مع ولديه ووصل اليها في الثامن من شباط سنة ٥٨٠ . فاستقبله الامبراطور بكل احترام وتبجيل . وانعم عليه بلقب ملك الشرقين^١ . وسمح له بان يستبدل الاكليل البطريقي بتاج ملكي^٢ . ثم طلب اليه ان يوفق بين صفوف اصحاب الطبيعة الواحدة . ووقف الامبراطور الاضطهاد الذي كان قد حلّ بهؤلاء منذ عشر سنوات او اكثر تسليلاً لعمل الملك الجديد ، اي المنذر . وعاد المنذر الى سورية وعقد مجمعاً برعايته في الثامن من اذار سنة ٥٨٠ ، واتصل بغريغوريوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي وفاوضه في المهمة الموكولة اليه . وأصبح المنذر الغساني ملكاً محلياً وحكماً في اعوص مشاكل ذلك العصر واشدّها تعقيداً .

ولم يرضَ البطريق افيجيوس عن هذا التسامح والتساهل مع اصحاب الطبيعة الواحدة . وشاركه في رأيه هذا عدد من كبار رجال الجيش والسياسة وبينهم موريتيوس القائد . وفي السنة ٥٨٠ اراد هذا القائد ان يفاجئ الفرس بهجوم خاطف عن طريق الفرات متعاوناً مع المنذر وقبائله . فلما وصل الى الفرات وجد الجسر الكبير مهدوماً . فتراجع خائباً وعزا خيئته الى خيانة المنذر وتواطؤه مع الفرس وشكاه الى الامبراطور . ويرغم ان المنذر عاد فاغار وحده على اراضي عدوه امير الحيرة واعمل في عاصمته النار وقفل من غزوته بغنائم عظيمة^٣ ، فان موريتيوس تثبت برأيه وأصرّ

Aramundarus Saracenorum Rex.

٢ راجع تولدكه : امراء غسان ، ص ٢٦ .

Michel le Syrien, X, 344.

٣ وقد ذكر هذه الحادثة الشاعر الجبيري المعاصر عدي ابن زيد : الاغاني ٢ : ٢٧ ،

الطبري ، ١ : ١٠٢٦ ، ياقوت ٣ : ٦١٢ .

عليه . وسافر بنفسه الى القسطنطينية ليثبت رأيه امام الامبراطور^١ . ويرى
الاب غويير اليسوعي ان موريقوس كان محقاً في شكواه وان هنالك ما
يدعو الى الشك في امانة المنذر والى الظن بانه كان يتوخى الاستقلال
بدافع الطموح الشخصي والسعي لرفع الضيم عن اخوانه اصحاب الطبيعة
الواحدة^٢ .

وأصدر طيباريوس أمره في ربيع السنة ٥٨١ بالقبض على المنذر .
فأرسل ماغنوس Magnus حاكم سورية الى المنذر يدعوه الى حوارين بين
تدمر ودمشق للاشتراك في حفلة تدشين الكنيسة التي اقامها فيها . فلبى
المنذر الدعوة . فما كاد يبلغ حوارين حتى القى عليه الحاكم القبض وارسله
مخفوراً الى القسطنطينية . ولم يقتصر طيباريوس على نفي المنذر وانما عمد
ايضاً الى قطع الاعانة السنوية عنه . فقام ابناء المنذر الاربعة وشقوا عصا
الطاعة واوغلوا في البادية واخذوا يشنون منها الغارات على اراضي الدولة .
ودخلوا بصرى واضطروا حاميتها ان تتخلى لهم عن الدخائر والاموال التي
صادرتها منهم وبينها تاج المنذر . فجرد طيباريوس حملة ضدهم وانفذ معها
اخاً آخر للمنذر ليخلفه في وظيفته ولكنه توفي بعد عشرة ايام . اما القائد
البيزنطي فإنه تمكن بالمكر والخداع من القاء القبض على النعمان اكبر ابناء
المنذر . وتوفي طيباريوس في السنة ٥٨٣ فتولى العرش بعده موريقوس
عدو المنذر فأمر بإبعاد الملك العربي ومن معه الى صقلية^٣ . وطالت
الحرب الفارسية وحمي وطيسها وشعر موريقوس بالحاجة الى من يوحد

Jean d'Epiphane, III, 40, 129 et VI, 16, 231.

Goubert, P., op. cit. 252-254; Deuresse, Mgr., Patriarcat d'Antioche, 276.

281, n. 3.

٣ تولد كده : امراء غسان، ص ٣٠ - ٣٤ .

كلمة القبائل العربية في سورية ويقودها الى الحرب ضد الفرس . فاستحضر
النعمان في السنة ٥٨٤ ووعده بارجاع والده من المنفى ثم طلب اليه ان
يحارب الفرس معه وان يعتنق الارثوذكسية . فأجاب النعمان ان جميع
قبائل طي يعاقبة وانهم يذبحونه ذبحاً ان هو تقبل قراره المجامع . فغضب
موريقيوس وأمر بسجنه ثم ألحقه بالده^١ .

ويرى تولدكه في رسالته امرأ غسان ان احوال العرب في سورية
اضطربت بعد اعتقال المنذر وابنه النعمان وان عرى وحدتهم تفككت
فانضارت كل قبيلة منهم اميراً لها ، فتطاحنت وتنازعت فيما بينها وان هذه
المنازعات لم تنحصر بالبادية وانما تعدتها الى البلدان العامرة وان القبائل اخذت
تسطو بلا خوف ولا وجل على اموال الفلاحين المتحضرين فتنهب مواشيهم
وتحصد دون ان تزوع . ويزيد تولدكه ان هذا كله حمل الروم على التفكير في
تنصيب عامل لهم رئيسي جديد يقوم مقام المنذر وانهم رأوا ان يكون
هذا العامل من آل جفنة ايضاً لما كانت لهؤلاء في الماضي من الهيبة في
القبوب^٢ .

وقفت ظروف العداء بين الفساسنة وعرب الحيرة ان يشتد كره
عرب الحيرة لكل من قال بالطبيعة الواحدة وان يتقربوا من الكنيسة
الارثوذكسية الأم . وانتهت الحرب بين فارس والروم في مصلحة
الروم ، فطلب النعمان ملك الحيرة ان يتلقى المعمودية على يد كاهن
ارثوذكسي في الرصافة وقبلها معه رجاله . وكان خالص النية فيما فعل ،
فلما عاد الى الحيرة رمى بتمثال الزهرة الذهبي في النار ، وجمع ذهبه بعد
انصاره ووزعه على الفقراء . ولعل الكاهن الارثوذكسي الذي عمّد النعمان

^١ Jean d'Epiphane, III, 56, 135.

^٢ امرأ غسان : ص ٣٤ - ٤١ و ٥٧ - ٦٦ .

ورجاله هو البطريرك الانطاكي غريغوريوس نفسه . فانه هو الذي كرّس تقدمات ابرويز وزوجته المسيحية سيرين على اسم القديس سرجيوس في الرصافة (سيرجيوبوليس) . وانطلق البطريرك من الرصافة الى البادية يرد « الضالين في القرى والاديرة الى الدين المستقيم » ، وعاد الى احضان الكنيسة الام بعد هذا النصر كثيرون في سورية والعربية وارمينية وبلاد الكرج ممن سبق لهم ان قالوا بالطبيعة الواحدة . وتعددت البنايات والانشاءات الدينية الارثوذكسية في الاردن والبثنية وحموران في مادبا ومعين وجرش والجولان والجزيرة بين بصرى ودرعة وفي الطيبة وغاريا القريبة وفي قسّم وفي حياة بالقرب من الشبعا^٢ .

الآفار والصقالبة : (٥٥٠ - ٦٠٢) ولم ينتظر الآفار والصقالبة نهاية الحرب الفارسية ليقوموا بغاراتهم في البلقان . ولكن خلفاء يوستينيانوس آثروا قبل التصدي لهم ان يفرغوا من المشكلة الفارسية . وذلك لاسباب اهمها ان المناطق موضوع النزاع بينهم وبين فارس كانت آهلة بشعوب قوية شديدة يمكن الاعتماد عليها لتغذية الجيش بالرجال . ثم ان التغلب على فارس كان ضرورياً لاضعاف معنويات من قال بالطبيعة الواحدة من سكان ارمينية وسورية ولارجاعهم الى احضان الكنيسة الام وتوحيد الكلمة في داخل الامبراطورية . وهكذا نرى يوستينوس الثاني يبتاع سكوت الآفار في السنة ٥٧١ ونرى طيياربوس طلباً للغاية نفسها يدفع في السنة ٥٧٤-٥٧٥ قدراً كبيراً من المال ثمانين الف صلدة ذهبية . وفي السنة ٥٨٠ غلب عدد كبير من الصقالبة قدره ميناندر من مؤرخي ذلك العصر بمئة الف رجل

Evagre, Hist. Eccl., éd. Bidez, VI, 22, 238 ; Charles, H., le Christianisme des Arabes Nomades sur le Limes et dans le Désert aux Alentours de l'Héjire, (Paris, 1936.)

Gouberl, P., op. cit., 265, 266-268.

فغبروا الدانوب وغمروا البلقان غمراً مخربين محرقين ناهبين^١، ويرى اهل الاختصاص ان هذه الموجة الكبرى كانت اشد اثراً من اي موجة اخرى في تطور تاريخ الروم لانها ابقت في البلقان عدداً كبيراً من الصقالبة فضقلته منذ ذلك الحين^٢.

وحدثت المشكلة الفارسية في السنة ٥٩١ حلاً نهائياً. وعاد جيش الروم منتصراً قوياً. فتغير الموقف في البلقان تغييراً اساسياً. وشن موريقيوس على الآفار والصقالبة حرباً متواصلة عنيفة. ورغب في ان ينلم القيادة بنفسه. وكاد يفعل لولا تدخل الحاشية. فعهد بالامر الى بريسقوس القائد. وكتب النجاح لبريسقوس فأبعد البرابرة حتى ضقة الدانوب. ثم عبره وحاربهم في ذاقية. وعاد خاقان الآفار فدفع بثمة الف اخرى من الصقالبة عبر الدانوب. فتدفعوا جنوباً حتى ثيسالونيكية والقسطنطينية. ولم تنج الاولي منهما الا باعجوبة^٣. وهرع موريقيوس للدفاع عن العاصمة بنفسه. فجمع المتطوعة من سكانها والحق بهم الحرس الامبراطوري ودفع بهم جميعاً الى السور الطويل. وقدر لبريسقوس ان ينتصر في بلغراد في السنة ٥٩٨ وفي طولي في السنة ٥٩٩. فتهاذن الطرفان سنة ٦٠٠ جاعلين الدانوب حداً فاصلاً بينهما. ثم نشبت الحرب مجدداً في السنة ٦٠١ ورجحت حكمة بريسقوس فعبر الدانوب غازياً وما برح حتى وصل الى نهر الثيس. وعول الامبراطور على ابقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء. ولكنه فوجئ بان غمّاه بعضهم عليه في السنة ٦٠٢.

Menandre, 404-406.

Vasiliev, A. A., *Les Slaves en Grèce, Viz. Vrem.*, V, 1898.

Acta S. Dimitrii, 107-121.

Theophylactus, VII, 289-298.

ثورة السنة ٦٠٢ : ثمة الجند في خريف هذه السنة وعبروا الدانوب بامرة فوقاس احد ضباطهم وانجهوا نحو القسطنطينية . وكانت العاصمة خالية من الجند . فحشد موريقوس متطوعة من سكان العاصمة ودفع بهم الى سور ثيودوسيوس . وليته لم يفعل لان قسماً كبيراً من السكان كان قد سمّ كبرياء الامبراطور واساليه الارستقراطية . وشعر موريقوس بهذا وخشي بمالأة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس للجند فأمر بالقاء القبض على جرمانوس . ولكن جرمانوس التجأ الى كنيسة الحكمة الالهية فاضطر الامبراطور ان ينتهك حرمة هذا المعبد ليقبض فيه على خصمه . وأيد الشعب جرمانوس واخلى المتطوعة مراكزهم على السور والحازوا الى الجماهير المتظاهرة . ففرّ الامبراطور بعائلته عبر البوسفور الى نيوميدية . وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٦٠٢ نادى الشيوخ والشعب بفوقاس امبراطوراً . ودخل فوقاس في اليوم التالي « بمطراً الذهب على الشعب امطاراً » ثم وجه الى نيوميدية بمن ذبح موريقوس وعائلته ذبحاً .

ويرى لفتشكو الاستاذ في جامعة ليننغراد ان ثورة السنة ٦٠٢ كانت في حد ذاتها نزاعاً طبقياً بين الفلاحين والصناع والجند من جهة ، وبين الذين عززتهم حكومة موريقوس من اصحاب الاملاك الكبيرة والاموال الوافرة من جهة اخرى . ويرى الاستاذ نفسه في هذه الثورة التي عمّت آسية الصغرى وسورية ولبنان ومصر ثورة اجتماعية دينية بين النصارى واليهود وبين من كان من النصارى يقول بالطبيعة الواحدة ومن كان

Theophytactus, VIII, 7-15; Kraftschek, Der Sturz des Kaiser Mauricius; 1896.

Leutchenko, M. V., Byzance, 116-121.

يُسمك بقرارات المجامع المسكونية وبين الحضر والزرق . وهو يرى
ايضاً ان فوقاس لم يبن مطالب هذه الطبقات الوضيعة وانما سعى لتوطيد
عرشه فقط .

فوقاس : (٦٠٢ - ٦١٠) وعلم ابرويز ملك الفرس بما حل بموريقيوس
وبامباطورية الروم وكان موريقيوس نفسه قد كتب اليه يستنجده . وسمع
ابرويز ايضاً بالثورة التي اعلنها رئيس القائد على فوقاس في اورفة في
السنة ٦٠٣ ، فرأى ان يستغل فرصة مناسبة فزحف بنفسه الى اورفة
وحاصرها . ثم تغلب على الروم بين اورفة ونصيبين في السنة ٦٠٤ . وفي
السنة ٦٠٥ سقطت دارا بيده فاتجه ابرويز نحو سورية وارمينية وانتشرت
جيوشه في السنة ٦٠٧ في سورية وفلسطين تنهب وتحرق وتدمر . وفي
السنة ٦٠٨ توغل الفرس في آسية الصغرى وبلغوا في السنة التالية الى
خليقدونية حيا ل القسطنطينية .

وكان فوقاس منهمكاً في توطيد دعائم عرشه ففطن في السنة ٦٠٧ على
قسطنطينة ارملة موريقيوس وعلى بناتها وعلى جرمانوس . وحاول استمالة
كبار الضباط فجعل بريستوس قائد الحرس وزوجه من ابنته ولكنه عاد
فظن به سوءاً واتهم بالمؤامرة عليه . ولم يعط فوقاس الحضر شيئاً فقاموا
عليه واهانوه علانية في الهيودروم . ثم نشبت ثورة في انطاكية تلتها
مؤامرة في القسطنطينية . وهكذا دواليك حتى عمت الفوضى واصبحت
الدولة في امس الحاجة الى شخصية كبيرة تتولى إنقاذها .

الفصل الثالث عشر

الفكر والفن في القرن السادس

التاريخ والمؤرخون : وكما كان الأمر في القرون السابقة ، كذلك كانت كتابة تاريخ في القرن السادس هي السجل الرئيسي للفكر البيزنطي ومجلى تطوره . وبرز المؤرخين في هذه الحقبة واكثرهم غناء بروكوبيوس القيصري . درس الحقوق والمحاماة ثم أصبح مستشار بليسياريوس القائد وكاتم اسراره ، وقد صحبه في حروبه ضد الوندال والقوط والفرس واطلع على مغابراته وخفايا اموره فجمع لمؤلفاته ما لم يقن لغيره ادراكه . ورغم تعمقه في اليونانية واخذة بالاساليب هيروdotus وثوقيديدس فإنه ظل سلساً في انشائه نسيط الخيال ضليعاً شديداً يقظاً . ومؤلفاته ثلاثة : الحروب والملح والابنية . ويقع كتابه في الحروب في ثمانية اجزاء وصف فيها حروب بومستيانوس في افريقية وايطالية والشرق . وأفرده كتابه الملح لقصص وروايات اظهر بها خفايا الحياة السياسية في العاصمة ولاسيما القصر المقدس وحياة عاهليه بومستيانوس وثيودورة . وضمن كتابه الابنية

De bellis, Historia arcana, De aedificiis, (Bibliotheca Scriptorum Graecarum, Vols. I-III), Eng. Trans. Dewing, 7 Vols., London and New-York, 1914-1940.

اخبار بوستنيانوس في حقل البناء، فذكر فيه جميع الابنية التي امر
بتشييدها^١.

وقد عاصر بوستنيانوس بروكوبيوس مؤرخ آخر هو بطرس البطريق؛
كان محامياً لامعاً وسياسياً مفاوضاً قتل الروم مراراً لدى الفرس والقوط
الشرقيين. وكتب في تاريخ الامبراطورية منذ عهد اوغسطس. ووضع
سفرًا خاصاً في التشريعات. وقد ضاع الشطر الاكبر من هذين المؤلفين
ولم يبقَ منهما سوى شذرات منثورة.

وقام بعد بروكوبيوس اغاثيوس المحامي فأرخ لعهد بوستنيانوس منذ
السنة ٥٥٢ حتى السنة ٥٥٨. وجاء ميناندر في ايام موريقيوس فأرخ
للسنوات ٥٥٨ - ٥٨٢. ولكن ضاع هذا المؤلف ولم يسلم منه سوى
بعض ثلث مفيدة جداً من جهة المعلومات الجغرافية والمعرفة بالعناصر
البشرية الطارئة على الامبراطورية. وظهر ثيوفيلانكتوس السيموقاطي القبطي
فسجل تاريخ الحوادث في عهد موريقيوس (٥٨٢ - ٦٠٢) وكانت كلاً
لاسرار هرقل القسطنطيني. وبرغم خياله المشتط وصورة الرمية وحكمه
المتحيزة واساطيره وخرافاته فانه لا يزال المرجع الرئيسي لتاريخ
موريقيوس ان في حروبه الفارسية او في البلقان^٢. وفي اواخر القرن
سادس كان المؤرخ ثيوفانس وقد ذكره الطبري في مؤلفاته
ونقل عنه نبذة منها نبذة في ادخال دود الحرير الى حوض البحر المتوسط.
واما تاريخ الكنييسة في القرنين الخامس والسادس فأفضل من عاجله من
المؤرخين ايقاغوريوس السوري. وتضمن كتبه الستة تاريخ الكنييسة منذ

^١ Dahn, F., *Procopius von Caesarea*, Berlin, 1865; Häury, *Zur Beurteilung*
des Geschichtsschreibers Procopius von Caesarea, 1897.
^٢ Krumbacher, K., *Gesch. der byz. Litt.*, 249.

مجمع إفسس في السنة ٤٣١ حتى السنة ٥٩٣ .

الجغرافية والجغرافيون : وبما بلغت النظر في تاريخ الفكر في القرن السادس كتاب قوزمة البحري^٢ « الكوسموغرافية المسيحية » ، وضعه في منتصف هذا القرن . ولد الرحالة قوزمة البحري في مصر ، وتعاظم التجارة في حدائقه . ثم أعرض عنها لكساد سوقها . فعاد مصر متنقلاً في سيناء ، والحبشة ، وحوض البحر الأحمر ، والشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية ، وسيلان . ثم انقلب إلى مصر زاهداً فتنسك وتوهم . وقد كتب كتابه هذا ليبين للمسيحيين أن الأرض صندوق مربع مستطيل بشكل ثابت العهد ، وأن شكل الكون هو شكل مظلة إسرائيل ، وأن قول بطليموس الجغرافي بكروية الأرض قول مردود . وأهم من هذا وذلك هو أن قوزمة دون في مصنفه هذا ما شاهده في أثناء تجواله ، وما سمعه . وفرق بوضوح تام بين سماعه وعبائه ، بحيث صار مؤلفه مرجعاً هاماً لتاريخ هذا العصر^٣ .

ومن كتب في الجغرافية في القرن السادس هيروكليس اللغوي . فإنه وصف الامبراطورية وصفاً سياسياً جغرافياً على حالتها قبيل السنة ٥٣٥ متناولاً ولاياتها الأربع والستين ، ومدنها التسع مئة والاثني عشرة^٤ .

التأريخ بالحوادث : وأشهر من دون الحوادث في القرن السادس مرتبة بحسب تاريخ وقوعها ، بوحنا ملاس الانطاكي . فإنه وضع خروفيقوناً لتاريخ العالم منذ أقدم الأزمنة حتى نهاية عهد يوستينيانوس .

Fragmenta Historicorum Graecorum, Patrologia Graeca.

١

٢ بحري بحر الهند *Cosmas Indicopleustes*.

٣

Cosmas Indicopleustes, Topographia Christiana, XI, éd. Migne.

Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 417.

٤

وبرغم انه لم يفرق بين القث والسين ، والاساطير والوقائع الراهنة ، فان كتابه مفيد في بعض ما يروي ، عدا انه استعمل فيه اليونانية الدارجة في عصره ، مستعيناً ، بين آن وآخر ، ببعض الاصطلاحات اللاتينية الشائعة في زمانه^١.

وبين هؤلاء ايضاً يوحنا الافسي . ولد في آكل من ولاية آمد في السنة ٥٠٧ ، ونشأ ناسكاً في دير ارعازبتا . وأجاد السريانية واليونانية ، ورحل في طلب العلم الى انطاكية والاسكندرية والقسطنطينية . وفي السنة ٥٤٢ اختاره يوستينانوس لتبشير الوثنيين في بعض نواحي آسية الصغرى . وحوالي السنة ٥٥٨ رسمه يعقوب البرادعي مطراناً على من قال بالطبيعة الواحدة في افسس . فأقام على رعاية هؤلاء تسعاً وعشرين سنة . وفي السنة ٥٦٦ ، بعد وفاة ثيودوسيوس الاسكندري ، أصبح يوحنا الافسي رئيساً لجميع من قال بالطبيعة الواحدة في القسطنطينية وسائر بلاد الروم . وفي السنة ٥٧١ اضطهد يوستينوس الثاني من لم يقل قول الكنيسة الام ، فشل هذا الاضطهاد يوحنا المترجم له ، فسجن ثم نفي ، ثم اعتقل مرة ثانية في عهد طياريوس وأبعد عن العاصمة في اواخر السنة ٥٧٨ . وكانت وفاته في السنة ٥٨٦ او ٥٨٧ .

وأرث يوحنا الافسي للكنيسة في ثلاثة مجلدات . تناول بالمجلدين الاول والثاني حوادث التاريخ منذ عهد قيصر حتى السنة ٥٧١ . وجعل في المجلد الثالث اخبار الكنيسة والعالم من السنة ٥٧١ حتى السنة ٥٨٥ . وله ايضاً سير النساك الشرفيين ، وهو يشتمل على ثمان وخمسين ترجمة . وفيه فرائد عن السيرة النكبة ، والعبادات الرهبانية ، وسير الديارات في ذلك

^١ Olmstead, A. T., *Chicago Theol. Seminary Register*, 1942, 22.

العصر^١. « واهمية هذه المؤلفات هي انما نحفظ لنا بالدرجة الاولى شيئاً من ثقافة القائلين بالطبيعة الواحدة واتجاهاتهم القومية ، وتلقي ضوءاً على آخر مراحل النزاع بين النصرانية والوثنية^٢.

أخبار القديسين : وأهم من عني بأخبار الرهبان والنسك والقديسين يوحنا كليماكوس الذي اعتزل في طور سيناء ووضع كتابه الشهير السلم الروحية^٣ في ثلاثين فصلاً. وقد استعار التسمية من الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين : « ورأى يعقوب حلاًماً واذا سلم منضوبة على الارض ورأسها يس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . » وحاول يوحنا كليماكوس ، في كتابه هذا ، ان يبين مراحل التقدم في الحياة الروحية للوصول الى الكمال . فراج كتابه هذا بين جمهرة رهبان الروم وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والايطالية والاسبانية والفرنسية والسلافية . وفي نسخة المخطوطة تصاور جميلة للحياة الدينية والرهانية^٤ .

واما كيرلس البيسافي الذي قضى آخر دور من حياته في دير مار سابا في فلسطين فقد رغب في تدوين سير القديسين في كتاب ضخم ولكنه توفي قبل ان ينجز عمله . امتاز كيرلس بتفهمه الحياة الرهبانية وببسطه وتدقيقه وبساطة أسلوبه . فهو والحالة هذه من افضل المراجع لتاريخ الثقافة عند الروم^٥ .

ومن اشهر المؤرخين في اخبار القديسين يوحنا موسخوس الفلسطيني .

١ المؤلف المتور للبطريك اغناطيوس برصوم ، من ٢٦٤ - ٢٦٨ .

٢ *Dyakonov, John of Ephesus, 359.* ٢

Scala Paradisi. ٣

Dalton, O. M., East Christian Art, 316. ٤

Schwartz, Ed. Kyrillos von Skythopolis, Leipzig, 1939. ٥

وهو من الاعيان الذين وصلت حياتهم بين القرنين السادس والسابع ،
وضع المروج الروحية^١ بعد ما زار اديرة فلسطين وسينا ومصر وسورية
وآسية الصغرى وتجول في جزر المتوسط وايجه ، فكتب له ان يدون اشياء
كثيرة عن الرهبان والاديرة في عصره . ومصنفه هذا مفيد لتاريخ
الحضارة .

الشعراء : وأشهرهم رومانوس المرتل وقد سبقت الإشارة اليه .
وهو افضل من نظم في عهد يوستنيانوس . وقد وقف شاعريته على
الابتهاالات الدينية . ومن شعراء هذا العصر بولس الصامت الذي خص
كنيسة الحكمة الالهية بتصيدتين وصف بهما هذه التحفة النفيسة فخدم
تاريخ الفن خدمة كبيرة وأحرز تقدير معاصريه وبينهم اغاثيوس المؤرخ^٢ .
وأم القسطنطينية في هذا العصر نفسه الشاعر كوريبوس الافريقي ولبث
فيها ينشد باللاتينية اماديج يوحنا القائد الذي اخذ ثورة البربر في افريقية .
وبرغم ركازة نظمه فان شعره يتضمن بعض الفوائد الجغرافية والتاريخية
الضرورية لتاريخ افريقية الشمالية في القرن السادس . ونظم كوريبوس
ايضاً شعراً في يوستينوس الثاني ونسبه العرش فأفاد به المؤرخ اكثر كثيراً
ما افاد الادب . ومن قرض الشعر في هذا القرن ذوستوروس القبطي .
ولد في صعيد مصر في قرية صغيرة وتعلم علوم زمانه ثم درس الحقوق
وتعاطى الادب ، ولكنه لم يكن مجيداً في نظمه . وما بقي من ابياته على وريقات
البردي لا يزيد الادب الهليني فخراً . يضاف الى هذا انه لم يحسن قواعد
اللغة فجاءت ابياته ركيكة ضعيفة . واهتمام المؤرخين بآثاره يعود الى ما

Pratum Spirituale.

Friedlander, P., Johannes von Gaza und Paulus Silentiarius, Berlin, 1912.

تركه من وثائق شرعية واخبار اجتماعية لا الى تفوقه في الفكر او الشعر^١.
الفن : ومؤرخو الفن يعتبرون عصر يوستنيانوس العصر الذهبي الاول
في تاريخ الفن عند الروم . ويعتدون كنيسة الحكمة الالهية آية من آيات
فن البناء في العالم بأسره . وافضل الكتب التي صفت في هذا الموضوع هي
تقارير الاساذ هويتور عن اعماله الترميمية التي بدأت في السنة ١٩٣٣ ،
يضاف اليها كتاب الاساذ سويت آجيا صوفيا^٢ . واعجب ما في هذه
الكنيسة قبتها العظيمة . فانها تشيخ ضمن محيط قدره واحد وثلاثون متراً
على علو خمسين متراً فوق سطح الارض . وهو عمل لا يزال يعتبر حتى
ساعتنا هذه من معجزات فن البناء . وشكل الكنيسة مربع مستطيل
عظيم يقسمه صفان من الاعمدة الى ثلاثة آباء . والارض والاعمدة والاقسام
السفلى من الجدران جميعها من رخام ملون . وما تبقى من الجدران
والسقف جميعه مغشى بالفسيفساء المذهبة . وبطل النور على المصلين من
اربعة نافذة عند اسفل القبة الكبرى فتعكسه الفسيفساء المذهبة الملونة
اشعة متنوعة رائعة . اما الفناء امام هذا المعبد فانه كان فيما مضى واسعاً
كبيراً تتناسب مساحته وحجم الكنيسة ورائه . وكانت تحيط به من
جهاته الاربع اروقة ذات اعمدة مثقنة الصنع . وتقوم في وسطه نافورة
مزخرفة جذابة .

وهدم يوستنيانوس كنيسة الرسل التي كان قد شيدها إما قسطنطين
الكبير او قسطنديوس . واعاد يوستنيانوس بنائها بشكل صليب مربع

^١ Bell, H., Byz. Service State, Journal of Eg. Arch. IV, (1917), 104-105 ;
Greek Papyri in the Brit. Mus., Journal of Eg. Arch., V, III-IV.
^٢ Swift, E. H., Hagia Sophia, New - York. 1940.

الاجنعة . وعهد العمل الى التيموس التراتي واسيدور الاصغر . وبقيت هذه الكنيسة البديعة مدفناً لباطرة الروم حتى القرن الحادي عشر . ولما استولى الاتراك على القسطنطينية امروا بهدمها لينشئوا في موضعها جامع السلطان محمد الفاتح . وباستطاعتنا ان نستعيد صورة شكلها قياساً الى كنيسة القديس مرقس في البندقية او كنيسة القديس يوحنا في افسس او كنيسة سان فرون في بريغو^١ في قرنة ، فان هذه الكنائس جميعاً قد شيدت على طراز كنيسة الرسل في القسطنطينية^٢ .

وربما تعذر علينا اليوم ان نتلذذ تلذذاً تاماً بوجود الانقاص والبداية في الفسيفساء على جدران كنيسة الحكمة الالهية لان الاتراك قد حولوها عند الفتح الى جامع وطمسوا هذه الآثار بطلاء من الطين وغيره ولان اعمال التنظيف والترميم التي امر ائتورك باجرائها في هذه الكنيسة لم تتم بعد ، ولكن بإمكاننا ان نلص لطائف هذا الفن وروعته على جدران كنيسة القديس الشهيد فيتال في رابينة . ورابينة هذه كانت في القرن الخامس بعد الميلاد ملجأ لباطرة الغرب ثم اصبحت في اوائل القرن السادس عاصمة القوط الشرقيين . ولما تغلب يوستنيانوس على هؤلاء وفرض سلطته على ايطالية ، اصبحت رابينة مركز حكم الروم في ايطالية ومقر الاكسرخوس فيها وذلك طوال قرنين منذ منتصف السادس حتى منتصف الثامن . وآثار رابينة الفنية تعود الى عهد غالية بلاسيدية بنت ثيودوسيوس الكبير والى عهد ثيودوريجوس ويوستنيانوس . وشمل يوستنيانوس رابينة بعنايته فأكمل بناء كنيتين فيها ورصعها بالفسيفساء . ولا تزال هذه الفسيفساء محفوظة

Saint Front de Périgueux.

١

Heisenberg, A., Die Apostelkirche in Constantinopel, Leipzig, 1908.

٢

بأكملها في كنيسة القديس فيتال حتى يومنا هذا . واشهر ما فيها صورة
الامبراطور على جدار الحنية وراء المذبح يحيط بها اسقف راينة ورجال
الحاشية ، وصورة ثيودورة ووصيفاتها .

الباب السادس

تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود الملك وانظمته

•

الفصل الرابع عشر

هرقل والفرس والصقالبة والآفار

(٦١٠ - ٦٣٤)

سقوط فوقاس وقيام هرقل : وطغى فوقاس وجاوز الحد في الظلم والنسوة . قتل قسطنطينة ارملة موريتيوس وبناتها الثلاث . ونقض العهد الذي قطعه لئوسيس الفائد وأحرقه حياً . فكان ان كثرت المؤامرات ضده ولكنه استطاع ان يقضي عليها جميعها وان يعذب المتآمرين ويذبحهم . وتوغل الفرس في آسية الصغرى في قبدوقية وغلاطية حتى وصلوا الى ابواب خلقيدونية وأحرقوا القرى والمزارع على الشاطئ الآسيوي قبالة العاصمة . واكتسح الصقالبة إيليرية وتراقية . ولم يبق جزء من اجزاء الامبراطورية لم يلحق به اذى الا افريقية . وكان يحكمها آنذاك اكسرخوس "مسن"

صالح يدعى هرقل . أحبه الشعب في افرقية حباً جماً . فلم يحسر فوقاس
 ان يمسه بسوء . فانصلت احزاب العاصمة بهذا الاكسوخوس اكثر من مرة
 وحرّضه على القيام بواجب لا يستطيع القيام به غيره . فاستجاب وأعد
 اسطولاً وجيشاً . واتصل بكبار الملاكين في مصر وحرّضهم على الثورة
 فلبوه وشاركهم الشعب في ثورتهم ، فتمعروا تصدير الجبوب الى العاصمة
 فانتشر فيها الجوع . وجبه هرقل فوقاس بما لم يكن مهيباً له^١ . ثم دعا
 هرقل ولده الذي سماه هرقل ايضاً وأمره على الاسطول وأنفذ ابن اخيه
 نيقيطاس على رأس فرقة كبيرة من الفرسان الى مصر وما وراءها .
 ووصل هرقل الابن باسطول الى الدردنيل . والتجأ اليه زعماء المعارضة .
 وظهر اسطول هرقل على اسطول فوقاس . وتقرّدت عناصر هامة في جيش
 فوقاس . ففتحت المدينة ابوابها لهرقل . واعتقل فوقاس في قصره موظف^٢
 كان الامبراطور قد اساء اليه اساءة بالغة . وأحضر فوقاس بين يدي
 هرقل صاغراً . فقال له هرقل : « أهكذا حكمت الامبراطورية ؟ » فأجاب
 فوقاس : « وهل تحكمها انت خيراً مما حكمتها ؟ » فركله هرقل بقدمه وقطعه
 البجادة ارباً ارباً^٣ . واعتذر هرقل وأراد ان يتولى العرش بونيقوس ،
 ولكن الشيوخ ابوا ان يتولاه احد غير الذي انقذهم . فنادوا بهرقل
 فيلصفاً في اليوم نفسه وتقدموا به من البطريرك سرجيوس فتوجه هذا
 الى كنيسة الحكمة الالهية . وتزوج هرقل من افدوكية في اليوم نفسه
 ايضاً فنودي بها فيسليسة . وبعد ثلاثة ايام أحرق ثمال فوقاس في
 الحبيدروم ومعه علم الزرق^٤ .

١ شهادة تيوفانس . *Levchenko, M. V., Byzance, 119-120.*

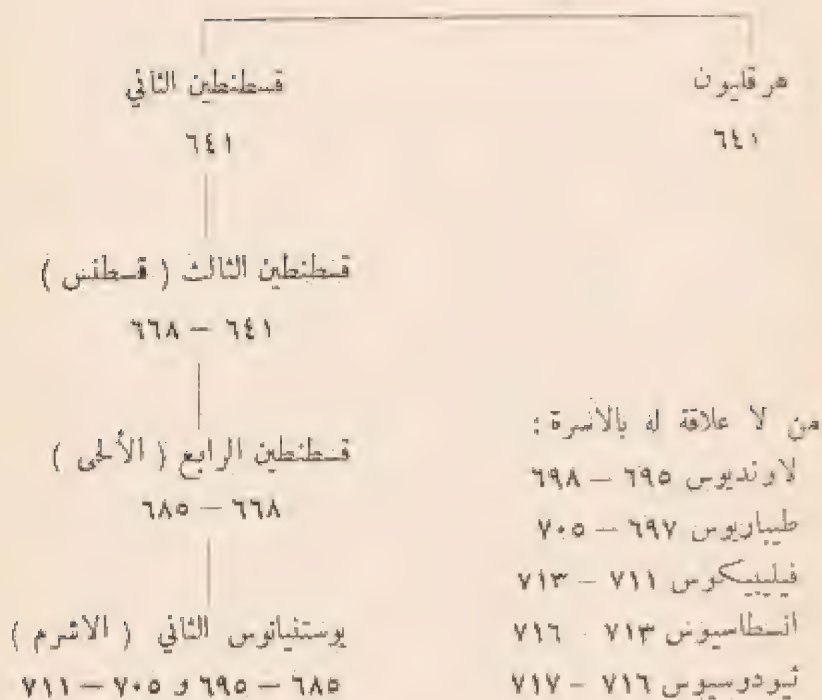
٢ اومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٠٢ .

Baynes, N. H., Successors of Justinian, Cam. Med. Hist., II, 288. ٣

أسرة هوقل : وقد جاء في تاريخ الامبراطور هرقل لسيبوس المؤرخ الارمني الذي شهد ذلك العصر ان هرقل منحدر من اصل ارمني وانه يمت بصلة الى الاسرة الارمنية الملكية أسرة الاراشكة^١ . ويؤيد هذا القول اليوم عدد من الباحثين وفي طليعتهم الاستاذ غريغوار^٢ . ويشك

هرقل

٦٦٠ - ٦٤١



Sébeos; The Hist. of Enip. Heractus, French Trans. 108.

Grégoire, H., An Arm. Dyn. on the Byz. Throne, Armenian Quart. I, ٢ (1946), 4-21.

فيه عدد مقابل من رجال البحث فلا يرون في أدلة زملائهم ما يضمن السلامة لما استنتجوه^١.

الحرب الفارسية : (٦١٠ - ٦٢٨) وكانت الامبراطورية في حالة من الفوضى والاضطراب تدعو الى القلق الشديد . فكتب هرقل الى ابرويز يعلمه بالتقصص الذي انزله بفوقاس ويؤكد له ان اعادة السلم بين الدولتين اصبح ميسوراً . ولكن ابرويز لم يجب . وكانت جيوشه قد قطعت الفرات واحتلت قرقسية عند مصب الحابور وكليتيكم الى شمالها . فانفذ هرقل بريسقوس القائد الى قيصرية قبذوقية ليطرد الفرس منها . فطردهم بعد حصار دام سنة كاملة . ولكنهم خرجوا منها مقتحين لهم طريقاً بالقوة وانزلوا بالروم خسارة كبيرة . ثم اتجهوا سطر ارمينية لتضية فصل الشتاء . واستطاعوا ان ينتصروا على الروم في سورية فأخذوا حصن عنوة في السنة ٦١١ . فما أطلت السنة ٦١٢ حتى سافر هرقل من القسطنطينية الى آسية الصغرى ليدرس الموقف مع بريسقوس عن كتب . فنبأه القائد في استقبال الفيلسفس متدعياً بالمرض . وفي النهاية أفهم هرقل انه لن يرضى عن تدخله في امور الجيش . فسكت هرقل على هذه الواقعة لانه لم يكن بإمكانه آنئذ ان يقاوم قوة بريسقوس بقوة مماثلة . وفي خريف السنة ٦١٢ أمّ العاصمة نيقيطاس ليفاوض الفيلسفس في شؤون مصر . وقدمها بريسقوس ايضاً ليشترك في استقبال هذا الضيف الملكي . وكان قد ولد لهرقل ولد ذكر فأعلم الفيلسفس بريسقوس بوجوب بقاءه في العاصمة لحضور حفلة عماد الطفل في الخامس من كانون الاول . فصدع بريسقوس بالأمر ، ولم يبرح العاصمة . وانتهر الفيلسفس هذه الساعه فأتهم القائد بالخيانة العظمى وأمر بالقاء القبض عليه وايداعه احد الاديرة . ثم أطل على جنود

Pernicé, A., L'Imperatore Eraclio, 44.

العاصمة فحسره قائداً اعلى . ثم جعل نيقيطاس قائداً على الحرس واخرج فيليبكوس من الدير الذي كان قد التجأ اليه وسلمه القيادة . واشترك اخاه تيودوروس فيها ايضاً .

ورأى هرقل ان يواجه الفرس في الجبهتين في آن واحد ، فأخذ فيليبكوس بجيش الى ارمينية وقام هو واخوه تيودوروس الى سورية الشمالية ليصدّا ابرويز عن احتلال سواحل لبنان وفلسطين ومصر . وكان ابرويز قد لمس ضعف الروم لمس اليد فأحب ان يستغل الموقف فالتقى الجيشان واشتبكا حول اسوار انطاكية في السنة ٦١٣ ، فدحر الروم وتراجعوا الى مداخل قيليقية فغلبوا فيها ايضاً ، واحتل الفرس طرسوس وقيليقية بأكملها . وصل هذا وقع لفيليبكوس في ارمينية . وفي السنة ٦١٤ تابع الفرس زحفهم الى الجنوب بقيادة شهربراز وزحفوا من قيصرية فلسطين الى اوروشليم وهي البلد المقدس عند اعدائهم . فحاصروها عشرين يوماً ثم دخلوها عنوة . فقتلوا جموعاً غفيرة من النصارى سبعة وخمسين ألفاً واسروا خمسة وثلاثين ألفاً وأحرقوا الكنائس والقوا القبض على البطريرك زخريا واستولوا على عود الصليب وارسلوه الى فارس . وكان شهربراز قد حالف اليهود على النصارى . فلما تم له ما أراد نفى من المدينة المقدسة جميع اليهود ثم اذن بترميم الكنائس . وهرع نيقيطاس الى المدينة المقدسة فلم ينقذ من آثارها سوى الحربة المقدسة والاسفنجة . وفي السنة ٦١٥ حاول شاهين قائد الفرس ان يكمل احتلال آسية الصغرى ولكنه لم يفلح فتراجع . وفي ربيع السنة ٦١٩ عاد شهربراز الى الفتح فزحف على مصر واحتل بليسيوم وميفيس وبابل . ثم

Antiochus Strategus, Capture of Jerusalem by the Persians, Trans: by N. Marr; Peeters, P., La Prise de Jérusalem par les Perses, Mel. Univ. St. Joseph, IX.

عرج على الاسكندرية فحاصرها واستولى عليها .

وهكذا خسر هرقل ارمينية وما وراءها وهي أخصب البقاع بالرجال لتعبئة الجيش ، وخسر مصر وهي مركز ثقل العاصمة ، وأضاع المدينة المقدسة وعود الصليب وهو ذكر النصارى . وكانت البلقات كما سنرى مسرحاً كبيراً لطغيان الآفار والصقالبة . فلم يبقَ والحالة هذه من جميع اقطار الامبراطورية قطر يمكن اللجوء اليه والاعتصام به سوى افريقية . فإراد هرقل ان يقلع اليها ليغزو منها مصر ويحلي الفرس عنها . وعلم الشعب في القسطنطينية بما نواه الفيلسفس فهبوا يردعونه ، وألح عليه البطريرك بوجوب البقاء في القسطنطينية ، ولم يكف عنه حتى أقسم بأنه ان يروح العاصمة . وفي اثناء هذا كله - ولنا ندري متى كان ذلك بالضبط - هاجم الفرس القسطنطينية باسطول بحري ، واملهم قصدوا بذلك الى معاونة الآفار كما سيمر بنا . على انهم لم يصادفوا التوفيق . فان الاسطول الرومي قضى على قوتهم البحرية وبدد شملها ، فغرق في بحر مرمر اربعة آلاف فارسي مع مراكبهم . وتنبهت الكنيسة فأمدت الفيلسفس بجميع ما لديها من الذهب والفضة ، شرط ان يعاد اليها ما يقابله بعد الحرب .

وكان هرقل قد استشفع الى العذراء في السنة ٦٠٩ عندما بدأ يستعد للحملة على القسطنطينية . فعاد اليها مستشفعاً في شتاء السنة ٦٢١ . واعتزل للرياضة الروحية تأهباً للقيام بواجب مقدس : واجب الدفاع عن الدولة والكنيسة والدين . وفي الرابع من نيسان من السنة ٦٢٢ تقدم من المائدة المقدسة متناولاً القربان الطاهر . وفي الخامس من الشهر نفسه دعا اليه كلاً من البطريرك مارجيوس والحاكم يونس والشيخ وكبار الموظفين والوجهاء والاعيان . والتفت الى البطريرك وقال : « اني اعهد الى الله والى والدته واليك هذه المدينة وباني من بعدي . » وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الالهية والابتهاال والتوسل تسلم ايكونة السيد المخلص . ثم أقلمع

بجنوده الى خليج نيقيوميذية . وسار الى غلاطية وقبدوقية لأكال التعبئة
 والتموين والتنظيم . ومن هنا القول ان هرقل اول الصليبيين .
 وأراد هرقل ان يقصي الفرس عن مراكزهم في قلب آسية الصغرى ،
 فقام بحركة التفاف واسعة النطاق ، واتجه بجيشه شرقاً مهدداً مواصلات
 العدو وطرق قومه . وحاول شهربراز ان يصرف هرقل عن خطته ففزا
 قليقية . ولكن هرقل لم يعمره انتباهاً . فاضطر القائد الفارسي ان ينتقل
 الى الشرق ليحول بين هرقل وهدفه . وتوافع الحصان في أرمينية في السنة
 ٦٢٢ فدارت الدائرة على الفرس وسجل هرقل نصراً مبنياً . وانسحب
 الفرس من قبدوقية والبونط . وعاد هرقل الى التسطنطينية لينظر في أمر
 الآقار . وفي ربيع السنة ٦٢٣ استأنف الهجوم في الشرق فقطع أرمينية
 واحتل دوخان ونشفقان ، ثم توغل في أذربيجان واتجه نحو تبريز كنزاًكة
 ليفاجئ أبرويز في قصره فيها . ففر أبرويز من المدينة . ودخلها الروم
 فأحرقوا معبدها الكبير وتمتعوا بالفرس المارقين وهم ينهبون ويدمرون .
 ثم رجع هرقل خوفاً من حركة التفافية خشي ان يقوم بها شهربراز او
 شاهين او الاثنان معاً .

وبانتصاراته هذه تسنى لهرقل ان يستمد من شعوب القوقاس المسيحية
 ما عبا به الصفوف . وكرر كركة أخرى الى الميدان في السنتين ٦٢٤ و ٦٢٥
 فضرب شهربراز عند بحيرة وان ، ثم ضربه في قليقية عند نهر ساروس .
 فاضطر القائد الفارسي ان يتراجع الى الشرق ، وعدل هرقل الى البونط

« وجاء في الكامل لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٨٣ . وفي غيره : « ووصل خبر عودة
 ملك الروم الى شهربراز ، فأراد ان يستردك ما فرط منه ، فعارض الروم فقتل منهم
 قتلاً ذريعاً ، وكتب الى كسرى وانفذ من رؤوسهم شيئاً كثيراً . وفي هذه الحادثة ازل
 الله تعالى : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون » . يعني بادنى
 الارض اذرعان ، وكانت الروم قد هزمت بها في بعض حروبها . »

لتمضية فصل الشتاء . ثم نوى ان يتحرك من البرنط بجيش عظيم في السنة ٦٢٦ ليستأنف انتصاره على الفرس ، ولكن تقدم الآفار في البلقان وحصارهم القسطنطينية اضطراه ان يؤجل قصده هذا حتى السنة ٦٢٧ . وفي صيف السنة ٦٢٧ قام الحزر حلفاء هرقل بحصار نفليس ، وهب هو الى محاربة ابرويز ، فعبر نهر الآراس عند اشميازن ، ثم دخل منطقة ادرات فازريجان ، وانحدر بعد ذلك الى وادي الزاب . وفي الثاني عشر من كانون الاول نازل ابرويز عند أطلال نينوى فأوقع به هزيمة شتعا . ثم عبر الزاب متجهاً شطر طيسفون عاصمة الفرس ، فاحتل المقر الملوكي في دستجرد وانتزع منه ثلاث مئة لواء رومي كان الفرس قد استحوذوا عليها في انتصارات سابقة ، واطلق سراح الوف من الاسرى . ولما كان جيش شهربراز لا يزال كاملاً سالماً ، وكانت خطوط الدفاع عن طيسفون قوية منيعة ، أثر هرقل التبرص لمدوه في تبريز . فقطع جبال الزاغروس في ابان الشتاء وبلغ الى تبريز سالماً في الحادي عشر من آذار سنة ٦٢٨ .

وكان شيرويه ابن ابرويز قد ثمره على والده وتسلم العرش في الثامن والعشرين من شباط من السنة ٦٢٨ ، فكتب الى هرقل يطلب الصلح . فصالحه الفيلس على شروط اهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس . وقبل شيرويه هذه الشروط . فاتصل هرقل بشهربراز لتنفيذها ، وكان هذا القائد لا يزال مستولياً على شطر وافر من املاك الروم في آسية . وبعد مفاوضات طويلة اجتمع هرقل وشهربراز في ارايسوس في آسية الصغرى في حزيران من السنة ٦٢٩ . وعرف هرقل كيف يحدث شهربراز بما كان يراود نفس القائد الفارسي . وكان شهربراز يطمع بعرش الفرس . فعلمه هرقل بالامل ، فأسرع القائد الفارسي الى تنفيذ المعاهدة ، وأجل جيوسته عما كان يحتله من اراضي الروم .

وفي آذار السنة ٦٣٠ تسلّم هرقل عود الصليب في منبج في سورية الشمالية ، فانتقل به الى المدينة المقدسة وأحله محله في الثالث والعشرين من الشهر نفسه^١. وكان هرقل قد امتنع هو وأسلافه في المنصب الامبراطوري عن اتخاذ لقب فيلسف برغم ان وعائهم كانوا يطلقون هذا اللقب عليهم رداً على ما كان يتلقب به ملوك الفرس . فلما انتصر هرقل على الفرس ذلك النصر الباهر غيّر لقبه الرسمي من اوتوقراتور الى فيلسف^٢.

الآفار والصقالبة : وفي السنة ٦١٧ عبر الدانوب جمع غفير من الصقالبة ناقلين معهم عيالهم وامتعتهم ، فانتشروا في ايليرية وابيروس وثسالية وآخية وتراقية ، وفي جزر بحر ايجه وشواطئ آسيا ، وعاثوا في البلاد فساداً . وطوّقوا ثيسالونيكية وحصروها شهراً كاملاً . ولم تصدّ تجلي الحنة وينقضي عامان حتى كثر الصقالبة كثرة أخرى جارين وراءهم الآفار ، وما زالوا حتى بلغوا الى ضواحي القسطنطينية ، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا . ولم يتراجعوا الا بعد ان زاد لهم هرقل الاقوة .

وقضت الحرب الفارسية بتغيب الامبراطور عن العاصمة ثلاث سنوات متتالية . فعاد الآفار الى سابق سيرتهم ، وارادوا هذه المرة اقتحام العاصمة نفسها في السنة ٦٢٦ . وتقدم الفرس في الحرب حتى خلقيدونية ، فبكت خاقان الآفار بعهد السابق ، واندفع بمجموعه الى اسوار القسطنطينية . وكان الامبراطور قد أقام ابنه نائباً عنه في الحكم ، وأقام البطريرك سرجيوس وصياً عليه . فهب البطريرك بفصاحته وشجاعته يثير الحمم ، ويشدد العزائم ، فيطوف العاصمة بالشعار الدينية ، ويعلو بنفسه الاسوار

Theophanes, Chronographia, ed. de Boor ; Sebeos, Emp. Heraclius ;
Minorski, V., Roman and Byz. Campaigns in the Atropatene.
Bury, J. B., Selected Essays, 109.

ومعه ايقونة المخلص وايقونة العذراء . فأصبح على تغيير احد المعاصرين :
« خوذة العاصمة وذرعها وسيفها » . ويقول معاصر آخر : « ان البطريك
ما فتى بواجه قوات الظلمة والفساد بايقونتي المخلص والعذراء شفيعة العاصمة
حتى أدب في قلوبهم الرعب والخوف . فكانوا كلما عرض البطريك من
الأسوار ايقونة الشفيعة أعرضوا هم عن النظر اليها » . وجمع الفرس اسطولاً
وحاولوا الوصول الى الشاطئ الاوروبي بجرأ ، ولكنهم أخفقوا لان
مراكب الروم بددت شملهم عند القرن الذهبي « فصبغت المياه بدمهم
وغطت البحر بدمهم » . وانقض خافان الآفار بجموعه على الاسوار
لآخر مرة في العاشر من غوز فارتد خائباً وهو يقول : « اني رأيت
امراً متوشحة بأثمن الاثواب تطوف الاسوار من اولها الى آخرها ! »
وهكذا نجت العاصمة من هذا الخطر المدام ، فعزا سكانها انتصارهم على
الآفار والفرس في آن واحد ، الى السيدة العذراء حامية المدينة . ونظم
البطريك سرجيوس تسيبيته الشهيرة الاكافيستون التي لا تزال توددها ونغمها
باللحن الرابع حتى يومنا هذا مساء كل جمعة من الاسبوع المحنة الاولى
من الصوم الكبير :

اني انا مدينتك يا والدة الاله .

ارفع لك رايات الغلبة ايها البائدة المحامية .

واقدم لك الشكر لنجاتي من الشدائد .

ولما كنت ذات العزة التي لا تحاب ،

فاعنتني من انواع الشدائد ،

حتى أصرخ اليك قائلاً :

السلام عليك يا عروسة لا عروس لها.

وكان هرقل يرى ان الخطر الفارسي اشد كثيراً من خطر هؤلاء البرابرة فأهمل الدفاع عن العرب وخسر كل ما كان قد احرزه يوسنيانوس في اسبانية . وطمع الاكسرخوس الفارابيوس بعرش ايطالية في السنة ٦١٩ ودخل رومة واعلن نفسه امبراطوراً عليها . وكانت قبائل الصقالية طوال الحرب الفارسية تنسرب الى البلقان فاحتلت جميع مناطق البلقان الشمالية الغربية ، وثبتت اقدامها في بانونية وميسية ودلماتية . وبين الصقالية الذين دخلوا البلقان في هذه الآونة واحتلوا ايليرية الصرب والكروات^٢ . وقد ابقى هذه الموجات الطامية رواسب كبيرة من الصقالية في مقدونية وبلاد اليونان نفسها . واذا صدقنا اسيدور اسقف سبيكة فتكون مزجة الصقالية هذه قد غمرت بلاد اليونان بأسرها^٣ . وبقيت احوال البلقان الشمالي والغربي مضطربة ، وظل الصقالية الضيوف في هرج ومرج طوال عهد هرقل . ولم تسكن حكومة الروم من فرض سلطتها وهيبتها عليهم حتى اواخر القرن السابع .

القول بالمشيئة الواحدة : وكان من الطبيعي جداً ان يؤدي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد ابناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالفلسطينية وتسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً ان يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع انه لما عاد الروم الى هذه الاقطار وجدوا ان جميع بطاركتها هم من اتباع الطبيعة الواحدة . فعادوا الى معالجة هذا الانشقاق

^١ Krumpholtz, *Gesch. der Byz. Litt.*, 671-673 .

^٢ Burg, *J. B.*, op. cit., II, 275 ff ; Jireček, *C.*, *Gesch. der Serben*, (1911 and 1918)

^٣ Isidori, *Hispalensis Episcopi*, *Patrologia Latina*, LXXXIII, 1056 .

في الكنية لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خصوصاً لأن الاخطار كانت لا تزال تحيط بالامبراطورية وتهدد كيانها .

وكان طبيعياً ايضاً ان يشعر البطريك سرجيوس صديق هرقل الامين بالضعف الذي نجم عن هذا الاختلاف في العقيدة . ذلك بان البطريك كان يارس الحكم ويطلع على خفايا الامور في انشاء تغيب هرقل عن القسطنطينية في الحرب الفارسية . ويرى بعض الباحثين ان سرجيوس بدأ منذ السنة ٦١٦ يعرض على بعض الاساقفة القول بطبيعتين في السيد مع فعل واحد ، وان هرقل رأى في هذا القول مخرجاً من الازمة اللاهوتية المستحكة ، ووسيلة لتوحيد الصفوف . فلما كانت السنة ٦٢٢ فاض هرقل جملة من الاساقفة في قبرص وارمينية . ثم في السنة ٦٢٣ فاض كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد ونصح له ان يكتب الى سرجيوس في هذا الموضوع . فقبل كيروس وكتب الى سرجيوس ، فأجابه هذا بأنه قد وجد بين رسائل احد اسلافه ميناس رسالة وجهها الى فيجيليوس بابا رومة اشار فيها الى فعل واحد ومشئنة واحدة . وأضاف انه لا يعرف احداً من الآباء يؤيد القول بالمشئنتين . وهكذا قال كيروس بالمشئنة الواحدة . وسر به هرقل وازداد شجاعة على المضي في هذه التسوية . ففاوض في السنة ٦٢٩ اثناسيوس بطريك انطاكية ، وكان هذا عن يقول بالطبيعية الواحدة ، فقبل . ثم التأم في السنة ٦٣٠ مجمع ثيودوسيوبوليس فقبل كاثوليكيوس الارمن لسز واساقفته اعتناق القول الجديد . وثبت هرقل اثناسيوس على الكرسي الانطاكي ، وجعل كيروس بطريكاً ووالياً على مصر . وأصبح أمه بالانحد وطيداً بعد ان قبل اربعة بطاركة بالحل الجديد . وعندئذ كتب سرجيوس بطريك القسطنطينية الى اونوريوس بابا رومة مبنياً ما تم من توحيد الكلمة راجياً منه ابداء الرأي . فجاء جواب البابا مبهماً غامضاً ولكنه لم يكن سلبياً . فانه اشار الى عبارة بولس الرسول

في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس في الفصل الثاني عن « صلب ربّ
المجد » كما اقتبس من كلام يوحنا الحبيب في الفصل الثالث من انجيله أنه
« ليس احد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي
هو في السماء » ، مبيّناً انه يجوز القول ان الله قد نالهم . وفي الوقت
نفسه استدرك اونوريوس ان ليس من رأيه ان يصار الى الكلام في الفعل
الواحد والفعلين بعد ان تمّ هذا الاتحاد في الكنيسة^١.

وفي السنة ٦٣٤ نبأ العرش البطريركي في المدينة المقدسة راهب شديد
الشكينة قوي القلب ، صفرونيوس الشهير . وكان قد سبق له ان أمّ
القسطنطينية وهو لا يزال راهباً ، واحتج على القول بالمشيئة الواحدة .
فلما أصبح بطريركاً عقد مجتمعاً محلياً في المدينة المقدسة وحرّم التعليم
بالمشيئة الواحدة ، وكتب الى اخوانه البطارقة الآخرين كتابة صارمة ضد التعليم
الجديد . فاضطرب البابا اونوريوس وكتب الى صفرونيوس وغيره كتابة
يعني رسالته المشار اليها آنفاً . فلم ينتج عنها اي اتفاق لمعوضها وقلة
صراحتها . ولم يوفق كيروس كل التوفيق في مصر . فان الساوريين وافقوه
على القول بالمشيئة الواحدة ، ولكن اليونانيين والشيخ الاخرى اعترضوا .
فضايقتهم كيروس بما أعطي من صلاحيات مدنية وسجنهم وعذبهم وقتل
منهم فريقاً . ففرّ رؤساؤهم الى البراري ليعودوا الى مصر مع العرب
الفاتحين . وتوفي صفرونيوس في السنة ٦٣٧ ، سنة دخول العرب الى المدينة
المقدسة . فأصدر الامبراطور دستور ايمان جديد سنة ٦٣٨ عرف
بالاكتيسيس Ecthesis وحتم فيه القول بالمشيئة الواحدة . وعقد سرجيوس
مجمعاً في اواخر هذه السنة نفسها وصدق على الاكتيسيس . ثم ادركته الوفاة

Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, 407; Zananiri, G., Hist. de l'Eglise
Byz., 144-145.
Zananiri, G., op. cit., 147.

فخلفه يبرئس ووافق على ما كان قد أقره سلفه . وفي هذه السنة نفسها توفي البابا أونوريوس فخلفه سويرينوس (٦٣٨ - ٦٤٠) ومات دون أن يحرم القول بالمشيئة الواحدة^١ . أما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ - ٦٤٢) فإنه حرّم المشيئة الواحدة . وفي السنة ٦٣٩ تم للعرب فتح الشام فدخلوا انطاكية فصعبت الصلة وأوشكت تنقطع بين هذا المركز الديني والقسطنطينية . وفي السنة ٦٤١ توفي هرقل وأخالة على ما وصفنا .

وهنا يحسن التذكير بموقف الكنيسيتين الرئيسيتين من القول بالمشيئة الواحدة . فهذا القول بحسب موقف الكنيتين مردود لأنه يناقض كمال اللاهوت والناسوت في السيد المسيح . فالطبيعة لا يمكن أن تكون كاملة وهي ناقصة الارادة والفعل . والاعتقاد بالطبيعتين يلزمه الاعتقاد بالمشيئتين والفعلين باتحاد وبلا انفصال . والمسيح لم يُرد ولم يفعل شيئاً من حيث هو انسان فقط بل من حيث هو اله وانسان معاً بلا اختلاط ولا انقسام^٢ .

^١ Zavantri, G., op. cit. 147.

^٢ جراسيموس متروبوليت بيزوث ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، هامش .

الفصل الخامس عشر

هرقل والعرب

(٦٤١-٦٣٠)

النبى العربي والروم : ولما اشتدت الحرب بين الفرس والروم وبلغت انبأؤها الى العرب كان النبي والمسلمون متحازين بعاطفتهم الى الروم لانهم كانوا في نظرهم اهل كتاب مثلهم . فاما كفار العرب فكانوا يميلون بعاطفتهم الى الفرس لانهم مثلهم أميون . ولا ادل على ذلك من ان ابا بكر الصديق ، وهو طليعة المسلمين ، قد راهن أبي بن خلف وهو من وجوه الكفار على مئة بعير ان الروم سينتصرون .

وكان الرسول قد استطاع ان يجمع حول رسالته عدداً من اهم قبائل العرب . وكان قد استقر في يثرب واتخذها قاعدة عمله . ولكنه كان يسعى سعياً حثيثاً لفتح مكة قاعدة العرب الدينية . وكان اليهود قد ناصبوه العداوة وظهروا له الشر وقاتلوه فانهمزوا وخرجوا من يثرب شمالاً الى حدود الروم ، وبعضهم وصل الى اذرعات (درعة) في حوران . وكانوا يتصلون بالمشركين العرب فيحرضونهم على المسلمين . فعاد النبي الى قتال اليهود فضرهم ضربة شديدة في خيبر . ولما طلبوا الصلح فيها بعث الى اهل فدك يخبرهم بين ان يسلموا او يسلموا اموالهم فصالحوه على نصف اموالهم من غير قتال . وتجهز الرسول للعودة الى المدينة عن طريق

وادي القرى . فتجهز يهودها لقتال المسلمين وقاتلوهم . ولكنهم اضطروا
 للصلح ففعلوا . وقبل يهود تيماء دفع الجزية بدون حرب . اما يهود واحات
 الجرباء ومقنا واذرح فأنهم كانوا ابعد الى الشمال . وكان النبي لا يزال
 يستعد لفتح مكة وفرض سلطته عليها . فرأى فيما يظهر ان لا بد من
 جولة ثانية في الشمال ليرعب بها اليهود هناك ويؤمن مؤخرته قبل الزحف
 على مكة مطمح انظاره . ويؤخذ من بعض النصوص ان النبي أرسل بعد
 صلح الحديبية خمسة عشر رجلاً الى ذات الطلح على حدود الشام يدعون
 الى الاسلام في منطقة هؤلاء اليهود الشماليين ، فكان جزاؤهم القتل ولم
 ينبج منهم الا رئيسهم .

وجاء في بعض المراجع العربية أيضاً ان الرسول أوفد بعد الحديبية
 الى هرقل وكسرى والنجاشي ، والى المقوقس ، والحارث الغساني ، والحارث
 الحميري ، رسلاً ورسائل يدعوهم بها الى الاسلام . وانه صنع لنفسه خاتماً
 من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » وختم به رسائله ، وانه كتب
 في رسالته الى هرقل ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن
 عبدالله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني
 ادعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله اجره مرتين . فان توليت
 فانما عليك اسم الاريسين . » وتذكر هذه المراجع نفسها ان النبي دفع
 برسالته هذه الى دحية ابن خليفة الكلبي ، وان دحية هذا سافر الى
 هرقل ، فالتقاء في شخص في طريقه الى المدينة المقدسة ، وان هرقل
 لم يغضب ولم تثر ثأرته ، وانه رد على الرسالة رداً حسناً . وجاء في
 هذه المصادر العربية ايضاً : « ان الحارث الغساني بعث الى هرقل يخبره
 ان رسولا جاءه من محمد بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ، وان الحارث

استاذن سيده بان يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة ، وان
هرقل أجاب الخارث بان يوافيه الى المدينة المقدسة . » وبما جاء في
المصادر العربية ايضاً ان شرحبيل ابن عمرو الغساني قتل الخارث ابن عمرو
الازدي رسول النبي الى صاحب بصرى في حوران ، وان النبي أنفذ حملة
الى حدود الروم ليقتص من جروء على قتل رسوله .

وبما تشتمل عليه المصادر العربية ايضاً ان المقوقس حاكم مصر
بعث الى النبي في الرد على رسالته يقول : انه يعتقد ان نبياً سيظهر ،
ولكنه سيظهر في الشام . وتضيف هذه المصادر ان المقوقس بعث الى النبي
جارتين وبغلة وحملاً وكمية من المال وبعض خيرات مصر ، وان النبي قبل
هذه الهدية وتزوج من احدى الجارتين ماريما فولدت له ابراهيم ، وانه اهدى
شيرين الجارية الثانية الى شاعره حسان ابن ثابت ، وانه اسمى البغلة الفريدة
في بياضها دلدل ، والحمار صغيراً او يعقوراً .

ويختلف علماء الفريضة من رجال الاختصاص في تاريخ الروم والعرب
في أمر هذه الرسائل . فقريق يراها صحيحة وآخر يشك في صحتها . وفي
طليعة الفريق الاول بنلو صاحب كتاب فتح مصر ، وبيوري صاحب
التأليف العديدة في تاريخ الروم^١ . وبين الفريق الآخر كايثاني ودليل^٢ .
والحجة الرئيسة لمن يعترض على صحة هذه الرسائل ان ابن اسحق اقدم
من كتب في السيرة لا يذكرها^٣ . ولكن لا يخفى ان سكوت المصادر
لا يتخذ حجة الا بشروط معينة ابناها في كتابنا المصطلح^٤ . والبحث في صحة

Butler, M., Arab Conquest of Egypt, 139 ff ; Bury, J. B., Const. of Later Roman Empire, II, 261 .

Gaetani, L., Annali d'ell Islam, I, 731-734 ; Diehl et Murgais, Monde Oriental, 174 .

Becker, K., Gam. Med. Hist., II, 337 .

١ مصطلح التاريخ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

هذه الرسائل يستوجب الرجوع الى القرآن نفسه لنرى اذا كان المراد به رسالة للعالمين او رسالة خاصة بالعرب . وهو في نظرنا رسالة للعالمين دونما ريب . والنبي الذي حمل هذه الرسالة باديء ذي بدء الى افراد قلائل من اقربائه ارادها في النهاية قوة تسيطر على العالم اجمع^١ .

اما قول غريمه وكايتاني في ان القرآن أريد رسالة للعرب دون سواهم فانه قول ضعيف لا يركن اليه^٢ .

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل التي صدرت عن النبي الى هرقل وغيره ، فان المراجع الاولية العربية واليونانية تجمع على ان النبي قد أنفذ في السنة ٦٢٩ حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل الى حدود الروم الى قرية المشارف ، وان المسلمين وصلوا اليها ثم انمازوا عنها الى قرية مؤته ليحصنوا بها ، وان معركة حامية دارت رحاها في مؤته وأسفرت عن مقتل عدد كبير من المسلمين ، بينهم قائد الحملة زيد ابن حارثة وريب النبي ، وجعفر ابن ابي طالب ، وان خالد ابن الوليد دافع بالقوم وحاشى ثم انماز وتحمز حتى انصرف بالناس^٣ .

وايا كانت الحاقة التي لقيتها هذه الحملة فان نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى . فبينما رأى الروم فيها غارة كذلك التي اعتاد البدو ان يشنوها للنسب والنهب كانت حملة ربيب النبي من نوع جديد ولم يقدر الروم اهميتها . فهي غارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة ، وغدا انهماكها

١ اطلب تفصيل هذا في بحث شائق للمستشرق المستعرب غولدرير :

Goldziher, L., Die Religion des Islam - Die Religionen des Orients, III, 106.

Grunné, H., Mohammed, I, 123 ; Coetani, L., Studi di Storia Orientale, ٢ III, 236, 257.

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٦٩٠ ، وما يليها . ابن هشام (الطبعة الأوروبية) ، ص ٢٩١ وما يليها . الطبقات لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

Theophanes, Chronographia, 333-335

وقتل قائدها باعثاً جعل المسلمين يتطلعون باعين واسعة الى الشام . كذلك اضحى تحرق المسلمين للأخذ بنأرهم قوة دفعت الاداة الحربية الاسلامية في انطلاقها السريع تطوي تلك البلاد .

« ولما أصيب جعفر ذهب محمد الى منزله ودخل على زوجته اسماء بنت عيسى ، وكانت قد عجنّت عجينةا وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لها : اتيني ببني جعفر . فلما أتته بهم تشمهم وذرفت عيناه الدمع . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فرّبت على كتفها وبكى »^١ .

لما كان العام التالي ، أي السنة ٦٣٠ ، قام الرسول بنفسه الى حدود الروم في ظروف قاسية حرجة « في زمن عسرة من الناس وجذب من البلاد وحين طابت الثمار وأحييت الظلال »^٢ . فوصل يجمعه الى تبوك . ولم تشبك رجالة مع اي قوة رومية . ولكنه صالح اهل جرباء واذرح ومقنا . وصالح يوحنا ابن روبة صاحب ايلة في خليج العقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنه بن روبة واهل ايلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . فمن احدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه . وانه طيبٌ الحمد اخذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يردونه من بر او بحر . » ودفع يوحنا مقابل هذا ثلاث مئة دينار جزية في كل عام . وصالح النبي اكيدر ابن عبد الملك ملك دومة - وكان نصرانياً ايضاً - وذلك على جزية يدفعها كل عام^٣ . واكتفى النبي بهذا وعاد الى المدينة

١ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٣٧ .

٢ حياة محمد للدكتور حسين هيكال ، ص ٣٧٨ .

٣ الطبري ج ١ ، ص ١٦٩٣ .

٤ فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ . راجع ايضاً السيرة لابن هشام ، ص ٩٠٢ وما يليها .

بعد ان اقام في تبوك اسبوعين من الزمن ،
 الروم والذبي العربي : ولم يفقه الروم فيما يظهر كنه الرسالة العربية .
 فان ما تبني من آثار جدلم الدين يظهر انهم اعتبروا الاسلام خروجاً
 آخر عن الكنية الام من نوع خروج الذين قالوا بالطبيعة الواحدة
 والمشئة الواحدة والآريوسيين وغيرهم . وظل شيء من هذا عالماً باذهان
 بعض المفكرين الاوروبيين طوال العصور الوسطى . ومن هنا قول دنتي
 ان محمداً خرج على النصرانية وبذر الشقاق فيها^١ . ونهج مؤرخو الروم
 نهجاً مماثلاً فلم يكتفوا لظهور النبي العربي ولم يكتبوا شيئاً في الاسلام
 من ناحية السياسية . وظنوا بادى ذي بدء ان هذه القوات العربية
 ليست سوى عصابات صغيرة تبغي السلب والنهب ككسائر عصابات البدو
 آنس^٢ .

ابو بكر الصديق والروم : وبقيت ذكرى هزيمة مؤتة تستفز
 المسلمين فتوجه انظارهم شطر الشام . فلما كانت السنة ٦٣٢ أعاد النبي
 جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، وأمر عليه اسامة ابن زبيبة زيد ابن حارثة
 الذي سقط في ميدان مؤتة . على ان الوفاة عاجلت النبي في الشام من
 حزيران من السنة نفسها قبل ان يتحرك الجيش . وتولى الخلافة بعده
 ابو بكر . وحدث ارتداد في القبائل العربية . ونصح الناصحون
 للخليفة الا يفرق عنه جماعة المسلمين ولكن الخليفة قال : « والذي نفس
 ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما
 امر به رسول الله^٣ . » وغزا اسامة بينة بين عسقلان وباقية وسلم وغنم

Dante, *Inferno*, XXVIII, 31-36.

Güterbock, K., *Der Islam im Lichte der Byz. Polemik*, 6, 7, 11, 67-68.

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٨٤٨ - ١٨٤٩ .

وعاد في اربعين يوماً^١. ونهض في هذه السنة نفسها خالد بن سعيد الى بلاد الروم واوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق فانهمز وعاد الى المدينة.

وبعد انتهاء حرب الردة أعد ابو بكر جيوشاً اربعة وسيورها على الشام وعقد الويتها لابي عبيدة ابن الجراح ولعمر بن العاص وليزيد بن ابي سفيان ولشرحبيل ابن حسنة. وأمر ابا عبيدة ان يتجه نحو حمص وأمر عمر أن يقوم الى فلسطين وأمر يزيد بن ابي سفيان ان يواصل السنة شرحبيل ان يأتي الاردن^٢. فانتصر يزيد بن ابي سفيان في اوائل السنة ٦٣٤ على سرجيوس بطريق فلسطين في وادي عربة المنخفض العظيم جنوبي البحر الميت. وكان حامل اللواء الاسلامي معاوية مؤسس الدولة الاموية فيما بعد. وارتد الروم على غزة فاقتتل الطرفان مرة ثانية في دائن في الرابع من شباط من السنة نفسها واندحر الروم مرة اخرى. اما الجيوش الثلاثة الاخرى فقد اوقع بها الروم ووقفوا تيار زحفها.

ويرى المستشرق المستعرب كارل بكتر ان نجاح ابي بكر بحروب الردة في قلب الجزيرة العربية قد اكسبه مهابة وعظمة في نفوس عشائر بكر بن وائل الضاربة عند حدود العراق الغازية في اطرافه وان هذه المهابة جعلت تلك العشائر تضادق من وراءها من العشائر والقبائل الاخرى التي كانت قد اعتنقت الاسلام. ويزيد بكتر ان المثنى بن حارثة كبير بني شيبان الوائلي الذي اشتهر بانتصاره على الفرس في موقعة ذي قار (٦٠٤ او ٦٠٦) هو الذي استدعى خالد بن الوليد وجماعته الى حدود العراق لمحاربة الفرس. ومن الناحية الثانية يرى بكتر ان ابا بكر ومن

١ الطبري ج ١ ص ١٨٥١.

٢ الطبري ج ١ ص ٢٠٨٤ - ٢٠٩٠.

حوله اضطروا اضطراراً ان يُلْهِتُوا من اسلم من القبائل العربية بغزو العراق كي لا تعود هذه القبائل الى غزو بعضها كما جرت عاداتها من قبل فتنتها بذلك حرمة الاسلام ، والمسلم اخو المسلم . ويرى أيضاً ان خروج العرب المسلمين الى العراق سبق خروجهم الى الشام^١ .

« وشجا جموع المسلمين في الشام واشجوا » . فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد ان يؤمّر على العراق المنى وان يسير الى الشام . فهب خالد على رأس جماعته وكانت حروب الردة والعراق قد صهرت جنوده واورثتهم مناعة وقوة . بدأ بالزحف من الحيرة الى صندوداء فلقه اعرابها فظفر بهم ، ثم لقيه جمع بالمصيخ والخصيد عليهم ربيعة ابن بجير التغلبي فهزمهم . ثم سار من فراق الى سوّى فاغار على اهل سوّى واكتسح اموالهم وقتل حرقوص ابن العمان البهراني . ثم اتى ارك فضاخوه . واتى تدمر فتحصنوا ثم صالحوه . ثم اتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم . واتى حواريين فقاتلهم فهزمهم . واتى قصم فضاخه بنو مشيعة من قضاة . واتى مرج راهط من مضارب القمامنة قرب عذراء وعلى بعد عشرين كيلومتراً من دمشق فاغار على غسان في يوم فصحهم وقتل وسبى ووجه بعض رجاله الى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العمال الى خالد . ونزل على قناة بصرى وعليها ابو عبيدة وشرحبيل وي زيد ، فاجتمعوا عليها فربطوها حتى صاحت على الجزية في اذار من السنة ٢٦٣٤ .

وكان عمرو ابن العاص قد سلك طريق أيلة (العقبة) فاغار على جنوبي فلسطين حتى غزة وقبصرية ، فقطع المواصلات بين المدينة المقدسة وبين

Becker, K., *Expansion of Saracens*, Cam. Med. Hist., II, 337-338.

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٠٨ - ٢١٠٩ و ٢١٢٥ .

الساحل . فجيئش هرقل جيشاً كبيراً في نقطة وقعت الى جنوبي دمشق وعقد لواء هذا الجيش الى اخيه القبطار ثيودوروس^١ . وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هذه القبائل المعيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة . وتقدم ثيودوروس ببطء واتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة ، فربط في اجنادين بين القدس وغزة . وخشي خالد سوء العاقبة على اخوانه في الجنوب ، وكانت مترفعاً نبيلاً ، فلم يحفل بامكانيات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرقي الاردن ، وجمع الجموع في وادي عربة ، ثم دفع بها الى فلسطين لمجابهة ثيودوروس . وفي الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ نشبت معركة حامية بين الروم والعرب المسلمين في اجنادين . وكتب النصر للعرب ، فجلا الروم عن ارياف فلسطين كلها ولم يبق لهم فيها سوى عدنها المحصنة^٢ . ويستدل من العظة التي القاها صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة يوم عيد الميلاد من هذه السنة ان العرب غشوا فلسطين كلها بعد اجنادين وان الفوضى حمت الارياف بأسرها وانهم تقدموا شمالاً حتى حدود حمص^٣ .

عهد الكبير والروم : وتوفي ابو بكر بعد اجنادين وتولى الخلافة عمر ابن الخطاب . وكانت قبائل اليمن وما يليها من الجنوب قد بدأت تسمع بانتصارات خالد وغيره فهبت تلي النداء بمجموعتها رجالاً ونساء واطفالاً . فرأى الخليفة الكبير بثاقب بصره ان لا بد من التنظيم . فوحد

١ الطبري ، ج ١١ ، ص ٣٣٤٧ . ولعل الاشارة هنا الى اللقب الرومي *Europalates* ومعناه قائد قوات القصر جميعاً . وظل هذا اللقب مستعملاً عند الروم طوال اربعة قرون من السادس حتى العاشر .

٢ الطبري ، ج ١١ ، ص ٢١٢٥ - ٢١٢٦ : « ثلثين بيتاً من جمادى الاولى سنة ١٣ هـ » .

Becker, K., *op. cit.*, 341-342

الجيش ووحد القيادة وعقد لواءها الى خالد ابن الوليد . وجمع هرقل
 البقية الباقية من جنوده في دمشق واستدعى اخيه ثيودوروس الى
 القسطنطينية وأمر على الجيش في سورية القائد بانس . ورأى هذا القائد
 ان يصد في وجه العرب في فحل التي كانت تسيطر آنذاك على مجاز
 الاردن في جنوب بحيرة طبريا وتحمي الطريق المؤدية الى دمشق . وهدم
 بانس سدود المياه ليعرقل سبل الفاتحين . ولكن هؤلاء استولوا على فحل
 بالقوة في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ وتابعوا السير الى
 دمشق . وفي الخامس والعشرين من شباط جعلوا نصراً آخر على جيش
 الروم في مرج الصفر على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق الى جنوبها .
 وفي ظرف اسبوعين من الزمن ظهروا امام اسوار دمشق وضربوا الحصار
 عليها وشددوه . فتضايق السكان فتآمروا على الجند المدافع فانصلوا بالعرب .
 فكتب اليهم خالد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها
 اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن
 شيئاً من دورهم . ثم بذلك عهد الله وخدمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا
 يمرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية^١ . »

وقد فتح الباب الشرقي في آب او ايلول من السنة ٦٣٥ ودخل العرب
 المسلمون الى دمشق واستولوا عليها وجعلوا الجزية ديناراً وجريباً وهو
 مكيال من الخنطة على الرجل الواحد . « ثم تساقطت بعد ذلك حص
 وبعليك وحماه وسواها من المدن كتساقط أوراق الخريف^٢ » ، وذلك في

١ البلاذري ، ص ١٢١ .

٢ تاريخ العرب للدكتور فليب حتي ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

اواخر السنة ٦٣٥ . وخرج اهل شير يكتفون ومعهم المقلثون
فادعوا .

وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجيش
قوة كبيرة يسكن بها من حد العرب ، وانقاذ سورية الجنوبية وفلسطين
والعربية . ورغم خسارته الكبيرة في الرجال ابان الحرب الفارسية ، ورغم
قلة المال في الخزينة ، فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم
والارمن والعرب حوالي خمسين الفا . وأمر عليهم ثيودوروس تينوروس
وانفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى سورية . وكانت خالد آتند في حمص
يتفقد الجبهة . فلما علم بقدوم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق
وسائر المدن المجاورة ، وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين الفا ،
وانتفى وادي اليرموق ، احد روافد الاردن الشرقية ، فصعد فيه . وقام
الروم من حمص عبر البقاع الى جليل واتخذوها قاعدة لهم . وتناوش
الفريقان وتناول بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردياً من الزمن . وفيما
خالد ينتظر وصول المدد ، كان الروم يتخاضمون فيما بينهم بدافع الحسد
وقلة الانضباط . فانهم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات ، فنادى
الجند بيانس فيلسافاً وامتنع خلفاء الروم من العرب عن القتال وانسحبوا
من الميدان . فبجأت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في مصلحة العرب
المسلمين . واعتزم خالد هذه الفرصة السانحة ، فقام بحركة التفاف حول الروم
من الشرق فقطع خط اتصالهم بدمشق . ثم احتل الجسر فوق وادي
الرقاد فحرمهم امكان التراجع غرباً . وفي الثاني والعشرين من آب سنة
٦٣٦ انقض عليهم بفرسانه المجريين فقتل من قتل وشرّد من شرّد .

وبذلك انتطع كل امكان الروم بان يصدوا في سورية . وفي خريف هذه السنة نفسها عاد العرب الى دمشق فدخلوها آمين . وكانت الخليفة أعلم الناس بخالد يقدر مواهبه ويعرف مواضع ضعفه . وكانت الحرب قد تطورت تطوراً كبيراً في مصلحة العرب الفاتحين ولكن ادارة البلدان المفتوحة كانت لا تزال ضعيفة تقتصر الى التنظيم . وكانت ثمة مشاكل ادارية وسياسية . ولم يكن خالد رجل ادارة وسياسة . فرأى هران لابد من وجود وال اعلى يمثل الخليفة في الشام ويدير سياستها بحكمة ولهاقة . فانتقى لهذا المنصب ابا عبيدة وأرسله الى الشام حاكماً مفوضاً . ووصل ابو عبيدة قبيل موقعة اليرموق ولكنه ابقى القيادة بيد خالد لانه كانت اعلم منه بتفاصيل الحرب واقدر عليها . فلما انتهت المعركة تسلم ابو عبيدة مقاليد الامور فوزع السلطات العسكرية بحكمة ودراية واحتفظ بخائنه ملحقاً به . واتجه شمالاً ولم يلق مقاومة تذكر قبل قيسرين (خلقيس) ، فدخل بعلبك وحمص وحلب وانطاكية بسهولة .

عودة الروم الى الميدان : وقضى هرقل سنة مستجماً بعيداً عن ميدان القتال . وكانت الجزيرة بين العراق والشام لا تزال خاضعة للروم . فراسلت قبائلها العربية النصرانية هرقل تطلب منه العون على مهاجمة العرب المسلمين . فراسلها بدوره وحضها على التجمع ريثما تتلقى مدداً يأتيها بجرأ من مصر . واقبل هرقل بعد الجيوش مرة اخرى . وجدت الامل بتوع خاص لان معظم ثغور الشام على البحر كانت لا تزال خاضعة له وطريق البحر لا يزال مفتوحاً امامه . وفي السنة ٦٣٨ هجرت جيوش الروم من الاسكندرية بقيادة قسطنطين ابن هرقل . واقت الحلة مرساها في اللاذقية

او السويدية وزحف على انطاكية فاستولت عليها وانضمت الى القبائل العربية النصرانية في الجزيرة^١ . وألفى ابو عبيدة نفسه محصوراً في حمص على حين يسير اعداؤه لمحاربته برأ وبحراً . فكتب الى الخليفة في الحجاز يستنجد به كما عقد مؤتمراً عسكرياً للنشاور في الوضع الحربي . فاستقر الرأي على التزام التريث والدفاع . ولكن خالداً قال بالمبادرة الى مهاجمة العدو . وأمر الخليفة في الوقت نفسه التعقاع احد قادة المسلمين في العراق ان يتوجه بأسرع ما يمكن لامداد ابي عبيدة . وجمع الخليفة النجدات من الجزيرة العربية وسار بنفسه على رأسها متجهاً نحو الشام . وكانت خطة المسلمين فيما يظهر ترمي الى اخراج القبائل العربية النصرانية في الجزيرة من دائرة الدفاع البيزنطي وبذلك يتيسر للعرب المسلمين ان يلاقوا الجيش البيزنطي وحده معزولاً ، فانطلق سهيل بن علي وعبدالله بن عتبان للقيام بحركة التفاف حول اراضي الجزيرة بين العراق والشام ومهاجمة قبائلها . وكان لتعجيل المسلمين في ارسال النجدات وسرعة حركتهم اثر في القضاء العرب في نفوس القبائل في الجزيرة . فتخلت هذه القبائل عن الروم وقفلت راجعة الى مضاربها مؤثرة السلامة^٢ . وبادر العرب المسلمون بالهجوم على الروم . فأظهر هؤلاء بأساً كان كفيلاً بصد المسلمين العرب لو ظلت القبائل النصرانية على تعاضدهم ومساعدتهم . ولكن مقاومة الروم انهارت وانسحبوا بحراً الى الاسكندرية والقسطنطينية^٣ .

عرب الشام والعرب الفاتحون : وتحفظ لنا المراجع العربية اسماء

^١ Gaussin de Perceval, Essai sur l'Hist. des Arabes, III, 512.

^٢ الكامل لابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

^٣ مأخوذ بتصريف عن كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور احمد

العدوي ، ص ٤٢ - ٤٤ .

بعض القبائل العربية التي كانت ضاربة في بادية الشام وفي الأرياف عند
فجر الإسلام . وليس في هذه المصادر ما ينسب^١ بتأييد هذه القبائل لأخوانهم
العرب الفاتحين^٢ . وقبائل البادية لم تدعن خالد ابن الوليد إلا مصكرة .
والفساسة اعتدوا على رسول الرسول . وغسان وقضاعة وقفوا إلى جانب
الروم في اليرموق . وهرقل « نزل انطاكية ومعه من المنعربة حشم وجذام
وبلقين وبلي وعاملة » ، وبعض هذه القبائل « مضى مع هرقل إلى بلاد
الروم بعد أن استتب الأمر للمسلمين في الشام »^٣ .

نصارى الشام والعرب : ويرى عدد من المستشرقين المنعربين ومن
رجال الاختصاص في تاريخ الروم أن اختلاف النصارى حول الطبيعة
الواحدة والمشيئة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في
العقيدة قد حل قسماً كبيراً من نصارى الشام على الترحيب بالعرب
الفاتحين . ويغيب عن بال هؤلاء أن هذه القبائل العربية التي وقفت إلى
جانب هرقل في وجه العرب الفاتحين كانت حرة من قال بالطبيعة الواحدة
وأن هرقل كان قد ثبت في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريركاً قال
بالطبيعة الواحدة هو اثناسيوس المشار إليه في الفصل السابق وأن بآبارومة
اونوريوس وجميع البطارقة ما عدا صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة كانوا
قد وافقوا هرقل على القول بالمشيئة الواحدة أو سكتوا عن ذلك . فلا
يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة أن نتقبل قول اثناسيوس أن أبناء حمص
رأوا في هرقل امبراطوراً « مارونياً » عدواً للمدين القويم لأنه قال بالمشيئة
الواحدة^٤ . ولا أن نقبى قول البلاذري بأن نصارى الشام آثروا عدل

١ حركة الفتح الاسلامي للدكتور شكري فيصل : ص ٢٦ - ٢٩ .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ .

٣ *Corpus Script. Christ. Orientalum, Scripturarum Arabici, II, 5, 1, 4* ;
Patrologia Graeca, CLX, 1088.

المسلمين العرب على استبداد الروم واهانتهم^١ لان الشهادتين بحاجة الى الجرح والتعديل ، فالشاهد الاول دون في القرن العاشر ، والثاني في القرن التاسع ، والحوادث المروية جرت في القرن السابع . وكذلك فان القولين صدرا في وقت كان النصارى فيه بحاجة الى الملائقة والمداهنة والتعلق . ونرى ايضاً ان المستشرق المستعرب ده غويه يضل فيعدل عن الحق عندما يرى في حروب الفتح محاولة لتحرير عرب الشام من ظلم الروم واضطهادهم^٢.

لماذا خسر الروم : ونحن نرى ان حروب الفتح في الشام كانت في نظر الروم وعرب الشام حروباً دينية سياسية قبل كل شيء ، وان نصارى الشام من الروم والعرب والسرمان وقفوا الى جانب الروم قدر المستطاع ، وان الروم لم يتمكنوا من صد الهجوم العربي الاسلامي لاث الحرب الفارسية كانت قد استنفدت قواهم في المال وفي الرجال . ومن هنا اعمال الحصون ، وابطال الجراية التي كانت توزع على قبائل الحدود ، ومن هنا ايضاً قلة الانضباط وكثرة التمرد والفوضى .

عموم وفتح مصر : وجاءت حركة هرقل الاخيرة في انطاكية وشمال سورية حافزاً قوياً حمل قادة العرب المسلمين على اعادة النظر في الموقف الحربي . فعقد الخليفة مؤتمراً في الجابية درس فيه الموقف مع قادة جيوشه ، وكانت مصر هي القاعدة التي انسحب اليها الارطبيون Areteon . « وكان الارطبيون ادهى الروم وابعدهم غدرآ . » ولعله رأى ان التجمع في منطقة آمنة

Liber Expugnationum Regionum, ed. De Goeje, 137 ; Barthold, *Translations of the Oriental College*, I, (1925), 468.

De Goeje, *Mémoire sur la Conquête de la Syrie*, I.

Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 208-209.

بشن منها هجوماً جديداً على العرب المسلمين اجدى من البقاء في الشام .
ولذا تراجع عن فلسطين وذهب الى مصر . وكانت مصر ايضاً القاعدة
التي انطلقت منها حملة قسطنطين ابن هرقل على انطاكية . وكانت البحر
لا يزال في ايدي الروم يدون منه قيصريه فلسطين بالموثون والذخائر
والرجال . وكانت قيصريه لا تزال صامدة في وجه عمرو ابن العاص .
فهي لم تستطع في ايدي العرب المسلمين قبل السنة ٦٤٠ . وكانت مصر
تُطل على الحجاز ، على مكة والمدينة . وقد ينطلق الروم منها الى الحجاز
مباشرة فيصيبون الحركة الاسلامية في منابعمها الرئيسة . وكانت مصر
ايضاً لا تزال اهرء القسطنطينية ومركز توينها . وجاء في كتاب فتح
مصر لابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص كتب الى عمر يقول : « إن
فتحها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي اكثر الارض اموالاً ٢ »
ولا بد من ان يكون قد شارك عمرو في رأيه هذا رجال الثروة والمال
في مكة . فطبعي ان يكون هؤلاء قد لمسوا عظمة التجارة بين الشرق
والغرب ، تلك التجارة التي كانت تمر عبر مصر ولبنان وسورية ، وبعضها
كان يمر بين ايدي الاثرياء المكيين قادمين من الجنوب ليبلغ الى ساحل
مصر وفلسطين . وليس من المستبعد ان يكون عمرو ابن العاص ، وعثمان
ابن عفان ، والمغيرة ابن شعبة ، وغيرهم من تجار مكة قد زاروا مصر
قبل الاسلام ، وشاهدوا بأمر العين اتساع الحركة التجارية فيها كما جاء
في اخبار ابن عبد الحكم واخبار السيوطي ٣ . ويرى المستشرق المستعرب
فيات Wiet ان مدينة قفط في الصعيد كانت قد أصبحت نصف عربية

قبل الاسلام.

وهكذا فإن الدوافع التي حملت الخليفة عمر في مؤتمر الجابية ان يمنح عمرو سلطة فتح مصر كانت دوافع جوهرية . ولم يكن هذا الخليفة الكبير مغامراً . فإنه عرف بحبه للتأني ، وحرصه على ان لا يعرض قواته للخطر . ولهذا يجب اعادة النظر في الكتاب الذي قيل انه ارسله الى عمرو ، وعمرو في طريقه الى مصر ، يأمره فيه بالعودة ان لم يكن قد وصل الى مصر او بالسير قدماً في وجهته ان كان قد دخل الارض المصرية عند تسلمه الكتاب . فهذا قول لا تشجع الحوادث على قبوله ولا يتفق وما عرف من كياسة عمر الخليفة الكبير^٢ .

وسار عمرو ابن العاص من قيصرية فلسطين الى مصر في كانون الاول من السنة ٦٣٩ على رأس بضعة آلاف مقاتل . فلقى مقاومة في القرما Pelusium شرقي بور سعيد اوقفته شهراً كاملاً . ثم تغلب عليها في اوائل السنة ٦٤٠ ، وتقدم منها الى بليس فأمّ دين Tendonnya . فتحصن الروم في حصن بايلون على رأس الدلتا . وعسكر العرب في عين الشمس Heliopolis . واشتدت مقاومة الروم برئاسة البطريك كيروس (المقوقس) بقيادة ثيودوروس اخي الفيلس . واستجده عمرو الخليفة فأمدّه ببضعة آلاف رجل بقيادة الزبير ابن العوام . ورغم تضاعف القوة فإن العرب المسلمين لم يقدروا على مهاجمة الحصن لأنه كان منيعاً ، ولأنهم كانوا في فقر الى ادوات الحصار . فاكتفوا بسد المنافذ على الحصن . و طال الحصار بضعة

الموسوعة الاسلامية ، المقال « قبض » .

- ٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العديوي ، ص ٤٧ - ٤٨ .
راجع ايضاً حركة الفتح الاسلامي ، للدكتور شكري فيصل ، ص ٨٥ - ٨٦ ،
ومصر في فجر الاسلام ، للبيدة اسماعيل كاشف ، ص ٨ - ١٠ .

اشهر ، وكانت مفاوضات بين كيروس وعمر . وسافر كيروس الى
القسطنطينية ليعرض نتيجة هذه المفاوضات على القيس . فاتهمه هذا
بالخيانة ونفاه . وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ ، فانبعثت
اختلافات داخلية قديمة حالت دون ارسال المدد الى حصن بابلون ، فدخله
العرب في السادس من نيسان من هذه السنة نفسها^١.

وبسقوط حصن بابلون مفتاح مصر السفلى والعلية انتشر العرب في
ريف مصر السفلى . وتجمعت حاميات الروم بالاسكندرية . فصار عمرو
ابن العاص لمهاصرتها . وكانت حصونها منيعة تحميها غياض وبحيرات . وكان
البحر لا يزال بيد الروم فكان يأتيها منه المدد ، فطال امر حصارها .
وخلف هرقل ابنه قسطنطين الثالث ، وكانت لا يزال حدثاً وشاركه
والدته مرتبة في الحكم . وكثرت القلاقل في عاصمة الروم ، واستفحل
امر اللومباردين في ايطالية . فأعادت مرتبة بطروك كيروس الى
الاسكندرية ليفاض العرب في الصلح . فلما بلغها سار نواً الى بابلون
وفاض عمرو ابن العاص ، فانهى الامر بينهما الى صلح الاسكندرية في
الثامن من تشرين الثاني سنة ٦٤١ . وبرز شروط هذا الصلح الجزية لمن
بقي في مصر ، والامن لمن رحل عنها ، والهدنة احد عشر شهراً ليتسنى
للجيش ولغيره من المدنيين الرحيل^٢.

موقف الاقباط من العرب الفاتحين : ويختلف المؤرخون المحدثون

^١ Nikion, Jean, Chronique, 557.

البلاذري ، ص ٢١٣ - ٢١٥ . وابن عبد الحكم ، ص ٥٦ وما يليها . والاسقف حنا
التيوسي اقرب الرواة للحوادث ، فانه من اعيان القرن السابع للبلاد .

^٢ حولية النقيوسي ، ص ٥٧٥ .

في هذا . فبتل صاحب كتاب فتح العرب لمصر يرى ان الاسلام لم يدخل مصر من غير حرب وان القبط لم يرحبوا بالفتح العربي . وينبهي للرد عليه نفر من المؤرخين نذكر منهم الدكتور منكري فيصل الاستاذ في الجامعة السورية . فهو يرى ان المتقدمين من مؤرخي الاسلام يذكرون في مراقف كثيرة ان الاقباط كانوا عوناً للمسلمين في فتوحهم وان من يتبع هذه النصوص الاولية يخرج بفكرة ان ميول القبط لم تكن على الاقل معادية للحركة الاسلامية وان الاضطهاد الذي حل بالاقباط في السنوات العشر التي قضاها المفوقس (البطريق كيروس) على رأس الادارة المدنية والدينية في مصر قد دفع الأقباط ان يستشفروا في حركة الفتح العربي نوعاً من الانتاذ^٢ . وقد فات حضرة الزميل المؤرخ انه لما وصل كيروس الى الاسكندرية وتبوأ العرش البطريكي فيها كتب اعترافاً بآيانه بالمشيئة الواحدة ودعا من قال بالطبيعة الواحدة من الاقباط في مصر للموافقة عليه فقبله الساويريون فوراً فلاينهم البطريق ، ورفضه البيولانيون فضيق عليهم^٣ . وفاته ايضاً ان شهادة الاستف يوحنا النقيوسي اقرب في الزمن الى الحوادث المروية من شهادات المراجع الاسلامية العربية^٤ . وقد تكون الحقيقة التاريخية المنشودة وسطاً بين القولين ، اي ان معظم الاقباط وقفوا الى جانب النصرانية والروم وان بعضهم اي البيولانيين رحبوا

Butler, A. J., Arab Conquest of Eg.

وقد نقله الى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد بعنوان فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٣٣ .

٢ حركة الفتح الاسلامي ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

٣ جراسيموس ، تاريخ الالتفاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

٤ حركة الفتح الاسلامي ايضاً ، ص ١٠٩ ، هامش .

بالعرب المسلمين . هذا وقواعد المصطلح تقضي بالابتعاد عن التعميم في امور
تشمل الالوف ومئات الالوف من الناس^١ .

١ كتابنا المصطلح : الاجتهاد ١٨٩١ - ١٩٦٠ .

الفصل السادس عشر

خلفاء هرقل

(٦٤١ - ٧١٧)

مرتبة : وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ وتولى
العرش بعده في آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون على
ان يحكما بإشراف القسيسة مرتبة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون .
ولكن الشعب لم يرض ان تتولى اموره امرأة فأضطرت مرتبة ان تحتجب
شكلاً وان تدبر دفة الحكم بالتعاون مع البطريرك بيروثوس . وتوفي
قسطنطين الثاني في اواخر ايار من السنة ٦٤١ مسموماً ، فالتفت مرتبة
بقتل ابن ضرتها لكي يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم . وغرد الجند في
آسية الصغرى بزعامة احد اخصاء قسطنطين في نشرين الاول من السنة نفسها
وزحفوا على خلقيدونية واكروهوا مرتبة على اشراك قسطنطين الثالث ابن
قسطنطين الثاني في الحكم . واستقال البطريرك بيروثوس . ونشبت ثورة في
العاصمة في مطلع السنة ٦٤٢ لا تزال اسبابها مجهولة ، فقطع لسان مرتبة
وجردع انف هرقلون ونفيا الى رودوس ، وتولى الحكم قسطنطين الثالث
وهو بعد في الحادية عشرة من عمره .

قسطنطين الثالث : (٦٤١ - ٦٦٨) ويدهى قسطنطين الثاني أيضاً . وقد حمل على استرداد مصر والشام ، وأنفذ في أواخر السنة ٦٤٥ حملة على مصر بقيادة مانويل . فجاءت مفاجأة للعرب المسلمين . وسقطت الاسكندرية في يد الروم واتخذها مانويل قاعدة للتوغل في وادي النيل ، وتغلغل في الدلتا وكاد يكتسح الموقف . ولكن الخليفة عثمان ابن عفان أعاد عمرو ابن العاص الى قيادة الجيش العربي الاسلامي في مصر . فانزل عمرو بخصمه مانويل هزيمة شتاء عند نيقوس . فتقهقر مانويل الى الاسكندرية واعتصم بها . وتبعه عمرو ابن العاص لحصارها وتمكن من الدخول اليها بخيانة احد حراسها فافتتحها في اوائل السنة ٦٤٦ . وجاء في المواقظ للقرنزي ان عمراً اقسم ان هو استولى عليها ان يهدم اسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان^١ . وكان قسطنطين الثالث قد أنفذ في الوقت نفسه حملة ثانية لمهاجمة الشام . فتمت بدورها بالفشل . وكان الذي صدّها معاوية^٢ . ورأى عثمان ابن عفان وحكومته ان لا يد بعد هذا من انشاء اسطول لرد هجمات الروم في البحر . وكانت اخواض الروم في الاسكندرية وعكة قد رفعت سائلة في يد العرب الفاتحين . فألشأ عثمان فيها اول اسطول عربي . واهل استعان باخشاب لبنان ولاسيما حرج بيروت وبجارة الساحل اللبناني وساحل مصر^٣ . واستهل نشاطه البحري بهجوم على قبرص في السنة ٦٤٩ واحتلال جزيرة ارواد في السنة ٦٥٠ . ويرى الزميل الدكتور ابراهيم احمد العدوي بحق ان احتلال العرب لقبرص لم

١ ج ١ ، ص ١٦٧ . راجع أيضاً ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحت اخبار السنة ٦٥ .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٥٥ - ٥٣ .

Bury, J. B., op. cit., II, 288.

Becker, K., Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 352-353

يكن دائماً وانما توالى الاخذ والرد على هذه الجزيرة بينهم وبين الروم^١. وجهز قسطنطين الثالث عمارة بحرية كبيرة وقادها بنفسه في السنة ٦٥٥ للقضاء على استعدادات العرب البحرية. فكانت موقعة بحرية كبيرة عند فونكس قرب شاطئ ليقية في آسية الصغرى دعاها العرب معركة ذات الصواري لكثرة السفن ذوات الصواري فيها ، وقد وفق فيها العرب الى نصر حاسم^٢. ثم كانت الفتنة التي قتل فيها عثمان سنة ٦٥٦ ، ونشبت حرب اهلية في صفوف العرب المسلمين ، فقدّر لرمال الصحراء الافريقية وجبال طوروس ان تقف سنوات حداثاً فاصلاً بين العرب والروم .

وانتهز قسطنطين الثالث هذه الفترة من الهدوء في الخارج لاعادة النظر في ادارة الدولة ، فادخل بعض التعديلات التي سينظر فيها في فصل لاحق . وفي هذه الفترة ايضاً عالج مشكلة المشيئة الواحدة . وكان جده هرقل ، كما تقدم معنا ، قد بدأ منذ السنة ٦٢٢ يفاوض في امر المشيئة الواحدة . وكان قد اجمع على القول بها منذ السنة ٦٢٩ جميع البطارقة وبينهم البابا اونوريوس . وكان هرقل قد أصدر في السنة ٦٣٨ دستور ايمان رسمي عرف بالاكتيسيس اوجب به قبول المشيئة الواحدة . وكانت البطريرك بيروس قد استعفى على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد الفسيلة مرتبة ربييته وهاجر الى افريقية . وكان قد قام بينه وبين مكسيموس جدال حول المشيئة الواحدة انتهى باقتناع بيروس سنة ٦٤٥ ورجوعه عن هذه البدعة .

وكان بيروس قد كتب الى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكتيسيس عن ابواب

١ الكامل لابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٤٠ .

٢ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ و ١٩١ .

الكنائس . وكان بيروس ومكسيموس قد رحلا معاً الى رومة فايدهما البابا ثيودوروس الاول (٦٤٢ - ٦٤٩) . فألقى قسطنطين الثالث الاكثيسيس واصدر التيبوس Typon محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئتين . ثم كان ان تبوأ عرش كنيسة رومة في السنة ٦٤٩ البابا مرتينوس الاول (٦٤٩ - ٦٥٥) فعقد مجمعاً حرماً فيه الاكثيسيس والتيبوس ، وطلب الى الفيلسوف ان يعزل البطريرك بولس الثاني ويقيم غيره ارثوذكسياً . فاستعظم قسطنطين الثالث هذا الطلب وقبض على البابا وقيدته بالسلاسل هو ومكسيموس وحكم عليهما بالعصيات . وتوفي البابا في المنفى بعد شذائد قاسية . وحاول قسطنطين الثالث ان يكره مكسيموس على القول بالتيبوس فلم يفعل . فغضب عليه وأمر بجلده ثم بقطع لسانه ويمنه ، فمات في السنة ٦٦٢ . اما بيروس فانه بعد ان رفض بدعته عاد الى القول بها . ثم رجع الى القسطنطينية فنصب بطريركاً للمرة الثانية بعد وفاة بولس الثاني ، ولكنه ما لبث ان توفي بعد خمسة اشهر سنة ٦٥٢ .

وأساء قسطنطين الثالث الظن باخيه ثيودوروس فألبسه ثوب الرهبنة ثم قتله . فتار به ضيقه وأصبح اخوه يتواءى له حاملاً كأساً من دمه ويقول له : « يا اخي اشرب » . فكره الإقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزع عنها . وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا ويتاليانوس بالحفاوة والاحكام . واعتناظ الشعب في القسطنطينية لسفره وتغيبه ولم يرض ان يتبعه في السفر زوجته واولاده . ثم بعد ست سنوات ضربه خادم حمامه في سرقوسة بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

قسطنطين الرابع : (٦٦٨ - ٦٨٥) وفي اثناء غياب قسطنطين الثالث في ايطالية وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو

بعد فتي . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في حقلية نهض اليها فاخذ
 بالثار وعاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالالحى Pogonatus .
 ولما كانت الغاية التي من اجلها صدر الاينتيكون « كتاب الاتحاد »
 في عهد زينون (٤٧٤ - ٤٩١) وتبعته الفصول الثلاثة في عهد يوستينيانوس
 (٥٢٧ - ٥٦٥) ، ثم صدر الاكنيسيس في عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) ،
 والتيبوس في عهد قسطنطين الثالث (٦٤١ - ٦٦٨) - لما كانت الغاية من
 هذه التشريعات كلها قد زالت بدخول الولايات السورية والمصرية والارمنية
 في حكم العرب المسلمين ، ولم يبقَ ثمة موجب سياسي للتساهل في أمر
 العقيدة ، فان قسطنطين الرابع اخذ يسعى لاستمالة اساطين الكنيسة الأم
 الكاثوليكية الارثوذكسية . فمنح بادىء ذي بدء بابا رومة سلطة على
 متروبوليت رابينة . وعزل في السنة ٦٧٨ البطريرك ثيودوروس عن عرش
 كنيسة القسطنطينية وأقام جاورجيوس بطريركاً محله . وأعلن عزمه على
 عقد مجمع للملافة الانشقاق . وكتب الى بابا رومة والى سائر الاساقفة
 يدعوهم اليه . فلما تلقى البابا اغاثون كتاب الفيلسوف عقد مجمعا محليا سنة
 ٦٧٩ أيد فيه قرار البابا مرتينوس وانتخب القسين ثيودوروس وجاورجيوس
 والشماس يوحنا نواباً عنه وارسلهم الى القسطنطينية حاملين الوثائق اللازمة .
المجمع المسكوني السادس : وفي السنة ٦٨٠ عقد في القسطنطينية
 المجمع المسكوني السادس ، وكان موضع انعقاده قاعة البلاط المقدس ،
 وهي القاعة التي تدعى اطرولتوس Trolus ، اي قاعة القبة . واستترك في
 اعمال المجمع ١٧٠ اسقفاً في طليعتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ،
 والمتروبوليت اسطفانوس رئيس اساقفة هرقلية ، والمتروبوليت يوحنا رئيس
 اساقفة آثينة ، وثلاثتهم من علماء عصرهم المشاهير . وجلس الفيلسوف في
 صدر المجمع يحيط به مجلس قضاة الدولة ، والى يمينه البطريرك القسطنطيني
 جاورجيوس ، فالبطريرك الانطاكي مكاريوس ، فنائب بطريرك الاسكندرية .

والى يسه نواب بابا رومة فنانب بطررك المدينه المقدسه ، ووضع الانجيل المقدس فى الوسط . وقام نواب البابا فقالوا : « انا بحسب المرسوم الصادر عن دولتكم التى اقامها الله الى بابانا الجزيل القداسه قد جئنا من قبل البابا ومعنا منه معروض ومعروض آخر بمجمعي من الاساقفة الخاضعين له . وقد سلمنا المعروضين الى دولتكم ذات المقام السامى . » ثم شككوا افرطقة ومخترعيا وبالطاركة سرجيوس ويبروس وبطرس وكيروس وغيرهم وقالوا : « نناشد رجال كنيسة القسطنطينية الجزيلة القداسه ونسالهم منى وابن وجد هذا التعليم الجديد ؟ » فأجابهم مكاريوس بطررك انطاكية نصير القول بالمشيئة الواحدة : « انه موجود فى مجامع اشهر الآباء وبالطاركة القسطنطينية . » فطلب الفسيلفس البيئنه فأحضرت اعمال المجامع وقرئت فى الجلسات الخمس التالية . فوجدت رسالة مزورة عن لسان البطررك ميتاس الى البابا فيجيليوس استند اليها مكاريوس . فقاومه نواب رومة ، فثبت فسادها وفساد عبارات كثيرة نسبت الى الآباء مبتورة مخرفة . وفى الجلسة السابعة تقدم الرومانيون ببيئنائهم . وفى الثامنة اعترف بصحة هذه البيئات جاورجيوس بطررك القسطنطينية . ثم طلب الى مكاريوس البطررك الانطاكي واساقفته ان يوافقوا . فوافق الاساقفة ولكن مكاريوس اعترف بمشيتين وانكر الفعلين « مفضلاً الموت مخطئاً او غريقاً على الموافقة . » فقتلع من درجته فى الجلسة التاسعة ونفى . وفى الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس ويبروس وبطرس وبولس وبالطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطررك الاسكندرية وعلى اونوريوس بابا رومة . وفى السابعة عشرة صدق على اعمال المجامع المكونية السابقة . وفى الثامنة عشرة فى ١٦ ايلول سنة ٦٨١ نليت شهادة اقروها الجميع : « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحد وبمشيتين وطبيعتين وفعلين طبيعيين بلا

انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط^١.

قسطنطين والعرب : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة العربية الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبعاً ان يدركوا مبلغ الحساسة التي حلت باللبنانيين والسوريين والمصريين من جراء ما سبب لهم الفتح العربي من انقطاع عن اسواقهم في آسية الصغرى والبلقان واليونان وإيطاليا وفرنسة واسبانية والمانية وبريطانية . وهكذا لم يروا بداً من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة^٢ . وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقين ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنته . وقد اغتنم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدرس الى جبال الساحل السوري اللبناني بضعة آلاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والارياف فيهددون سيادة العرب في الشام ويعيثون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة^٣ .

ولكن قسطنطين الثالث اغتيل سنة ٦٦٨ في سرقوسة . وفي سرقوسة هذه أعلن مزيزيوس Mizizios وغبته في العرش وثار سابوريوس Saborios القائد في ارمينية . واعتلى اربكة الملك في القسطنطينية فتي يافع^٤ . وقرّر

Manst, *Amplissima Collectio Conciliorum*, XI, 629-640 ; Brooks, E. W., *Successors of Heraclius*, *Conc. Med. Hist.*, 400-405.

جراسيموس متروبوليت بيروت : تاريخ الانتفاخ ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٤٢ .

Lewis, A. R., *Naval Power and Trade in the Mediterranean*, 54-55. ٢

٣ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ . Theophanes, *Chronographia*, 347 .

الجند مطالبين بحق هرقل وطيباريوس شقيقى قسطنطين الرابع في الملك . واستنجد سابوريوس بالعرب . فرأى معاوية والحالة هذه ان الفرصة سانحة لضرب الروم ضربة قاضية يستولي بها على القسطنطينية نفسها . وكان قد احتاط لامر المردة فاستقدم عدداً كبيراً من الفرس واسكنهم مدب الساحل اللبناني - عكة وحيدا ويبروت وجبيل وطرابلس - واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق^١ . وكان معاوية قد عني ايضاً بتزعيم الحصون الساحلية مع ما فيها أسوار الاسكندرية . واذا به يقوم بملحمة بحرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه . فيفوز صقلية في السنة ٦٦٩ وينفذ عقبه في السنة ٦٧٠ الى حدود ولاية افريقية . ولكنه في الوقت نفسه عد الى سبر غور الدفاع البيزنطي في قبدوقية في السنة ٦٦٩ . فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية . وكانت بطل الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثباتها ودفن خارج اسوار عاصمة الروم . اما قائد الحملة فكان فضلة ابن عبيد الانصاري يؤيده يزيد ابن معاوية .

ومن طريف الاخبار التي افترنت بهذه الحملة ما نقل عن بنت ملك الروم وبنت جبلة ابن الاعمى النساطري . فقد روي ان بنت ملك الروم كانت اذا رجعت كفة قومها تقيم الزينة على قصرها في العاصمة . وكانت بنت جبلة تقيم الزينة على قصرها اذا رجعت كفة العرب . وهذا ما رغب يزيد ابن ابي صفيان في فتح المدينة للحصول على بنت جبلة .

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة عربية اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية تحاصر عاصمة الروم من البحر وتحاول ازال الجنود اليها . فصدها مراكب الروم . وفي الخريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة

١ العلاقات النفيسة لابن وسنة ، ص ٣٢٧ . والبلاذوي ايضاً .

Theophanes, op. cit., 582-583.

كيزيكوس لتضي فضل الشتاء ولتلقى المؤن والذخائر من الساحل
 السوري اللبناني . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية .
 فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة .
 واستعمل الروم في هذا الحصار الذي دلم أربع سنوات (٦٧٣ - ٦٧٧)
 سلاحاً جديداً أعده مهندس لبناني كان قد فر من بلده بعلبك عند
 دخول العرب المسلمين إليها ، وهو كالينيكوس الشهير . واختراع كالينيكوس
 هذا الذي نشر الذعر في صفوف العرب المسلمين كان عبارة عن حرايق
 نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وغيرها من المواد السريعة
 الاشتعال اذا صبّت على جيش أحرقته وان سقطت في الماء لم تنطفئ .
 وقد دعاها الروم آتلي النار البحرية ، ثم سميت فيما بعد النار الاغريقية .
 واستخدم الروم جنودهم واصدقائهم في جبال طوروس والامانوس ولبنان
 للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام نفسها تعرقل اعمال التبرين وتهدد العاصمة
 العربية نفسها . وجاءت السنة ٦٧٧ فآذا بالعرب يعودون الى الحصار .
 فانطلقت لصدّهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب
 العرب . فاخطر ما بقي من المهارة العربية للعودة الى قواعده في الشام .
 وهبّت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر ، وطارد البيزنطيون البقية الباقية
 فقتلوا معظمها . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقرّوه

Zenghlis, G., *Le Feu Grégeois, Byzantion*, 1932, 265-288 : Schlumberger, G., *Un Empereur Byzantin*, 33 ff.

Theophanes, *Chron.*, 356 ; Lammens, H., *Moawia*, 18-20.

Canard, M., *Expéditions des Arabes Contre Constantinople*, *Journal Asiatique*, (1925-26), 77-80.

الدكتور ابراهيم احمد المصري ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ - ٥٨ .

عليه ثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين
عبداً وخمسين جواداً عربياً عن كل سنة فقبل^١ . فأصبح اسم قسطنطين
الرابع محط احترام القبائل البربرية الضاربة في الاواصي المحيطة بدولة
الروم ، وارسلت هذه القبائل تخطب وده . ورأت الدول الاخرى في غرب
اوروبية ان رومة الجديدة لم تنقل في عظمتها واهميتها عن رومة القديمة
الحالدة^٢ .

وغامر عقبة ابن نافع في هذه الآونة في افريقية الشمالية فبلغ طنجة
« وجول لا يعرض له احد ولا يقا^٣له » ، وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ
الماء صدره وقال : « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت
في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد احد من دونك » . وكان قد
اهمل امر المدن المحصنة على ساحل البحر ، فتناول رجالها المدد من الروم
بعد ان حطمت الاسطول العربي . وتفاهموا وكسيلة احد زعماء البربر ،
وعرضوا لعقبة في مكان يقال له تهودة في الجزائر في السنة ٦٨٣ فقتلوا عقبة
ومن كان معه^٤ . واستغل كسيلة نصره ودخل القيروان فأقام بها الى ان
قوي امر عبد الملك ابن مروان^٥ .

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ وتولى الخلافة بعده ابنه معاوية الثاني .
ورأى هذا انه ليس باهل للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة .
فعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية

^١ Theophanes, Chron., 356.

^٢ الدكتور ابراهيم المدوي : المرجع نفسه ، ص ٥٨ - ٥٩ .

^٣ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .

^٤ المالكي ، رياض النفوس ، ٢٥ .

^٥ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .

^٦ ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٩١ .

الاول . وثبوا العرش مروان ابن الحكم والاعداء له بالمرصاد . وكانت رجلاً طاعناً في السن . وكانت قسطنطين الرابع قد استغل مشاكل يزيد فأكرهه على الخروج من قبرص . وجاءت مشاكل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن جرمانية (مرعش) (٦٨٣) . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مالا سنوياً اكثر مما كان العرب يدفعون من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥ .

يوستنيانوس الثاني : (٦٨٥ - ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع بداء الزحار في اول ايلول من السنة ٦٨٥ . وتولى العرش بعده ابنه يوستنيانوس الاشرم^٢ ، وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان كأييه وجده ذكياً شجاعاً نشيطاً . وكان طموحاً مشعباً بحب العظمة والمجد ، فأراد ان يحتذي مثال سمي يوستنيانوس الكبير . ولكنه كسائر افراد أسرته كان يشكو شيئاً من هلة الاتزان . فتطور سوء ظنه بالناس وجهه للعنف الى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء .

ونقض يوستنيانوس هذا معاهدة السنة ٦٨٥ مع العرب وارسل جيوشه لقتلهم . وكان عبد الملك لا يزال مرتبكاً مشغولاً في تثبيت دعائم خلافته ضد منافسين اقرباء ، فاشتري الصلح مع الروم في السنة ٦٨٩ وقبل ان يدفع ليوستنيانوس الثاني مالا سنوياً اعظم مما دفعه معاوية : ثلاث مئة وخمسة وستين ألفاً من قطع الذهب ، وثلاث مئة وستين عبداً ، وثلاث مئة وستين جواداً كريماً . وقبل بان يقسم ولايات إيبيرية وارمينية وقبرص بينه وبين يوستنيانوس بالسوية .

Brooks, E. W., op. cit., 405-406.

Rhinotmetus.

وعلم عبد الملك فيما يظهر ان خصمه كان ضعيف البصيرة ففاته بجذل المردة والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والامانوس . فقبل يوستينيانوس وحطهم بيده « هذا السور النحاسي الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه العرب المسلمين »^١ . وبعث قائداً من جيشه الى امير المردة يوحنا متظاهراً بطلب النجدة منه ضد العرب . فجاء القائد الى قب النباس حيث مسكن الامير . فلقى ترحاباً وتكريماً ، وجلس يحدث الامير عن غزو العرب . ثم اشار الى جنده وكانوا على علم بقصده فوثبوا على الامير فقتلوه وقتلوا بكثيرين من بطاقته . ثم اعتذر الى الامير سمعان ابن اخنوخ الامير يوحنا معيداً الكلام على رغبة الفيلس في ان ينلقى نجدة المردة ، وطلب يزين لهم ان يصحبوه الى القسطنطينية . فأجابوه الى ما طلب ، ونجسهم اثنا عشر ألفاً منهم يتزعمهم الامير سمعان ، وساروا الى الفيلس فوزعهم حرساً في ارمينية وراقبة وقزيقوس^٢ .

وجاء في تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريرك اسطفان الدويهي ، ان يوستينيانوس الثاني لم يكتف بما فعل ، بل جيش على المردة جيشاً جريئاً بقيادة موريق وموريقيان بعث به في السنة ٦٩٤ الى لبنان فقتلوا رهبان دير مار مارون على العاصي وحلوا في الكورة بين اميون والناوروس ، وتدقق الجليليون عليهم من اعالي الجبال فقاتلوه حتى قتلوا اكثرهم^٣ . ولعل هذه الحوادث وقعت في اثناء السنة ٦٨٩ عندما قام يوستينيانوس بفتح شروط معاهدته مع عبد الملك لا في السنة ٦٩٤ كما تقدم . ففي السنة ٦٩٤ كان يوستينيانوس في حروب جديدة مع عبد الملك دارت

^١ Theophanes, Chron., 363, 364.

^٢ Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches, 257.

^٣ تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريرك اسطفان الدويهي ، (بيروت ، ١٨٩٠) ،

وحاجها في آسية الصغرى واسفرت عن اندحار كبير امام جيوش الامويين^١.
وجال يوستينانوس في السنة ٦٨٩ جولة حربية ضد القبائل البلغارية ،
وأردفها في السنة ٦٩٠ بحملة موفقة ضد الصقالبة في البلقان . وجمع عدداً
كبيراً من هؤلاء وجعل منهم فرقة كبيرة وانزلهم في منطقة الدردنيل
ليربطوا فيها فيدفعوا العرب عنها في حرب مقبلة . وكان العرب قد
جعلوا من هذه المنطقة ، في اثناء هجومهم الاخير على القسطنطينية ، نقطة
ارتكاز لهم قبل عبورهم المياه لحصار عاصمة الروم .

حرب القراطيس والدنانير : وكان عبد الملك ابن مروان قد بدأ
ينظم امور الدولة الاموية . وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تستورد
الورق من مصر . وكانت قد جرت عادة الاقباط على كتابة اسم المسيح
وعبارة التثليث في اعلى الطوامير . ورأى عبد الملك ابن مروان ان هذه
العبارة لا تتفق ومظهر الدولة الاسلامية ، فاستبدل اسم المسيح وعبارة
التثليث بالعبارة : « قل هو الله احد » . وكتب في صدور كتبه الى
الروم : قل هو الله احد ، وذكر النبي مع التاريخ . فكتب اليه يوستينانوس :
انكم قد احدثتم كذا كذا فاتركوه والا اناكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم
ما تكرهون . وكانت العملة السائدة في البلدان الاسلامية لا تزال دنانير رومية
ودراهم فارسية . فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه تهديد الفيلس
من اثر سيء في نفوس المسلمين . فأشار خالد ابن يزيد على عبد الملك
بالتمسك بما احدثه في القراطيس وقال : « يا أمير المؤمنين حرّم دنانيرهم
فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة بما كرهوا
في الطوامير^٢ . » وسكّ عند الملك دنانيره الاولى في السنة ٦٩٢ وأرسل

١ والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان احداً من المؤرخين لم يوفق
بعد الى ضبط اخبار الروم والعرب وتعيين تواريخها في هذه الفترة .

٢ كتاب الفتح للبلاذري ، ص ٢٤٩ . والكامل لابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

المبلغ السنوي المفروض عليه للفيلس من هذه الدنانير الجديدة . فغضب
 يوستينانوس على هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولعلها عبارات
 لم تخل من التعدي : « ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .
 فرفض الفيلس قبول هذه الدنانير وتحرك بجيوشه الى الحدود العربية
 الاسلامية . واصطدم الجيشان في السنة ٦٩٣ بين سبطية وسيواس
 Sebastopolis . واستعاض العرب المسلمون عن الاعلام بنسخة من المعاهدة
 بينهم وبين الروم رفعوها غالباً . وقاد يوستينانوس جيشه بنفسه وكاد
 ينتصر في الجولة الاولى . ولكن العرب اتصلوا بعناصر الصقالبة من جيش
 الروم وأغروهم بالعود فخانوا الروم وانضموا الى العرب . فدارت رحى
 الحرب على الروم وخسروا ارمينية . وفي السنة ٦٩٤ عاد محمد ابن مروان
 فعزاً ، فبلغ انبولى ومرعش وملاطية . ودخل عثمان ابن الوصيد الى ارمينية
 فهزم الروم فيها وائغن فيهم بالقتل والامر . وعاد العرب الى الصوائف
 في الحرب . وما انفكوا يبعثون بالصائفة كتيبة بعد اخرى حتى غلبوا
 هالاً كثيراً . واقتصر يوستينانوس بمن بقي من الصقالبة في آسية الصغرى ،
 فأصبح موضع كراهيتهم . وحبا عبد الملك من التجأ اليه منهم بالمساكن
 في تغور الشام وقبرص ، فنجحوا وأثروا اثرأ غريباً ، وغدا بنو جنسهم
 في آسية الصغرى اداة خدمة العرب المسلمين في اي نضال حربي ينشب
 بين هؤلاء وبين الروم . « واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء الصقالبة اذ
 كانوا على علم بدروب آسية الصغرى ومساكنها ، فقاموا بوظيفة الادلاء
 للجيوش الاسلامية . ولذا تابعت الجيوش الاموية انتصاراتها واغاراتها على
 مدن آسية الصغرى دون ان تلقى جهداً كبيراً » .

Cédrenès, G., *Historiarum Compendium*, I, 772; Zonaras, XIV, 229-231.

Theophanes, *Chron.*, 365-367.

٢ الامويون والبيزنطيون ، لداكتور ابراهيم احمد المدوي ، ص ١٨٠ .

المجمع البثيكتي « الخامس السادس » : (٢٦٢) وقال كاتب
 البيذليون في مقدمة كلامه على هذا المجمع : « ان أبرز الرؤساء في المجمع
 البثيكتي Penthektos اي الخامس والسادس^١ كانوا بولس القسطنطيني وباسيليوس
 اسقف غوديني في حكرت واستف رابينة - وهما نائباً البابا الروماني -
 وبطرس الاسكندري وانسطاس الاوروشليمي وجاورجيوس الانطاكي .
 وقد التأم هذا المجمع بأمر ملوكي لا ليفس هرطقة خاصة ولا ليحدد
 ايماناً حتى يكون مجمعاً خاصاً قائماً بنفسه ، بل ليكتب قوانين ضرورية
 تتعلق بحالة الكنيسة واصلاحها^٢ . واشترك في اعمال المجمع ٢٢٧ او ٢٤٠
 اسقفاً . ومن المجمع مئة قانون تتعلق بنظام الكنيسة داخلاً وخارجاً
 وبالحياة المسيحية ، ولا تزال هذه القوانين مرعية الاجراء الى يومنا هذا .
 منها ما يبحث في علاقات الشمامسة بالقساوسة وفي زواج هؤلاء واولئك ،
 ومنها ما يعين السن التي يجب ان يبلغها الاكليويكي قبل سيامته ، ومنها
 ما يحرم الذين بالرأيا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب
 الكنائسية ، ومنها ما يتعلق بالصكيب المقدسة وكيفية استعمالها والحفاظة
 عليها والتعليم بها ، ومنها ما يبحث في الرهبانية والادبار ، وفي الجمعيات
 السرية وعشق الرقيق ، وفي أمر اليهود ، ومنها ما يحرم التصاوير البذيئة
 والسحر والكهانة .

وأشهر هذه القوانين القانون السادس والثلاثون الذي نص على ما يلي :
 « اننا نحدد ما اشترعه الآباء القديسون المئة والحسون الذين اجتمعوا في
 هذه المدينة المحروسة من الله وما اشترعه الآباء الست مئة والثلاثون الذين

١ وفي الآداب النظرية *Quintisextum* .

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانتفاخ ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، هامش .

اجتمعوا في خلقيدونية ... فترسم ان يكون الكرسي القسطنطينية التقدم اسوة بتقدم كرسي زومة القديمة . وان يُعظم مثله في الامور الكنائسية لبيكونه ثانياً بعده . وان يحسب بعدهما كرسي الاسكندرية المدينة العظيمة ، ويحسب بعده كرسي انطاكية ، وبعد هذا كرسي مدينة الاوروشليميين .
وعُرضت اعمال هذا الجمع على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) ليوقعها بعد الفيلسوف فأبى محتجاً ببعض محتوياتها كتجريم الصوم ايام السبت والاذن للكهنة بالزواج . فأراد يوستينانوس ان يكرهه على ذلك ولكن جيشه في ايطالية وقف الى جانب البابا .

خلع يوستينانوس : واستنزفت حروب يوستينانوس كل ما في الخزينة . وبرغم هذا فإن الفيلسوف الذي كان يحذو حذو سميه يوستينانوس الكبير اراد ان يقوم هو ايضاً بانشاءات تحلله اسمه ، فاضطر وزيراه ثيودوتوس واسطفانوس الحضي ان يجمعوا الاموال عن طريق الاغتصاب . وبما يروي عن ثيودوتوس انه كان يعلق الذين يمتنعون من دفع الضرائب بالحبال فوق دخان النار . وبينما كان وزيراه يجران عليه كراهية الطبقات الشعبية كان هو يجر على نفسه كراهية رجال الكنيسة والجيش . ففي السنة ٦٩٤ طلب ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقيم في مكانها بناء له . فكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها . فأجابه البطريرك : « اما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فلنيس لنا ما نقول . » فأجبره الفيلسوف ان يصلي للهدم بالقوة . فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً : « المجد لله الطويل الأناة كل حين وكل اوان والى دهر الداعرين . »

وبعد الذي أصيب به يوستينيانوس من مس في الحرب العربية بدأ يقتل ضباطه ويجبرهم ويستأصل شأفة جنوده المهزومين حتى أصبح العمل في القيادة العليا جيشه يشبه في خطره التعيين لمحبب القائد الأعلى في أثناء أرهاق روبينيار إبان الثورة الأفرنسية^١.

وفي السنة التالية (٦٩٥) عين يوستينيانوس لاوندوس قائداً أعلى. فخشى لاوندوس سوء العاقبة وأعتقد أن أيامه أصبحت معدودة. فنصح له راعب اسمه بولس أن يضرب ضربة جريئة لأن الشعب والجيش يسرون وراءه. فهاجم لاوندوس السجن وحرر عدداً كبيراً من السجناء السياسيين فانضمت إليه العامة، فنادى بهم: «النصارى في كنية الخنكسة»، وإذاغ في البلد أن حياة البطريك في خطر. فاجتمع الشعب في باحة الكنييسة العظمى. وجاءهم البطريك فبارك عملهم قائلاً: «هذا هو اليوم الذي صنعته الله». «وسار لاوندوس إلى القصر وقبض على يوستينيانوس ووزيره. فجدع انف القيسلس وسلم الوزيرين إلى الجماهير. فطافوا بهما وحرقهما. ثم نفى لاوندوس القيسلس الأشرم إلى الخرسون في القرم. ونادى الزرق بلاوندوس فيلسافاً وتوجه البطريك^٢.

الفوضى: (٦٩٥ - ٧١٧) وانهمز العرب المسلمون في نهضة كما أن اشروا وانسحبوا من ولاية إفريقية. وكان ما كان من أمر الانقسامات الداخلية بينهم ونشوب الثورات على الأمويين في الحجاز وفي العراق وغيرها، فاستطاع الروم أن يستعيدوا ما كان لهم من نفوذ وسلطة في إفريقية. وجهز عبد الملك ابن مروان في السنة ٦٨٨ جيشاً كبيراً أمر عليه زهير ابن قيس وبعثه لاسترداد إفريقية وذلك رغم انشغاله بثورة

^١ واللفظ في معظمه لندكتور مصطفى طه بدر في كتابه الامبراطورية البيزنطية، ص ١٣٨.

^٢ Brooks, E. W., op. cit., Cam. Med. Hist., II, 408-410.

عبدالله ابر الزبير . وكتب النصر لزهير فقهر كسيلة في مصر . ثم توغل في البلاد يخضع قبائل البربر الموالية للروم . وترك الروم المسلمين يطيلون خطوط قنوتهم . ثم انزلوا قوة كبيرة في بركة لتعمل في مؤخرة زهير او انفاجته وهو في طريق العودة الى مصر . ونشبت موقعة في بركة (٦٨٩) خرت فيها زهير حريقاً وانهمزم العرب المسلمون . وفي السنة ٦٩٥ أعد الخليفة الاموي جيشاً آخر وأمر عليه حسان ابن النعمان . فسار حسان الى القيروان وقام منها الى قرطاجة اعظم مدن الروم وامنعها . ووقع بهم هزيمة شتاء . واستولى على قرطاجة في صيف السنة ٦٩٧ . فانسحب منها الروم الى صقلية . ثم عادوا الى قرطاجة في خريف السنة نفسها بقيادة البطريق يوحنا فدخلوها عنوة . واعاد العرب الكرة عليها في صيف السنة ٦٩٨ مستعينين هذه المرة بقوة بحرية كبيرة فدخلوها آمناً^١ .

ونجا القسم الاكبر من جيش افريقية . وأبحر الضباط الى القسطنطينية . وديروا في اثناء رحلتهم مؤامرة طلع لاونديوس . واشركوا معهم في هذه المؤامرة طيباريوس عبسيريوس درونغايريوس الاسطول اي نائب القائد^٢ . ولدى انضمامهم اليهم باسطول بحر ايجه نادوا به فيلسافاً . فاستولى على العاصمة متخذاً اسماً له طيباريوس الثالث ، وجدد انتف لاونديوس وحبيه في احد الاديرة (٦٩٨ - ٧٠٥) . ووفق طيباريوس في حروبه ضد العرب واسترد مناطق الحدود التي كان قد فقدتها يوستينيانوس ولاونديوس وغزا

^١ Becker, K., *Exp. of Saracens, Cam. Med. Hist.*, II, 369-370.

واقبل ما صنف بالعربية في فتح المغرب كتاب الاستاذ حين مؤلف « فتح العرب للمغرب » (١٩٤٧) ، وفصول الدكتور ابراهيم احمد العدوي في كتابه « الامويون والبربر » .

^٢ *Tiberius Apsimar-us-drungarius.*

سورية الشمالية . « ولكن الاهالي والجيش كانوا قد أصبحوا لا يخضعون
لسيطرة احد وكان الفيلس لا يستطيع ان يعتمد على احد وباتت ادنى
هزة كافية لقلب عرشه المتداعي » .

وقرّ يوستينيانوس الثاني من منفاه . ورسا مركبه في مياه البلفار .
وكان تربيل ملك البلفار يبحث عن حجة يتذرع بها لغزو الروم ، فلما
استنصره يوستينيانوس زحف تربيل بجيشه على القسطنطينية . وكان سكان
العاصمة آسفين لزوال حكم هرقل وخلفائه . فعاد يوستينيانوس الى العرش
الذي خلع عنه (٧٠٥) . « وكان قد عوّل ألا يفعل شيئاً الا ان يثار
لائفه المبتورة » . فأرسل في طلب لاونديوس وطيباريوس وسدّهما بالجبال
جنباً الى جنب ووضعهما على الارض امام عرشه في الملعب وجلس واتخذ
جسميهما موطئاً لقدميه . ثم قطع رأسيهما . واعدم عدداً من كبار
الضباط ورجال البلاط وسجل غني البطريك ووضع كثيرين من وجهاء
القسطنطينية في اكياس ثم اغرقهم في البوسفور .

وفي السنة ٧١١ ثار عليه فيليبكيوس البرداني فدخل العاصمة بينما كان
يوسنتيانوس في سينوب . ثم قتل يوسنتيانوس وقتل ابنه طيباريوس من
زوجته تيودورة الحزيرة . وبذلك انتهى امر الهرقلين بعد ما حكموا مئة
سنة وستة . ولكن فيليبكيوس هذا لم يكن سوى رجل هو ولذة .
ففضى وقته (٧١١ - ٧١٣) منصرفاً الى المنع . ولما كان من اصحاب
المشقة الواحدة فقد عزل البطريك كيروس الى دير واقام يوحنا السادس
بطريكاً محله . ثم عقد مجمعاً محلياً في السنة ٧١٢ اجبر فيه الفيلس والبطريك
الجديد اساقفته ان يحرقوا اعمال المجمع السادس .
حتى اذا كانت السنة ٧١٣ اتفق قائدان من قيادة الجيش فغزلا

فيلبيكوس ، وأقام الشعب رئيس كتاب القصر ارثامبوس فيلسافاً بامم
انطاسيوس الثاني ، فضبط زمام الملك وعزل البطريك يوحنا السادس
وأقام جرمانوس بطريكاً عوضه . وعقد الفيلفس والبطريك الجديد
جمعاً محلياً أيد قرارات الجمع السادس (٧١٥) . ولكن في السنة ٧١٦
غرّد الجند وعلنوا خلعه ، ونادوا بشيودوسيوس الثالث فيلسافاً . فاستعفى
انطاسيوس وأقام راهباً في دير .

حصار القسطنطينية : (٧١٧ - ٧١٨) وكان البلغار والمسلمون
في اثناء هذا كله يغزون ولايات الحدود كل من صوبه . وكانت غاراتهم
تزداد حدة وتوفلاً . فسقطت تيانة في يد العرب المسلمين في السنة ٧١٠
وأماسية في السنة ٧١٢ وانطاكية البسيديّة في السنة ٧١٣ . ونوغل
العرب في السنة ٧١٦ في فريجية وحاصروا عمورية . وباتوا لا ينتظرون الا
النصر . ولكن الروم كانوا قد انجّبوا لاون الاسوري رجل الساعة الذي
تبوأ العرش برضى ثيودوسيوس الثالث وموافقة البطريك ومجلس الشيوخ
ورجال البلاط .

وكان قد توفى الخلافة في دمشق سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) ،
وكان سليمان يحسب انه هو المقصود بالحديث القائل ان خليفة يحمل اسم
نبي سيفنج القسطنطينية . فأعد اسطولاً كبيراً وجيشاً عظيماً وأستد القيادة
في البحر لاختيه مسلمة ، وفي البحر لوزيره سليمان . فقام مسلمة من طرسوس
الى الدردنيل والتي في ايديوس بسليمان وعمارته . وكان لاوون قد حشد
كل ما لديه في الماصمة للدفاع . فقطع الجيش العربي الدردنيل ورحف
على القسطنطينية وحاصرها براً . وقامت العمارة العربية بالعمل نفسه من

١ اطلب التفاصيل في كتاب الدكتور ابراهيم احمد المدوي « الامويون والبيزنطيون »

ص ١٨١ - ١٨٢ .

البحر . وحاول سليمان ان يسد طريق البحر الشمالية فانبرت لصدّه بوارج الروم فانزلت براكبه ضرراً كبيراً . وبقي منفذ القسطنطينية الشمالي مفتوحاً للمدد من البحر الاسود . واعتمد مسلمة على تجويع المدينة اكثر من اعتماده على مهاجمتها جبهياً . ولكن لاوون كان قد حسب لهذا المخذور حساباً فأمر كل أسرة بان تختزن مؤونة سنتين . أما مسلمة فانه لم يحسب الحساب لشتاء فارس يدهمه ، فجاء شتاء السنة ٧١٧ - ٧١٨ بثلج دام ثلاثة اشهر . فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار . وبين من لقوا حتفهم الوزير سليمان . وفي ربيع السنة ٧١٨ وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطئ البوسفور الآسيوي ورسا الاسطول في مياهه . فقتلت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فأحرقت . ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة . ثم فاجأه البلغاريون من وراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً . فتراجع عن عاصمته الروم بعد ان فقد معظم جيشه . وتعرض الباقي من عمارته لعاصفة في بحر ايجه فلم يعد الى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط .

Canard, M., *Expéditions Arabes, Journal Asiatique*, 1929, 102-80 ;

Theophanes, *Chron.*, 395-399.

الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٤٦ .

الفصل السابع عشر

تطور وتغيير

الأرض والسكان : وكان من جراء حروب القرن السابع ان تقلص ظل الروم عن قسم من ارمينية وعن الجزيرة والشام ومصر وافريقية . وفقد الروم معظم البلدان التي فتحها يوستينانوس في الغرب وتراجعوا عن خط الدانوب الى الجبال بين ميسية وثرقيه . فنقصت امبراطوريتهم نصفها .

وكان الآفار والصلابة قد بدأوا منذ اواخر القرن السادس يعبرون الدانوب فيعيشون فساداً في ابليرية وثرقيه . فلما حلت الفوضى في عهد فوقاس ونشبت حروب هرقل الطاحنة في آسية تعددت هجمات هؤلاء البرابرة واصبحت الى هجرة شاملة اقرب منها الى غزو . واضطر الروم ان يدعوا للواقع في بعض الاحيان فيعترفوا لبعض هذه القبائل كالكرواتيين والسرب بكيان خاص في داخل حدودهم . ولئن وقفوا في بعض الاحيان الى ردة القبائل الزاحقة عبر الدانوب فإنهم لم يستطيعوا المحافظة على هذا الحد دائماً ، فكانت تعود القبائل فتنتسلل جماعات في الخفية وبالتدريج فتستقر داخل الحدود حيث تسمح لهما بذلك الظروف . ومن هؤلاء الصقالبة .

ويستدل من بعض المراجع الاولى ان قبائل الصكروات والصرب
 عبروا الدانوب في الربع الاول من القرن السابع ، واحتلوا بالقوة جميع
 ميليرية حتى شاطيء الادرياتيـك ، وان هرقل اعترف بوجودهم في هذه
 الاراضي لقاء معونة يقدمونها له ضد الآفار شرط ان يتقبلوا النصرانية^١ .
 وفرّ سكان البلاد امام تلك القبائل . فالتجأ أبناء سالونة الى حصن
 ديوقليتيانوس واسسوا مدينة اسبالاتو . ونزح أبناء ابيدورة فأقاموا في منطقة
 راغوزة . وفرّ غيرهم الى كالثرو والى جزر الشاطيء الى برازا ولاسبنة وغيرهما^٢ .
 وهكذا لم يشرف القرن السادس على اواخره حتى كانت جماعات من
 الصقالبة قد استقرت في ميسية السفلى بين الدانوب وجبال الهاموس . وفي
 عهد فوقاس وهرقل سارت جماعات اخرى من الصقالبة في موكب الآفار
 فنزلت بنسائها واطفالها وجميع ما ملكت ايمنها في مقدونية وثرافية وغشيت
 الأرياف بكاملها^٣ . وبما جاء في اعمال القديس ديمتريوس ان الصقالبة في
 السنوات ٦١٧ - ٦١٩ ركبوا البحر في قوارب نقرت في جذوع الشجر
 ففتكوا بسكان تسالية وآخية وايبروسية وبعض آسية . وانتشروا في
 جميع جزر الارخبيل . وجاء ايضاً انهم في السنة ٦٢٣ بلغوا الى جزيرة
 اقريطش فقتلوا وسبوا وان الذعر شمل الجبناء والشجعان على حد سواء .
 فأيقن الجميع ان ليس امامهم الا الموت او عذاب الاسرة .
 وبقيت هذه القبائل طوال القرن السابع تغزو في البر والبحر ولا يقر

*Constantinus Porphyrogenitus, Administrando Imperio, 143-144, 150, ١
 159, 162.*

*Sisc, Gesch. der Kroaten; Jirecek, Gesch. der Serben; Niderle, Manuel ١
 de l'Antiquité Slave*

Palrologia Graeca, Vol. 116, p. 1325

Ed. Tougaard, 119- 35.

لها فرار . وسعت حكومة العاصمة بما لديها من وسائل لاختضاع هذه القبائل ولكن دون جدوى . وفي السنة ٦٥٧ جرّد قسطنطين الثالث حملة عسكرية عليهم فهزمهم واشتق لنفسه طريقاً الى نيسالونيكية وارغمهم ان يخلدوا الى السكينة . ولكنهم عادوا الى سابق نزعاتهم فحاصروا هذه المدينة نفسها ما بين السنة ٦٧٧ والسنة ٦٨٠ . قتاد يوستينيانوس الثاني في السنة ٦٨٩ حملة اخرى عليهم واخضعهم ونقل منهم ثلاثين الفا الى شاطئ الدردنيل الآسيوي^١ .

وفي اواخر القرن السابع تدفق البلغار عبر الدانوب واستوطنوا . والبلغار من الشعوب الطورانية ابناء عم الهون والأتراك . وكلوا من قبل يعبرون الدانوب غزاة مغيرين ولكنهم لا يلبثون ان ينقلبوا الى ما وراءه . وكان هرقل قد استعان بهم بين السنة ٦٣٥ والسنة ٦٤١ ضد الآفار منعماً على زعيمهم بلقب بطريق مقدماً له الهدايا . الا ان الخور في السنة ٦٧٩ اضطروا هؤلاء البلغار ان يجلوا عن اراضيهم في ما وراء الدانوب . فتدفقوا عبر هذا النهر بقيادة خافاتهم أسبروخ واحتلوا ما تاخم النهر من الاراضي حتى جبال البلقان . ثم أكره قسطنطين الرابع ان يعترف بالواقع وان يسترضيهم بمال محدد يدفعه كل سنة . فنشأت دولة بلغارية فتية تشكلت من الاندماج بوعاياها الصغالية . فتقبلت لغتهم وتقاليدهم ووحدت كلمتهم . فأصبحت خطراً كامناً على دولة الروم^٢ .

الادارة : وأدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في القرن السابع الى تغيير اساسي في اساليب ادارة الولايات . وكانت القاعدة الاساسية المتبعة في تنظيم ادارة الولايات منذ عهد قسطنطين الكبير توجب الفصل بين

Diehl et Marçais, *Monde Oriental*, 212-218.

Runciman, S., *The First Bulgarian Empire*, London, 1930.

السلطتين العسكرية والمدنية في ولايات الدولة وذلك خوفاً من تمرّد الولاة أو قادة الجيش على السلطة المركزية . لكن هذه القاعدة انقلبت عند نهاية القرن السابع رأساً على عقب اذ لجأ الاباطرة الى دمج السلطتين في يد قائد عسكري في كل ولاية . فحوّلت الولايات الى ثيمات او بنود كما اسمتها العرب^١ .

وكان يوستينيانوس الكبير قد لجأ الى مثل هذه الحيلة في ادارة ولايتي قرطاجة ورايينة وذلك لتكرّر هجمات الومباردين في ايطاليا والمور في افريقية . فأنشأ وظيفة الاكسرخوس وجعله قائداً عسكرياً وحاكماً مدنياً في آن واحد . الا ان العلامة الالماني الدكتور ارنت اشتاين يرى ان هرقل درس عن كثب نظام الحكم عند اعدائه الالاء الاكسرة فأخذ عنهم دمج السلطتين العسكرية والادارية في يد قائد عسكري يقوم على رأس جيشه في منطقة معينة ، فكان ان انشأ نظام الثيمات^٢ . ويرى غيره من رجال الاختصاص ان هذا النظام الجديد لم يعمم دفعة واحدة بل نشأ بالتدريج في ارمينية أولاً ثم في سائر آسية الصغرى فأوروبا^٣ .

والواقع الذي لا سبيل فيه الى جدال هو ان آسية الصغرى عند نهاية القرن السابع كانت قد قسمت الى اربع ثيمات او بنود : (١) ثيمة

١ والبند لفظ فارسي معرب منباء العلم الكبير . وقال المسعودي في كتابه الثيب والاشراف : ارض الروم واسعة في الطول والعرض مقسومة من قديم الزمان على اربعة عشر قمراً اعمال مفردة تسمى البنود كما يقال اجناد الشام ، ص ١٥٠ . وعن عني بهذه الناحية من كتاب العرب ابن خردادذه المتوفى سنة ٩١٢ ميلادية في كتابه المسالك والممالك الذي طبع في لندن سنة ١٨٨٩ ، وقدمه في كتابه الخراج ، وهو من اعيان النصف الاول من القرن العاشر .

٢ Stein, E., *Byzantinisch-Neugriechische Jahrbücher*, I, (1920), 84-85

٣ Kutakovsky, J., *Byzantium*, III, 287-431 ; Bréhier, L., *Journal des Savants*, X V, 412-505.

ارمينية في شمالي شرقي آسيا الصغرى ، (٢) ثيمة اثاتوليكة^١ ، (٣) ثيمة الابسيق (اوبسيكيون) عند بحر مرمرا ، (٤) ثيمة القبريوت وكانت هذه تضم ساطىء آسيا الصغرى الجنوبي والجزر المجاورة له وذلك للصود في وجه الاسطول العربي . وكان قد نشأ ايضاً نظام مماثل في اوروية فظهرت ثيمة تراقية لدوره خطر الصقالبة وثيمة هيلاس للغرض نفسه في بلاد اليونان وثيمة في صقلية للدفاع ضد العرب^٢ .

والاساس في نظام الثيمة كان فيما يظهر اقامة جيش دائم في منطقة معينة يسهر على الدفاع عنها . ويُقطعُ ضباطه وجنوده اراضي معينة في المنطقة نفسها يستثمرونها . وتترج هذه العناصر العسكرية بـسكان المنطقة فثبت فيهم روح الشجاعة والجرأة وتدرتهم على حمل السلاح والقتال^٣ .

وثمة ما يدل على ان هرقل لم يحمل التشريع . فهناك قوانين اربعة سنّها في الفترة بين السنة ٦١٢ والسنة ٦٢٩ عني فيها ببعض مشاكل الاكليروس . وتوجد كذلك بقايا شرائع سنّها هذا الفيلسوف للحد من تزوير النقود والاختام والوثائق الرسمية . وقد كان لهذه الشرائع فيما يظهر اثر في ما شرعه الامان في الغرب والعرب في الشرق في هذا الموضوع نفسه .

الدولة تصبح هلينية : وكانت الدولة منذ تأسيسها قد اضطبقت بطابع شرقي في مفهومها للسلطة والحكم وفي نظامها الرتبى وتسلسل

١ من اللفظ اليوناني اثاتولي ، ومعناه الشرق ، ومنه اللفظ العربي التركي : الاتاؤل .

٢ Constantinus Porphyrogenitus, *De Themalibus*, *Crop. Script. Hist. Byzant.* ed. Hekker, 1840.

٣ Diehl et Marçais, *Monde Oriental*, 223.

Lopez. R., *Byzantine Law in the Seventh Cent. and its Reception by Germans and Arabs*, *Byzantion*, XVI, (1944), 445-461.

الصلاحيات وفي التشريعات وتعظيم الامبراطور وما الى ذلك . وجاء القرن الخامس فتفككت عرى الدولة في الغرب ولم يبقَ منها صامداً سوى ولاياتها الشرقية . وبرغم نجاح يوستينانوس في ايطالية وافريقية واسبانية ، فان الربط الذي اعاد احكامه بين الشرق والغرب لم يثبت طويلاً . وجاء القرن السابع فانفصلت اسبانية وأصبحت افريقية مهددة ، واضطربت ايطالية وسلخ العرب مصر والشام والجزيرة . واحتل الصقالة والبلغار جزءاً كبيراً من البلقان . فأصبح العنصر اليوناني هو العنصر السائد في الدولة ، وأصبحت آسية الصغرى قلب الدولة ومركز الثقل فيها . فتهلنت الدولة وبقيت يونانية حتى آخر عهدها .

اللاتينية تتوارى فتزول : وكانت اللغة اللاتينية لا تزال في عهد يوستينانوس الكبير لغة الدولة الرسمية ولغة التشريع والادارتين المدنية والعسكرية . وحتى اوائل القرن السابع كانت الامبراطور لا يزال ينادى بالقابه اللاتينية القديمة « *التقي السعيد الدائم العظيم* » . غير ان انتصار هرقل على الفرس جعله يزيد على القابه بصورة رسمية اللقب اليوناني « *القيس* » . وكان هذا اللقب شائعاً من قبل ولكن بصفة رسمية^٢ . وكانت اللاتينية لغة الاسر الحاكمة . بقيت وكذلك حتى انقطاع اسرة يوستينانوس . فأما الاسر التي عقيبتها فانها كانت اسوية كأسرة طليباريوس وموريقيوس وهرقل . ولذا رأينا البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) يتذمر لانعدام وجود الترجمة الاكفاء الذين يجيدون اللاتينية في العاصمة البيزنطية^٣ . ولنا في التشريع شاهد آخر على صحة ما نقول . فان يوستينانوس الكبير

Pius, Felix, Perpetuus, Augustus.

Lingenthal, Z., Jus Graeco-Romanorum, III, 46.

Grégorii, Epist., VII, ٢٧.

الذي نكلم اللاتينية واشترع بها وجد نفسه مضطراً ان يأذن باستعمال اللغة اليونانية في بعض القوانين التي أصدرها وان يعض النظر عن ظهور بعض الشروح باليونانية . حتى اذا اقبل القرن السابع أصبح التشريع كله باللغة اليونانية فقط

ونلس التطور نفسه في لغة الادارة . فان يوحنا ليدوس الذي عاصر بوسنيانوس يفيد ان ترقية في سلك الوظائف المدنية يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى الماعة باللاتينية هذه اللغة النادرة^١.

وتطورت اسماء الوظائف فأصبح معظمها في القرن السابع يونانياً ، وما بقي منها لاتينياً لحق به التحوير فأتخذ شكلاً يونانياً . وحتى عهد هرقل كانت اللاتينية لغة الجيش الوحيدة . وكان معظم كبار الضباط يتكلمون اللاتينية وعم من ابناء الولايات الاوروبية ويحملون اسماء لاتينية^٢ . واما في ايام هرقل فان رجال الجيش أصبح معظمهم آسيويين من ارمينية وسائر الولايات الآسيوية واصبحت لغة الجيش اليونانية . واذا كان الروم قد لبثوا يرددون بعض العبارات اللاتينية حتى القرن العاشر فانهم قليلاً ما كانوا يفقهون شيئاً مما يلفظون^٣.

تزايد نفوذ الكنيسة : وتم اندحار الوثنية في القرن السادس واكتمل انتصار النصرانية . ولكن النصارى كانوا لا يزالون منقسمين شطرين رئيسين : ارتودكسيين كاثوليكين ، ومونوفيسيين . وكان هم الاباطرة الاكبر ان يوفقوا الى ايجاد حل يجمع الشمل ويوحد الكلمة . فجهزت

^١ Novelles, 7, 1.

^٢ Johannes Lydus, De Magistr., 111, 68.

^٣ Burg, J. B., Later Roman Emp., II, 179-178 ; Auzaneres, L'Armée byz., ٨ 82-83 .

^٤ Burg, J. B., op. cit., II, 176 .

حروب الفتح العربي فصلخت عن جسم الدولة كل من قال بالطبيعة الواحدة فأصبحت الدولة البيزنطية ارتوذكسية كاثوليكية موحدة . وأصبح الفيلسوف حراً طلقاً يقول بعقيدة يجمع عليها رعاياه ، ويتحمل فحمة دينية لا يختلف فيها من رعاياه اثنان ، فيقسم عند تقيله التاج من يد بطريرك العاصمة : « انه سيكون ابن الكنيسة البار وخادمها الأمين » ، وانه سيرعاها بعنسايته ويدافع عنها جهده ، ويحترم امتيازاتها ونفاليدها ، فيحرم كل ما تحرمه ، ويؤيد كل ما أقرته مجامعها .

وتزايد نفوذ الكنيسة في الاوساط الشعبية ، فبهرت عظمة طقوسها العقول ، وحرك وعظها الافئدة والصدور ، وتعلق الشعب برهبانها وعقد على صلواتهم وتضرعاتهم الآمال بالسعادة والنجاح . فأقبل الناس على الترهيب زرافات زرافات ، وراؤوا في ارتداء التوب افضل السبل الى خلاص النفس . وتعددت الاديرة فحوت منها العاصمة وحدها عدداً عظيماً^١.

وبسقوط الاسكندرية وانطاكية واورشليم في يد العرب أصبح بطريرك القسطنطينية زعيم الكنيسة الاوحد في الشرق . وكانت بطريرك القسطنطينية قد أصبح بطريركاً مسكونياً منذ السنة ٥٨٢ بقرار من مجمع محلي عقد في القسطنطينية للنظر في خصومة نشبت بين غريغوريوس بطريرك انطاكية واستيربوس والي الشرق . وقد نشأ عن هذا القرار جدل عنيف بين حامل هذا اللقب يوحنا الصوام وغريغوريوس الذبالوغوس بابا رومة^٢ . وبطبيعة الحال أيد الفيلسوف بطريرك عاصمته فيذرت بذور الشقاق والانفصال بين فرعي الكنيسة الام . وقضت ظروف سبقت اليها

^١ *Codinus, Officlis, ed. Bonn, 86-87*

^٢ *Marin, E., Les Moines des Constantinople, (Paris, 1896)* .

^٣ ومن القايه ، ايضاً ، الاول والكبير . راجع تفاصيل هذا الجدل ، وتاريخ هذا اللقب : في تاريخ الانشقاق ، جراسيموس مقريبوليت بيروت ، ج ١ ، ص ٣١٢ - ٣٣٠ .

الإشارة بأن يهاجم ضباط الجيش الامبراطوري القصر الباباوي سنة ٦٣٩ وان ينهبوا كنوزة . وفصل قسطنطين الثالث في السنة ٦٥٩ كنيسة رابينة عن كنيسة رومة . وفي السنة ٦٥٣ اوقف اكسرخوس رابينة البابا مريمنوس وارسله الى القسطنطينية ، فتركت هذه الاعمال كلها أثراً سلباً في نفوس أبناء رومة وغيرهم . وبما زاد في التباعد بين الفرعين الرئيسين للكنيسة الأم أن اللغة اليونانية في رومة قلّ تداولها وتفهمها بتدرج ما قلّ تداول اللاتينية وتفهمها في القسطنطينية^١ . وبرغم الاتفاق الذي ساد جو المجمع المسكوني السادس المنعقد في السنة ٦٨٠ فإن سلباً كثيراً من الحذر وقلة التلة بقي كامناً في الصدور . ثم جاء المجمع البينكتي في السنة ٩٩٢ فأكد مرة ثانية بأن يكون لكرمي القسطنطينية التقدم « اسوة » بتقديم كرسي رومة القديمة^٢ . فلم يكن ذلك مما ارتاحت اليه النفوس في رومة الاوتياح كله . وأدى تعاظم امر الرهبانية في الدولة الى زيادة كبيرة في عدد الرهبان وبالتالي الى نقص في دخل الخزينة ، لأن القانون أعفى الرهبان من دفع الضرائب ، كما منع جبايتها عن الاوقاف الدينية . وتوافرت ثروة الرهبانيات فقوي نفوذها ، وأصبحت عنصراً سياسياً هاماً يتدخل في أحيان فيعرف قل سير السياسة ويعتقد مشاكلها . ومن جراء الانسياق غير الواعي في موجة من التعبد الشديد ، ساد النفوس خرب من القدورية الغاشمة أفضت بدورها الى فقدان النشاط والعزم والحزم وروح المبادرة ، ولاسيما اراء الخوادم الكبرى^٣ .

^١ *Gregoria Magna Epistolae*, VII, 39, 41, 43.

^٢ القانون السادس والثلاثون .

^٣ *Paparrigopoulos, K., Civilisation Hellénique, 184, Diéht et Marcas.*

Monde Oriental, 228-231

الفصل الثامن عشر

الآداب والمعلوم والفن في القرن السابع

وهو أشد القرون عتماً في تاريخ الفكر البيزنطي . ولعل السبب في ذلك هول الاخطار التي احدثت بالدولة وتتابع الحروب الطاحنة التي استنفدت جهودها فشغلت ابناءها عن العمل في حقل الفكر والفن .

والفضل ما تبقى من آثار هذا القرن في التاريخ والآداب شعر جاورجيوس البسيدي شماس كنيسته الحكمة الالهية في القسطنطينية . عاصر هذا الشماس هرقل ونظم في حروبه الفارسية وفي حصار القسطنطينية سنة ٦٢٦ قصائد خاصة بقيت موضع اعجاب الروم زمناً طويلاً . ورجال الاختصاص يجتمعون اليوم على ان جرجس البسيدي افضل من نظم عند الروم في المواضيع الزمنية غير الدينية .

وقد عاصر هرقل مؤرخ آخر هو يوحنا الانطاكي فكتب تاريخاً عاماً منذ آدم حتى آخر ايام فوقاس (٦١٠) . ويرى فريق ان ما ينسب اليه هو في الحقيقة نتاج قلم يوحنا ملالاس الانطاكي . على انه قول ضعيف لان ملالاس كتب بوصفه انطاكيًا ينظر الى تاريخ العالم من نافذة انطاكية دون سواها . اما يوحنا الذي نحن بصدده فإنه ينظر الى الحوادث العالمية

بوصفه رجلاً عالمياً لا انطاكياً فقط ، وهو أشد حذقاً في تناول مراجعته وتقديرها من يوحنا ملالاس . وفي عصر هرقل أيضاً نشأ الكليبريكي مجهول فدتون خرونيقون الفصح Chronicon Paschale . وذكر حوادث العالم أيضاً منذ آدم حتى السنة ٦٢٩ . ولهذا الخرونيقون اهميته لان صاحبه يذكر فيه مراجع زملائه المؤرخين ويدون بعض ما شاهد أو عاصر من الاحداث والاشياء .

والجدل العنيف الذي نشب في القرن السابع حول المشيئة الواحدة نشط التأليف في هذا القرن . على ان ما صُفِّ في تأييد القول بالمشيئة الواحدة قد اهل فتقد بعد انتصار القول بالمشيئتين . ولا سبيل الى تعرف من كتب في المشيئة الواحدة الا بطريق من كتبوا يدون على هذا القول . وأشهر اصحاب الرد على القول بالمشيئة الواحدة مكسيموس المعترف . وهو قسطنطيني الموطن ، شريف النسب ، فيلسوف ولاهوتي مرموق . كان في اول امره كاتب سر لهرقل القسيفلس . فلما قال القسيفلس بالمشيئة الواحدة خرج مكسيموس من البلاط الملكي واعتزل في دير في خريسوبوني (اسكي دار) ، ثم صار رئيساً لهذا الدير . ومن هنا التعبير العربي Maxime l'Abbé . وقد دافع عن القول بالمشيئتين والفعالين ، وكتب الكتب متأثراً بؤلفات اثاسيوس الكبير ، وغريغوريوس النريزي وغيرها . وكان عهد قسطنطين الثالث فأمره ان يكف عن الخطابة والكتابة فأبى . فأمر القسيفلس بقطع لسانه ويده اليمنى . ثم نقاه الى لازقة ، فتوفي في المنفى في السنة ٦٦٢ ، وأعلن في النديسين . ولا يزال الارثوذكسيون ، حتى يومنا هذا ، يقولون : « لستم نحن حق الاعتداح مكسيموس العظيم ، عاشق النالوث ، الذي حكم بصراحة للايمان الالهى بان يمجى المسيح بطليعتين ومشيتين وفعالين . ولنهتفن قائلين : السلام عليك يا كاروز الايمان . » ويرى بعض رجال الاختصاص ان مكسيموس المعترف جمع في

رسائله ومؤلفاته بين التصوف النظري الذي وضعه ذيونيسيوس الأريوباغوسي وبين مشاكل الرهبانية العملية ، فاستحق بذلك أن يدعى مؤسس التصوف البيزنطي^١.

واقضت آراء مكسيموس بالغرب فتأثر بها عدد من رجال اللاهوت . وفي طليعة هؤلاء يوحنا الأريمني Johannes Scotus Eriugena من أعيان القرن التاسع . وكان يوحنا هذا قد عشق مؤلفات ذيونيسيوس الأريوباغوسي فاعترف أنه لولا مصنفات مكسيموس « الفيلسوف الإلهي الكلي الحكمة » لما تمكن من فهم ذيونيسيوس^٢.

وعني صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة الذي عانى متاعب حصارها من قبل العرب بأخبار القديسين ، فكتب مطولاً في سيرة القديسين المصريين كيروس ويوحنا ، فأثخنها بمذلكات مفيدة من جغرافية واجتماعية . وما ينسب إليه أنه هذب صلاة الشكر المسائي : الاقشين « يا نوراً جياً » . ومن أعيان هذا القرن أيضاً لاونديوس اسقف نيابوليس في قبرص . ألف في سير القديسين ولاسيما سيرة يوحنا الرحوم بطريرك الاسكندرية فأفادنا لأنه اهتم في كتابته الانحياز للاقتصاد والاجتماع . ويختلف لاونديوس عن معظم من ألف في أخبار القديسين أنه كتب متأثراً باللهجة اليونانية الدارجة في عصره ، إذ جعل هذه ارشاد العامة قبل الخاصة^٣.

ومن اشتهر في هذا القرن أيضاً اندراوس الدمشقي الذي نشأ في دمشق وتوغل فيها ، فمكف منذ حداثة على العلم ، ثم تقبل النذر في فلسطين ، فصار كاتب ثيودوروس بطريرك المدينة المقدسة . واشترك في

Epifanovich, S., The Blessed Maximus Confessor and Byz. Theology, ١

137; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 63, 181

Brilliantov, A., Influence of Eastern Theology upon Western, 50-52

Gietzer, H., Leonios von Neapolis, 91

أعمال الجميع المكوني السادس الذي انعقد في عهد قسطنطين الاخير سنة ٦٨٠ ، ثم صار شاملاً للكنيسة العظمى ، فربما لاساقفة اقريطش . وتوفي بين السنة ٧٢٠ والسنة ٧٢٣ أما أشهر آثاره فاناشيده الدينية المعروفة بالقانون الكبير . ولعله اول قانون من نوعه ، يشتمل على أهم حوادث الكتاب المقدس . ويتلى هذا القانون في الاسبوعين الاول والاخير من الصوم الكبير .

وكان طبيعياً جداً ان تحول الحروب الطويلة التي نشبت في هذا القرن دون العناية بإنشاء المباني الفضة ، ولكن القليل الباقي من آثار البناء التي ترجع الى هذا القرن يدل بوضوح على ان الاسس الفنية التي وضعت في عهد يوستينوس الكبير كانت ما تزال متبعة في عهد هرقل وخلفائه . وتدل هذه الآثار نفسها على ان مدى تأثير الفن البيزنطي كان قد تعدى حدود الامبراطورية . فكتدرائية ايتشيان الارمنية التي رمت بين السنة ٦١١ والسنة ٦٢٨ تنطق بأثر الفن البيزنطي في ارمينية ، وكذلك كنيسة قلعة عانة (٦٢٢) وبعض تصاوير كنيسة القديسة مريم القديسة في رومة .

ويرى العلامة الفنان سارل ديل ارت قبة الصخرة التي أنشأها الخليفة الاموي عبد الملك ابن مروان في بيت المقدس بين السنة ٦٨٧ والسنة ٦٩٠ بعد الميلاد هي من حيث فنها مفرجة مكمل للفن البيزنطي في القرن الرابع . فشكلها المثلث الزوايا وقبتها ولاسيما تليس جدرانها بالرخام وتزيينها بالفسيفساء المذهبة ، جميع ذلك ينطق بأثر الفن البيزنطي . ويرى هذا العلامة الرأي نفسه فيما يتعلق بالمسجد الاموي في دمشق فيذكر ان الوليد ، عندما أراد ان يحول كنيسة مار يوحنا المعمدان الى جامع ، استعان بزميله فيلانس الروم فأرسل له الصناعات لهذه الغاية وان الكنيسة هذه أصبحت بعد تحويلها تشبه من الجهة الفنية ببليقة

بيزنطية ذات قبة وانت القسيما التي وسعت الجدران هي قسيما
بيزنطية ايضاً.

*Diehl, Ch., Manuel d'Art Byzantin, I, 344-345 ; Saladin, Manuel d'Art &
Musulman, 55-71, 80-87 ; Kondakof, Voyage, Syrie, III.*

الباب السابع انتعاش وتوطيد واستقرار

الفصل التاسع عشر الاميرة الاسورية او السورية (٧١٧ - ٨٠٢)

اصلها : وفي السنة ٧١٧ اغتلت عرش الروم أسرة ظل المؤرخون يعتبرونها اسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر . ولكن في السنة ١٨٩٦ كتب العالم الالماني شينك في مجلة الابحاث البيزنطية مقالاً قيساً في مؤسس هذه الاميرة لاوون الثالث ، فجعله سورياً لا اسورياً . ثم جاء بعده من اتبعه^١ . ومن عارضه^٢ . والسبب في هذا الاختلاف في الرأي هو ان ثيوفانس المرجع الرئيس في سيرة لاوون قال عنه انه من ابناء

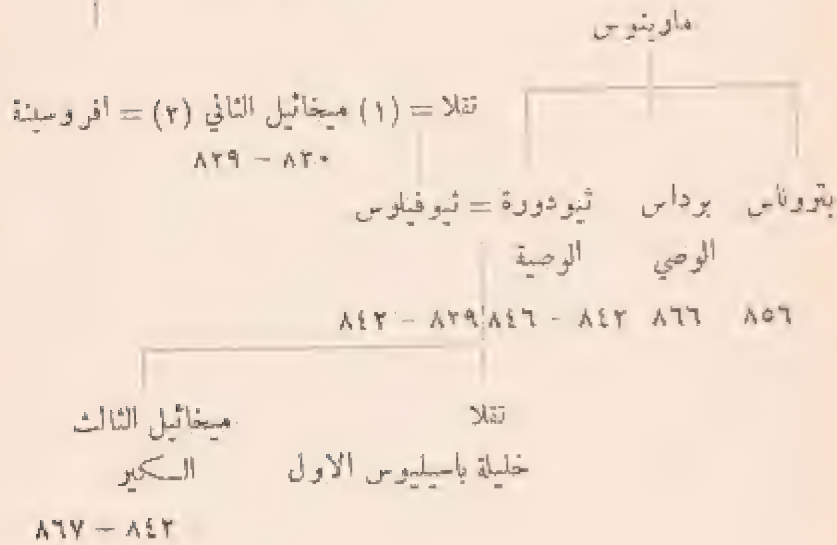
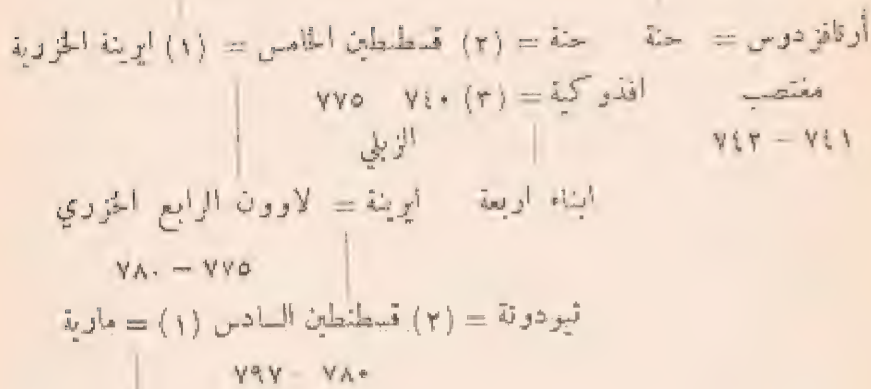
^١ Schenk, K., *Kaiser Leonos, III. Byz. Zeit.*, V, 256 ff.

^٢ Iorga, N., *Origines de l'Iconoclasme, Bulletin Acad. Roumaine*, XI, ٢ (1924), 147.

^٣ Kulakovskij, J. A., *Hist. of Byzantium*, III, 319.

لاوون الثالث

٧١٧ - ٧٤٠



جرمانيكية (مرعش) ومن اصل يسوري^١ وان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته ان لاوون كان من ابناء جرمانيكية وانه كان سوري المولد^٢. والواقع ان اسطانوس الاصغر يؤيد القول بالاصل السوري ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب العيون والحدائق الذي صنف فيها يظهر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. فهذا المؤرخ المجهول يجعل لاوون سورياً يجيد العربية كاليونانية^٣.

وشجرة النسب الواردة في القطعة السابقة تشمل الاسرتين الاسورية والعمورية. وينضغ منها ان لاوون الثالث، المؤسس المنظم المصلح كما سيمر بنا، توفي في السنة ٧٤١. وان ابنه قسطنطين الخامس الذي تزوج من ابنة خاقان الخزر جلس بعده على العرش فساس البلاد اربعاً وثلاثين سنة اثبت في انسابها انه خير خلف لوالده المؤسس. وجاء بعده ابنه لاوون الرابع «الخزري» نسبة الى والدته، وتزوج من آثينية اسمها ايرينة. ولكن كان مريضاً بداء الل فمات صغيراً بعد ان حكم مدة وجيزة (٧٧٥ - ٧٨٠). وكان ابنه وخلفه قسطنطين السادس لا يزال في العاشرة فاصبحت ايرينة الوصيّة الوحيدة على العرش واقتوت اسمها باسم ابنها القاصر في جميع شؤون الدولة. وكانت ايرينة هذه ذكية محبوبة من الجماهير. الا انها كانت شديدة الطموح. فما ان تولت منصب الوصاية حتى افعمها جاه المنصب استبداداً وطمعاً يشوبه الغرور. ومع ذلك نالت عطف الجماهير وتأييد رجال الدين لانها اوقفت حزب الايقونات. وقد ملأت جميع المناصب الهامة برجال من بطانتها.

Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 391.

Chronographia Tripartita, ed. Boor, 251.

٣ ج ٣ ص ٢٥.

وحالات مدة حكمها عشر سنوات وهي مستاثرة بالسلطة لا يشاركها فيها احد . واستولى عليها الفرور وعظمت ثقتها بنفسها فبقيت على استثنائها بالسلطة حتى بعد ان بلغ من الرشد . فنار عليها لما بلغ الثانية والعشرين من عمره ونسلم ازمة الاحكام بالقوة . فبقيت ايرينة اما شاذة لا ترضى عن استئثار ابنها بالسلطة وظلّت تحلم باستعادة نفوذها ، حتى كانت السنة ٧٩٧ فتمكن المتآمرون الذين كانوا يعملون لحسابها من القبض على ابنها قسطنطين السادس فسلّوا عليه وحبسوه في احد الاديرة . وبذلك انتهى حكم هذه الاسرة الاسورية او السورية . اما قسطنطين فانه عاش سنوات عدة راهباً اعمى . وراقب عن بعد خمة اباطرة تعاقبوا على العرش من بعده . واول هؤلاء امه ايرينة التي جلست على العرش خمس سنوات متتالية . والظريف الطريف عنها انها كانت تلقب فيلسفاً لا فيلسفة لان الروم في عهدها كانوا يرون ان حق الاستراع من خصائص الرجال لا النساء . ولم تقط ايرينة قبل السنة ٨٠٢ عندما سيطر وزير ماليتها الكبير ثقفور على بعض الحصيان ورجال البلاط . فقبض عليها بهدوء وحبسها في احد الاديرة . ولم يحرك احد ساكناً من اجلها . واعتلى ثقفور العرش بهدوء^٢ .

الحروب العربية : وكتب على لاوون الثالث ان يصد العرب وان يمنع مسلمة من الاستيلاء على القسطنطينية كما سبق ان اشرنا . وكانت محاولة مسلمة تلك هي الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين فلم يتسن لهم بعدها الدخول الى اوروبة الشرقية ولم يجارلوا الحرب بجذ ونشاط بعد هذه الصدمة القوية . ولعل السبب في هذا كان ظهور الخزر في افصى

Lingenthal, K. E. Z., *Jus Graeco-Romanum*, III, 55; Zepos, P., *Jus Graeco-Romanum* I, 45.

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الشمال وتعاونهم مع الروم وانتقاضهم على أذربيجان ، وقد حالف لاوون الثالث هؤلاء الخزر . وفي السنة ٧٣٢ أزوج ابنه قسطنطين الخامس ابنة خاقان الخزر ايربته^١ . ولعل السبب في هذا ايضاً ان الذين تربعوا على عرش الامويين في هذه المدة كانوا اشخاصاً ضعفاء الهمة والعزيمة ، سقطوا صرعى للغواني والشراب ، وعبيداً للملذات والشهوات . وقد يكون السبب ايضاً ما وقع من التصادم بين النيسين واليمنيين ، وما حصل من سحق مسلمي فارس على الامويين لانهم لم يساؤوا بين المسلم غير العربي والمسلم العربي^٢ .

بيد ان غزوات العرب الامويين لم تنته عند الفشل الذي حل بهم حول اسوار القسطنطينية في السنة ٧١٨ ، فقد اغاروا في السنة ٧٢٥ على قبدوقية واستولوا فيها على قيصرية وهددوا نيقية . وفي السنة ٧٣٧ عادوا الى الحرب وبلغوا تيانة في جنوبي قبدوقية ، فضربوا عليها الحصار في السنة ٧٣٩ . ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في يوم الكروينون^٣ (افيوم قره حصار) ، فاضطروا ان يجلوا عن غربي آسية الصغرى ، وان يتراجعوا شرقاً فجنوباً . وفي هذا اليوم على الارجح قتل عبدالله البطال الذي تميز في حرب مسلمة فأصبح فيما بعد السيد غازي الذي اعتبره الاتراك بطلاً من ابطالهم ، فأنشأوا له قبراً بالقرب من اسكي شهر (دوريلايوم) وتكبة فوجدوا للطريقة البكتاشية^٤ .

واستغل قسطنطين الخامس الغليان الداخلي في الدولة الامورية فانقض^٥ في السنة ٧٤٥ على حدودها الشمالية واستعاد مرعش ودولوك ، وأجلى

^١ Lombard, Alfred, Constantin V, 31.

^٢ الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٦٣ - ٦٥ .

^٣ Akroinon.

^٤ Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 238.

نصارى الحدود الى تراقية . وفي السنة ٧٤٦ جهز اسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية ونحّر به الى قبرص ، فنقض على اسطول عربي كانت في مياهها واحتل الجزيرة . وفي السنة ٧٥١ جرّد حملة على حدود العرب في ارمينية فاستولى على ارضروم وملاطية . ثم انجه نحو الفرات فاحتل حصن قنوذية وبلغ شمشات^١ .

وكانت جبال طوروس بسلسلتها هي الحد الفاصل بين الدولتين . وكان خط الدفاع البيزنطي ينقسم قسمين رئيسيين ، احدهما يمتد من ملاطية الى عين زربة ، وهو مخصص لصد الغارات من شمالي العراق ، والآخر يمتد مقابلاً الشام لصد الحملات المتبعة منها . وعني الروم عناية فائقة بهذين الخطين الطبيعيين ولاسيا الممرين عبرهما : الممر الذي ينتهي عند ابواب قيليقية بين اذنة وسائر الاناضول الشمالي ، وممر كوردخاي بين مرعش واليستان^٢ . وكان على قمة شديدة الارتفاع عند اقصى الممر الاول في جهة الشمال حصن حصين يتحكم بهول قبدوقية الجنوبية ويسمى قلعة اللؤلؤة ، وقد أصبح في هذا العهد الذي نحن بصدده مضرب الامثال في المناعة . وكان هذا الممر يضيق جداً في جنوبيه فيصبح عرضه عند ابواب قيليقية بضعة امتار . وكانت تحيط به صخور شاهقة في ارتفاع عمودي ، وتشرف عليه قلعة الصقالبة ، بحيث تستطيع حاميتها وقف جيش كبير العدد . أما ممر كوردخاي فكانت اهم فلاحه قلعة زبطرة^٣ ، وقلعة ملاطية لوقوعها عند ملتقى الطرق الرئيسة المؤدية من سبسطية وميوسا وفيصرية الى ارمينية وشمالي العراق . واطلق العرب على الممر الاول اسم درب السلامة ، وعلى

Lombard, A., op. cit., 35-36 ; Laurent, J., *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*, 184, 208 .

Arabissos

Zaqetra.

٢

٣

الممر الثاني اسم درب الحدث . وقد اقام الروم ، عبر آسية الصغرى ، من قلعة اللؤلؤة الى القسطنطينية ، سلسلة من المنارات لارسال الانباء باشعال النار . فكانت النار التي توقد على برج حصن اللؤلؤة يراها الحراس المقيمون في برج جبل ارغايوس المطل على بحيرة قانة ومنه يراها الحراس في برج اغيلوس ، ثم ينتقل خبرها الى معسكر دوراليوم الكبير ، فبرج ماماس ، فبرج موكيلوس ، فبرج خليج بينينية ، فبرج القديس اوكرنتيوس ، فالتصير الكبير . وفي عهد الامبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢) ادخل لاوون الرياضي تحسيناً على هذه الطريقة . فانه أعد ساعتين تسييران في زمن واحد احدهما جعلها في التصير الكبير في القسطنطينية ، والاخرى في قلعة اللؤلؤة . ورتب لاوون ان تتفق السلطان : السلطة المقيمة في القصر ، والسلطة المقيمة في القلعة ، على اثني عشرة حادثة يرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثني عشرة . وتكتب كل حادثة امام الرقم المخصص بها على واجهة الساعة . فاذا حدث ان أحس محافظ قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً ان العدو على اية عبور الحدود انظر الى الساعة السادسة ليتبين حركات العدو ثم اشعل النار . وعندما تنقل تلك الاشارة عبر المحطات الى القصر الامبراطوري ينظر الحراس الى الساعة فيعلمون متى اشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ويتفون بذلك على معنى هذه الاشارة ، اي ان العدو اخذ بحرك ركابه للهجوم . واذا اشعلت النار في الساعة السابعة علموا ان الحرب وقعت بين الطرفين . واذا اشعلت في الساعة الثامنة دلت على ان العدو قد اجهل الطرائق وهكذا .

Bury, J. B., op. cit., II, 244-245.

وقوله للمربية بمظلمه من لفظ الدكتور احمد المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ،

س ٧٠ - ٧٥ .

وعني العرب بئيل ما عني به الروم . فأسس هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)
 إقليم عواصم بالإضافة الى إقليم الثغور . فشمل إقليم العواصم حلب ومنبج
 وانطاكية الى الساحل . وجعل عليه ابنه المعتصم . وإقليم العواصم هذا
 كان سلسلة من الحصون الداخلية تعصم الحدود وتعينها على صد غارات
 الروم . وكان إقليم الثغور في عهده ينقسم قسمين : الثغور الجزرية
 لحماية العراق ، ومن حصونها زبطرة ومنصور والحديث ، والثغور الشامية
 ومن حصونها المصيصة واذنة وطرسوس^١ .

ولبس في المراجع العربية او غيرها ما يدل على ان الخلفاء العباسيين
 قد هدفوا الى ما هدف اليه اسلافهم الامويون من حيث القضاء على دولة الروم
 والسيطرة على حوض البحر المتوسط . فاصوائف والشواتي في عهدهم لم
 تكن سوى غارات للاستيلاء على معاقل جبال طوروس او للنهب والسلب
 الشائعين في ذلك العصر . فغزو الربيع كانت يبدأ من منتصف ايار بعد
 ان تكون الحيلول العربية قد سمحت ، ويستمر شهراً من الزمن تجد فيه
 هذه الحيلول غداة وفيراً في مراعي الروم . ثم تخذل الى السكينة شهراً ،
 وتستأنف بعده غارات تستغرق ستين يوماً . اما غزو الشتاء فكان يقع
 عادة في النصف الاول من آذار^٢ .

وفي السنة ٧٨٣ ثار الصقالية على ايرانية فاضطرت ان تسحب بعض
 قرايتها من آسية الصغرى لاختداد هذه الثورة في مقدونية وبلاد اليونان .
 فاستهز العرب الفرصة وتوغلوا في آسية الصغرى فكسروا الروم في درنون

١ البلاذري : ص ١٥٦ . والعضوي : ص ٧١ - ٧٢ .

Le-Strange, G., *East, Caliphate*, 128.

٢ قدامة ابن جعفر : الخراج ، ٢٥٩ . راجع ايضاً الملحق الثاني من كتاب الدكتور

ابراهيم احمد الحموي : ص ١٨١ - ١٨٥ .

ووصلت ثلاثتهم الى ضفة البوسفور . فصالحته ايرينة على ان تدفع مالا سنوياً قدره سبعون او تسعون الف دينار . وفي السنة ٧٨٤ استولى العرب على ثيباسة في قبدوقية^١ . وكان الفريقان يراقبان السواحل فأسر الروم في السنة ٧٩٠ بضع سفن عربية وهي في طريقها من مصر الى الشام . واغار الاسطول العربي على قبرص في هذه السنة نفسها وانزل قواته في الجزيرة وهزم اسطول الروم في مياه اضاية وأسر اميره ولكن خسارة العرب كانت فيما يظهر عظيمة^٢ . وفي السنة ٧٩٨ توغل العرب في آسية الصغرى مرة اخرى فاكثسحوا قبدوقية وغلطية فاضطرت ايرينة ان تدفع الى هارون الرشيد المال السنوي نفسه الذي كانت قد دفعته الى المهدي^٣ .

البلغار والصقالبة : وعاون البلغار لاوون الثالث على العرب اثناء حصارهم القسطنطينية . وظلّت العلاقات ودية بين الروم والبلغار ثلاثين سنة . اما قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥) فإنه نقل الى البلقان عدداً كبيراً من الارمن واليوريين المسيحيين وانشأ سلسلة من الحصون عند حدود البلغار ثم شنها حرباً على هؤلاء ليقتضي على دولتهم ولكنه لم يفلح ، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين لقب ذابح البلغار^٤ Bulgaroetonus . وعند نهاية القرن الثامن اتخذ البلغار خطة الهجوم فأكسروا قسطنطين السادس ووالدته ايرينة على ان يؤدوا لهم مالا معلوماً كل سنة .

وفي المراجع ما يدل على ان الصقالبة كانوا قد انتشروا في طول

Honigsmann, E., Ostgrenze des Byz. Reiches, 47. ١

Brooks, E. W., Relations between Emp. and Egypt, Byz. Zeit., (1913), ٩ ٢
385; Weil, Gesch. der Chalifen, II, 157

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 239. ٣

Lombard, A., Etudes, Constantin V, 59. ٤

اليونان وغرضها عند منتصف القرن الثامن وانهم ظلوا يتدفعون عليها حتى أصبحوا اصحاب الكلمة فيها وفي قسم كبير من البلقان . وقد سبقت الإشارة الى الحملة التي انفذتها ايرينة نفسها لمحاربة هؤلاء الصقالبة في السنة ٧٨٣ .

الأكلوغة : وعني لاوون الثالث بالتشريع ، فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عصر يوستينيانوس الكبير قد أصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . رأى الناس في بعض الولايات الشرقية لا يزالون يؤثرون العرف حتى على بعض شرائع يوستينيانوس ، كما رأى بعد تقلص الامبراطورية من جراء الفتح العربي وتغلب الصقالبة والبانغار على جزء كبير من البلقان ان اليونانية قد أصبحت هي اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان ، وبالتالي لابد من تشريع باليونانية خلاف تشريع يوستينيانوس الموضوع باللاتينية . فصم لاوون على العمل في هذا الحقل فانتهى في السنة ٧٢٦ ، لا ٧٣٩ ، كما يرى البعض^٢ ، لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر في قوانين يوستينيانوس واصطفا المفيد منها وتحسينه ووضعها باليونانية . وأطلق لاوون على مجموعته هذه اسم الأكلوغة *Ecloga* ومعناه المنتخبات . وبما جاء في مقدمة الأكلوغة هذه ان قوانين الاباطرة قد أصبحت صعبة المنال إما لتفرقها في الكتب الكثيرة او لصعوبتها على الفهم او لقلّة تداولها في الاوساط خارج العاصمة « المحروسة من الله » . وبما جاء في هذه المقدمة ايضاً انه يجب على القضاة ان يتجردوا من العاطفة وان يحكموا بالعقل والعدل ، والا يحتقروا الفقراء والمساكين والا يتركوا الاقوياء المجرمين طلقاء الايدي وان يمتنعوا من قبول الهدايا . وكذلك نصّت هذه

Vasiliev, A. A., *op. cit.*, 240.

Ginnis, D., *Das Promulgationsjahr der Isaurischen Ecloga*, *Byz. Zeit.*, ١ (1924), 356-357.

المقدمة على وجوب دفع مرتبات القضاة من الخزينة « الصالحة » كي لا نتم نبوة عاموس « لانهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين فسلط علينا غضب الرب بتجاوز وصاياه »^١.

وتتضمن الاكلوغة في اقسامها الثانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال الشخصية. ولا تبحث في الجزاء الا قليلاً. وهي تختلف عما اشترعه يوستينانوس اختلافاً يبيناً في بعض الاحيان. فهي تأخذ بالعرف احياناً وباجتهادات القضاة السابقين احياناً اخرى. ويتساوى امامها الغني والفقير، الامر الذي لا نلقاه دائماً في مجموعة يوستينانوس. والاكلوغة مسيحية اكثر من الدجستا تحمل فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل الاستشهادات بالشرع الروماني القديم^٢. ولكن مع هذا كله لا يرى رجال الاختصاص في الاكلوغة ما رآه المورخ اليوناني باباريغوبولو الذي صنف في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، فانه رأى في الاكلوغة اسماً لم يتوصل اليها القانون في الغرب الا بعد الف سنة^٣.

قانون المزارعين: وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود في الارجح الى عهد الاسوريين ايضاً. واشهر هذه القوانين قانون المزارعين. وهو في رأي النقات من اشتراع لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس. اما تاريخ صدور هذا القانون فقد كان في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الاكلوغة (٧٣٦) او بعيد ذلك^٤. ويرى العالم الروسي بنشكوف ان هذا القانون مستمد من العرف الذي ساد الاوساط الريفية والذي لم

^١ Zepos, J., *Jus Graeco-Romanum*, II, 14, 16-17; Freshfield, B., *A Manual of the Roman Law*, Ecloga, 68-70.

^٢ Bury, J. B., *Constitution of Later Rom. Emp.*, II, 414.

^٣ Paparrigopoulos, K., *Hist. Civ. Hellenique*, 205-209.

^٤ Lingenthal, Z., *Gesch. des Griechisch-romischen Rechts*, 250.

تشمله الاكلوغة^١.

والداعي لاهتمام العلماء بهذا القانون خطبوه من الاشارة الى الكولوفي والاقنان Serf واهتمامه بظواهر جديدة بين الفلاحين كالملكية الفردية الحرة والملكية الجماعية او المشاع وحرية الانتقال ومنع الخدمة الاجبارية. وقد نغالي اذا قلنا مع ثيودور اوسبنسكي ان هذه الظواهر الجديدة شملت الدولة بأسرها وان الفلاح زمن الاسوريين دخل في عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة^٢. وقد نغالي ايضاً اذا قلنا مع شاول ديل وزميله جورج مارسه ان لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع ان يوفقا تولاري الممتلكات الحرة الصغيرة وان يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة وان يضمنا للفلاح ظرفاً افضل^٣. ولا يجوز التادي في القول مع بعض العلماء ان لاوون وابنه اضطرا ان يدخلوا على شرع الدولة عرفاً خاصاً صقلياً في اساسه لكي يستهوبا العناصر الصقلية في الدولة ويوفقا ميل هؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم. ويرى المؤرخ الكسندر فسيلييف ان في مجموعات ثيودوسيوس ويوستينانوس وفي اخبار القديسين ما يدل على ان الملكية الحرة الصغيرة كانت لا تزال باقية حتى عهدهما وان الدولة الرومانية عرفت نظام المشاع في اوائل عهدهما وان الملكية الحرة الصغيرة بقيت منتشرة في الدولة البيزنطية الى جانب الملكية الكبيرة وكولونيتها وفداديستها. ولعل الأقرب الى الحقيقة ان تؤخذ هذه الأمور جميعها بعين الاعتبار.

القانون البحري الرودوسي: ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية

Pancenko, B. A., *The Rural Code and Monastic Documents*, 86.

Uspensky, Th. I., *Byz. Emp.*, I, 28.

Diehl, Ch., et Marçais, G., *Mande Oriental*, 256, n. 28.

Vasiliev, Alexander, A., *Byz. Emp.* 246-247.

القديمة ملاحق تتضمن قانونين آخرين أحدهما بحري والآخر عسكري .
ويخلو هذان القانونان من أية إشارة إلى تاريخ صدورهما . أمّا بعض رجال
الاختصاص فقد رأوا في محتوياتهما ما يدل على أنها من إنتاج الأسرة الاسورية .
والقانون البحري الرودوسي قانون تجارة بحري يبحث بنوع خاص في
توزيع المسؤوليات عند تعرض السلع للخطر ، إما من جراء العواصف
البحرية أو القرصنة . وهو يختلف عما جاء من نوعه في تشريع بوستنيانوس
فيقسم تبعه الحسارة بين صاحب المركب والتاجر والركاب . وتدل
محتويات هذا القانون على أنه صدر في عصر كانت قد شاعت فيه قرصنة
العرب والصفالية .

قانون الجند : أما قانون الجند فإنه مأخوذ من قوانين بوستنيانوس
ومن الاكروعة ، ومصادر أخرى . وهو في أساسه قانون عقوبات عسكري
يحدد الأحكام التي ينبغي للسلطة أن تجرّمها على الجنود في حال رفض
الطاعة ، أو التمرد ، أو الفرار ، أو الفسق ، أو ما أشبه . والعقوبات
المفروضة صارمة جداً . فإذا صحت نسبة هذا القانون إلى لاوون الثالث
فإنه يظهر عندئذ شدة الانضباط الذي أوجبه هذا القائد العسكري^١ .

الثبات أو البنود : وليس لدينا من المراجع الأولية ما يثبت ما
فعل لاوون الثالث بنظام الثبات . ولكن رجال الاختصاص يرون فرقاً
بين ما حفظته مراجع القرن السابع الرومية عن هذا النظام ، وبين ما
دوّنه ابن خردادبه في كتابه المسالك والممالك في القرن التاسع . وهم ينسبون
هذا الفرق إلى لاوون وابنه قسطنطين^٢ . ويرى هؤلاء الاختصاصيون على
ضوء هذا الفرق أن لاوون جعل ثبات آسية الصغرى ستاً بدلاً من اربع .

^١ Langenthal, op. cit., 16-17; Byz. Zeit., III, 448-449.

^٢ Brooks, E.W., Arabic Lists of Byz. Themes, Journal of Hellenic Studies, XXI, 67 ff.

فاقتطع من ثيمة الاناضول في الغرب ثيمة جديدة اسمها التراقية نسبة الى الجنود التراقين المقيمين فيها . كذلك يرون انه قد جعل القسم الشرقي من ثيمة الابسيق مستقلة اسمها ثيمة البوكولاري نسبة الى جنودها البوكولاري الذين كانوا يعنون بالنمون . ولم يتجاوز عدد الثيمات في اوروبة في القرن الثامن اربعاً ، وهي : تراقية ومقدونية وهلاس وصقلية^١ . ولعل السبب في تقسيم الثيمات الاسيوية كان خوف لاوون من ان يجرؤ عليه القادة ، كما جرؤ هو على سيده ثيودوسيوس الثالث ، فصغر الثيمات لكي تنقص بذلك موارد القادة فيها وتتضاءل لديهم امكانيات الخروج على السلطة المركزية .

وبما لا ريب فيه ان لاوون عني في آخر عهده بأسوار العاصمة ففرض ضريبة خاصة بها ، ورغم ما كان قد تساقط منها بفعل تكرار الزلازل . ولا تزال ابراج الاسوار الداخلية تحمل اسمه واسم ابنه قسطنطين الخامس حتى يومنا هذا^٢ .

حرب الايقونات : والايقونة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف الكنيسة نوعان : منها العادي ، ومنها العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مدنيين منفصلتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وتنتهي بالمجمع المسكوفي السابع ، والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بإرجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب هذه الحرب الداخلية الطاحنة لا تزال غير واضحة ولا ثابتة ، لان ما نعلمه عنها مأخوذ في معظمه من اقوال احد الحُصين . فلقد ضاعت مصنفات

^١ Theophanes Continuatus, *Historia*, ed. Bonn, 6.

^٢ Millingen, A., *Byzantine Constantinople*, 98-99.

الذين حاربوا الايقونات . وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها الخصوم . فهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لا ينقذه من العدالة . وما يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات المجيعين الذين حرّموا اكرام الايقونات ، فمقررات مجمع السنة ٧٥٣ قد وردت في اعمال المجمع المسكوني السابع وهو المجمع الذي حرّمها . وكذلك قرارات مجمع السنة ٨١٥ فانها وردت في تضاعيف احدى رسائل البطريرك نيقوفوروس .

وبالبحثون في اسباب هذه الحرب الداخلية يختلفون في الرأي ، فبعضهم يرى اسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية . فالمؤرخ اليوناني المعاصر باباريغوبولو يرى في كتابه تاريخ الحضارة الهلينية ان حرب الايقونات كانت في اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من امرته أراد ان يحرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس وان العناصر المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد اتدوا هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر الجاهلة من النساء والرهبان واهل الاوساط العادّية بكل قديم^١ . ويرى المؤرخ الفرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس ان حرب الايقونات كانت حركة اصلاحية دينية ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية ، وانما جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات اخرى للاصلاح سياسية اجتماعية ولكنها مستقلة لها تاريخها الخاص^٢ . ويقول العالم الافرنسي لويس برايه ان محاربة الايقونات في تاريخ الروم ذات وجهين ، فثمة مساهمة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح الرمز الى

Paparrigopoulos, K., *Hist. de la Civ. Hellénique*, 188-191.

Lombard, A., *Constantin V*, 105, 124-128.

ما فوق الطبيعة بالرسم والتصوير وإذا كان يجوز ان يُمثّل القديسون
والعذراء والسيد بالتصوير^١. ويرى المؤرخ الروسي اوسبنسكي ان السبب
الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان
خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم. فالمشادة كانت زمنية
سياسية في مستهل امرها فجعلها الرهبان دينية ليوغروا صدور المؤمنين
ويحضوهم على مقاومة سياسة الحكومة^٢.

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ماعته. ففي بدء القرن
الرابع حرّم مجمع ألفيرة Elvira المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس^٣.
ورأى يوسبيوس اسقف قيصرية فلسطين ومؤرخ الكنيسة ان اكرام صور
السيد وبطرس وبولس كان من عادات «الامم»^٤. وفي هذا القرن الرابع
نفسه ظهر ايفانئوس القبرصي ايضاً فمزق ستاراً في الكنيسة لانه كانت
يحمل صورة السيد وأحد القديسين^٥. وفي القرن الخامس اعترض اسقف
سوري على الايقونات قبل سياحته. وفي القرن السادس ضجت انطاكية
مستنكرة اكرام الايقونات. وفي هذا القرن ايضاً حرّم اسقف مرسيلية
(مسالية) اقامة الايقونات في الكنائس. فكتب اليه غريغوريوس العظيم
بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر، الا أنه ذكره في
الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون، وذكره

Bréhier, L., *La Querelle des Images*, 3-4.

Uspensky, Th. I., *Byz. Emp.* II, 22-53, 89-109, 157-174.

Mansi, J. D., *Sacrorum Conciliorum Nova, (Consilium Liberitatum,* ٣
Par. XXXVI.)

Historia Ecclesiastica, VII, 18, 4.

Patrologia Graeca, XLIII, 390; For authenticity, see, Serruys, D., *Acad. Inscriptions et Belles Lettres*, (1904), 361-363.

بضرورة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . وعاد
فكتب اليه ثانية في ان عبادة الصور شيء ، والتعلم بها شيء آخر^١ .
ويجب الا يغيب عن البال ان اليهود في الشرق والغرب معاً لم يرضوا
قط عن شيء من هذا ، وان القرآن عليم بان الاتصاف رجس من عمل
الشيطان (سورة المائدة) وان الخليفة الاموي يزيد الثاني أمر في السنة ٧٢٣
بتعطيل الايقونات في كنائس النصارى^٢ وان الاسوريين وخلفاءهم العموريين
كانوا شرقيين آسيويين وانهم كانوا رجال سياسة وحرب قبل كل شيء^٣ .
وان المذهب البولسي كان قد شاع في آسية الصغرى ولاسيا في ولاية
فريجية وان انصاره كانوا قد اصبحوا قوة خفية^٤ . وكذلك يجب الانسى
ازدياد عدد الرهبان وتزايد ثروتهم ونفوذهم ، فانهم بلغوا مئة الف راهب
في هذه الفترة وقد تزايدوا بصورة خاصة في العاصمة نفسها ، كما يجب ان نذكر
ان هؤلاء جميعاً لم يكونوا من اهل الزهد والتقوى ، وان بعضهم لم
يتقشف الا هرباً من احكام القضاة ورجال الامن^٥ .

وقضى لاوون الثالث السنوات العشر الاولى من حكمه في توطيد
دعائم ملكه وفي اخاد نار الثورة التي اشعلها الفيلسوف النسطاسيوس الثاني
(٧١٣ - ٧١٦) وقائد صقلية ، كما جهد في اعادة اليسر والطمانينة الى
الولايات التي كانت قد اصبحت مسرحاً للحروب وميداناً لللاويئة . وكانت
العاصمة نفسها قد فقدت عدداً كبيراً من سكانها نتيجة هذه العوامل ولاسيا

^١ *Epistolae*, IX, 195 ; XI, 13, ed. Migne ; *Patrologia Latina*, LXXVII, 195.

^٢ *Becker*, *Ch.*, *Islamstudien*, I, 446.

^٣ *Lebedev*, A. P., *Ecumenical Councils of the Sixth, Seventh, and Eighth Centuries*, 142.

^٤ *Kondakov*, N. P., *Iconography*, II, 3 ; *Andreev*, I. D., *Germanus and Tarasius Patriarchs of Const.*, 79 ; *Vasilev*, A. A., *Byz. Emp.* 256-257.

الطاعون الذي غشيها في السنة ٧١٨ فتدارك لاوون هذا الشرّ بأن نقل السكان إليها من الولايات الشرقية ولاسيا الولايات المتاخمة للعرب . كذلك اعاد النظر في تنظيم جيشه وأصلح القوانين كما سبقت لنا الإشارة^١ .

وقضى لاوون في السنة ٧٢٢ بتعميد اليهود . وفي السنة ٧٢٣ سمع بما أمر به يزيد الثاني من تحطيم الايقونات في بلاده واستمع لما دار بين بطريرك القسطنطينية جرمانوس والاستقفين قسطنطين وتوما الاناضوليين حول رفع الايقونات من الكنائس ، فبدأ يبت الدعاية السلبية في اوساط العاصمة لاجل ترك الايقونات والاقلاع عن تكريمها .

وفي السنة ٧٢٥ او ٧٢٦ جمع لاوون الثالث مجلس الدولة الاعلى ودعا اليه البطريرك جرمانوس وباحته في موضوع الايقونات . وجوب رفعها من الكنائس وحظر تكريمها . فاحتج البطريرك وذكر الفيلسوف بعهوده للكنيسة تلك التي أقسم أن يراها عند تسلمه التاج . ولما لم تنفع الذكرى وضع الامووريون عن عاتقه واستغفى . وأصدر القيصر أمره بحظر تكريم الايقونات . وبدأ تنفيذ الامر بانزال تمثال السيد الذي كان يعلو باب القصر . فاندلعت في الحال ثورة اشتركت فيها النساء اشتراكاً فعلياً . ومزقت الجماهير الموظف الذي نفذ ارادة الفيلسوف . فرد لاوون على ذلك بالعنف فسقط عدد من القتلى . وهبت ثورة في اليونان وجزر الارخبيل فاخذها الجيش بالقوة . وفي السنة ٧٣٠ أصدر لاوون أمراً اشدّ من الاول فقاومه جرمانوس واحتج عليه . فاهانه لاوون وعزله ونصّب في مكانه انسطاسيوس . وكتب البابا غريغوريوس الثاني كتاباً مرّة الى لاوون ولكنه لم يأبه بها . واقتدى البابا غريغوريوس الثالث بسلقه

Bréhier, L., *Byzance, Vie et Mort*, 77.

فنهى الفيلسوف عن برونجه . فلم يعر رسالته اهتماماً . فعقد البابا غريغوريوس الثالث مجمعاً محلياً في السنة ٧٣٢ ، وحرم مكافحي الايقونات . فأنفذ الفيلسوف قوة بحرية ضد البابا ومن قال قوله في ايطالية ففرقت السفن في الطريق فأرسل عمارة غيرها ورفع سلطة البابا عن ابرشيات صقلية وكلايرية وكريت وإبليرية والحقنها برئاسة بطريرك المكونة . فقطع البابا كل علاقة له كنائس ومدنية بلاوون^١ . هذا وليس في المراجع الاولى شيء عام عن حرب الايقونات في السنوات العشر الاخيرة من حكم لاوون . وهنا لابد من الاشارة الى رسالتي يوحنا الدمشقي ضد معطبي الايقونات ، فقد كتبت هاتان رسالتان في عهد لاوون . اما الرسالة الثالثة في المعنى نفسه فلا يمكن تحديد تاريخها بالضبط .

وتوفي لاوون والبابا غريغوريوس الثالث في السنة ٧٤١ . فتسلم قسطنطين الخامس ازمة الحكم في القسطنطينية وهو الذي اطلق عليه لقب الزبلي Copronymus لانه افرز في جرن العباد حين المعمودية . ويروى ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يحب رائحة زبل الحيل . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرتافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنيه ونفى الثلاثة معاً . ثم شرع في اضطهاد الكنيسة فسخر بالاحتفالات الدينية وبكل قديس . ومنع الاعياد والاصوام وخرّب الاديرة وجعلها نكبات للجنود . وكتب اليه البطارقة والبابا يتاشدونيه ويدعونيه ولكنه لم يصغ اليهم . وعقد مجمعاً في السنة ٧٥٤ فأوجب اخراج الايقونات من الكنائس

Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 404; Lecterq, «Constantin», Dict. d'Arch. Chrét., III, 248; Diehl, Ch., Leo III and Is. Dyn. Cam. Med. Hist., IV.

والبيوت وقطع كل اسقف او كاهن او شماس يقتلها وقضى على كل راعب او علماني يقول بالايقونات ان يحاكم امام المحاكم المدنية بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الآباء . ثم حرم جرمانوس « عابد الحشب » كما حرم منصوراً اي يوحنا الدمشقي « صديق الاسلام وعدو الدولة وعرف الاسفار المقدسة » . ودعا لقسطنطين الجديد ولزوجته النقية الارثوذكسية بطول العمر^١ .

وتقرئ قسطنطين الخامس بقرارات هذا المجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصب غيظه وبلاءه على الرهبان . فكم عين قلع ، وكم يد واذن قطع ، فضلاً عن قتلهم . واكره طائفة منهم على الزواج اكراهاً . واستعرض مرة فئة منهم في ميدان الهيودروم موجباً على كل منهم ان يسك بيد امرأة في اثناء العرض . ويقول ثيوفانس ان حاكماً من حكام آسية الصغرى جمع رهبان ولايته وراعاتها في انفس فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالاً ومن لم يطع فقتل عيناه ويقضى الى قبرص . فهناك قسطنطين قائلاً له : لقد وجدت في شخصك رجلاً يحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي^٢ . وصادر قسطنطين املاك الديرية وضماها الى املاك الدولة . وهكذا فر عدد كبير من الرهبان الى ايطالية وجنوبي روسية وشاطئ لبنان وفلسطين . ويقدر الاستاذ اندريف الروسي عدد الذين فروا الى ايطالية بنحوين الفاً^٣ . واشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصغر^٤ . ومن هنا ، على الأرجح ، كان

Mansi, *Amplissima Collectio Conciliorum*, XIII, 323, 327, 346, 354, 355: ١

Ostrogorsky, G., *Gesch. des Byz. Bilderstreites*, 7-29.

Theophanes, *Chron.*, ed. Boor, 445, 446. ٢

Andreev, I., *Germanus and Tarasius*, 78. ٣

Patrologia Graeca, Cols. 1070-1186. ٤

رأي الأستاذ اوسبنسكي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرقوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات iconomachia لان الواقع انما كانت حرباً ضد الرهبان monachomachia والذي يراه الأستاذ اندريف الروسي ان موقف المجمع من هذه الحركة كلها قد أدخل شيئاً من الطمأنينة الى قلوب الشعب فجعلهم مؤمنين بها بضمير صالح . وبذلك تمكن الفيلسوف من أن يجعل كل مؤمن يقسم بانه سيجنب تكريم الايقونات^٢ .

وكان من جراء العنف الذي لجأ اليه لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضطهاد . فألقى البابا زخريا (٧٤١ - ٧٥٢) في السنة ٧٥١ ، بخلع كليديريك ملك فرنسا وتنصيب بيبيئوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيبيئوس بجيش الى ايطالية يحارب اللومباردين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الخامس بولاياته هذه اجابه بيبيئوس انه وهبها لكرسي رومة عن حب لبطرس الرسول كما تغفر له خطاياه . ومن هنا من هذا التباعد بين الفيلسوف والبابا ومن هذا التقارب بين البابا وبيبيئوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة ، البذور التي ادت فيما بعد الى انقسامها شطرين شرقي وغربي .

المجمع المسكوني السابع : وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع . وكان لاوون الحزري مثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لين الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين

Uspensky, Ch., N., Hist. of Byzantium, I, 228.

Andreev, I., Germanus and Tarasius, 96.

السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امه ايرينة زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات . ولكنها رأت منذ بداية عهدها في الوصاية ان الجيش ما يزال معادياً للايقونات وان الصقالية في غليسان مشر ، فأرجأت النظر في إعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريرك بولس الرابع وغيره من كبار رجال الكنيسة قد اكرهوا اكرهاً على تقبل قرارات مجمع السنة ٧٥٤ فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع مجعاً مسكونياً وان يُوقى الى الكرسي البطريركي طراسيوس كاتم اسرار المملكة . وكانت طراسيوس عالماً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم .

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريرك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا اديانوس الاول (٧٧١ - ٧٩٥) وإلى البطارقة الثلاثة الشرقيين ابوليناريوس الاسكندري وثيودوريتوس الانطاكي والياس الاوروشليمي من اجل مجمع مكوني يعقد في القسطنطينية . فأجاب اديانوس مادحاً مبهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه بطريرك المسكونة وطلب ان ترده املاك بطرس الرسول والسلطة على الابشيات التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني . وفي السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل ولكن الجند اندفعوا اليها شاهزين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج . وفي السنة ٧٨٧ التأم هذا المجمع في مدينة نيقية . وكانت مؤلفاً من ٣٦٧ أباً وكان رئيسه طراسيوس . وناب عن البابا اديانوس القسان بطرس وبطرس وعن البطارقة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا

الان الظروف السياسية كانت شديدة على هؤلاء .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثلثي جلسات واشتدع اثنين وعشرين قانوناً . وفي الجلسة الاولى خطب البطريرك طاراسيوس الرئيس خطبة وجيزة . ثم قرأ كتاب قسطنطين الفيلسوف ووالدته الوصية ابرينة : « ائنا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عتبتنا في ارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم اثم كهنته الجزيل بركم الحافظين عهده بذبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجمع المستقيم الرأي » . وبما جاء في هذه الرسالة ان طاراسيوس أغضب على قبول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطية : « اني ارى وانظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح الهنا مقسومة الآن ومنشقة وائنا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الآن ومسيحيو الشرق المائلون لنا في الايمان يقولون قولاً آخر ووافقهم مسيحيو الغرب . ونحن غرباء عنهم جميعهم . وكل يوم نحرم من الجميع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق » .

وبعد ذلك دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بغلطهم وهدموا ندامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم . وفي مقدمة هؤلاء باسيليوس اسقف انقيرة ، وقد قال في كتابه : « فأنا باسيليوس اسقف مدينة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة اعني اديرانوس بابا رومة القدوة الجزيل القداسة وطاراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة كراسي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الارثوذكسين وقدمته اليكم اثم الذين نلتم السلطان عن الاصل الرسولي » .

وفي الجلسة الثانية قرئت رسائل البابا ورسائل البطارقة . وبما جاء في

رسالة البابا ادرينانوس التي وجهها الى « اخيه الحبيب طاراسيوس » : « وبما ان بركم قريب من الاقدام السامية لقدام ملوكنا العظام الجزيل تقواهم المتوجين من الله تضرعوا اليهم عنا ان يأمرؤا باعادة الايقونات المقدسة الى مركزها القديم في مدينة العاصمة المحروسة وفي كل مكان . » وسأل النواب طاراسيوس : هل يوافق على رسالة ادرينانوس ام لا ، فأجاب : انه يوافق عليها لكونها ارثوذكسية وانه هو نفسه قد فحص وبحث وتعلم من الآباء واعترف ويعترف وسيعترف ويؤيد صحة التحارير التي قرئت قاربلاً الايقونات المصورة على اثر تسليم آباءنا الاقدمين . فقال عندئذ القس يوحنا احد نائبي البطاركة : « انه يليق بنا في الحاضر ان نؤمن زبورياً : الرحمة والحق تلاقيا والعدل والسلام تلاقيا . فان الرحمة والحق تلاقيا اعني ادرينانوس وطاراسيوس باتفاق رأيا وتعليمهما . »

وفي الجلسة الثالثة قرئت رسالة طاراسيوس الى البطاركة واجوبتهم عنها . وفي الرابعة اعترف الآباء بوجوب تكريم الايقونات وقبلوها والغوا مجمع السنة ٧٥٤ لانه لم يكن مسكونياً . وفي السابعة كتب اعتراف الايمان وحدد فيه المجمع وجوب تقبيل الايقونات والسجود الاكرامي لها واحتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم كما انهم الكنيسة اعداؤها ، لان العبادة انما تجب لله وحده دون غيره .

رومة تستعيد حقها في انتخاب الامبراطور : وكان من جراء هذا الاضطهاد الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب ايضاً ومن جراء استمساك بطريرك القسطنطينية بلقب « بطريرك المسكونة » ان حاول بابا رومة لاون الثالث إعادة الحق الى رومة العاصمة الاولى في انتخاب

١ جراسيموس متروبوليت بيروت : الانتفاق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ - ٣٧٠ .

Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII.

الامبراطور . فإنه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرنة غير قانونية لانها امرأة ولانه لم يسبق لرومة ان اعترفت بحق امرأة في الملك . واعتبر عرش الامبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين السادس وسجل عينه ، فتوَّج كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيسة الكتدرائية وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ ، واعتبره خلفاً للاوون الرابع وعرقل ويوستينانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت الحكومة البيزنطية هذا العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق لخلع ايرنة وتسلم ازمة الحكم كما فعل غيره قبله من الابطرة الذين قاموا في الغرب فزحفوا ووجدوا . ويرى البعض من رجال الاختصاص ان كارلوس علم حق العلم ان الحكومة البيزنطية مستتقي بعد ايرنة فيسلفاً جديداً ففاوض ايرنة في الزواج ، وان ايرنة نظرت الى هذا الاقتراح بعين الرضى ولكنها غلبت على امرها فخلعت في السنة ٨٠٣ . ولذا فان برنامج كارلوس لم ينحقق^٢ . ولم يعترف الروم بلقب كارلوس الجديد قبل السنة ٨١٢ ولصحتهم في مقابل هذا اضافوا رسماً الى اللقب القسيفس الكلمة « الروماني » . ولم يدم عهد هذه الامبراطورية الرومانية في الغرب . فان خلفاء كارلوس الكبير كانوا صغاراً . وفي النصف الثاني من القرن العاشر استعاض بابا رومة عن هذه الامبراطورية الرومانية بامبراطورية رومانية « مقدسة »^٣ .

Bury, J. B., *Charles the Great and Irene, Hermanthea, VIII, (1893), ١*
 17-37; Schramm, P., *Kaiser Rom und Renovatio, I, 12-13.*

Theophanes, *Chron.*, 475; Ostrogorsky, G., *Gesch. des Byz. Staates, 128.* ٢

Vasiliev, A. A., *Byz. Emp. 265-269.* ٣

الفصل الصُّرُوح

خلفاء الاسوريين والاسرة العمورية

(٨٠٢ - ٨٦٧)

نيقفوروس الاول وميخائيل الاول : (٨٠٢ - ٨٢٠) واستطاع
نيقفوروس Nicephorus او نقفور ان يستولي على الامبراطورية في يسر
وسهولة كما سبق ان اشرنا . وكان سامي الاصل ان لم يكن عربياً .
ولم يقتصر آثار ايرينة في تنفيذ مقررات المجمع السابع ، ولكنه لم يضطهد
من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وجاهد جهاداً طيباً في سبيل
الحزينة ، فنقض الاعفاءات من الضرائب التي كانت قد منحها ايرينة
استرضاءً ، وأعاد النظر في سجل الاراضي ، وفي ضرائب الدخل ، وفرض
ضرائب جديدة خص بها الاغنياء لتعبئة الجيش وتسلحه . فاكتسب بذلك
كره بعض الاوساط ، ومن هنا على الأرجح تهجم عليه ثيوفانس المؤرخ^١ .
ومع انه اخذ بسهولة ثورات عدّة ، أشعلها ضباط ساهطون ، فانه لم
يكن موفقاً في حروبه الخارجية . فقد كتب منذ اوائل عهده الى هارون
الرشيد يقول : « ان هذه المرأة (ايرينة) وضعتك موضع الرخ ووضعت

Brooks, E. W., *Byzantines and Arabs*, Eng. Hist. Rev., (1900), 743 ff. ١

Bratliann, G., *Etudes Byz. d'Hist. Econ. et Soc.*, 196 ff. ٢

نفسها موضع الشاة ، فأذ إلى* ما كانت المرأة تؤدي اليك* . فاجابه
 الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم » من عبدالله هارون امير المؤمنين ،
 الى تقفور كلب الروم . اما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه
 لا ما تسمعه^١ . وأغار هارون على آسية الصغرى . واحتل في السنة ٨٠٦
 نيبانة (طوائى) وأنشأ فيها مسجداً وجعلها قاعدة لأعماله الحربية . وغزا
 رودس في السنة ٨٠٧ وفرض الغرامة ، فدفعها نيتيفوروس كما دفعها
 ايرينة من قبله^٢ . ثم شغل هارون بالثورات في اقاليمه الشرقية . وغزا
 تقفور البلغار في السنة ٨١١ لينتقم من ملكهم كروم الذي كان قد سطا
 على تراقية ، فاحرز عليه تقفور انتصاراً باهراً ، ولكنه فوجئ بعد ذلك
 بهجوم ليلي اشتد فيه القتال . فسقط تقفور وجرح ابنه وولي عهده
 ستوراقيوس . على ان الروم لم يقفوا حتى بلغوا ادرنة وتركوا جثة
 الفسيلفس في ميدان القتال . فقطع البلغاريون رأس تقفور واتخذوا ججمته
 كأساً^٣ .

نيتيفوروس

٨٠٢ - ٨١١

بروكيرية = ميخائيل الاول

٨١١ - ٨١٣

ستوراقيوس

٨١١

١ - الفيلسندى ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٩٢ . الدكتور ابراهيم العدوي : الامبراطورية

البيزنطية ، ص ٧٩ . Bury, J. B., Hist. of Eastern Rom. Emp., 249-250.

Theophanes, Chron., ed. Boor, 482-483

Ibidum, 489-491

٢

٣

وكانت نيقيفوروس قد اشرك ابنه الوحيد ستوراقيوس في الحكم منذ السنة ٨٠٣ ووزوجه من نسيبة لايرينة بعد ان فازت في مسابقة على الجمال ، ولكن جرح ستوراقيوس كان قاتلاً فتولى العرش بعده صهره ميخائيل الاول وهو من اسرة نبيلة عريقة في الشرف . وكان ميخائيل هذا لطيف المعشر معجباً بالرهبان ، فأبعد عن الوظائف جميع أعداء الايقونات ، فأثار غضبهم ودفع بهم وبمن قال قولهم الى السامر . وبما زاد في الطين بلة ان البطريرك نيقيفوروس اعلنها حرباً على المهاجرين الشرقيين . وكان هؤلاء قد نقلوا من الولايات النائية المتاخمة لحدود العرب الى العاصمة وتراقية ليحلوا محل الذين سقطوا في الحروب او ماتوا من جراء الطاعون . وهؤلاء الشرقيون كانوا لا يزالون يدينون بذهاب لم تقرها المجامع المسكونية . وعلى الرغم من وساطة البعض وزجائهم الى البطريرك ان يعامل هؤلاء بالحسنى ويتودد اليهم لعلهم يعودون الى حضن الكنيسة ، فان البطريرك قادى في القسوة فعادت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل^١ .

وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشبة . وكان خاقان البلغار كروم لا يزال يسطو على الارياق والمدن حتى وصلت طلائع فرسانه الى اسوار اديانوبل . فضج السكان . وطالب المهاجرون الشرقيون بالعودة الى اوطانهم في آسية . ورأى الوجهاء والاعيان ان لا مفر من الحرب لصد هذا العدوان . فأعد ميخائيل جيشاً كبيراً وزحف الى الجبهة في ايار من السنة ٨١٣ . فالتقى في الثاني والعشرين من حزيران جيوش البلغار عند اديانوبل فدارت الدائرة على الروم وانهزم ميخائيل ، فنادى الجند بلاوون الارمني ، احد كبار القادة فيهم ، فيلفساً . وفي العاشر من تموز دخل

Theophanes, Chron., 495; Theodore Studion, P. G., 1481-1485, Ep. II, ١ 155.

لارون العاصمة فاستقبله الشيوخ . وتنازل ميخائيل وترهب واعتزل في دير من اديرة الجزر^١.

لاووت الخامس : (٨١٣ - ٨٢٠) واول ما فعله هذا الفيلس الارمني انه أقسم بين الولاة للكنيسة وقطع وعداً بان يحافظ على عقائدها ومصالحها . ثم عني بأسوار العاصمة للصمود في وجه البلغار الذين ما فتئوا يصدونها . وكان خافاتهم كروم^٢ يحاول ارباب السكان بذبح الارباء عند الاسوار . ولكن في ربيع السنة ٨١٤ بينا كان هذا الخاقان يعد هجوماً جديداً على العاصمة البيزنطية فاجأته المنية . وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان . فاضطر ابنه ان يصلح الروم ليتسنى له توطيد العرش ، فمالهم ثلاثين سنة . وسلبت القسطنطينية من هجمات البلغار ثمانين سنة^٣.

وكان لارون وصولياً في سياسته . وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث ميثه ونبد عهد الولاة للكنيسة . وكان مراوغاً مداوراً ، فبث باديء ذي بدء في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حل بالدولة من ضعف وما احدث بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات ونقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع السنة ٧٥٤ عقد مجلساً في القصر ضم بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالايقونات ومن حرّمها . ودعا البطريرك نيقفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ ونيودوروس رئيس دير الاسوديرن وطلب الى المجتمعين ان يبحثوا في امر الايقونات . فأجابته نيودوروس

Theophanes, Chron., 500-503 ; Bury, J. B., Hist. of East. Rom. Emp., ٨ 29-30 ; Schlumberger, G., Les Hes des Princes, 35-38.
Runciman, S., First Bulgarian Empire, 72-75.

بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان
الواجب على الفيلسوف ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يفتصب
دورهم اغتصاباً وان للفيلسوف ان يعنى بما سوى ذلك^١. فأجاب لاوون
بانه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد. وفي عيد الميلاد من هذه
السنة استمع للقداس الالهى في كنيسة الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً
الايقونات. ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ التقى القبض على البطريك
ثيوفوروس ونقله الى خريشبوليس واقام في موضعه علمانياً يدعى
ثيودوتوس. ثم عقد مجعاً محلياً في نيسان من السنة نفسها في كنيسة
الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرّم تكريم
الايقونات^٢. على ان لاوون الخامس كان اقل اسراعاً من سبقه الى محاربة
الايقونات، مع أن مقاومة من كرم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي
قبل. فاكثف لاوون بنفي الاساقفة والرهبان وبجسهم. تقى ثيودوروس
مثلاً الى بيتينية ثم الى ازميز. وهذا المجاهد بقي قوياً شديداً، فكتب من
سجنه في ازميز في السنة ٨١٩ بشدد عزائم الرهبان كما انه استغاث بابا
رومة وببطاركة الشرق الثلاثة^٣.

واشرك لاوون ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس اسرة حاكمة.
ولكن رفاقه في السلاح الذين عاونوه في الوصول الى الحكم وفي طليعتهم
ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه. واكتشف لاوون
هذه المؤامرة وقذف ميخائيل الى السجن ولكنه اجل عقابه حتى عيد الميلاد
وترك شركائه في المؤامرة احراراً. فعزم هؤلاء واصدقاؤهم على ان يضربوا

Vita Theodori, Patrologia Graeca, Vol. 99, 181-183

Theophanes, Chron., 1033-1036.

Vie de St. Georges d'Amastris, 110-136

ضربتهم قبل ان ينكشف امرهم . وقرروا ان يذبحوا لاوون في كنيسة الخاصة عند حضوره القداس لانه كان لا يقترب من القربان المقدس حاملاً السلاح . وهكذا حضر المتآمرون قداس الميلاد وهاجموا لاوون في اثناء صلاة التوبة . فاختطف هو الصليب المعدني الثقيل من المذبح وضرب به بعض الذين هاجموا . ولكنهم تكاثروا عليه وذبحوه على مقربة من المذبح واخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجوه قسيفاً قبل ان تكسر قيوده الحديدية^١ .

الاسرة العمورية : (٨٢٠ - ٨٦٧) وكان ميخائيل الثاني هذا ريفياً غير مثقف . وقد اطلق عليه اسم العموري نسبة الى عمورية Amorium مسقط رأسه في ولاية فرجيية . وكان يدعى الاتع والنعنام . وكان قد قضى حياته في الجيش وترقى في سلكه حتى اصبح من كبار الضباط . وبني جندياً عتيقاً بطباعه وعاداته . ولكنه كان قسدياً ماهراً حكيماً . فخص عرشه بشطر وافر من رفته . وتزوج من افروسيئة ابنة قسطنطين آخر ودة الاسوريين . فتوتى بذلك سقه في التاج . واشترك ابنه ثيوفيلوس في الحكم . ثم أصدر امراً منع فيه كل مشادة حول الايقونات ، واستدعى من المنى جميع المبعدين بسبب ذلك . واستقبل تيودوروس الراهب الاستديوني في قصره واكد له حرية العبادة ، وقال لتقيفوريوس البطريك : ليس لي ان ابتدع في الايمان والعقيدة ولا ان اجادل في التقاليد الموروثة او ان انقضها^٢ . ولكنه قبل ان ينسى له شيء من هذا

Anonyme (Scriptor Incertus), Vie de Léon l'Arménien, Pal. Græco; ١
 Légende Arabe, Byzantion, 1939, 383 sq

Getzer, H., Abriss der Byz. Kaisergeschichte, 567; Ternowsky, F. A., ٢
 Græco-Eastern Church, 487; Dobroklonsky, A., Theodore the Confessor,
 1, 849.

اضطر ان يجابه ثورة محبة دامت سنتين وفاقته في اتساعها اكثر ثورات عصرها .

ثورة توما الصقلي : (٨٢١ - ٨٢٣) وكان بين رفاق ميخائيل في السلاح ضابط كبير صقلي الأصل او ارمني التحق بخدمة احد البطارق في عهد ايرينة ، فاتصل سرّاً بزوجة البطريق وذاع هذا السر ، فهرب الى الشام وبقي فيها حتى عهد لاوون الخامس . فلما كان عهد نفقور عاد الى بلاد الروم واشترك في ثورة بردانيوس في السنة ٨٠٣ ، ثم عاد الى جوار الرشيد وبقي حتى عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) . وهذا الضابط الكبير هو توما الصقلي بطل هذه الثورة التي نحن بصدددها .

ومما جلة في المراجع اليونانية انه في اثناء في ثورة بردانيوس (٨٠٣) على نفقور تنبأ احد الرهبان بفشل بردانيوس ورفاقه لاوون وميخائيل وتوما وبان الاواين بحملان التاج الامبراطوري ، وبان الثالث ينادي به امبراطوراً ولكنه يهلك بعد ذلك بقليل .

والواقع ان لاوون اصبغ فيلسافاً ، وان ميخائيل استوى على العرش بعده ، وان توما طمحت نفسه الى الملك ، فبدأ يسعى له في ارمينية والبولنط منذ اواخر عهد لاوون . فلما قتل لاوون في السنة ٨٢٠ استغل توما الظرف واتجهت نظاره شطر القسطنطينية وعرشها . وايدت آسية الصغرى معظمها توما الصقلي لم يشك منها سوى تبيي ارمينية والابسيق . فادعى توما انه قسطنطين السادس ابن ايرينة ، فالتف حوله مكرموا الابقوات . ورأى المستضعفون من سكان آسية الصغرى في توما محرراً ، فدخلوا في حزبه املاً في تحيين مستقبلهم « فرفع الخادم يده في وجه سيده ، والجندي في وجه قائده ، والفائد في وجه اميره » . ويرى بعض

رجال الاختصاص ان الصقالبة في آسية الصغرى وأوا في توما محروراً قومياً
فاندفعوا في سبيل نصرته اندفاعاً عظيماً . ولا ننسى ان الابطرة كانوا
قد نقلوا الى آسية الوفا من الصقالبة .

وتفاهم توما والمأمون فأمدده هذا بجيش قوي . ثم استال حياة الضرائب
في آسية فتوافر لديه المال . وأمر المأمون ايوب بطريرك الروم في انطاكية
ان يرسم توما فيلسافاً ، لانه سمع ان الفيلسوف لا يقام من غير بطريرك
« فقرأ البطريرك عليه الادعية ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً باسجار ثينة »
والتحق بتوما ايضاً اسطول ايجيه فلم يبق لدى ميخائيل الثاني سوى
الاسطول الامبراطوري .

ونهب توما بجيوشه الى بر الاناضول . ولم يكن عند ميخائيل الثاني
فكرة صحيحة عن قوة خصمه ، فدفع للاقائه بجيش صغير . ونشبت
معركة انتصر فيها توما وانهزم جيش الفيلسوف . فأدرك ميخائيل انه يواجه
ثورة لبست كالمعتاد وان انصار الايقونات يؤيدون توما . ولهذا امرع
فاستدعى اليه زعماء القائلين بشكرهم الايقونات وحاول اقرار السلام الديني
بمؤتمر في القصر كما سبقت معنا الاشارة . ولكن ثيودور الراهب رفض
الاجتماع مع انهراطقة . وقصد توما القسطنطينية متناسياً انه يترك وراءه
انصاراً خصه ووصل الى المضائق وعبر البحر الى تراقية فتبعه عدد كبير
من السكان وبينهم الصقالبة المقدونيون . وبلغ القسطنطينية في اواخر السنة
٨٢١ وبدأ حصارها براً وبحراً . وكان يتوقع ان تفتح العاصمة ابوابها بمجرد
اقترابه منها ، ولكنها لم تفعل . وضعفت الحامية له في اوساط حزب الايقونات
لانه كان قد اخاط نفسه بالمسلمين وجاء منهم بعدد كبير . ورفع ميخائيل
علم الحرب على سطح كنيسة بلاخرنة ، وترأس ابنه ثيوفيلوس موكباً رافعاً

الصليب ورداء العذراء ودار حول الاسوار يسأل المعونة الالهية لانقاذ المدينة . واستمرت عمليات الحرب متسارعة واقتصرت على اصطدامات يسيرة لان ميخائيل صرف نفسه عن الاشتباك بمعركة حاسمة لكثرة جنود توما . ثم اتفق ميخائيل وادمورنلج خاقان البلغار فأصبح توما امام عدوين . وضع جيشه سائطاً لان الحرب طالت دوماً وحول الى نتيجة حاسمة . وانحاز قسم كبير من جيش توما الى الفيلسوس في احدى المعارك فارتد توما الى اركاذيوبوليس . فحصره ميخائيل فيها خمسة أشهر . فجاء اهل المدينة وقامت فيها مؤامرة فألقي القبض على توما وقيده وسلمت الى ميخائيل في منتصف تشرين الاول من السنة ٨٢٣ فقتله . ولم يقو المأمون على امداد توما بأكثر مما فعل لاشتغاله بثورة الحررية .

نزول العرب في اقريطش : (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار اهل قرطبة على الخليفة الحكم في السنة ٨١٦ فهزمهم الخليفة وأمر من بقي منهم حياً ان يغادر اسبانية في ثلاثة ايام . فجمع التوار نساءهم واطفالهم وما استطاعوا حمله وأبحروا الى افريقية . وقصد قسم منهم بلغ عدده خمسة عشر ألفاً الى ارض مصر فنزلوا في ضواحي الاسكندرية في هذه السنة نفسها . ثم انتهزوا فرصة اشتغال المصريين بثورة على العباسيين فاحتلوا الاسكندرية نفسها في السنة ٨١٦ . وفي السنة ٨٢٥ جاء القائد العباسي عبدالله بن طاهر وطلب الى الاندلسيين مغادرة الاسكندرية ونصح لهم ان ينزلوا في اقليم من اقاليم الروم^١ .

وفي السنة ٨٢٦ اغار الاندلسيون الاسكندريون على جزيرة اقريطش

١ وافضل من صنف في ثورة توما الاستاذ الكسندر غازيليف . راجع ترجمة مؤلفه : الروم والعرب ، ص ٢٨ - ٤٨ ، تحرير الدكتور محمد عبد الهادي شديرة والدكتور فؤاد حسين علي ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
٢ الكندي ، الولاة والفضة ، ص ١٦٣ - ١٨٠ .

غارة استطلاعية تمهيدية وآبوا بالغنائم والامرى . وفي السنة ٨٢٧ او ٨٢٨ نزلوا فيها فلم يلقوا مقاومة تذكر . وانشأوا لهم حصناً واحاطوه بالخندق وجعلوه حاضرة لهم . فسميت قاعدتهم الخندق ولا يزال اسمها Candia . وحاول ميخائيل انتزاع افریطش من يد هؤلاء العرب . فانفذ اليها حملة قوية في السنة ٨٢٨ وأردفها بحملة اخرى في السنة ٨٢٩ ولكن جهوده لم تثمر . وقدر للعرب الاندلسيين ان يبقوا فيها مدة قرن يعيرون منها على الجزر المجاورة وعلى مراكب التجار ، فيقتضون بذلك مضجع الروم وينزلون بنجارهم خسارة فادحة^١ .

ثورة يوفيموس الصقلي : (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار يوفيموس تورمارخوس صقلية في السنة ٨٢٦ على ميخائيل الثاني واعلن نفسه فيلسافاً . ولكنه خشي سوء العاقبة ، فراسل زيادة الله الاول الاغلي (٨١٧ - ٨٣٨) ، وفاوضه على ان يحكم يوفيموس صقلية بقلب امبراطور ويدفع للامير الاغلي مالا سنوياً . فانفذ زيادة الله سبعين سفينة وعشرة آلاف فارس الى صقلية بقيادة عبدالله اميد ابن الفرات . وكان نزولهم فيها في السنة ٨٢٧ بدءاً لاحتلال طويل الامد . ولم يوجه الروم جهوداً كبيرة للدفاع عن هذه الجزيرة نظراً لبعدها ولانشغالهم بنجاحية الشرق^٢ . ولم تكن انتصارات العرب فيها سريعة ولكنهم استولوا بالتدريج على الجزيرة كلها في عهد خلفاء ميخائيل .

ثيوفيلوس الاول : (٨٢٩ - ٨٤٢) ورغم هذه الثورات المزعجة

١ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٥٦ - ٦١ . الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ - ٩٠ .

Burg, J. B., *East. Rom. Emp.*, 287-291 ; Brooks, E. W., *Arab Occupation of Crete*, *Eng. Hist. Rev.*, 1913, 431-443.

Gabutti, F., *Enfermo il Movimento Separatista nella Italia Bizantina*. *

٢ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٦٢ - ٨١ .

الخيفة فان ميخائيل توفي وفاة عادية وتولى الحكم بعده ابنه ثيوفيلوس (حبيب الله) . وكان ثيوفيلوس هذا رجل حرب ، فقاد جيوشه بنفسه واحرز بعض الانتصارات ، وفي الوقت نفسه كانت رجل ادارة وتديرو مالي ، فترك في الخزينة عند وفاته ما يعادل مليون ليرة ذهبية . وعنى بالبناء فشيّد قصرآ جديداً في القسطنطينية ضامى به قصر المأمون وفاقه زخرفاً وجمالاً . واصبحت شجرته الذهبية حديث الشرق بأسره ، كما ظلت اسوده الذهبية التي ترفع من اسفل العرش فتزأر حديث الاجيال المقبلة . واهتم لمدارس الدولة التي كانت تخرج رجال الادارة والاساقفة فوكل امره الى لاوون الرياضي اشهر علماء عصره وارفعهم شأنآ ونجح بابقائه في بلاده على الرغم من ان خليفة بغداد كان يشوقه للانتقال اليه^١ . ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان ثيوفيلوس حين اصبح ارملاً طلب الى الامبراطورة فروسينة ان تجمع في تشريفاتها اجل بنات الاشراف في العاصمة وسار بين صفوفهن ليختار زوجة . وكان يحمل في يده ثقافة من الذهب تشبهاً بباريس بطل الاساطير اليونانية القديمة . فوقع نظره في اول الامر على الحسناء ايكاسية . وعندما اقترب منها قال لها : « انت معظم الشر من النساء » . فاجابت : « ومعظم الخير ايضآ » ، فافحصته . ويبدو ان هذا الرد لم يرض الفيلسوف لانه تابع طريقه واعطى الثقافة الذهبية لثيودورة التي كانت تنافسها في الجمال . وكان اختياره سريعاً لان ثيودورة كانت تكرم الايقونات فاستعملت نفوذها كله ضد آراء زوجها^٢ .

ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعض يرى فيه عدواً لدودآ للايقونات وأنصارها ، وبعض يراه معتدلاً في موقفه مقتصرآ

Goerges le Moine, III, 23 ; Symeon Magister, Chronique, 20.

١ اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ثوريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

في اجراءاته على العاصمة وضواحيها. والواقع انه رغم تعلقه بالعذراء
والقديسين قد اتخذ له في هذه الامور مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم
الشهير يوحنا الكاتب. وجعل من صديقه هذا بطريركاً مكوّناً وكوى
كفي العازار الراهب المصور بالحديد الحامي، وجلد ثيوفانس واخاه
ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بايات من الشعر نظمها
هو نفسه.^٢

ثيوفيلوس والعرب: وظهرت طائفة الحرّمية في جبال فارس بين
اذريجان والديلم، وتولى رئاستها بابك وعاث في البلاد فساداً في عهده
المأمون، وهزم جيوش الخليفة العباسي المرة تلو الاخرى. وأباد جيشاً
بأكمله بعثه المأمون في السنة ٨٢٩ - ٨٣٠. وقد دامت ثورة بابك حتى
ايام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢). هجره المعتصم جيشاً كبيراً بقيادة الافشين
وغيره للقضاء على هذه الثورة. فأرسل بابك الى ثيوفيلوس يحرضه على
الخليفة العباسي. فرأى ثيوفيلوس في ثورة بابك فرصة يقابل فيها العباسيين
بمثل ما فعلوا عندما ساعدوا توما في ثورته على والده ميخائيل. وهكذا
أعد ثيوفيلوس جيشاً كبيراً واتجه به الى اعالي الفرات وهو يأمل
الاتصال بالحرّميين. وبلغ الى زبطرة سنة ٨٣٧ واشعل فيها النار وسبى
نساءها واطفالها ثم دخل سديسات وملاطية^٣. وعاد بعد ذلك الى القسطنطينية
فاستقبل فيها استقبال الظافر وخرج الناس للقائه باكاليل من الزهر.
واقامت حفلة سباق ظهر فيها ثيوفيلوس بثياب زرقاء فوق عربة تجرها
خيول بيضاء. وألبس تاج النصر ونادى الشعب: احبب اليها
السائق الاصيل!

^١ Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, III, 140-141.

^٢ Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 286.

^٣ البلاغري، فتوح البلدان، ص ١٩٢. العثوري، ج ٢، ص ٨٠.

ولكن المعتصم استطاع ان يقضي على ثورة بابك في اواخر السنة ٨٣٧ ففرغ للروم وأعد ثلاثة جيوش ستر احدثها بقيادة الافشين عبر طوروس من درب الحدث ، وقاد هو الجيشين الآخرين وعبر بهما من ابواب قيليقية . وكانت انقرة نقطة التلاقي . فصد ثيوفيلوس اولاً عند نهر الهاليس (او آلس كما يسميه العرب) ، ولكنه لما علم بزحف الافشين منفرداً قام لصدده قبل ان يتسنى للافشين الانضمام الى الجيشين العربيين الآخرين . فالتقاء قرب دوزماتنة وهي لا تبعد كثيراً عن ترخال . فدارت الدائرة على الروم وانهمز ثيوفيلوس منكفئاً الى القسطنطينية . وتقدم العرب الى صمودية وحاصروها ثم دخلوها عنوة ونهبوا واحرقوا ، واسروا عدداً كبيراً من الجند والضباط والقادة ، وقتلوا ستة آلاف من الاسرى . وأمر الخليفة اثنين واربعين من كبار الضباط ان يسلموا لبسالموا . فلما ابوا قتلوا عند خفة دجلة . ولعل المعتصم فكر في الزحف على القسطنطينية ولكنه اضطر للتراجع اذ وردت عليه انباء مؤامرة قامت طامعه . وفي السنة ٨٣٩ ظهرت عمارة رومية في مياه السواحل الشامية . وفي السنة ٨٤٠ تقدم الروم فأخذوا مرعش واحتلوا بعض مناطق ملاطية . ورغب المعتصم في السلم ولكنه عاد فأعد عمارة كبيرة ليفزو بها القسطنطينية . الا ان المنية عاجلته في السنة ٨٤٢ ، وعصفت عاصفة هوجاء بالعمارة الغربية فحطمتها . ووجه ثيوفيلوس وفوداً نحو العرب : الى البندقية والى انكلهايم عاصمة لويس الثاني الورع ، والى عبد الرحمن الثاني الاموي الاندلسي ، يطلب المعونة . ولكن

Bury, J. B., *Mutasim's March Through Cappadocia*, *Journal of Hell. Studies*, 1909, 120-129; Vasiliev, A. A., *Martyrs of Amorion*, *Transactions of Imp. Acad. of Sciences*, VIII, Ser. III.

٢ الطبري ، ٣ : ١٢٣٦ .

Diehl et Margais, *Monde Oriental*, 312-313 .

٣

ثيوفيلوس على الرغم من الترحيب بهذه الوفود لم يلق أية معونة .

ميخائيل الثالث : (٨٤٢ - ٨٦٧) ونوفي ثيوفيلوس في السنة نفسها التي توفي فيها المعتصم ، وخلف خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل الثالث . واذا كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فإن الملك الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على الملك الناصر . وعاونها في الوصاية مجلس تألف من كبار رجال الدولة . وكانت ذروموس ثيوكتيستوس Theoctistus عم ثيودورة ووزير المال أشهر هؤلاء وألمهم .

وكانت ثيودورة من محبي الايقونات . ووافتها على ذلك مجلس الوصاية . فدعت الآباء الارثوذكسين الى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته في اضطهاد من كرم الايقونات . وطلبت الى بطريرك بوحنا الكاتب ان يشترك في اعمال هذا المجمع فأبى ، فعزله مجلس الوصاية وأقام مثوذيوس المعترف بطريركاً محله . وصدق المجمع اعمال المجمع السابع . وفي اول احد من الصوم الكبير من السنة ٨٤٣ نصبت الايقونات الحكومة في كنيسة الحكمة الالهية واصبح هذا اليوم وما زال عيداً سنوياً لرفعها وانتصار الراي الارثوذكسي^١ . وأصدر البطارقة الثلاثة خريستيفوروس الاسكندري وايوب لانطاكي وباسيليوس الاوروثليمي بياناً مشتركاً بوجوب حماية الايقونات وتكرمها .

وظلت ثيودورة ، بالتعاون مع عمها ثيوكتيستوس ، تدير دفة الحكم اربع عشرة سنة (٨٤٢ - ٨٥٦) . وفي خلال هذه المدة طرأ تغيير على عضوية مجلس الوصاية فأصبح اخو ثيودورة يرداس عضواً في هذا المجلس . فنشبت مشادة بينه وبين ثيوكتيستوس اهم اسبابها حب السلطة وشهوة الحكم .

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الاتفاق ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 287 .

فنشأ انقسام داخلي بين الأعضاء وادى الى استقالة عمانوئيل عم الفسيفس
والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب وشاية رفعها
برداس الى الفسيفس الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على التزوج من
ثيودورة او احدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بين
ثيودورة واخيها برداس حول السلطة ادت في السنة ٨٥٦ الى خروج
ثيودورة وبناتها من القصر . وأصبح برداس صاحب الصول والطول .
وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته اذوكية في بيت عمها برداس .
ولم تكن الحماة والكننة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت .
واظهر برداس عطفاً على كنته فاتيته امرأته بكنته . فطرد امرأته من
البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة الأميرة . فتكدرت ثيودورة
من هذا النفور وما رافقه من خبر قبيح . وفي هذه الاثناء كانت قد
توفي البطريرك متوذوس في السنة ٨٤٨ وحل محله اغناطيوس بمساعدة
ثيودورة . وكان اغناطيوس هذا رجلاً ورعاً تقياً ولكنه كان فظاً قاسياً .
وكان خبر برداس وامراته وكنته قد شاع في المدينة ، فوبخ البطريرك
برداس ونهاه عن المحرم ونصح له أن يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس .
وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث
ليتناول الأسرار الالهية . فأبى البطريرك تناوله وطرده خارج الكنيسة
امام الشعب كله . فأخذ برداس يرجو ويستعطف ويشفع له القيصر ولكن
دون جدوى .

وكانت الكنيسة الارثوذكسية قد انقسمت على نفسها من حيث موقفها
من الدولة ، وظلت منقسمة حتى السنة ٩١٢ . فالأستوديون ومن أيدهم
من المتشددين في الدين رأوا ان لا مبرر لتدخل السلطة في شؤون الكنيسة .
أما الرهبان الاولمبييون وكبار الأساقفة فكانوا معتدلين في موقفهم من
السلطة وتدخلها ، ومن هنا نشئت متاعب مشوذوس البطريرك . ومن

هنا كان انتقاء اغناطيوس . فان الامبراطورة ثيودورة ظنت ان المعسكرين سيؤيدانه ، نظراً لطهارته وتشدده في الدين ، ونظراً لكونه ابن ميخائيل الثاني الفيلسوف السابق . ومن هنا ايضاً ضغط برداس على فوطيوس العلماني ليكون خلفاً للبطريرك اغناطيوس .

وحقق برداس على البطريرك اغناطيوس وطلق يسمي للانتقام منه . واتفق ان راهباً ادعى انه ابن ثيودورة من رجل كان فاحشاً في السابق . فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تيجها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن . واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقطع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريرك اغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاعتزم برداس الفرصة واتهم البطريرك بالتآمر على الفيلسوف ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة المملكة . فصدق الفيلسوف ميخائيل الثالث كلام برداس وأمر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في احد الدير . فبألم اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبنة فأنكرن . فامتنع عن اجابة طلب الفيلسوف فأرسل ان القانون يقضي بمنهن الموافقة وهن لا يوافقن فساكرهن مخالف للقانون . فصدق ميخائيل ان البطريرك عدو له . فأكرهه والدنه واخوانه على الترهيب كما أمر اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه . فقدم اغناطيوس استعفاءه في الثالث والعشرين من تشرين الثاني وبقيت الكنيسة خمسة وعشرين يوماً بدون راع . ونشاور الاساقفة والفيلسوف برداس في أمر الحلف ، واجمعوا على انه يجب ان يكون رجل سلام يتوسط للوفاق بين الجهتين ، واشتدوا ان يكون ايضاً فاحشاً ونشيطاً يدفع المهرقات . فانفقوا على فوطيوس كاتم امراء المملكة وقتئذ ، وهو الذي اشتهر

بالدراسة والحكمة والفضيلة والتقوى والعفة الطوعية والعلم والفلسفة^١. فرفض فوطيوس ان يتولى المنصب ولم يرضَ ان يستعيز عن السكينة والراحة باتعاب السدة البطيركية. فأصر عليه الرؤساء والاعيان بوجوب القبول، فلم يصغر لهم. فانحاز اليه عندئذ اكثر اتباع اغناطيوس المستقيل. وهدده برداس بالسجن فأذعن لمشيئته. وأخذ يعلو درجات الهيكلوت في سرعة فائقة. فسيم في اليوم الاول متوحداً، وفي اليوم الثاني اناغوستاً، وفي اليوم الثالث ابيوذاكوناً، وفي الرابع شماساً، وفي الخامس قساً، وفي السادس يوم عيد الميلاد اسقماً وبطيركاً. وكان المتقدم في شرطونيته غريغوريوس آريستاس اسقف سرقوسة. فأدى تقدم غريغوريوس آريستاس في الشرطونية الى نفور اغناطيوس المستقيل وخسة اساقفة معه. واشتد الحسام. ويشن اغناطيوس واتباعه من الوصول الى حل مرض، فكتبوا الى بابا رومة يشكون ظلمهم، وكتبوا ايضاً الى بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم.

وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذو قرن الشقاق بين الارثوذكسين واصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمانيسيون يشاغبون^٢. وعرا الكنيسة اضطراب شديد من جراء هذه الفلاقل. فرأى الفيلسوف ومجلسه الاعلى والبطيرك الجديد ان يجمعوا مجعاً مسكونياً. وكتب فوطيوس «رسائل الجلوس» وارسلها الى البابا وسائر البطاركة. وبات ينتظر «رسائل السلام» في الرد عليها. فارسل البطاركة الشرقيون الثلاثة رسائل السلام. اما بابا رومة نيقولاوس الاول فانه لام الفيلسوف

^١ Dvornik, F., *Phoitian Schism*, Cam., 1948, 432.

راجع ايضاً كلامنا عنه في الفصل التالي.

^٢ Runciman, S., *Mediaeval Manichee* Cam., 1947; Obolensky, D., *Biographies*, Cam., 1948.

على عزل اغناطيوس ، واحتج على ترشيح علماني ليخلفه ، وطالب بإعادة
رأسه على الأبرشيات التي كانت قد سلخت عن صكرسي رومة في عهد
لاوون الثالث ، وأرسل استيفين اثنين إلى القسطنطينية ليحمله رسالته
وينظروا في الموقف عن كثب . فلما وصلا ووفقا على مسألة فوطيوس
واغناطيوس وجدا أن اغناطيوس كان قابلاً بشرطونية فوطيوس وأن
الجميع التمسوا فوطيوس والخرجوه ليقبل البطريركية . فاستقوا في المجمع
المسكوني الثامن (الأول والثاني) الذي انعقد في القسطنطينية في السنة
٨٦١ ووافقا على ارتقاء فوطيوس وعلى سائر قرارات هذا المجمع وأمرها
الآن يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في
الدرجات الكهنسية درجة درجة ، ويتم المدة القانونية فيها .

وأرسل ميخائيل الثالث أعمال هذا المجمع (الأول الثاني) المسكوني
إلى البابا نيقولاوس الأول مع أحد كتبه لاوون ومع سقري البابا
وزودهم بهدايا كنائسية ورسالة منه إلى البابا . وكتب فوطيوس أيضاً
رسالة ملأى بأقوال اللطف الأنجيلي^٢ . فلما تسلم نيقولاوس هذا البريد
ووقف على مضمونه وعلى ما فعله نائباه في القسطنطينية ألغى عمل النائبين
مدعياً أنها تجاوزوا صلاحيتها ، وعقد مجعاً محلياً في السنة ٨٦٣ وحكم على
فوطيوس وقطعه ، واعترف باغناطيوس بطريركاً قانونياً وهذه بالغة
والحرم كل من يتجاسر أن يخالف هذا القرار . وكتب بذلك إلى الفيلسوف
فأجابه الفيلسوف بكتاب مرّ جعل البابا يقول عنه أن كاتبه قد غمس قلمه
في حلق ثعبان . وما زاد العلاقات تعقداً أن ميخائيل الثالث وفوطيوس
البطريرك كانا قد نجحا بنشر الدين المسيحي في الأوساط البلغارية الحاكمة

^١ Bréhier, L., *Byzance* op. cit. 119; *Regestes des Actes du Patriarcat Byzantin*, 466; Mansi, *Amplissima*, XVI, 297-301.

^٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الالتفات ١ ج ١ ص ٤٤٨ - ٤٦٨ .

فتدخل البابا في شؤون الكنيسة البلغارية الجديدة . فتأثر ميخائيل وفوطيوس وأعدوا منشوراً لقطعها وإتباعها الكنيسة الرومانية بالهرطقة والخروج على مقررات المجامع المسكونية وطلبوا عقد مجمع مسكوني للنظر في هذه الامور . ثم اغتيل ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ .

تنصر الصقالبة : (٨٦٤ - ٨٦٧) وحوالي السنة ٨٦٢ أوفد رستيسلاف امير مورافية الكبرى رسلاً الى القسطنطينية يستجير بميخائيل الثالث على البلغار حلفاء خصه لويس الالماني . وأثرت مساعي رستيسلاف حوالي السنة ٨٦٤ عندما هزم الروم جيشاً بلغارياً كان في طريقه الى الحدود المورافية للتعاون مع الالمان . ورأب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده . فطلب مبشرين ارتوذكسيين يعلمون شعبه الدين القويم . فاختار البطريرك فوطيوس الاخوين قسطنطين ومثوديوس لهذه الغاية . وكان الامبراطور قد سبق له ان خبر قسطنطين قبل تبوئه العرش البطريركي حين اوفده الى الحزر في جنوبي روسية للقيام بمهمة سياسية ودينية . وكان قسطنطين من أشهر علماء عصره في الدين والفلسفة ، ويعرف لغة الصقالبة لانه نشأ في نيسالونيكية وترعرع فيها في منطقة كثيرة الصقالبة . ورحل الاخوان الى مورافية في السنة ٨٦٤ فاشتا من الاحرف اليونانية حروفاً صقلبية ، ونقلوا الانجيل الى اللغة الصقلبية وبشرا بها وصنفا في هذه اللغة بعض الكتب الضرورية للخدمة الدينية .

تنصر البلغار : (٨٦٤) واستقر البلغار كما سبق ان أشرنا في ميسية وتراقية واختلطوا بالصقالبة وتعلموا لغتهم . وكانوا اقلية عسكرية حاكمة . قرأى يوغوريس Boris خاقانهم (٨٥٢ - ٨٨٩) ان مصلحته تقضي بتقبل الدين المسيحي وهو دين رعاياه الصقالبة ليتسنى له توطيد سلطته المركزية ازاء الزعامات المحلية الاقليمية عند الامراء البلغاريين . وبدأ البلغار يتعرفون الى النصرانية عن طريق رعاياهم الصقالبة وعلى يد الاسرى الروم .

وكان الاسرى البلغار يتعلمون الدين المسيحي في بلاد الروم . وكان من جملة هؤلاء شقيقة خاقان البلغار بوغوريس . فانها اقامت مدة طويلة اسيرة في بلاط الروم وتعلمت الدين المسيحي وتقبلت المعمودية . وعند مبادلة الاسرى عادت الى بلادها ومعها مثوذويس اخو قسطنطين المشار اليه آنفاً ، فحاولت مع مثوذويس استمالة بوغوريس الى الايمان فلم تستطع . وكان مثوذويس هذا راهباً بارعاً في فن التصوير . وكان بوغوريس يرتاح الى الصور المثقنة . فرسم مثوذويس صورة الدينونة ، ورسم فيها الديان جالساً وميزان العدل مرفوعاً والصديقون ينالون الاكاليل والاشرار يدخلون جهنم . فلما رأى بوغوريس الصورة تحشع وخاف ومال الى النصرانية . وفي السنة ٨٦٤ وقع جوع شديد في بلاد البلغار واستعان لويس الالماني ببوغوريس على رستسلاف . فهب بوغوريس يزحف بجموعه . فيجثم عليه ميخائيل الثالث وخاله برداس . فسلم نفسه والبلاد وعاهد ان يعتمد ويكون مسيحياً . وجاء بوغوريس وعظماؤه بملكته الى القسطنطينية واعتمد على يد البطريرك فوطيوس وسُمي ميخائيل في المعمودية باسم ابيه ميخائيل الفسيلس . وعيّن البطريرك فوطيوس رئيس اساقفة بلغارية وقسيسين ومعلمين . وبعد سنتين (٨٦٦) هجم لويس الالماني على بوغوريس وطلب البابا نيقولاوس الى لويس الالماني ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين ووحيين من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . وكان ما كان من امر الاختلاف بين فوطيوس ونيقولاوس . فطعن القسيسون الباباويون بفوطيوس واعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قساوسة الروم وطردهوا هؤلاء من بلغارية . فأذاع فوطيوس منشوره ضد البابا في السنة ٨٦٧ كما سبق ان اشرنا .

ميخائيل الثالث والعرب : وأدى اندفاع ثيودورة في سبيل الدين
القوم الى اضطهاد البولسين في آسية الصغرى . وهم فرقة مسيحية انتسبت
باسمها الى بولس السيساطي واختلفت في عقيدتها وطقوسها عن الكنيسة الام .
فاستدعت الكنيسة رؤسائهم وخيبرتهم بين الارثوذكسية والقتل . فلما
رفضوا اخذت الحكومة البيزنطية تعمل على اخضاعهم بالقوة فقتلت منهم
عدداً كبيراً . وفر الباقون الى حدود العرب الى تفرقة Tephricه
ونواحها . فأصبحوا اداة فعالة بيد العرب في حروبهم مع الروم .

وتوفي المعتصم في السنة ٨٤٢ وتولى الخلافة بعده ابنه الواثق (٨٤٢ -
٨٤٧) فواجه ازعاجات داخلية خطيرة منها ثورة دمشق وثورة الاكراد
وعصيان الخوارج . فلم يستطع ان يفي في محاربة الروم . وكان الروم لا يزالون
في ضربة الفشل الذي أصابهم في صفلية . ولذا فأننا نقرأ عن وصول رسول
رومي الى بلاط الواثق يقاوض في فداء الاسرى . وحصل الفداء على ضفاف
الامس في اواخر السنة ٨٤٥ . وارسلت ثيودورة في السنة التالية جنداً
الى صفلية ولكن هزمهم ابو الاغلب العباس . ثم حاول الروم النزول في
خليج منديلو بالقرب من الرمز فلم يوفقوا . وتجاوز هجوم العرب صفلية
الى ايطالية . فتقدموا الى مصب التيبر في السنة ٨٤٦ . وعادوا الى المصب
نفسه في السنة ٨٤٩ . فهبت عاصفة قوية واغرقت اسطولهم . وأسر كثير
منهم واقتيدوا الى رومة والزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان .

وكان العرب الاندلسيون في اقريطش لا يزالون يعرفون سبل تجارة
الروم ويهددون جزر ايجه وشواطئه بالقرصنة فأمرت ثيودورة بالاغارة على
ساحل مصر لتخريب ما فيه من صناعة بحرية كانت تزود عرب اقريطش
بالسفن والعتاد واحياناً بالرجال . فقام اسطول رومي الى دمياط في

ربيع السنة ٨٥٣ . وهاجم دمياط في الثاني والعشرين من ايار ، يوم عيد
الاضحى . وكان الواي العباسي على مصر عنبسة ابن اسحق قد استدعى
حامية دمياط للاشتراك في عرض حربي في القسطنطينية . فهرب سكان دمياط
وهلك منهم خلق كثير . واستولى الروم على المؤن والذخيرة المعدة للشحن
الى اقريطش واحرقوا السفن المكعدة في المخازن البحرية واقلعوا الى
تنيس ثم الى استوم فأحرقوا ما كان بها من الآلات الحربية^١ .

ولم يطل عهد الواثق في الخلافة . فانه أصيب بداء الاستسقاء^٢ فعولج
بالأعواد في تنور مسخن فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة فتعد فيه
اكثر من اليوم الاول فحمي عليه فأخرج منه في محفة^٣ ، فمات في الثانية
والثلاثين من عمره . وبيع بعده اخوه المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم
(٨٤٧ - ٨٦١) فكان نبرون العرب . فان ما اقتوفه من افانين الانتقام والجور
لم يصل اليه خيال . وبلغ ما نشأ عن كبرائه من النفور مبلغاً حمل ائنه
المبتنصر على قتله . ثم مات المبتنصر المأ وندماً في السنة الاولى من خلافته
(٨٦١) ، فأختار الحرس وجنود الاتراك خلفاً له المستعين بالله . فدامت
خلافته ثلاث سنوات . ثم استبدلت به عصابة من الحرس المعتز بالله (٨٦٦) ،
فانبرت عصابة اخرى وخلعت المعتز هذا في السنة ٨٦٩ فجلس على كرسي
الخلافة المهتدي (٨٦٩ - ٨٧٠) ففكر بالاصلاح فأدى ذلك الى قتله في
قصره . فخلفه المعتمد فدام عهده اثنتين وعشرين سنة (٨٧٠ - ٨٩٢) بفضل
اخلاص اخيه الموفق^٤ .

وفي آخر صيف السنة ٨٥٦ حين عاد علي ابن يحيى من صانفته التقليدية

١ المصدر نفسه ، من ١٨٨ - ١٩٢ .

٢ الكامل لابن الاسير ، ج ٥ ، من ٢٧٦ - ٢٧٧ .

٣ تاريخ العرب لسديو ، تعريب عادل زعير ، من ٢٢٨ - ٢٢٩ .

قام بتروانس اخو برداس خال الفسيلفس بغزو العرب فأحرز نصراً في ارض
 سيساط وتقدم حتى بلغ قريباً من آمد ثم اتجه الى الشمال الغربي نحو البولسيين
 في تفرقة فأحرق قرى عدة وأسر عشرة آلاف . ولم يحكد ميخائيل
 الثالث يستكمل فتوخته حتى نهض لغزو العرب في السنة ٨٥٩ فاصدأ سيساط
 ومعه برداس خاله فبلغ الفرات فنهب وأحرق وأسر . وحصل فداء في السنة
 ٨٦٠ . وقام نصر ابن الازهر الى القسطنطينية لهذه الغاية . وعليه السواد
 وفلسوة وسيف وخنجر فلم يرض بتروانس خال الفسيلفس ان يأذن
 للسفير العربي بالدخول الى البلاط على هذه الهيئة واحتج بوجه خاص على
 الثوب الاسود وحمل السيف . فغضب الرسول ورجع فأدركه وادخلوه
 فقدم الى الامبراطور ما حمل من الهدايا القليلة فملؤة مسكاً وثياباً
 من حرير وكية من الزعفران النادر وحلياً اخرى مختلفة . وكان ميخائيل
 يجلس في الاستقبال على عرشه يحيط به بطارفته الاشراف وبين يديه
 الترجمة سرور وعلام للعباس ابن سعد الجوهري ومتوجم عجوز اسمه
 سرحان ولعله سرجيوس . فتقدم رسول الخليفة بالتحيات وجلس في المكان
 الذي اعد له . ووضعت الهدايا امام الفسيلفس . فأخذها وأحسن معاملته
 السفير . ومكث رسول الخليفة العباسي اربعة اشهر في عاصمة الروم . ثم
 استؤنفت مفاوضات الفداء . واقسم كل طرف على الوفاء . ثم تم تنفيذ
 عند الامس Eames فأطلق الروم اكثر من الف مسلم فيهم عشرون امرأة
 وعشرة اطفال وأطلق العرب اكثر من الف أسير . اما الالف الباقية
 فتوكت لقاء ما وعده به الفسيلفس من افتداء البطريق المأسور في أولوة .
 وكان قوم من الروم قد دخلوا الاسلام وقوم من العرب قد تنصروا .
 ومن رغب في النصرانية ترك عند الروم .

والغريب ان التخال بين الروم والعرب استؤنف في صيف هذه السنة نفسها . فسار ميخائيل الثالث بنفسه لغزو العرب ووصل الى موريثامن . فأندره وكيه في العاصمة قائد الاسطول الدرنغار نسيثاس اوريثاس بقدم الروس . فاضطر القسيفس ان يسرع في العودة قبل ان يشرع في الحرب شروعاً جدياً . فوصل الى العاصمة وقد احاط بها الروس وقتلوا من حولها السكان ، فلم يستطع ان يعبر المضيق الا بعد مشقة . وانتهز العرب حملة الروس وغياب القسيفس فبدلوا نشاطا كبيراً . فشن امير ملاطية عمر ابن عبدالله غارة على الروم فعاد بسبعة آلاف اسير . وأغار قوباص فأسر خمسة آلاف . وعاد علي ابن يحيى بخمسة آلاف ايضاً ومثني فرس وثور وحمار . وأغار فضل ابن قارون بحراً بعشرين سفينة وأخذ انطاكية^٢ .

وفي صيف السنة ٨٦٣ في ايام المستعين قام عمر ابن عبدالله امير ملاطية بحملة موفقة بلغ بها قلب ارض الروم ، فخرّب ثيمة ارمينية ، وتقدم حتى بلغ البحر الاسود فأخذ اميسوس (سمسون) ، وساءه ان يوقف البحر سيده فأمر بضرب البحر ! وعلم ميخائيل الثالث بهذا كله ، فجهز جيشاً قوياً وجعل على رأسه بتروناس خاله . فزحف بتروناس فأدرك عمر ابن عبدالله عند بوزن Pason في بلاجونية في الثالث من ايلول سنة ٨٦٣ فحصره ووقع به هزيمة تامة واحتز رأسه وارسله الى القسطنطينية وقتل عدداً كبيراً من جنوده واسر الباقين^٣ .

وسادت الفوضى في ايام المستعين بالله ، من مكة ، الى حمص ،

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 277-278 .

٢ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٤٩ .

٣ قازيليف ، الروم والعرب ، ص ٢١٨ - ٢٢٥ .

فالموصل ، فاصفهان . واستقبل الحرس من جنود الأتراك وهددوا المستعين ،
فحاول الفرار من سامرا إلى بغداد ، فقطع بذلك صلته بالترك . فقاموا
مقامه المعتز . وتنازل المستعين عن حقه في الخلافة (٨٦٦) واعتزل باقي
حياته في المدينة .

الفصل الحادي والعشرون

العلم والأدب والفن في القرنين الثامن والتاسع

أحياء الجامعة : وقد يكون برداس أخو نيبودورة وخال ميخائيل الثالث وصولياً في السياسة طامعاً في الحكم ولكنه كان دون ريب ذكياً مفكراً ، محباً للعلم والأدب والفن ، حامياً لها مشجعاً عليها . وإلى يعود الفضل والشرف في أحياء الجامعة في القسطنطينية ، والعودة إلى العلوم العالية ، النصرانية منها والوثنية . فإنه استدعى إلى القصر أعلم علماء زمانه وجمعهم في مدرسة عالية « الماغورة » وعهد برئاستها إلى فخر ثيسالونيكية لاوون الرياضي الطبيب الفيلسوف . وكان بين أساتذتها فوطيوس البطريرك وقسطنطين رسول الصقالية وقد سبقت الإشارة إليها . وكانا يدرسان اللغة والفلسفة . وعلم غيرهما الهندسة والفلك . واشتد عطف برداس على الجامعة فتردد إليها واحتك بأساتذتها وطلابها ، وحضهم على السير في سبيل العلم والفكر .

ولم يرض بعض رجال الدين عن هذه العناية بالعلوم القديمة لأنها صدرت عن الوثنيين فاتهموا لاوون بالسحر وأذاعوا ضده المناشير وأكدوا

انه سيرافق سقراط وافلاطون وارسطو في جهنم . ولكن برداس مضى في عمله العلمي غير مبال بهذا كله فنفتح في عاصمة الروم روحاً علمية مباركة مهدت السبيل لوثبة القرن العاشر ، وخلدت ذكرى الاسرة العمورية في تاريخ الحضارة الى ما شاء الله .

نادي فوطيوس : وجعل فوطيوس (البطريرك فيما بعد) بيته نادياً ادبياً علمياً . ودعا اليه اصدقاءه الادباء والعلماء للمطالعة والبحث . وجمع اليه عدداً كبيراً من المؤلفات المسيحية والوثنية . ونزولاً عند طلب اصدقائه هؤلاء دون خلاصة ما كان يقرأ في النادي من المؤلفات فصنف بذلك كتابه البيبليوتيكة Bibliotheca او الميريوبيبليوت Myriobiblon كما يدعى احياناً ومعناه « الوقف المكتب » . فحفظ لنا بمجموعته هذه اشياء واشياء من مؤلفات فقدت فيما بعد . فنجد في مجموعته كلاماً مفيداً من اقوال رجال اللغة والخطباء والمؤرخين وعلماء الطبيعة والاطباء والآباء والمجامع . وصنف فوطيوس كثيراً في اللغات واللغة وخلف موعظ عديدة ورسائل كثيرة^١ .

دير الاستوديون : وعاد ثيودوروس الراهب من منفاه . فأقام في دير استوديون في العاصمة ورمه واصلحه . ثم هب لاصلاح الرهبنة فقدم الحياة المشتركة « الكينويوس » Koinos bios على الاعتزال الفردي ووجب تهذيب الرهبان . ففرض القراءة والكتابة ، ونسخ المخطوطات ، ودروس الاسفار المقدسة ، ومؤلفات الآباء ، ونظم الترانيم وتربيلها . ونظم هو بالاشتراك مع اخيه يوسف رئيس اساقفة ثيسالونيكية معظم كتاب التريوديون الخشوعي . وكتب في اصول الايمان كتابي الكناكيزموس الكبير والصغير

Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, III, 445-446 ; Jorga, N., *Hist. de la Vie Byzantine*, II, 106-107.

فلقيا رواجاً كبيراً . وله رسائل عديدة في الدفاع عن الايقونات وفي
الناموس والاجتماع . وتوفي في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ٨٢٦
وتلاميذه حوله يرتلون المزمور « طربى للذين » . وتناول هو الاسرار واخذ
يرتل هذا المزمور ، فلما بلغ الى القول : « الى الدهر لا انسى حقوقك لانك
بها احيتني » ، أسلم الروح وله من العمر سبع وستون سنة^١ .

يوحنا الدمشقي : (٦٧٦ - ٧٦٠) « كوكب الكنيسة ومعلمها
ومقاوم الاعداء يوحنا الحكيم المتأله اللب » . ولد يوحنا من ابرين غنيين
تقيين في دمشق . واقتدى ابيه راهباً اسمه قوزما كان قد وقع
اسيراً في يد المسلمين في ايطالية . وكان قوزما الراهب على شطر وافر
من العلم فعني بتعليم يوحنا وتثقيفه . وخلف يوحنا اياه وجده في ادارة
المال في عهد الامويين . وما فتى مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ -
٧٤٣) . ثم اعتزل الادارة وتقبل النذر في دير القديس سابا في فلسطين .
وتوفي فيه حوالي السنة ٧٦٠ . وكانت حرب الايقونات فاثرت في نفس
يوحنا . فاجتهد في امر الايقونات وكتب ورحل في سبيل ذلك حتى
القسطنطينية . فعرفه الآباء وقدروا مواهبه فأطلقوا عليه لقب خريسورواس
ومعناه دقاق الذهب . وخريسورواس عندهم نهر يردى بلد يوحنا^٢ .

وافضل الآثار التي خلفها هذا العالم الحكيم وكوكب الكنيسة ومعلمها
هو مؤلفه « ينبوع المعرفة » . وهو سفر جليل عرض به يوحنا العقيدة المسيحية
عرضاً منطقياً على طريقة ارسطو معتمداً في ذلك على مقررات المجامع

Gardner, A., *Theodore of Studion, Life and Times*, Lond., 1905; ٨

Patrologia Graeca, Vol. 99, c. 233.

Jugie, M., *Vie de St. Jean Damascène*, *Echos d'Orient*, 1924, 137-161. ٩

واقوال الآباء منذ الجمع المسكوفي الاول حتى يومه . فوضع بيد محي الايقونات سلاحاً قاطعاً لم يكن لديهم من قبل . وأصبح مؤلفه فيما بعد مرجع الآباء الارثوذكسيين والكاثوليكين في علم اللاهوت . وهو دوناً ريب الينبوع الاكبر الذي استقى منه ونسج على منواله توما الاكويني عندما وضع في القرن الثالث عشر مؤلفه الشهير في اللاهوت *Summa Theologiae* . ونظم يوحنا التراتيل الروحية وخطبها ولاسيما ما يرنل منها يوم عيد الفصح . وجاءت هذه التراتيل اعرق واغنى من منظومات رومانوس البيروني الذي سبقت الإشارة اليه .

وبما ينسب الى القديس يوحنا الدمشقي قصة بولام الزاهد ويوصافات الامير الهندى التي راجت كثيراً في العصور الوسطى . وبرغم أن العالم الفرنسى زوتبروغ قد نفى علاقتها بيوحنا الدمشقي^١ ، وبرغم ان كثيراً من المؤرخين قد قبلوا استنتاجه فان بعض العلماء المحدثين لا يزالون يرغبون في اصادها الى يوحنا نفسه^٢ . ومن المحتمل ان يكون راهب آخر من رهبان دير القديس سابا يحمل اسم يوحنا ايضاً هو الذي نقل هذه القصة^٣ .

ثيوفانس المعترف : (٧٤٨ - ٨١٨) ولد في القسطنطينية من والدين تقيين عريقين في الشرف . فوالده اسحق كان والياً على جزر الارخبيل ووالدته ثيودورة كانت ايضاً شريفة من شريفات القسطنطينية . وتوفي والده وهو لا يزال في الثالثة من عمره . فأشرفت والدته البارة على تربيته واستعانت بأحد العلماء الاقياء على تهذيبه وارشاده . ثم اكرمه

^١ Bardenhewer, O., *Gesch. der Altkirchlichen Lit.*, V, 51-63.

^٢ Krenzbacher, K., *Gesch. der byz. Lit.*, 886-890

^٣ Woodward, C. R., *Barlaam and Joasaph*, XII.

^٤ ابن التميم ، كتاب القهرست ، ص ٣٠٥ . الدكتور فليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٣١٤ .

الفيلسوف على الزواج من ابنة لاوون احد كبار الموظفين في القصر . فأرشد عروسته الى الصلاة والتأملات الروحية وطلب اليها ان يعيش معها كشقيق لها لا كزوج فقبلت . وبعد وفاة الفيلسوف وحبه لاوون اطلق هو وزوجته عبيدهما ووزعا اكثر ما يملكان على الفقراء . وفي السنة ٧٨٠ تقبل كل منهما النذر وافترقا ليلتقيا في الحياة الابدية . وانعمت الجميع المسكوني السابع فدعي ثيوفانس للاشتراك في اعماله فلي . ثم حاول لاوون الخامس اجتذابه اليه فما استطاع ، وود عليه ثيوفانس موجبا تكريم الايقونات . فاشتعل لاوون غيظا وانفذ الى الدير السغرياني من القى القبض على الراهب البار وقيدته بالسلاسل . ثم ادخله لاوون السجن وأمر بتعذيبه . وبعد سنتين نفاه الى جزيرة قفر . فتوفي فيها بعد وصوله اليها بثلاثة اسابيع . واول من عني بتدوين سيرة هذا الرجل البار هو ثيودوروس الاستوديوني .

وأنتفع ما خلفه ثيوفانس خرونيقونه الشهير . بدأه من عهد الامبراطور ديوقليتيانوس ووقف به عند نهاية حكم الفيلسوف ميخائيل الاول (٢٨٤-٨١٣) . وخرونيقون ثيوفانس هذا مفيد جداً لانه يحفظ لنا بعض ما ورد في مصنفات فقدت من بعده ولانه أسهب فيما دون عن حرب الايقونات . وقد نقل انسطاسيوس قيم مكتبة الفاتيكان هذا الخرونيقون الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن التاسع فزاد في فائدته اذ اعتمد عليه عدد كبير من مؤرخي العصور الوسطى في الغرب .

ثيوفوروس المعترف : (٧٥٨ - ٨٢٨) ولد في القسطنطينية وأبوه

١ مكسيموس بطريرك انطاكية على الروم الكاثوليكين ، اخبار القديسين ، ج ٢ ، ص

٣٦٢ - ٣٦٨ .

Ostrogarsky, G., «Theophanes», Real-Encyclopädie, II, 2127-2132.

هو ثيودوروس كاتم امرار الفيلسوف قسطنطين الزبلي (الخامس) واهمه هي
افذوكسية . احتل الاضطهاد الشديد في حرب الايقونات . وتوفي
ثيودوروس في المنفى فعادت افذوكسية بولدها نيقفوروس الى القسطنطينية
وعنت بتربيته وتعاليمه . وكان نيقفوروس ذكياً جداً فروع في « العلوم
البشرية » وقد أظهر ما دلّ على حسن شمائله وخصاله فأحبه عظماء العاصمة .
وأمرت ايرينة الوصية بتربيته الى الوظيفة نفسها التي شغلها والده ، وهكذا
أصبح كافئاً لامرار المملكة . وحينما رأت والدته افذوكسية انه لم يعد
بحاجة الى مساعدتها أهملت كل شيء وانفردت في دير الراهبات . وسعى
نيقفوروس الى عقد الجمع المسكوني السابع سنة ٧٨٧ وحضره بشخصه من
قبل الفيلسوف لكي يشرف على حفظ النظام والتدريب . ثم اعتزل العمل
في البلاط واهمل كل شيء وانفرد في البوسفوروس بالقرب من القسطنطينية
وعمر ديراً وضم اليه طائفة من الراهبات . وكان اذا اكمل واجباته
الرهبانية انصرف الى العلوم التي برع فيها . وفرغ الكرمي البطريكي في
العاصمة بوفاة طراسيوس في السنة ٨٠٦ فدعا الفيلسوف نيقفوروس سميّه
نيقفوروس اليه وحثه على قبول الرتبة البطريكية ولكن نيقفوروس
اعتذر وتوسل الى الفيلسوف ان يعفيه لانه كان لا يزال علمانياً ولانه غير
كفوء لهذه المنزلة الجليلة ولكن الفيلسوف أصرّ على رأيه وما لبث حتى
انتخب على اعادة سميّه . وتبوأ نيقفوروس العرش البطريكي المسكوني في
منتصف السنة ٨٠٦ . ثم هب « ينقي حقل الرب من زوان الاراسيس
والضلالات والفاطات والبدع ، ولا سيما هرطقة محاربي الايقونات » . واتجه بعد
ذلك الى تهذيب الاكليروس ملازماً كلاً منهم بالسلوك في الحدود التي
ترسمها له القوانين . وفي السنة ٨١٣ حينما استولى لاوون الارمني على
تحت الملك عاد فضيق على من قال باكرام الايقونات فسجن نيقفوروس

ثم نفاه فتوفي في المنفى في السنة ٨٢٨^١.

وَأَلَفَ نِيقِيفُورُوسُ كِتَاباً فِي الرَّدِّ عَلَى مَحَارِبِي الْإِيقُونَاتِ . وَأَشْهَرُ آثَارِهِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ « دَحَضَ مَا هَذَرِ فِيهِ مَأْمُونٌ » ، وَالْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى قِسْطَنْطِينِ الْخَامِسِ^٢ . وَكُتِبَ أَيْضاً فِي التَّارِيخِ ، فَأَرَّخَ الْفَتْرَةَ الَّتِي اِمْتَدَّتْ مِنْ أَيْلَامِ مَورِيقِيُوسِ فِي السَّنَةِ ٦٠٢ إِلَى السَّنَةِ ٧٦٩ ، فَأَجَادَ ، وَحَفِظَ لَنَا أَشْيَاءَ وَأَشْيَاءَ عَنِ السِّيَاسَةِ وَعَنِ الْكَنِيسَةِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ . وَالتَّشَابُهَ بَيْنَ تَارِيخِهِ وَبَيْنَ خَرْوَنِيْقُونِ ثِيُوفَانِسِ يَعُودُ إِلَى أَنَّ الْكَاتِبَيْنِ كِلَيْهِمَا اخِذَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَنْ مَرَجِعٍ وَاحِدٍ^٣.

جوجس الراهب : وَقَدْ صَنَّفَ خَرْوَنِيْقُونَا كَلِمَتَا دَحَضَ ، فَاِبْتَدَأَ بِالْخُلُقِ وَسَقُوطِ آدَمَ ، وَوَقَفَ عِنْدَ انْتِصَارِ الْإِيقُونَاتِ فِي السَّنَةِ ٨٤٢ . وَمَصْنُفُهُ هَذَا هَامٌ جَدّاً ، لِأَنَّهُ الْمَرْجِعُ الْوَحِيدُ لِتَارِيخِ الرُّومِ بَيْنَ السَّنَةِ ٨١٣ وَالسَّنَةِ ٨٤٢ ، وَلِأَنَّهُ يَبِينُ بوضوحٍ مُشَاغِلَ زَمَلَانِهِ الرُّهْبَانِيَّةِ ، وَمَا اِهْتَمَّوْا بِهِ فِي الرُّهْبَانِيَّةِ ، وَفِي حَرْبِ الْإِيقُونَاتِ ، وَفِي انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ . وَاعْتَبِدَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ مُؤَرِّخِي الرُّومِ هَذَا الْخَرْوَنِيْقُونِ فِي تَرْتِيبِ الْحَوَادِثِ الْعَالَمِيَةِ وَتَصْنِيفِهَا ، كَمَا أَنَّ مُؤَرِّخِي الرُّوسِ الْأَوَّلِينَ رَجَعُوا إِلَيْهِ وَافَادُوا مِنْهُ .

كاسية الشاعرة : وَلَمَّا أَهْمَلَ ثِيُوفِيلُوسُ الْفَسِيلُفْسُ كَاسِيَةَ فِي عَرْضِ الْجُمُعَاتِ ، كَمَا سَبَقَ أَنْ أَشْرَفْنَا ، انْجَبَتْ أَنْظَارُهَا نَحْوَ جَمَالِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ . ثُمَّ عَزَفَتْ عَنِ الدُّنْيَا عَزُوفاً تَامَةً ، فَأَسَسَتْ دِيْرًا وَالنَّجَاتَ إِلَيْهِ مُتَعَبِدَةً . وَغَنِيَتْ فِي أَثْنَاءِ عَزَلَتِهَا بِالتَّوَاتِيلِ الرُّوحِيَّةِ ، فَتَنَظَّمَتْ فِيهَا مَا خُلِّدَ ذِكْرَهَا .

١ مكسيموس البطريرك ، أخبار القديسين ، ج ٣ ، ص ١٥٨ - ١٦٤ .

٢ *Patrologia Graeca*, Vol. C, 205 ff.

٣ *Blake, R., Activité Littéraire de Nicephore, Ir Patriarchie de Const., Byzantion, 1939, 1-15.*

Georgius Monachus, Chronikon, ed. de Boor.

وقد كرس المؤرخ الالماني كرومباخر شيئاً من وقته لدراسة شعرها ، فألفها امرأة فذة ، جمعت حساسية المرأة ، الى شدة تدين ، الى صراحة نادرة^١ .

الفكر اليوناني والاساط العروبية الاسلامية : وأدرك العرب المسلمون تفوق الروم في الفكر والحضارة . فقد جاء في مقدمة ابن خلدون ان ابا جعفر المنصور بعث الى ملك الروم يطلب كتباً يونانية ، وانت الملك اجابه الى طلبه ، فأرسل اليه كتباً من بينها كتاب اقليدس^٢ . وترجم ابو يحيى ابن البطريق كتب جالينوس وابقراط . وفي عهد الرشيد نقل يحيى ابن ماسويه بعض الكتب الطبية الى العربية . ولكن هذا النقل بلغ اقصاه في عهد الخليفة المأمون . فانه كان من انصار المعتزلة الذين عززوا العقل وتهافوا على الفكر وآثاره . وراسل المأمون زميله لاوون الارمني وطلب اليه ان ياذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية في الفلسفة والهندسة والطب . فأجابه لاوون الى ذلك . فأنت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان اعضاؤها الحجاج ابن قطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة . وعاد هؤلاء بكنوز ثينة الى بغداد ، فأشرف قسطنطين لوقا على ترجمتها^٣ . ولما تراسى الى المأمون نبأ لاوون الرياضي راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالعطاء . ولكن ثيوفيلوس الفيلسوف علم بهذه الدعوة في حينها فأبقى لاوون في القسطنطينية وعينه مدرّساً في احدى الكنائس . ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس ان يسمح بان يزوره لاوون مدة قصيرة ، وذكر في رسالته انه يعد قبول هذا الطلب عملاً ودياً وانه

Krumbacher, K., *Gesch. der Byz. Lit.*, 716 ; Hary, J. D , *East. Rom. Emp.*, 81-83 .

١ المقدمة ، ص ١٠٦ .

٢ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٢٠ و ٣٩٩ .

يعرض لقاء ذلك الثقب قطعة من الذهب وعقد صلح دائم . غير ان ثيوفيلوس رفض واعتبر علم لاوون واختراعاته سرّاً لا ينبغي ان يطلع عليه المسلمون^١ . وأحب الوثائق بالغة ان يستضي أخبار اهل الكهف ، فأرسل احد العلماء المسلمين الى افسس لمشاهدة كهوفها ، وهي التي كانت تحفظ جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا في ايام ديوقليتيانوس . واذن ميخائيل الثالث بذلك واوفد مع العالم المسلم دليلاً يرشده^٢ .

الجدل بين النصارى والمسلمين : ومن ظواهر الفكر في القرنين الثامن والتاسع التصاحّب الديني الذي حصل بين بعض العلماء الارثوذكسيين الكاثوليكين وبين بعض علماء المسلمين . وكان الداعي لهذا الجدل ان الخلفاء كانوا اذا تسنّوا عرش الخلافة يوجهون الى الملوك المعاصرين كتباً يدعونهم فيها الى الدخول في الاسلام ، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب . ومن اسباب هذا الجدل ايضاً ان خطر التحول عن المسيحية تزايد بتقدم العرب في جميع نواحي حياتهم . فكان من الضروري ان تنظّم مناعة في العقيدة للمسيحيين في الثغور ، وفي جميع الاقطار الشامية ، وفي مصر ايضاً . وكان سكان هذه الاقطار من الارثوذكسيين الكاثوليكين وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية في ارض الاسلام ، في زمن يوحنا الدمشقي ايام الامويين ، وفي زمن ابي قرة في اوائل العهد العباسي . فجاءت تأليف هؤلاء في الجدل باليونانية . ولكن ابا قرة في مجارده بدأ استعمال العربية . وكتب بها ابو كاليبس بحيرة الحوار بين عبد المسيح الكندي وبين عبدالله الهاشمي .

١ الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .
Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 190; Bury, J. B., East. Rom. Emp., 436-438; Fuchs, F., Hohere Schulen, 18.

٢ الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ .

أما يوحنا الدمشقي فإنه ناقش بعض الآيات القرآنية وانتقد وحي القرآن وعادات المسلمين في العبادات والأخلاق. ورفض أبو قرة بعثة محمد رسولاً وجادل فكرة الخلق المستمر ونصيب الله في أعمال المخلوقات واعتبرها أقوالاً يجرّ إليها الدخول في الإسلام. وبما قاله أبو قرة أنه إذا قيل بخلق المسيح لزم أن يكون الله قد بقي زمناً دون كلمة وروح، وبالتالي لزم أن يكون القرآن الذي هو كلمة الله مخلوقاً. وظهرت رسالة بحيرة الراهب في عهد المأمون، ثم كان هجوم إسلامي قوي على أثر ما فعله ميخائيل الثالث إذ أرسل مقاتلين احتج في أحداها بمبدأ السيدة. فرفض المسلمون فكرة وجود ابن لله مشارك له في الخلود وفي الصفات. وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها إلى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو أهل الذمة. وعرض أبو القاسم ابن إبراهيم البلخي لفكرة البنوة. وألف أبو عيسى الوراق كتاباً ضخماً نقد فيه عقائد النصارى بذهابهم الثلاثة^١.

الفن : ويرى بعض رجال الاختصاص أن محاربي الأيقونات قضوا بتعصبيهم على روائع فنية فحرموا بذلك الفن والعلم فائدة التلذذ والانتفاع بهذه الروائع^٢. ويرى غيرهم أن النزاع حول الأيقونات وتخطيها نفع في الفن البيزنطي روحاً جديدة مستمدة من الفن الهليني القديم ومن الفن الفارسي كما يرون أن تحريم تصوير المسيح والعذراء والقديسين لم يشمل تصوير البشر العاديين، فانطلقت يد الفنانين وغدت واقعية بتأثير المثل الهلينية الباقية. وبما يرى هؤلاء أيضاً أن الفن البيزنطي اتجه في هذه

١ إرمات آيل : فجاج أهل الأديان في القرنين الثامن والتاسع ، وهو الملحق السادس
 لكتاب فازيليف في تاريخ الروم والغرب ، تعريب الدكتور محمد عبد الحادي شعيرة
 والدكتور غزاد حنين علي ، ص ٣٦٥ - ٣٧١ .

٢ Dalton, O. M., Byz. Art and Arch., 14.

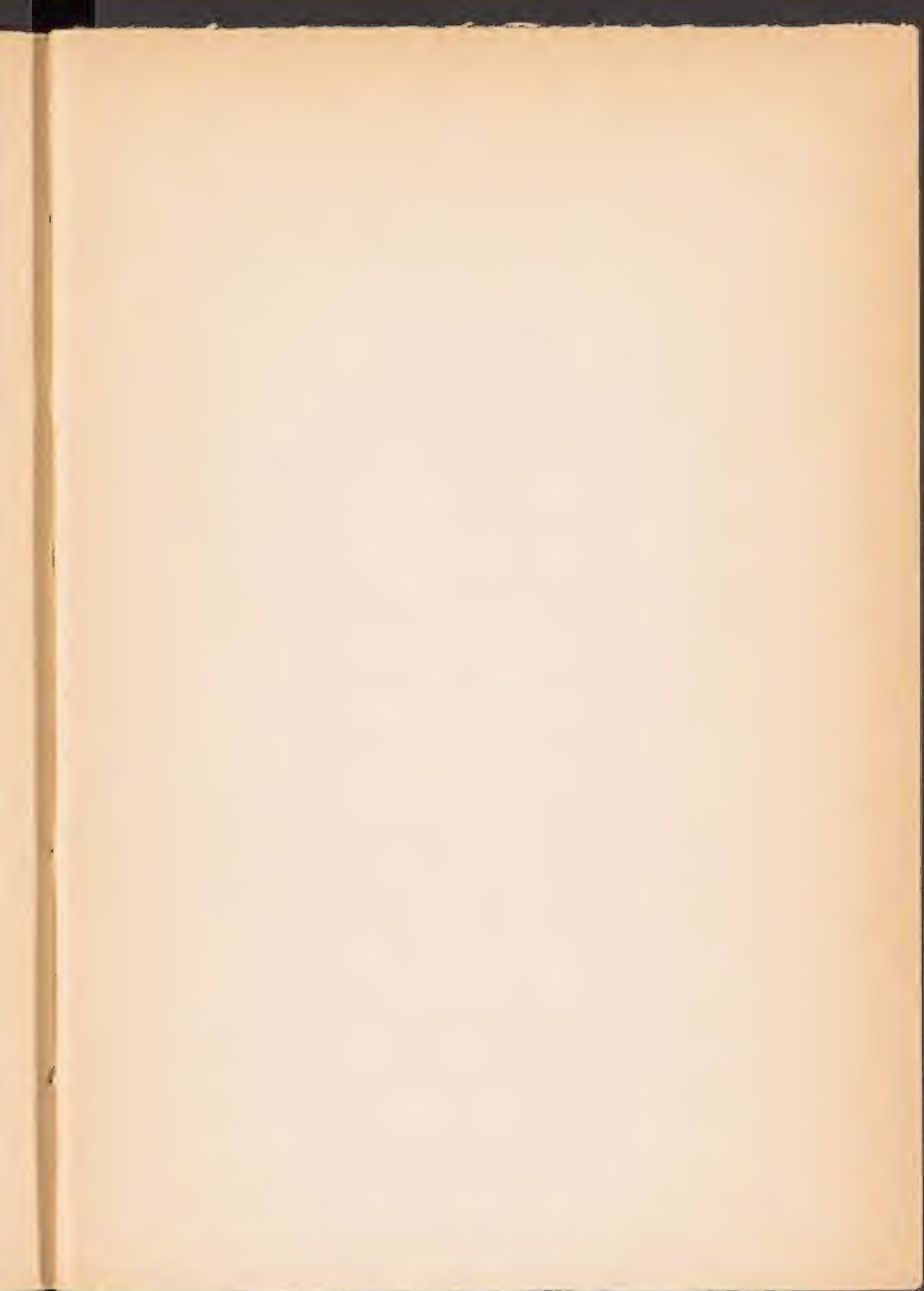
الحنبة ، نتيجة "لحرب الأيقونات" ، اتجاهاً زمنياً واضحاً مستلهاً الطبيعة والحياة اليومية العادية^١.

ومؤسف ان يكون معظم آثار هذه الفترة قد اندثر وسواء منه ما كان دينياً او زمنياً . وقد يكون بعض الفسيفساء في كنائس نيسالونيكية (سلانيك) من آثار هذه الحنبة وقد لا يكون . وقبل القول نفسه عن بعض التصاوير المنقورة في العاج وهي التي يقدر فريق من الباحثين انها ترفى الى عصر حرب الأيقونات ، وثمة كتب دينية مزينة ببعض الصور قد تكون من آثار هذه الحنبة نفسها ، واشهرها مخطوطة الخلودوف المنقولة في موسكو^٢.

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني والاخير

Diehl, Ch., Art Byzantine, I, 335-386.

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 299.



محتويات الجزء الاول

صفحة	عنوان
٨ - ٦	اهمية تاريخ الروم ، المراجع الاولى ، افضل المؤلفات الحديثة .

الباب الاول المقدمة

٢٣ - ٨	<p>الفصل الاول : تفكير رومة الداخلي ، النظام الكولوني وتأثير الزراعة ، عداوة مزمن بين الاغنياء والفقراء ، تأخير الصناعة والتجارة ، الخطأ الجيش ، الامبراطور ، أزمة القرن الثالث ، غزوات الشعوب الجرمانية ، الاصلاحات الجديدة .</p>
٢٤ - ٢	<p>الفصل الثاني : ظهور النصرانية وانتشارها ، الرسل والتلاميذ ، البوثة ، الطائفة ، بولس ، مرقس وثوما وغيرهما ، الدولة الرومانية والنصرانية ، الاضطهاد ، النظام والتنظيم ، آثار المسيحية الاولين .</p>
٢٣ - ٥٠	<p>الفصل الثالث : الدولة الساسية ، عهد ، قيام الدولة الساسية ، بهرام الثاني ، بهرام الثالث ونزعي الاول .</p>

الباب الثاني احل الدولة ومنشأها

الفصل الرابع : قسطنطين الكبير والقسطنطينية ، قسطنطين الاول الكبير ، اخباره

- الاولى ، موقفه من النصرانية ، براءة ميلان ، مجمع نيقية ، القدسية
 هيلانة ، أريوس ثانيا ، القسطنطينية ، الادارة ، الجيش ، طبقات
 المجتمع ، الثقافة العامة ، تنصر قسطنطين ووفاته ٥٦ - ٧٣
- الفصل الخامس : قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد ، قسطنديوس : شاپور ذو
 الاكتاف ، الوثنية ، يوليانوس الجاحد ، سياسته الداخلية ، موقفه
 من النصرانية والوثنية ، في انطاكية ، الحرب الفارسية ٧٤ - ٨٨
- الفصل السادس : ثيودوسيوس الكبير ، خلفاء يوليانوس ، ثيودوسيوس الكبير ،
 المجمع المسكوني الثاني ، العلاقات الرومانية الفارسية ، ضجة في
 انطاكية وببروت ، توحيد الامبراطورية ، الوثنية تشرف على
 التلف ، الوفاة ٨٩ - ١٠١
- الفصل السابع : ظهور الرهبانية وانتشارها ، احبارا ، انطونيوس الكبير ،
 باخوميوس القديس ، باسيليوس الكبير ، مار مارون ١٠٢ - ١٠٦

الباب الثالث

ندفق البرابرة وتفرق النصارى

- الفصل الثامن : اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني ، اسرة ثيودوسيوس
 الكبير ، اركاديوس ، آلاريكوس ملك القوط ، قوط القسطنطينية ،
 ثورة القوط في فريجية ، سقوط غايتاس وانتهاء مشكلة القوط ،
 يوحنا الذهبي الفم ، ثيودوسيوس الثاني ، صداقة فارس ، غوط
 واحتياط في الداخل ، الهون ، انشقاق في الكنيسة ، بطريرك
 القسطنطينية وبطريرك الاسكندرية ، المجمع المسكوني الثالث ،
 المجمع المسكوني الرابع ١٠٧ - ١٢٩

الباب الرابع

تشرق الفكر والفن والدولة

- الفصل التاسع : اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس ، مرقيانوس ، لاون

مقدمة

الاول ، زينون ، الايتويكون ، السطاسيوس الاول ، الحرب
الفارسية ، المالية ، الطيعة الواحدة ، ثورة فيتاليانوس . ١٣٠-١٣٩

الفصل العاشر : غشرك الفكر والفن والدولة ، الدولة تتحول الى دولة شرقية ،
الفكر والفن والثقافة ، الاسكندرية ، انطاكية ، قيصريه فلسطين ،
بيروت ، قبدوقية ، الرها ، الفن البيزنطي . . . ١٤٠-١٦٤

الباب الخامس كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادي عشر : يوستينوس ويوستنيانوس ، اصل هذه الاسرة ، يوستينوس
الاول ، يوستينوس وكالب الحبتي ، يوستنيانوس وليودورة ،
سياسة يوستنيانوس الداخلية ، يوستنيانوس والاقتصاد ،
يوستنيانوس والقضاء ، يوستنيانوس والكنيسة ، الفصول الثلاثة ،
المجمع المسكوني الخامس ، سياسة يوستنيانوس الخارجية ،
الحرب الفارسية الاول ، الحرب في افريقية وايطالية ،
الحرب الفارسية الثانية ، قوتيلة ، الدانوب ، القرات وسائر
الحدود الشرقية ، يوستنيانوس في دوره الاخير . . . ١٦٥-١٩٤

الفصل الثاني عشر : خلفاء يوستنيانوس ، يوستينوس الثاني ، طلياريس الثاني ،
موريقيوس ، سياسة خلفاء يوستنيانوس ، الحرب الفارسية ،
خلفاء يوستنيانوس والعرب ، الآفار والصقالية ، ثورة السنة
٦٠٢ ، فوقاس ١٩٥-٢١٠

الفصل الثالث عشر : الفكر والفن في القرن السادس ، التاريخ والمؤرخون ،
الجغرافية والجغرافيون ، التاريخ بالحواسيات ، اخبار
الغديسين ، الشعراء ، الفن ٢١١-٢١٩

الباب السادس

تطور وتغيير في عناصر الشعب

وفي حدود الملك وانظمته

الفصل الرابع عشر : هرقل والفرس والمغالية والآفار ، سقوط فوقاس وقياس

هرقل ، اسرة هرقل ، الحرب الفارسية ، الآفار والمغالية ،

القول بالمشيئة بالواحدة ٢٢٠-٢٢٣

الفصل الخامس عشر : هرقل والعرب ، النبي العربي والروم ، الروم والنبي العربي ،

ابو بكر الصديق والروم ، عمر الكبير والروم ، عودة

الروم الى الميدان ، عرب الشام والعرب الفاتحون ، نصارى

الشام والعرب ، لماذا خسر الروم ، عمر وفتح مصر ، موقف

الاقباط من العرب الفاتحين ٢٣٤-٢٥٣

الفصل السادس عشر : خلفاء هرقل ، مرتبة ، قسطنطين الثالث ، قسطنطين الرابع ،

الجمع المسكوني السادس ، قسطنطين والعرب ، يوستينانوس

الثاني ، حرب القرامطيس والدانير ، الجمع الخامس السادس ،

خلع يوستينانوس ، القوزي ، حصار القسطنطينية ٢٥٣-٢٤٧

الفصل السابع عشر : تطور وتغيير ، الارض والسكان ، الدولة تصبح عليانية ، اللاتينية

تتوارى فتزول ، تزايد نفوذ الكنيسة ٢٧٥-٢٨٣

الفصل الثامن عشر : الآداب والعلوم والفن في القرن السابع ، التاريخ والآداب ،

الميتاتان والمغلان ، اخبار القديسين ، الفن ٢٨٤-٢٨٨

الباب السابع

انتعاش ونوطين واستقرار

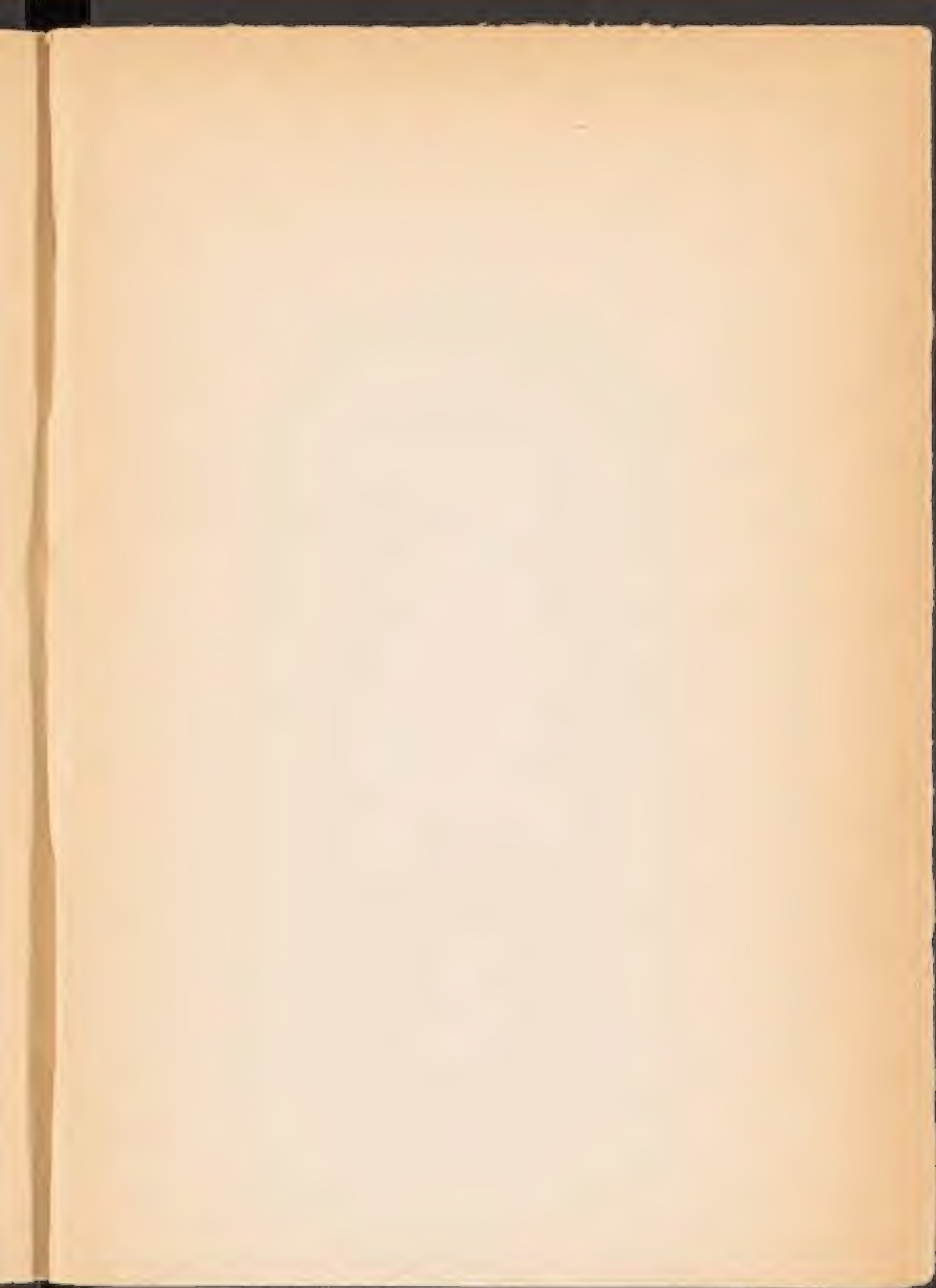
الفصل التاسع عشر : الاسرة الاسورية ، اصليا ، الحروب العربية ، البشار

والمغالية ، الاكلوغة ، قانون المزارعين ، القانون البحري ،

تاتون الجند ، الثبات أو البتود ، حرب الايقونات ، الجمع
المسكوني السابع ، رومة والامبراطور . . . ٢٨٩-٣١٣

الفصل العشرون :
خلفاء الاسوريين والاسرة الممورية ، نيقفوروس الاول
وميخائيل الاول ، لاوون الخامس ، الاسرة الممورية ،
تورة توما الصقلي ، نزول العرب في اقريطش ، تورة
يوفيموس الصقلي ، يوفيلوس الاول ، يوفيلوس والعرب ،
ميخائيل الثالث ، تضر الصقلية ، تضر الباغار ، ميخائيل الثالث
والعرب ٣١٤-٣٣٨

الفصل الحادي والعشرون : العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع ، احياء
الجامعة ، نادي قوطيوس ، دير الاستوديون ، يوحنا
الدمشقي ، ثيوفانس المعترف ، نيقفوروس المعترف ،
جورجس الراهب ، كاتبة الشاعرة ، الفكر اليوناني
والاوساط العربية الاسلامية ، الجدل بين النصارى
والمسلمين ، الفن ٣٣٩-٣٤٩



*Copyright by Dar Al-Makéhouf,
Beyrouth, 1955*

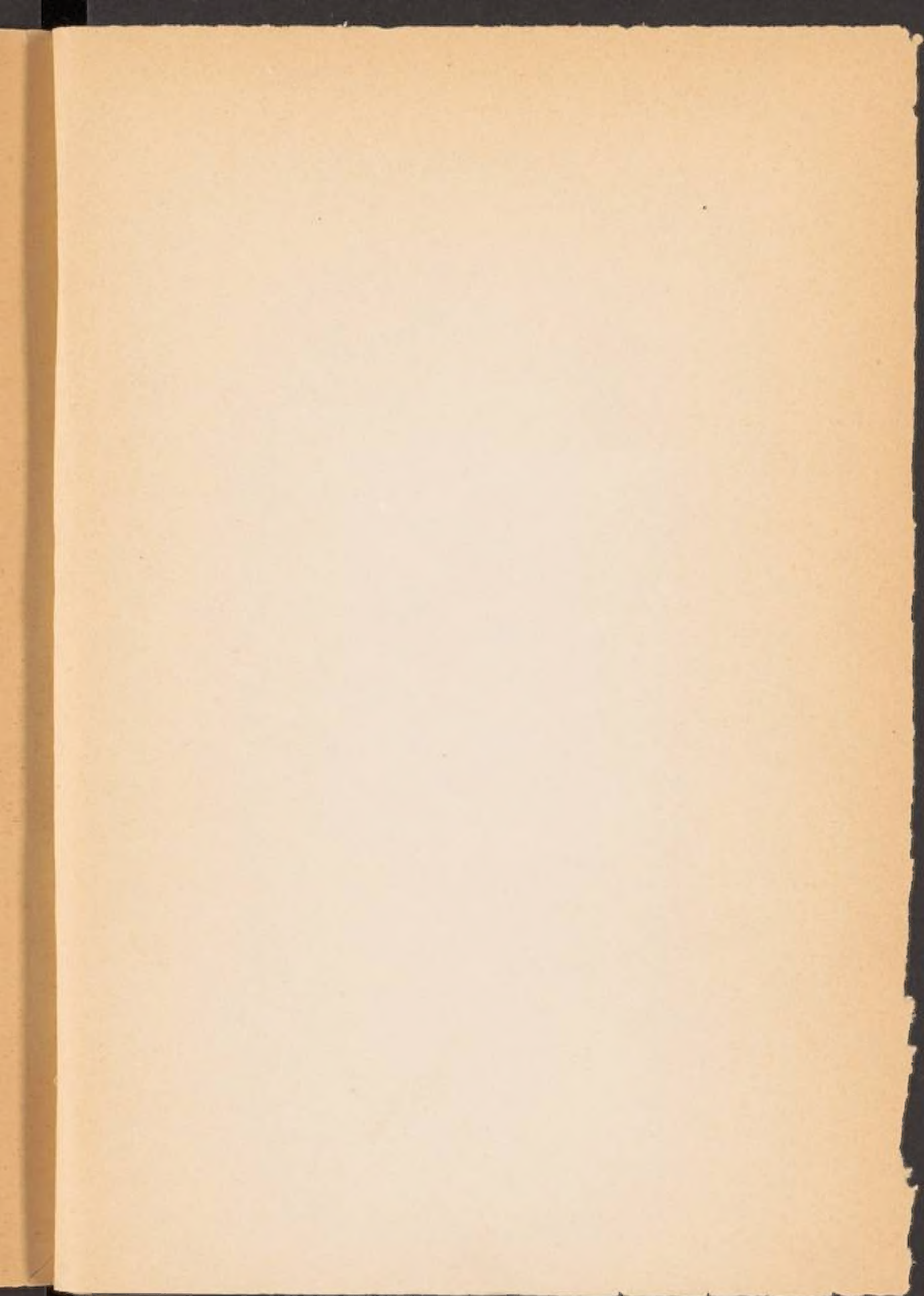
HISTORY
of
THE BYZANTINE EMPIRE

WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES

By

Asad J. Rusfūm, M. A., Ph. D.

Dar Al-Makchouf
Bejrout





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 02839 8694

DF552 .R6

v.1 al-Rum fi al-yasathim wa-hadar

HISTORY
of
THE BYZANTINE EMPIRE

WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES

By

Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.

— I —

Dar Al-Makchouf
Bejrout